من هدي النبوة

تأملات في عدد من جوامع الكلم

"أوتيت جوامع الكلم"

حديث شريف

تأليف

الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من هدي النبوة

تأملات في عدد من جوامع الكلم

"أوتيتُ جوامع الكلم"
حديث شريف

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ٣٧٧١/١١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، بلّغ الرسالة بأوضح بيان، وأدّى الأمانة، ونصح للأمة، فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد فنحمد الله سبحانه أن صان دين الإسلام مما أصاب الأديان السابقة من التحريف والتبديل والتغيير، فقد تولّى سبحانه حفظ الكتاب الكريم بنفسه ولم يكل حفظه إلى أحد من خلقه فقال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وهيّأ لصيانة السنة أئمة حفظة أفذاذاً من العلماء الأبرار، أفنوا أعمارهم في خدمة السنة، فشمّروا عن ساعد الجِدّ، وصرفوا في سبيل ذلك كل أوقاتهم وجهدهم.

لقد تتبعوا أحوال الرواة التي تساعد على عملية النقد المنهجي وتمييز الخبيث من الطيب من الحديث، ودوّنوا في ذلك المدوّنات، وذكروا فيها ترجمة وافية لكل راوٍ من الرواة، فذكروا متى ولد، وفي أي بلد؟ ومتى شرع في طلب العلم وسماع الحديث؟ وكيف سمع؟ ومع من سمع؟ وإلى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أين رحل؟ ومتى كانت تلك الرحلات؟ وذكروا شيوخه الذين يحدّث عنهم وبلدانهم وولادتهم ووفياتهم، وذكروا تلامذته. وفصّلوا القول في أحوال الراوي تفصيلاً يدلّ على التتبع الدقيق لكل حوادث حياته، وذكروا وضعه الأسري والاقتصادي، وذكروا درجة تدينه وأمانته، وذكروا أخلاقه وعقله ومروءته وحفظه.

ووضعوا قواعد محكمة لنقد المتن ومقاييس دقيقة للجرح والتعديل توصل إلى التثبت مما يروَى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبذلك استطاعوا أن يتبينوا الحديث الصحيح من الضعيف. وكانت هذه القواعد أرقى ما يمكن أن يصل إليه عقل بشري في تحقيق نسبة الأقوال إلى أصحابها. حتى إن الحديث الذي تحكم له هذه القواعد بالصحة يطمئنُّ الإنسان لصحته وثبوته اطمئناناً كاملاً.

والعلم الذي ضمَّ هذه القواعد علم إسلامي بحت، لم تأخذه أمتنا عن أمة من الأمم، بل هو مما أبدعته ـ بفضل الله ـ أمة الإسلام.

وبحفظ القرآن وصيانة السنة وتنقيتها حفظت نصوص الشريعة، ووصلت إلينا كما أُنزلت لم تشبها شائبة ولم يصبها تحريف ولله الحمد والمنة.

وهذا من فضل الله على هذه الأمة وعلى الناس جميعاً.

لقد حفظها الله لأنها الرسالة الخاتمة؛ فلا نبي بعد محمد ﷺ فهو خاتم النبيين، وقد شرّف الله أمتنا بأن تكون حاملة لهذه الرسالة وقد كانت ولله الحمد قائمة بحق تلك الرسالة فلم تقصّر في حفظها ولا في تبليغها.

وهكذا حفظت هذه الشريعة بمصدريها، وهي الحقّ كله، وهي الخير كله، فيها الهدى والفلاح، والسعادة والقوة، والنجاة. من عمل بمقتضاها سعد في الدنيا ونجا في الآخرة؛ لأن منزلها هو الله الرؤوف الرحمٰن الرحيم، الذي يعلم ما يُصلح الإنسان:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].
﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أجل. إن هذه الدعوة هي دعوة الحياة بكل معانيها.

هذا ونصوص هذه الشريعة من كتاب وسنّة نصوصٌ جميلة رائعة؛ فالقرآن معجز، والحديث النبوي بلغ في البيان مستوى رفيعاً جعله في قمة البيان البشري. وقد قال الله لنبيّه ﷺ ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

وقد اتصفت معاني الكلام النبوي بصفات قلَّ أن تجتمع في كلام سواه، ومن هذه الصفات: الغنى في الأفكار والعمق والجِدّة والإحكام والانسجام والتسلسل والغوص في أغوار النفس الإنسانية وملامسة حنايا هذه النفس، وهذا مكّن لهذه المعاني أن تكون خالدة على وجه الدهر. إن هذه المعاني الحديثية إنسانية لم تخضع في جوهرها وأسسها لظرف الزمان ولا لظرف المكان، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم، ولا إلى الناس في زمن النبوة، ولا إلى طبقة دون طبقة. ولا إلى لون دون لون، ولا إلى الرجل دون المرأة، ولا إلى المرأة دون الرجل؛ بل كان الرسول العظيم ينظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان.

لقد زخرت هذه المعاني بالمثل الإنسانية العليا من وحدانية لله خالصة، وعدالة مطلقة، ومساواة تامة، وخلق رفيع، ووقوف إلى جانب الخير أبداً، وسعي جادٍّ لاستئصال الشرّ، وحرب للفقر والبؤس والجهل والظلم..

واتصف أسلوب الحديث بالجمال في السبك، والجزالة في الديباجة، والوضوح في الدلالة، والدقة في الوصف والتعبير، والإبداع في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التشبيه والتصوير، وذلك يدلّ على موهبة فذة دانت لها الصور الجميلة ودنت منها، فاقتطفت ما رقّ منها وراق. واتصف أسلوبه ﷺ بالموسيقى الرائعة في الألفاظ والجمل، والإجادة في الحوار، والأصالة في العبارة والطبع، والإيجاز في القول. نجد ذلك كله مبللاً بندى العاطفة المرهفة، مكتسباً رونق البهاء من شخصية قائله ﷺ.

ولم تكن فصاحته ﷺ مقصورة على جودة الأسلوب وعمق المعنى، بل جاوزت ذلك إلى الأداء الموفق، فكان أداؤه يأخذ بالألباب كما نقل ذلك الصحب الكرام، فقد وصفوا لنا ذاك الأداء وذكروا أنه لا يتكلم في غير حاجة، وإذا تكلم لم يسرد الحديث كسرد الناس[1] بل فصّل وتمهل، وأبان ورتّل، ولو أراد العاد أن يحصي كلماته لأحصاها[2].

وكان ﷺ يعطي الكلام ما يستحق من اللهجة حتى إنَّ ما يختلج في صدره كان يبدو على وجهه. وصفه جابر فقال: كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم[3].

وكان لحركته وإشارته موضع كبير في إجادة الأداء، فحركته معبّرة تستلفت النظر، وتنبه الغافل، وتعين على الحفظ والتذكر.

وبعد، فهذه مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة، شرحتها ودرستها مسترشداً بآيات الكتاب المبين، وبما جاء في الهدي النبوي، وهي تعالج قضايا مهمة في الدين والحياة والمجتمع، وتصف العلاج لكثير من المشكلات التي يعاني منها الإنسان في كلّ زمان ومكان، أقدمها لإخواني وأخواتي وأبنائي وبناتي من القراء، راجياً أن يجدوا فيها ما ينفعهم ويمتعهم، أقدمها لهم في هذا الكتاب:

---

(١) كما جاء في حديث عائشة المتفق عليه (أخرجه البخاري ١٥٢/٤ ومسلم ١٦٧/٧ والترمذي ٣٠٤/٤).

(٢) انظر صحيح البخاري ١٥٢/٤.

(٣) رواه مسلم ١١/٣ والنسائي ١٥٤/٣ وابن ماجه ١٧/١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من هدي النبوة
تأملات في عدد من جوامع الكلم

ولا يفوتني أن أُذكِّرَ هؤلاء القراء الكرام في هذه المقدمة بواجبهم نحو دينهم وأبناء أمتهم، إذ يمر المسلمون اليوم في ظرف عصيب، ويشهدون من الكوارث والمآسي ما يفوق الخيال ولا سيما في البوسنة والهرسك وكشمير وفلسطين وبورما وليبريا والفلبين، وما يعانيه كثير من المسلمين ودعاتهم في بلاد المسلمين من قِبل الطواغيت الظلمة من الضغط والإيذاء، والمحاربة والإغواء، والفتنة والقهر.

إنَّ هذا الواقع المؤلم نحن مسؤولون عنه.. إنه ما كان ليكون لو أننا استقمنا على الطريقة المثلى التي ارتضاها الله لنا. ولكننا أعرضنا عن ذكر الله، وتنكبنا جادة الحق وسرنا وراء أعدائنا نتبعهم ونقلدهم حذو القذة بالقذة، فكان ما نرى وما نسمع.. وإنا لله وإنا إليه راجعون ولله در القائل:

محمد هل لهذا جئت تسعى ... وهل لك ينتمي همل مشاع
أإسلام وتغلبهم يهود ... أآساد وتقهرهم ضباع
شرعت لهم سبيل المجد لكن ... أضاعوا شرعك السامي فضاعوا

فلنرجع إلى الله، ولنتب إليه، ولنعزم على سلوك السبيل الذي يرضيه، والجِدّ في العمل لإعلاء كلمته والتمكين لدينه. ولنتوجه إلى الله بالدعاء أن يردّ المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً، وأن يخزي أعداءهم، ويرد كيد المعتدين إلى نحورهم، وينقذ المسلمين من مخططات هؤلاء الأعداء الذين اجتمعوا على حربنا وإبادتنا. وما يزال كثير من أبنائنا في غفلة عما يراد بنا.

ولا بُدَّ من أن يعرف المسلمون واقعهم، ويعوا عصرهم، ويعرفوا الأسباب التي أدّت إلى هذا الواقع.

وللوصول إلى هذه الغاية يجب أن يقوم الدعاة والمفكرون والشعراء والكتاب بالتوعية والتوجيه والتذكير.

الوضع خطير جدّ خطير، والأمل مع ذلك كبير كبير لا سيما ونحن



شبكة الألوكة - قسم الكتب

نرى في ديار المسلمين كلها رجعة إلى الله، وصحوة من نوم عميق. وهذا هو الذي أطار صواب الأعداء فقاموا يريدون خنق الوعي في مهده، وقمع عودة الناس إلى الإسلام بكل الوسائل التي تتاح لهم من فكر وإعلام ومناهج تعليم ومطاردة وتصفية جسدية وإبادة.

و الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لقد وعد الله المؤمنين ـ ووعده لا يتخلّف ـ بأن يستخلفهم في الأرض، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويحقق لهم الأمن إن آمنوا وعملوا الصالحات وعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً.

قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ووعد عباده المؤمنين بالنصر إن هم نصروه. قال تعالى:

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقد تحقق هذا الوعد مرة بعد مرة على مدار التاريخ، ولا يزال وعد الله قائماً لا يتخلف عن أهله.

وبعد فإني أسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يستعلمنا في طاعته، وأن يعفو عن خطئي وزلّاتي وأن يجعلني ممن يفوز بشرف خدمة سنة المصطفى ﷺ وممن ينشرها بين الناس.

ثم إني أرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب ويقف على خطأ فيه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن يوافيني بالنصح والتسديد فالعصمة لرسل الله وقد أبى الله أن يصحّ إلا كتابه.

وأرجو أن يخصني من ينتفع من القراء بشيء من هذا الكتاب بدعوة صالحة أجدها يوم الدين يومَ لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

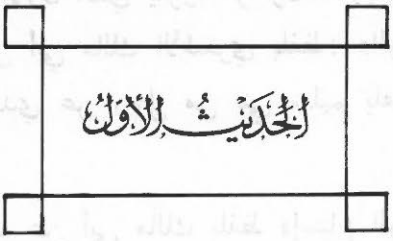
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم والحمد لله ربّ العالمين.

١١ شوال سنة ١٤١٣ هـ

محمد بن لطفي الصباغ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة



عن أبي مالك الحارث الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض. والصلاة نور. والصدقة برهان. والصبر ضياء. والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

رواه مسلم ١/١٤٠ وط عبد الباقي رقم ٢٢٣ وأحمد ٥/٣٤٢، ٣٤٣ - ٣٤٤ والترمذي (ط دعاس رقم ٣٥١٢) والتحفة ٤/٢٦٤.

وابن ماجه برقم ٢٨٠ والدارمي ١/١٦٧ وفي رياض الصالحين في باب الصبر.

● هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، وقد تناول موضوعات عدة تشكل الجزء الهام من حياة المسلم بإيجاز رائع، تناول النظافة، والدعاء، والصلاة، والصدقة، والصبر، والقرآن والعلم، وحياة الإنسان ووقته.

وسنخصُّ كل جملة بدراسة مستقلة. ونبدأ بقوله عليه الصلاة والسلام «الطهور شطر الإيمان».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»:

● هذا المعنى الأول الذي يقرره الرسول الكريم في هذا الحديث. وقد أورده الترمذي عن أبي مالك الأشعري بلفظ: «الوضوء شطر الإيمان» وأورده عن جُرَيّ النهدي عن رجل من بني سليم بلفظ: «الطهور نصف الإيمان» [٤/٢٦٥].

وأورده ابن ماجه عن أبي مالك بلفظ «إسباغ الوضوء شطر الإيمان» بينما الروايات الأخرى جاءت موافقة رواية مسلم التي أوردناها آنفاً.

● والطهور: بضم الطاء وفتحها، ويؤيد كثير من العلماء رواية الفتح وعندئذ فإنها تكون:

١ ــ مصدراً بمعنى التطهر وفعل الطهارة.

٢ ــ وتأتي كلمة الطهور اسماً لما يُتطهَّرُ به كالفَطور لما يؤكل، والسَّحور لما يتسحر به والوَضوء لما يتوضأ به.

٣ ــ وتقع أحياناً صفة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وجاءت في الحديث مصدراً.

وهي بالضمِّ فعل التطهر لا غير، وهذا الذي قرره جمهور أهل اللغة. وقد رجح النووي في شرح مسلم[1] الضم. ومعنى الكلمتين ههنا واحد. واشتقاق الطهور من الطهارة وهي لغة النظافة حسية كانت أو معنوية.

● وشطر الشيء: نصفه وجزؤه. هذا في اللغة، أما في الحديث فتفسيره بالنصف أولى لحديث جري النهدي الذي أخرجه الترمذي وقد ذكرناه وفيه «الطهور نصف الإيمان» وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

● والإيمان معروف، وللعلماء في تفسير كلمة الإيمان في هذا الحديث رأيان: فمنهم من قال إن المراد بالإيمان هنا حقيقته، ويكون

(١) شرح مسلم ٣/٩٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعنى: أن أجر النظافة كبير جداً يصل إلى نصف أجر الإيمان وذلك يدل على عظم شأن النظافة. ومنهم من قال: إن المراد بالإيمان هنا الصلاة كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] ويكون المعنى عندئذ: الطهور نصف الصلاة ويبقى المعنى الذي يدل عليه الحديث من تعظيم شأن النظافة وارداً لأن قيمة الصلاة في الإسلام كبيرة جداً. والرأي الأول هو الذي نرجحه ونختاره.

● إن في هذا الحديث بياناً لقيمة النظافة في الإسلام حتى إنه ليقرنها بأكبر ركن فيه.. بالإيمان وأسهمت أحكام الإسلام الأخرى في تعويد أبنائه على النظافة، فلقد اشترط الطهارة في صحة الصلاة التي افترضها عليهم خمس مرات في اليوم والليلة: طهارة البدن والثوب والمكان الذي يُصلَّى فيه.

إنّ المسلم الملتزم بالإسلام نظيف مهما كان عمله، ومهما كان مستواه الاجتماعي والماديّ. ومعلومٌ أن الإسلام أوجب على الرجل والمرأة الاغتسال من الجنابة، وأوجب على المرأة الاغتسال من الحيض والنفاس. وهذه أغسال واجبة بإجماع المسلمين.. ولو تأمل المرء فيها لوجد أن المسلم ملزم بالاغتسال حيناً بعد حين. وهناك أغسال مسنونة من أهمها غسل الجمعة الذي يذهب بعض أهل العلم إلى وجوبه على كل مكلف أخذاً بظاهر حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»[1].

بل إن الإسلام أراد من المسلمين أن يحرصوا على نظافة طرقاتهم ومجالسهم فيها. روى مسلم وأبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين ـ أو اللعّانين ـ» قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟

---

(١) البخاري (الفتح: ٢/٣٤٤ برقم ٨٥٨ ـ ٢/٢٥٧ برقم ٨٧٩) ومسلم ٢/برقم ٨٤٦ وأبو داود برقم ٣٤١ والنسائي ٣/٩٢ و٩٣ وابن ماجه برقم ١٠٨٩ والدارمي ١/٣٦١ ومسند أحمد ٣/٦ والموطأ ١/١٠٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال: «الذي يتخلى في طرق الناس أو في ظلهم»[1]. وفسَّر المنذري اللاعنين بالأمرين الجالبين للعن، ذلك أن من فعلهما لُعِنَ وشتم، فلما كانا سبباً لذلك أضيف الفعل إليهما فكانا كأنَّهما اللاعنان[2].

وروى الطبراني في الكبير عن **حذيفة بن أَسيد** أنّ النبي ﷺ قال: «من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم» قال المنذري: بإسناد حسن[2].

وكذلك فإنَّ المرافق العامة التي ينتفع منها الناس يمنع الشرع من تنجيسها، فقد ورد النهي عن البول في الماء الراكد والجاري. روى مسلم وابن ماجه والنسائي عن جابر عن النبي ﷺ أنه نهى أن يبال في الماء الراكد[3]. وروى الطبراني في الأوسط بإسناد جيد عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يبال في الماء الجاري[4].

وأوجب الإسلام على المكلف أن يحرص على الاستتار من رشاش البول الذي قد يصيبه.

روى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير. بلى إنه كبير. أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»[5].

قال المنذري؛ وبَوَّب البخاري عليه باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله.

---

(١) مسلم ١/١٥٦ وأبو داود ١/٢٥.
(٢) الترغيب والترهيب ١/٦٧.
(٣) مسلم ١/١٦٢ والنسائي ١/٣٤ وابن ماجه برقم ٣٤٣.
(٤) الترغيب والترهيب ١/٦٨.
(٥) البخاري (الفتح ١/٣١٧ و٣٢٢ و٣/٢٢٢ و٢٤٢ و١٠/٤٦٩ و٤٧٢) ومسلم ١/١٦٦ وأبو داود برقم ٢٠ والنسائي ١/٢٨ وابن ماجه برقم ٣٤٧ وصحيح الترمذي للألباني برقم ٦٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال الخطابي: قوله وما يعذبان في كبير. معناه أنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر عليهما أو يشق فعله لو أرادا أن يفعلاه وهو التنزه من البول وترك النميمة. ولم يُرد أن المعصية في هاتين الخصلتين ليست بكبيرة في حق الدين وأن الذنب فيهما هين سهل. وعقب الحافظ المنذري على ذلك بقوله: ولخوف توهم مثل هذا استدرك فقال ﷺ: «بلى إنه كبير». ومعلوم أن الاستنجاء بعد قضاء الحاجة من الأمور المطلوبة[1].

إن هذه الخطة الحكيمة في التشريع ترمي إلى إيجاد مجتمع نظيف؛ لأن القذارة تجلب على الناس ألواناً من البلاء في صحتهم وفي أذواقهم وفي نفوسهم. وواقع المسلمين اليوم بحاجة شديدة إلى توعية بشأن النظافة.. إن على العلماء والكتاب ورجال الإعلام أن يُعرّفوا المسلمين بأحكام النظافة وأن يدعوهم إلى التزام تلك الأحكام حتى يكون مجتمعهم متميزاً بالنظافة الداخلية والخارجية، الحسية والمعنوية.

وقوله ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض»:

هذه رواية مسلم ومثلها رواية الترمذي.

أما ابن ماجه فقد وردت عنده هذه القطعة من الحديث كما يأتي: «والحمد لله ملء الميزان، والتسبيح والتكبير ملء السموات والأرض».

وأما الدارمي فقد رواها هكذا: «والحمد لله تملأ الميزان، ولا إله إلا الله والله أكبر تملأ ما بين السموات والأرض».

وأما أحمد فقد جاءت هذه الجملة عنده هكذا: «وسبحان الله والحمد لله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض».

ففي روايتي أحمد وابن ماجه زيادة التكبير، وفي رواية الدارمي زيادة التهليل.

إذن نحن أمام أذكار أربعة هي: سبحان الله، والحمد الله، ولا إله

---

(١) الترغيب والترهيب ١/٦٩ - ٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إلا الله، والله أكبر. وبجمع الروايات يتكامل النص المنقول.

إنَّ الذكر لونٌ من ألوان العبادة التي أمر الله بها عباده في محكم كتابه، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥ والجمعة: ١٠] وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١] ولقد جعل تبارك وتعالى ذكر الله مطمئناً للقلوب فقال عزّ من قائل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وحض عباده المؤمنين على الدعاء ووعدهم بالإجابة فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

بل إنَّ الدعاء هو العبادة كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

● **ومن حكم الذكر والدعاء الكثيرة: إحكام الصلة بين العبد وربه:**

إن الذكر صلة تربط العبد بخالقه، وتذكره بعبوديته له، وتذكره بألوهية الرب وربوبيته، وتذكره بعظمته وقدرته، كما تذكره بضعف نفسه وافتقاره إلى الرحمٰن الرحيم رب العالمين. ومن ذكر بارئه استحضر ما أمره به وامتثل وعمل ونفذ رغبةً في أن ينال ما أعدَّ له من الثواب العظيم، وخوفاً من أن يصيبه العذاب الأليم.

ومن هنا كان الأبرار الصالحون دائمي الذكر لا يكفون ـ في يقظتهم ـ لحظة عن ترديد ما ورد عن النبي ﷺ من الذكر والدعاء، ألسنتهم رطبة بذكر الله، وقلوبهم مطمئنة بهذا الذكر، معلقة بحب الله، وجوارحهم قائمة بامتثال أمره، وحياتهم خاضعة لسلطانه وشرعه.

وقد جعل الله تبارك وتعالى ذكر الله في كل حال صفة أولي الألباب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤].

● **ومن هذه الحكم: ربط المسلم بعقيدته وتذكيره بها ووقايته من الغفلة:**

فالأذكار توقظ في نفس المسلم معنى الانتماء والالتزام، وتصونه من الوقوع في الغفلة التي تكون من الانشغال في الملذات والأعمال المادية.

من أجل ذلك دعا الإسلام أتباعه إلى ترديد أذكار معينة وأدعية محددة في أوقات مختلفة: من الصباح الباكر إلى نهاية يوم الإنسان واستغراقه في النوم. فإذا ما صحا ذكر الله فقال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[1] يذكر بهذا الدعاء فضل الله عليه أن أحياه بعد أن أماته.. فيحمده ويثني عليه ويذكر نفسه بالنهاية المحتومة التي لا مفرَّ منها وهي أنه سيعود إلى ربه حياً حياة أخرى بعد الموت، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

وإذا دخل الخلاء قال ذكراً معيناً، وإذا ذهب إلى المسجد قال ذكراً معيناً، وإذا صلى سن له الإسلام أذكاراً يكررها ويرددها مرات محددة.. وإذا خرج من المسجد.. وإذا دخل البيت.. وإذا أراد الطعام.. وإذا ركب الدابة.. وهكذا.. حتى يعود إلى بيته ويأوي إلى فراشه.. وقد شرع له أذكاراً يقولها في الأحوال الخاصة جداً التي قد يُستحيى من ذكرها.

---

(١) رواه البخاري عن أبي ذر (الفتح ١١/ ١٣٠ برقم ٦٣٢٥).



شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنَّ هذا ربط للمسلم بدينه وتذكير له بمبادئه ومثله.

● **ومن هذه الحكم: توفير الغذاء الضروري للروح:**

فالذكر يجعل النفس مستريحة مشرقة، والقلب صافياً مطمئناً، وهذا أمر طبيعي لأن الذكر يصله بالله ويجعله معه في خطاب لذيذ مُبْهج مُسْعد وإن كان الذكر بحضور قلب، وتدبر فكر؛ أورث صاحبه إخباتاً وخشوعاً، وتذللاً لله وخضوعاً، واعتزازاً بالإسلام وصدوراً عنه في الحياة.

● **ومن هذه الحكم: إراحة المظلوم، والتفريج عن المكروب، ومواساة البائس:**

ذلك لأن المرء المظلوم يشعر براحة عندما يشكو أمره إلى الله، ويدعو على أولئك الذين ظلموه وعلى الآخرين الذين التجأ إليهم فلم ينصفوه ولم ينصروه وهم قادرون. لأنه يعلم أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وكذلك المرء الذي يتطلع إلى بحبوحة لا يجدها.. إنه عندما يدعو ربه أن يعوضه خيراً وهو واثق بالإجابة يكون في سعادة، لأن الأمور ـ عند المسلم ـ لا تنتهي في الحياة الدنيا فإذا وثق بوعد الله ودعاه أورثه هذا الذكر سعادة ربما لا يبلغها الموسرون.

هذه بعض حكم الذكر وشيء من آثاره على المسلم في الدنيا، وأما في الآخرة فإن رسول الله ﷺ يبين في هذا الحديث أن هذه الأذكار الأربعة «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» تملأ الميزان. وهو القدوة والأسوة، ولقد حدثتنا عائشة رضي الله عنها (أنه ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه) رواه مسلم[1] ولم تستثن حيناً من أحيانه فيذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومحدثاً وجنباً.

ـ والميزان هو ما توزن به أعمال الخلق يوم القيامة، وهو من الغيب الذي نؤمن به لإخبار الله ورسوله عنه. يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ

---

(١) صحيح مسلم ١ برقم ٣٧٣

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [سورة القارعة] قال النووي: [والحمد لله تملأ الميزان معناه عِظَمُ أَجْرِها وأنه يملأ الميزان، وقد تظاهرت نصوص القرآن والسنة على وزن الأعمال، وثقل الموازين وخفتها][1].

فالحديث يعرض لنا ثواب هذه الكلمة يوم القيامة، إذ تملأ هذه الكلمة الميزان، فتثقل كفة الحسنات حتى يكون صاحبها في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية. نسأل الله أن يثقل موازيننا بالحسنات وأن يوفقنا لطاعته ويجنبنا معاصيه.

ـ وفي قوله: «وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض» نظرة بيانية لطفية. ذلك أننا نرى السماء كثيراً ما تجمع، والأرض تأتي مفردة. ومن أجمل ما قيل في تعليل ذلك ما نقله السيوطي في «المزهر» و«الاتقان»[2] فقد قال: [ولاستثقال جمع الأرض لم تجمع في القرآن وجمعت السماء. وحيث أريد جمعها قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] ولاستثقال اللب لم يقع في القرآن، ووقع فيه جمعه وهو الألباب لخفته][3].

وقد قيل في جواب ذلك أيضاً: لعل ذلك لأن طباق الأرض متلاصقة لا خلاء بينها بخلاف طباق السموات. قال البيضاوي في «تفسيره»: إنما

---

(١) شرح مسلم ٣/١٠١.

(٢) أورد السيوطي شيئاً قريباً من هذا في الإتقان ١/١٩٢ في النوع الثاني والأربعين في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها.

(٣) المزهر ١/١٩٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جمع السموات وأفرد الأرض؛ لأنها (أي السموات) طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين.

ومعنى (الحمد لله) كما قال ابن كثير: [الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً][1].

ويفرق الراغب الأصبهاني في «المفردات» بين الحمد والشكر، فقد قرر أن الحمد لله تعالى يعني الثناء عليه بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر. فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره وفيما يكون في الإنسان بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه. والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً[2].

ومعنى (سبحان الله) تنزيهاً لله عن الصاحبة والولد وكل نقص. وهو منصوب على المصدر كأنه قال: أبرىء الله من السوء ومن كل نقص براءة.

وكلمة (سبحان) معرفة لأنها علم على جنس التسبيح، وعلم الجنس ما تناول الجنس كله غير مختص بواحد بعينه كأسامة للأسد،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٧ ينقله عن ابن جرير.
(٢) المفردات مادة حمد وانظر لمحات في علوم القرآن ط ٢ ص ٢٢٨.

وعلم الجنس إما أن يكون علماً على الذات كثعالة للثعلب. وإما أن يكون علماً على المعنى كسبحان علماً على التسبيح.

و(سبحان الله) ههنا في الحديث كلمة أريد بها لفظها فهي في محل رفع مبتدأ. وقوله ﷺ: «تملأ ما بين السموات والأرض» في محل رفع خبر.

والحديث في مسلم أورده رواية على الشك (تملآن أو تملأ) تملآن أي سبحان الله والحمد لله، وتملأ أي هذه الجملة من الكلام.

ومعنى قوله (سبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض) قال النووي: [وأما معناه فيحتمل لو قدر ثوابهما جسماً لملأ ما بين السموات والأرض. وسبب عظم فضلهما ما اشتملتا عليه من التنزيه لله تعالى بقوله سبحان الله، والتفويض والافتقار إلى الله تعالى بقوله الحمد لله][1].

وإن هذا ليتيح لنا أن نتصور عظمة هذا الثواب، ذلك أنَّ الذي استطاع العلم أن يعرفه من هذا الكون القريب من الأرض شيءٌ يسير جداً.. وهناك جوانب أخرى في هذا الكون ما تزال مجهولة بالنسبة إلينا، إنّ في السماء الدنيا نجوماً تبعد عنا ملايين السنين الضوئية، فما القول في السموات التي فوق هذه السماء.

إن الطاعة سهلة ميسورة على المؤمن... ويحفزه عليها ما أعده له الله من عظيم الثواب... ما أعظم كرم الله تبارك وتعالى... إنه يعطي على الشيء القليل الثواب الكثير. ألا فلنكثر من ذكر الله، ولتكن ألسنتنا رطبة بذكره، ولنتضرع إلى الله بالدعاء.

إن هذا الحديث لترغيب عظيم ما بعده من ترغيب؛ لأن حاجة المرء في ذاك اليوم الرهيب إلى ما يثقل ميزانه حاجة شديدة، لأن بذلك نجاته من

---

(١) شرح مسلم ١٠١/٣.

النار الحامية. ولا شك في أن الكمال في الذكر أن يكون الذاكر محققاً معنى الذكر. فإذا قال بلسانه (الحمد لله) كان عليه أن يستقر في أعماق قلبه أن كل أنواع الحمد هي لله. لأنَّ (ألـ) هذه تدل على الاستغراق.

ومن الحمد ألا يستعمل العبد نعمة آتاه الله إياها في معصية، وألا يقعد عن تسخير هذه النعم في مرضاة الله.

وإذا قال بلسانه (سبحان الله) كان عليه أن ينزه الله عن كل نقص وأن يظهر أثر هذا التنزيه على سلوكه.

ولا بأس أن نتبع كلامنا هذا بما جاء في فضل الذكر والدعاء.

إنَّنا لو تأملنا قوله سبحانه ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة: ١٥٢] لوقفنا على عظيم فضل الذكر، فقد قال ثابت البناني: إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجلّ. ففزع سامعوه من مقالته وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني[1].

والعبد المسلم إذا غلب عليه التمسك بذكر الله.. يذكره بلسانه، ويتدبر بقلبه معنى ما يقول، ويذكره عند الواجبات فلا يقصر في القيام بها، ويذكره عند المحرمات فلا يقترفها، إذا غلب على العبد التمسك بهذا الذكر كفاه الله الصوارف والشواغل من الهوى والشهوة والشيطان، وكان معه وتولى أمره.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: الذكر ذكران:

- ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله. ما أحسنه وأعظم أجره.
- وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرّم الله عز وجل[1].

والذكر تجارة رابحة، من أضاعها أضاع كسباً عظيماً كان يمكن أن يحصل عليه من عمل ميسور لا يكلفه مال ولا جهد ولا مشقة.

---

(١) الإحياء ١/٣٠٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومما يعين على الذكر أن يجتمع الصالحون يتعاونون على الخير والبر والتقوى، فإنَّ هذه المجالس تنشط المرء وترغبه في الاستمرار على الخير، وقد ورد أنّ الملائكة تحف بهم، والرحمة تغشاهم.

وقد روى البخاري[1] ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [وهذه رواية البخاري]: «إنّ لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله، تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟

قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك.

قال فيقول: هل رأوني؟

قال فيقولون: لا، والله ما رأوك.

قال فيقول: وكيف لو رأوني؟

قال يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً.

قال يقول: فما يسألوني؟

قال يقولون: يسألونك الجنة.

قال يقول: وهل رأوها؟

قال يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟

قال يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

---

(١) صحيح البخاري ٨/٧٣ [الدعوات باب فضل ذكر الله] وصحيح مسلم ٨/٦٨ [الذكر والدعاء باب فضل مجالس الذكر].



شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال: فممَّ يتعوذون؟

قال: يقولون: من النار.

قال يقول: وهل رأوها؟

قال يقولون: لا والله ما رأوها.

قال يقول: فكيف لو رأوها؟

قال يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة.

قال فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم.

قال يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة.

قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

● إنّ الثواب العظيم الذي أعده الله للذاكرين والذاكرات إنما يكون إذا كان هذا الذكر مصحوباً بحضورقلب، أما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى.

● وعلى المرء الراغب في ذلك الثواب الجزيل أن يروض نفسه لتبلغ الأهلية لذلك الحال.. إن الترويض يبدأ بالتعود على الذكر ثم التدبر والتمثل به في حياته، فلا يكون عنده شيءٌ أكبر من الله، ولا يكون تنزيه الله سبحانه مقصوراً على اللسان، بل يكون في أعماق قلبه وفكره.

● وقد ذكر العلماء آداباً للذكر والدعاء نورد أهمها فيما يأتي:

● فمن أهم هذه الآداب أن يلتزم العبد بما ورد عن النبي ﷺ في الذكر وأن يؤثر ما نقل عنه ﷺ في الدعاء، لأن الوارد المأثور وحيٌ من الله، وهو جامع محكم بليغ رائع.

● وعليه أن يختار لدعائه الأوقات المباركة التي أثبت الشرع لها شرفاً كبيراً، كيوم عرفة ويوم الجمعة وليالي رمضان ووقت السحر وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات وخلف الصلوات وفي السجود وفي حالة الصيام. دلت

على ذلك آثار وأحاديث معروفة، وعليه أن يمزج دعاءه بالذكر والثناء على الله.

● ولو ذكر الله ودعاه مستقبل القبلة كان حسناً، وإن كان ذكر الله مطلوباً على أي حال سواء كان قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً.

● وعليه أن يدعو واثقاً بالإجابة وألا يستبطىء الإجابة وألا يتكلف السجع والتفاصح، لأن حال الداعي ينبغي أن يكون حال التذلل والتضرع إلى الله، والتكلف لا يناسبه، ومن هنا قال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق. وعليه أن يكون في تضرع وخشوع ورغبة ورهبة.

● وعليه أن يجزم بالطلب، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة» متفق عليه(١).

وعن أنس ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له» متفق عليه(٢).

وعليه أن يلح في الدعاء.

● وعليه أن يجتنب في دعائه ما نهى الشرع عنه من الدعاء بالإثم أو قطيعة الرحم، أو أن يستعمل أسلوباً في الدعاء لم يرد عن رسول الله وأصحابه كالتوسل بالموتى والصالحين.

● ومن أهم آداب الداعي والذاكر أن ينظف قلبه وينتزع ما فيه من حقد وحسد، وأن يتوب إلى الله ويرد المظالم إلى أهلها ويقبل على الله عز وجل مخلصاً. قال مالك بن دينار: أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مراراً يستسقون فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبرهم: إنكم تخرجون

---

(١) الفتح ١١/١١٨ مسلم ٢٦٧٩ أبو داود ١٤٨٣ والترمذي ٣٤٩٢.
(٢) الفتح ١١/١١٨ مسلم ٢٦٧٨.

بأبدان نجسة، وترفعون إلي أكفاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بطونكم من الحرام، الآن اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بُعداً[1].

ويدل على ذلك الحديث المشهور: «ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يستجاب له»[2] رواه مسلم وأحمد والترمذي والدارمي.

● والذكر نوعان:

ذكر مطلق يصلح في كل وقت.

وذكر مقيد بوقت معين كأذكار الصباح والمساء وسماع الرعد، أو مقيد بعمل كالوضوء ودخول المسجد.

● والذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً.

● وعلى المسلم إذا اعتاد ذكراً مأثوراً أن يلزمه، لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، فإن فاته شيء مما أخذ نفسه به قضاه في وقت لاحق، لحديث مسلم «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»[3].

● وقد ألفت مؤلفات كثيرة في الأذكار في القديم والحديث، ونوصي بالحرص على ما صحّ منها.

* * *

قوله ﷺ: «والصلاة نور»:

الصلاة كلمة استعملتها العرب قبل الإسلام بمعنى الدعاء، وهذا

---

(١) الإحياء ١/٣١٦.

(٢) رواه مسلم برقم ١٠١٥ وأحمد ٢/٣٢٨ والترمذي (تحفة الأحوذي ٤/٨٧) والدارمي ٢/٣٠٠.

(٣) صحيح مسلم ١ برقم ٧٤٧ وانظره في ابن ماجه برقم ١٣٤٣ وسنن أبي داود ١٣١٣ والترمذي (تحفة الأحوذي ١/٤٠٣) والدارمي ١/٣٤٦ والنسائي ٣/٢٥٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

معناها في اللغة. فقد وردت في أشعار الجاهليين بمعنى الدعاء. قال الأعشى يصف الخمر:

وصهباء طاف يهوديها ... وأبرزها وعليها ختم
وقابلها الريح في دَنِّها ... وصلَّى على دَنِّها وارتسم

[ديوان الأعشى ٢٩]

ومعنى ذلك دعا لها ألا تفسد وتحمض. وقال الأعشى أيضاً:

تقول بنتي وقد قربت مُرْتَحَلاً ... يا ربِّ جَنِّبْ أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً، فإنّ لجنب المرء مضطجعا

[ديوان الأعشى ٧٣]

واختلف العلماء في أصل اشتقاقها على أقوال: **أصحها** أنها مشتقة من الصلاة بمعنى اللزوم يقولون: (يصلى النار) أي يلزمها. وهذا الذي ارتضاه الأزهري؛ لأن الصلاة لزوم ما فرض الله تعالى.

والثاني: أنها من الصَّلا، وهما صَلَوَان، وهما العرقان اللذان يكتنفان الذنب من الناقة وأول موصل الفخذين من الإنسان، فكأنهما في الحقيقة مكتنفا العصعص كما يقول الأستاذ محمد الخضري[1].

وجاء في القاموس المحيط: [الصَّلا وسط الظهر منا ومن كل ذي أربع، أو ما انحدر من الوركين، أو الفرجة بين الجاعرة والذنب، أو ما عن يمين الذنب وشماله، وهما صَلَوان وجمعه صلوات وأصلاء].

وهذا القول بعيد لأنَّ هذا اللون من الاشتقاق يَفهم الكلمة من خلال تصور الصلاة الإسلامية التي فيها الركوع والسجود والقيام والجلوس. والكلمة بمعنى العبادة والدعاء قديم مستعمل في لغة الجاهلية قبل الإسلام كما رأينا آنفاً.

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص ٤١ ط ٧.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهناك **قول ثالث** أكثر بعداً ذكره الشيخ محمد الخضري وهو قول مردود. إذ يزعم هذا القول أنها معربة عن (صلوتا) التي هي بالعبرية موضع الصلاة.

ولا يمكن أن يكون هذا صحيحاً لأن العبرية منحدرة عن السامية فلا يمكن أن تكون هذه الكلمة العربية مأخوذة منها.

وقال ابن فارس: [الصاد واللام والحرف المعتل أصلان: أحدهما النار وما أشبهها من الحمى والآخر جنس من العبادة][1].

وعندما جاء الإسلام أعطاها معنى إسلامياً خاصاً، أضحت تدل عليه عندما تذكر، وهذا المعنى هو تعريف الصلاة. وهو الصلاة أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم[2].

وسميت بذلك لاشتمالها على الدعاء وهو معنى الصلاة لغة.

والصلوات المفروضة فرضاً عينياً خمس في كل يوم وليلة. والصلاة معلومة من الدين بالضرورة فيكفر جاحدها بإجماع المسلمين. وقد فرضت ليلة الإسراء بعد البعثة بعشر سنين.

وهي واجبة على كل مسلم مكلف أي بالغ عاقل ذكر أو أنثى.

وقد ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن تاركها كسلاً كافر. أما عقوبته فهي القتل بعد الاستتابة[3]. قال بذلك الجمهور. والقائلون بكفره لا يصلون عليه ولا يدفنونه في مقابر المسلمين، أما القائلون بعصيانه فيقتلونه حداً ويصلون عليه ويدفنونه في مقابرهم.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/٣٠٠.

(٢) إعانة الطالبين ١/٢١.

(٣) اختلف العلماء في استتابته فمنهم من قال: إنها واجبة. ومنهم من قال إنها مندوبة. جاء في الإعانة:
[واختلف فيها فقيل: إنها مندوبة. وقيل: إنها واجبة. والمعتمد الأول] الاعانة ١/٢٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وليس من المأمورات التي اهتم القرآن بها شيء كالصلاة؛ فقد بيّن افتراضها على أساليب شتى، فتارة بالأمر الصريح، وتارة بالثناء على فاعليها والذم لتاركيها، حتى صار يفهم من تتبع هذه المواضع أن الصلاة عماد الدين، وأنه لاحظ لمن تركها أو سها عنها من الدين، والآيات معروفة فلا حاجة لإيرادها وهي كثيرة جداً.

أما الأحاديث فكثيرة جداً نذكر منها بعضها:

● عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت» متفق عليه[1].

● وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[2] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. ورواه ابن ماجه من حديث عثمان.

والدرن الوسخ.

إنها صورة رائعة تلك التي تجسد المعاصي والذنوب فتبدو أوساخاً مستقذرة.. تدعو إلى التقزز والاشمئزاز. وهذه الصورة صادقة في الحقيقة أعظم الصدق فالمعاصي درن وجراثيم ودناءة وقرف.. وواقع الأيام يصدق هذا في كل جانب، ومرض الإيدز أكبر شاهد.

وتجسد هذه الصورة الخير العظيم الذي تمثله الصلاة فيبدو نهراً غمراً

---

(١) البخاري (الفتح ١/٤٩) ومسلم ١/برقم برقم ١٦ وأحمد ٢/٢٦.
(٢) البخاري (الفتح ٢/١١) ومسلم ١ برقم ٦٦٧ والنسائي ١/٢٣٠ - ٢٣١ وصحيح الترمذي للألباني ٢٣٠١ وابن ماجه ١٣٩٧.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ضخماً[1] جارياً قريباً من باب بيت الإنسان... فإذا نزل المرء في النهر مرات ومرات في اليوم الواحد زال ما كان على بدنه من الأوساخ والقاذورات. والنهر الجاري شيء له قيمة كبيرة بالنسبة إلى البيئة في الجزيرة ولا سيما في الحجاز والبادية التي تنعدم فيها المياه المتدفقة الجارية.

قال ابن العربي: [وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثوبه ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنباً إلا أسقطته وكفرته] فما أعظم شأن الصلاة.

ومن الأحاديث الواردة في شأن الصلاة حديث ابن مسعود الذي تبدو فيه المعاصي **ناراً تحرق صاحبها والصلاة تطفىء وتغسل**.

عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها. ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا» رواه الطبراني في الصغير[2] والأوسط وإسناده حسن ورواه في الكبير موقوفاً عليه.

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملكاً ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فأطفئوها» رواه الطبراني في الأوسط والصغير وهو حديث حسن[3].

---

(١) ولفظة (غمر) وردت في روايات أخرى للحديث روى مسلم ٦٦٨ عن جابر: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل...»

(٢) المعجم الصغير ١/٤٧ والروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني ١/٩١ برقم ١٢١ وانظر مجمع الزوائد ١/٢٩٩ و«المعجم الكبير» ٩/١٦١ برقم ٨٧٣٩.

(٣) الروض الداني ٢/٢٦٢ برقم ١١٣٥.

وعن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يبعث منادٍ عند حضرة كل صلاة فيقول: يا بني آدم! قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفسكم. فيقومون، فتسقط خطاياهم من أعينهم، ويصلون، فيغفر لهم ما بينهما.

ثم يوقدون فيما بين ذلك، فإذا كان عند الصلاة الأولى نادى: يا بني آدم! قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم، فيقومون فيتطهرون ويصلون الظهر فيغفر لهم ما بينهما، فإذا حضرت العصر فمثل ذلك. فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك. فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك. فينامون وقد غفر لهم، فمدلج في خير ومدلج في شر» رواه الطبراني في الكبير. وهو حديث حسن(١).

إن المعاصي الكثيرة التي تعجُّ في حياة الناس تحرقهم وتهلكهم.. وربما لا يحسون بذلك وهم في دوامة اللذة والمصلحة سائرون ساهون لاهون.

والله رحيم بعباده، جعل هذه الصلوات مذكرات بالله ودينه مكفرات للخطايا، فينادي ملك من الملائكة عند كل صلاة: يا بني آدم هذه الصلاة قد أقبلت وهي فرصتكم العظمى فقوموا إلى نيرانكم فأطفئوها بالرجوع إلى الله والوقوف بين يديه.. فإنها تكاد تحرقكم فإن صلوا أفلحوا ونجحوا.. وإن أعرضوا أحرقتهم هذه المعاصي وأهلكتهم.

وقد ـ والله ـ تعاظمت نيران المعاصي في دنيا الناس اليوم، وحاصرت كثيراً منهم وأحاطت بهم فأوبقتهم... وفوّتوا على أنفسهم فرصة إطفاء تلك النار واتقائها.

إن الصلاة عندما تقام على حقيقتها بتدبر وخشوع وحضور قلب تمنع من الاستمرار في الانحراف وتقي من الغفلة. إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.. إنها تذكر العبد بعبوديته لربه وبالواجبات التي أوجبها الله عليه،

(١) صحيح الترغيب والترهيب ٣٥٦.

وبالمحرمات التي حرمها، وترهبه وترغبه، وتنذره وتبشره، فتكون له عظة بالغة وذكرى مؤثرة.

ومن هنا كانت هذه الصلوات الخمس في أوقات متباعدة تغطي يقظة الإنسان وتستمر حتى نومه. وهناك في هذه الدنيا الشهوات والأهواء، والمصالح والمنافع، والنفس والشيطان وهي صوارف عن الحق، ومغريات بصنوف من الباطل، وليس أحد بمنأى عن تأثيرها، لكن المؤمن بوقوفه بين يدي ربه وذكره له وبتلاوته لكتابه يكتسب مناعة تجعله في منجاة من سلطانها وضغطها.. إنه يؤثر ما عند الله، يرجو ثوابه، ويخشى عقابه، ويتمرد على سلطان الهوى والشهوة، ويتغلب على وساوس الشيطان، وينقاد لما أمر به الرحمٰن، ولذلك عبرت الأحاديث السابقة عن إزالة آثار المعاصي بالإطفاء الذي تحققه الصلاة وما يزال المسلم مستمسكاً بالصلاة حتى ينتهي يومه فيبيت مغفوراً له مدلجاً في الخير.

* * *

● ومن هذه الأحاديث التي تبيّن فضل الصلاة حديث سلمان رضي الله عنه الذي **يذكر أن الصلاة تجعل الذنوب متساقطة كما تتحات الأوراق اليابسة إذا هُزَّ غصن شجرتها.**

عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان رضي الله عنه تحت شجرة، فأخذ غصناً منها يابساً فهزَّه، حتى تحاتَّ ورقه. ثم قال: يا أبا عثمان ألا تسألني: لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت الشجرة، فأخذ غصناً يابساً فهزَّه حتى تحاتَّ ورقه فقال: «يا سلمان! ألا تسألني: لم أفعل هذا؟» قلت: ولم تفعله؟ قال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحاتَّ هذا الورق وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١١٤] رواه أحمد والدارمي والنسائي والطبراني[1]. وهو حديث حسن.

إن هذا الحديث المبشر الجميل ليدل على حرص الرسول الأعظم ﷺ على توضيح الحقائق بأسلوب مؤثر، وإبراز المعاني المجردة بثوب حسي ملموس. فهو يقوم على ضرب المثل وتجسيد الأمر المعنوي بصورة حسية منتزعة من بيئة القوم.

هذه شجرة فيها غصن يابس ما تزال أوراق عليه عالقة، عمد رسول الله ﷺ إلى هذا الغصن فأخذه وهزه فإذا أوراقه اليابسة تتحات وتتساقط، وكان ذلك أمام سلمان. ولم يتكلَّمْ في بادىء الأمر بشيء ويبدو أنه توقع أن يكون من سلمان سؤال له عن ذلك، لكن سلمان لم يسأل فقال ﷺ لسلمان لتتم عملية الإثارة والتنبيه قال: «ألا تسألني لم أفعل هذا؟» وهذا يدل على رغبة منه ﷺ في إثارة الحوار ليأتي الكلام جواباً عن سؤال.. فسأله: ولم تفعله؟ فذكر له ﷺ أن هذا الذي رأيته من تحات ورق الغصن وتساقطه يماثل ما يكون للمسلم عندما يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي الصلوات الخمس على وجهها المشروع... إذا فعل ذلك تحاتت خطاياه كما تحاتت أوراق الغصن.

ثم استشهد ﷺ بالآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

ورد في الحديث كلمتا (النور) و(الضياء) في قوله صلوات الله عليه: «الصلاة نور والصبر ضياء» فما الفرق بين معناهما؟ وما استعمالاتهما في المجاز والحقيقة؟.

معناهما متقارب، والضياء فيما يبدو أقوى من النور، ولذا جعله

---

(١) مسند أحمد ٥/٤٣٧ والدارمي ١/١٨٣ وقد عزاه أيضاً المنذري إلى النسائي والطبراني وقال ناصر الألباني: إنه حسن انظر «صحيح الترغيب والترهيب» برقم ٣٥٩.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

سبحانه للشمس فقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

ولكن استعمال كلمة النور في الأمور المعنوية كثير في القرآن يبلغ خمساً وثلاثين مرةً، ووردت في القرآن بالمعنى الحسي المادي قليلاً إذ وردت حوالي ثماني مرات.

أما الضياء فاستعمالها في الأمور المادية أكثر، فقد وردت هذه الكلمة في القرآن في ثلاثة مواطن، كان اثنان منهما في الأمور المادية.

جاء في المفردات للراغب الأصفهاني: [النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان دنيوي وأخروي. فالدنيوي ضربان: ضربٌ معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن.

ومحسوس بعين البصر وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم والنيرات **فمن النور الإلهي** قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

ومن النور المحسوس الذي بعين البصر نحو قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥] فتخصيص الشمس بالضوء، والقمر بالنور من حيث إن الضوء أخص من النور] انتهى كلامه.

وقال الراغب في مادة ضوأ:

[الضوء ما انتشر من الأجسام النيرة. ويقال: ضاءت النار وأضاءت. وأضاءت غيرها وسمّى كتبه المهتدى بها ضياء في نحو قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

ونأتي بعد هذه الجولة اللغوية السريعة إلى معنى قوله ﷺ: «الصلاة نور».

ذكر شرَّاح الحديث في تفسير كلمة النور في هذا الحديث رأيين:

الأول: أن النور ـ ههنا ـ معنوي، ويكون المعنى: إن الصلاة نور يمنع من المعاصي، وينهى عن الفحشاء والمنكر، كما يمنع النورُ المستضيء به من التعثر ويصونه عن الأذى.

والصلاة نور ينشرح به الصدر، ويطمئن به القلب، وذلك لأنها اشتملت على ما لم يجتمع في غيرها من العبادات من أعمال القلوب والألسن والجوارح.

والصلاة نور يضيء للمرء معالم طريق الحق، فيحمله على الخير، ويقيه من الشر ويقوده إلى الفضيلة والمعروف، وينهاه عن الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وهي نور عندما تؤدى على وجهها تزيد المؤمن إيماناً وتذكره في أوقات متقاربة بدينه والعمل به.

الثاني: أن النور في الحديث مادي، ويكون المعنى أنها تكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضاً على وجهه البهاء بخلاف من لا يصلي.

والرأي الأول هو الأقرب للصواب.

إنّ حياتنا مترعة بالشواغل التي تستغرق أوقات الفرد، وتحمله على أن يعيش ضمن إطار من قضايا تافهة، وتغمسه في بحور من المشكلات والمسؤوليات الدنيوية، والشهوات والأهواء، والعواطف والأحقاد، ومشاعر الحب والكراهية، حتى يكون هذا الفرد في حال يحجب عنه الطريق الواضح الذي يجب أن يسلكه.. ويتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض.

وليس له من نور يبدد هذه الظلمات المتكاثفة كالصلة بالله سبحانه.. والصلاة تمثل قمة الاتصال بالله.. فهي إذن نور يبدد تلك الظلمات، ويحل هاتيك المشكلات، ويزيح كل العقبات التي تشد الإنسان إلى واقعه الأسفل، ويكشف حقيقة تلك القضايا التافهة، ويبرزها على وجهها. وترتفع به الصلاة إلى مستوى عال من تقدير الأمور قدرها، فيسعى لتحقيق مصلحته العظمى في النجاة يوم القيامة. إنها ترفع درجته وتكفر خطيئته.

قال ﷺ: «ما من مسلم يتطهر فيتم الطهور الذي كتب الله عليه فيصلي هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفارة لما بينها»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله». رواه مسلم[2].

إنَّ أمة الإسلام منذ أن هداها الله بمحمد ﷺ كانت مستمسكة بالصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ولم يكن يوجد في ظهراني المسلمين من يجرؤ على تركها.. حتى غشي الكفار بلادهم واحتلوا أرضهم فكان أول ما فعلوا أن انتزعوا الحكم من أيديهم، وقضوا لأول مرة في التاريخ على دولة الخلافة مهما كان وضعها من الالتزام بالإسلام.. وهم جادون في أن يقضوا على هذا الركن الركين من أركان الإسلام. عن أبي أمامة قال

---

(١) صحيح مسلم ١/برقم ٢٣١.
(٢) صحيح مسلم ١/برقم ٢٢٨.

قال رسول الله ﷺ: «لتنقضنَّ عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبّث الناس بالتي تليها. فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة» رواه أحمد وابن حبان والحاكم وهو حديث صحيح(١).

* * *

يقول ﷺ: «الصدقة برهان»:

ولنشرح مدلول الكلمتين في اللغة. قال الراغب في «المفردات»:

[الصدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، كالزكاة. لكن الصدقة - في الأصل - تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب، وقد يُسمَّى الواجب صدقة، إذا تحرّى صاحبها الصدق في فعله. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]... ويقال لما تجافى عنه الإنسان من حقه: تصدّق به نحو قوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] أي من تجافى عنه.. وعلى هذا قوله سبحانه: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢] فسمّى إعفاءه صدقة].

وقال: [البرهان: بيان للحجة، وهو فُعْلان مثل الرجحان.. وقال بعضهم: هو مصدر بَرَهَ يَبْرَهُ إذا ابيض. ورجل أبره وامرأة برهاء وقوم بُرْهٌ... فالبرهان أوكد الأدلة وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة].

وللعلماء في تأويل قوله ﷺ: «الصدقة برهان» رأيان:

---

(١) مسند أحمد ٥/٢٥١ والاحسان في تقريب ابن حبان ١٥/برقم ٦٧١٥ والمستدرك للحاكم ٤/٩٢ ومجمع الزوائد ٧/٢٨١ و «صحيح الترغيب والترهيب» ١/٢٢٩ برقم ٥٧١ قلت: والحديث من أعلام نبوته ﷺ والواقع القائم يشهد بذلك وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما أولهما فهو أنَّ الصدقة دليل على إيمان مؤديها، وعلى حبه لله ورسوله حيث آثر رضاهما على المال الذي فطر على حبه.

وثانيهما أن الصدقة برهان له يوم القيامة إذا سئل عن ماله: فيم أنفقه؟ ويشير هذا الكلام إلى الحديث الصحيح: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه» رواه الترمذي[1] وقال: حديث حسن صحيح.

والرأي الأول هو الذي نختار.

إن المقياس الصحيح - في أكثر الحالات - لإيمان المرء بذله وإنفاقه وتضحيته.. إذ من السهل على الإنسان أن يبدي اقتناعه بشؤون فكرية صحيحة، وأن يدعي أنه من حملتها المؤمنين بها، ولا سيما إذا كانت له مصلحة في إبداء هذا الاقتناع، والبرهان الصادق على صحة هذه الدعوى بذله وإنفاقه وتضحيته في سبيل عقيدته وفيما تقتضيه هذه العقيدة.

ومن مقاصد الشريعة بناءُ مجتمعٍ إسلامي قائم على التعاون بين أفراده، وإنشاؤه على أساس التحاب والتراحم، والتضامن والتكافل، ورعاية الأقوياء للضعفاء، ومساعدة الأغنياء للفقراء، والرفق باليتامى والمحتاجين، وإعانة الأرامل والمساكين. والصدقة تحقق هذه المعاني جميعاً، فهي تسعى إلى توفير الحياة السعيدة للمسلمين، وتعمل الصدقة على القضاء على كل مظهر من مظاهر البؤس والحرمان والحقد الطبقي البغيض، وقد يبلغ المجتمع الإسلامي بها وبالزكاة منزلة الرفاهية المباحة المشروعة.

فإخراجها وامتثال أمر الشريعة في أدائها برهان على صدق إيمان صاحبها.

---

(١) الترمذي عن أبي برزة (انظر صحيح الترمذي للألباني ٢/برقم ١٩٧٠) وقال المنذري ٤/١٣٥: [ورواه البزار والطبراني عن معاذ بن جبل بإسناد صحيح..].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولأمر ما نجد الانفاق مرتبطاً بالإيمان في عدد من آيات القرآن الكريم وسأورد بعضها فيما يأتي:

جاء في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢ - ٣].

وفي أول سورة الأنفال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص: ٥٣ - ٥٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٦].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تدل على فضل الصدقة فمن ذلك ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما



شبكة الألوكة - قسم الكتب

يربى أحدكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل»[1] وفي رواية لابن خزيمة: «إن العبد إذا تصدق من طيب تقبلها الله منه، وأخذها بيمينه، فربَّاها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، وأن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله حتى تكون مثل الجبل، فتصدقوا» وفي رواية للترمذي «حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد» وروى الطبراني في الكبير عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل أحد».

إن هذه الروايات الصحيحة المتعددة لهذا الحديث الجميل لتقرر أنَّ الصدقة القليلة تكون عند الله شيئاً كثيراً.. وفي هذا الحديث من إكرام المتصدق والعناية به ما يأخذ بالألباب، فالله العلي الكبير المتعال العزيز ملك الملوك يقبل الصدقة القليلة التي تعدل تمرة أو لقمة أو كسرة يقبلها بيمينه.. أي شعور بالشرف والفخار يملأ نفس المسلم عندما يسمع هذا الحديث أو يقرؤه إذا كان قد تصدق، وهذه التمرة أو الكسرة أو اللقمة ما يزال الله تعالى ينميها حتى تكون مثل الجبل.. وقد ذكر المهر لما كان العرب يبذلون في عنايته وخدمته الشيء الكثير. وفي الترغيب في الصدقة ولو كانت قليلة تدريب للمسلم على الإنفاق مهما كان وضعه المادي.. إن عليه أن ينفق في العسر واليسر ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

وقد يكون هذا القليل مسعفاً لمحتاج يأتي فيسد حاجته، وقد يتجمع القليل من عدد من المنفقين فيكون كثيراً. قال أبو هلال العسكري: ليس للمعطي أن يمنع القليل استحياءً من قلته، لأن المنع أقل منه ولا للمُعْطى

---

(١) رواه البخاري (الفتح ٣ برقم ١٤١٠) ومسلم ٢/برقم ١٠١٤ والنسائي ٥/٥٦ وصحيح الترمذي للألباني ١/رقم ٦٣٢ وابن ماجه ١/١٨٤٢ والدارمي ١/٣٩٥ وأحمد ٢/٣٣١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن يستخطه، فرب قليلٍ سدَّ خلة كبيرة، وجَبرَ فاقة عظيمة[1]، وقال أبو العلاء:

إذا الضيف جاءك فابسم له ... وقرّب إليه وشيك القرى
ولا تحقر المزدرى في العيون ... فكم نفع الهيّنُ المزدرى[2]

إنّ الصدقة برهانٌ على إيمان صاحبها، ولما كان للصدقة شأن كبير في الإسلام، وكان أجرها عظيماً، فقد رغَّب رسول الله ﷺ - وهو المربي الأعظم - أتباعه بها حتى ولو كانوا فقراء. وفي هذا تربية مثلى، وتوجيه سديد، لأن المرء عندما يتعود على الإنفاق في حالة العسر يسهل عليه الإنفاق إذا أيسر. أما الذي لم يتعود فإن من أكبر الصعوبات أن يخرج درهماً عن طواعية في أي حال من الأحوال.

إنَّ الصدقة القليلة تدفع عن صاحبها العذاب الكبير، وتقيه من النار يوم القيامة.. ويا لها من مكافأة عظمى. فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم. فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة» رواه البخاري ومسلم[3].

وفي رواية لمسلم: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل»[4].

إنه موقف رهيب، يكاد ينخلع قلب المرء إذا تصوره.. يقف العبد في ذاك اليوم الذي تدك الأرض دكاً ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ

---

(١) انظر أقوال مأثورة ص ١٠٧.
(٢) أقوال مأثورة ص ١١١.
(٣) وهذا لفظ مسلم (٢/برقم ١٠١٦) وجاء نحوه عن عدي في البخاري (الفتح ٣/برقم ١٠١٣).
(٤) انظر هذه الرواية في مسلم (٢/١٠١٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٦]. في ذاك اليوم يقف العبد بين يدي الله العلي الكبير سريع الحساب شديد العقاب، فيكلمه ربه ويسائله، ليس بينه وبينه وسيط ولا ترجمان فينظر العبد ناحية اليمين فلا يجد إلا عمله محضراً، وينظر ناحية الشمال فلا يرى إلا عمله ماثلاً له، ثم ينظر أمامه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه.

ويبدو أن عمله الذي أحاط به من يمينه وشماله قد ينتهي به إلى النار التي تواجهه وتنتظره.. نسأل الله أن يعيذنا من النار، وأن يجيرنا من الوقوع في سخطه، وعندما يصل الكلام إلى هذا الموقف المخيف يوصينا رسول الله ﷺ بأن نحرص في حياتنا الدنيا على أن ندخر لذلك اليوم ما يقينا ذاك المصير البائس المفجع.. ولا تكون الوقاية إلا بالصدقة. فليتصدق كل امرىء بما يستطيع، فمن لم يجد فليتصدق بشق تمرة. ومن مِنَ الناس لا يقوى على إعطاء نصف تمرة.. ألا فليعلم أن هذه الصدقة تقيه من النار ولو كانت قليلة.

ويتكرر هذا المعنى في حديث المصطفى ﷺ إشفاقاً على أمته من أن يدخلوا النار، وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين. فقد روى أحمد بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليتق أحدُكم وجهه النار ولو بشق تمرة»(١).

وروى أحمد بإسناد حسن عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسدُّ من الجائع مسدَّها من الشبعان»(٢).

---

(١) مسند أحمد ١/٤٤٦.

(٢) مسند أحمد ٦/٧٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ في تكرار هذه الفكرة بهذه الأساليب المؤثرة البليغة ترغيباً في الصدقة لنتقي النار، ومعلوم أن في الكتاب الكريم والسنة المطهرة وصفاً مخيفاً للنار، فأجسامنا لا تقوى عليها. وبإمكاننا ما دمنا في هذه الدار أن نضمن الوقاية منها والاستتار، وما الوقاية ولا الستر إلا الصدقة ولو كانت شق تمرة.

والصدقة كما تقي من النار فهي توفر لصاحبها الظل الظليل في ذلك اليوم العصيب الذي تدنو فيه الشمس من الرؤوس، ويُلجمُ الناسَ العرقُ؛ فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وابن خزيمة والحاكم وابن حبان عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس».

قال يزيد أحد رواة الحديث: فكان مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكةً أو بصلة[1].

وفي رواية لابن خزيمة أيضاً عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن أبي عبدالله اليزني: أنه كان أول أهل مصر يروح إلى المسجد، وما رأيته داخلاً المسجد قط إلا في كمه صدقة: إمّا فلوس، وإما خبز، وإما قمح. قال: حتى ربما رأيت البصل يحمله. قال فأقول: يا أبا الخير إن هذا ينتن ثيابك. فيقول: يا ابن أبي حبيب أما إني لم أجد في البيت شيئاً أتصدق به غيره[2].

إنَّ هذه الرواية تبيّن كيف أن الصالحين يمتثلون أمر الرسول ﷺ عندما يبلغهم، ويحرصون على الاستمرار فيه. فمرثد هذا كان من المبكرين في الرواح إلى المسجد، ولكنه لم يكن يدخل المسجد إلا وهو مستعدٌّ للصدقة، وهذا يعني أنه كان يتصدق في اليوم عدة مرات، ويتصدق

(١) مسند أحمد ٤/١٤٧ - ١٤٨.

(٢) ابن خزيمة ٤ رقم ٢٤٣١ و٢٤٣٢ وموارد الظمآن رقم ٨١٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بما يجد في البيت من فلوس وخبز وقمح، فإن لم يجد إلا بصلاً تصدق به.

وفي الأحاديث التي أوردناها ذكر رسول الله مثلاً للقلة: التمرة وشقها والكسرة واللقمة. وذكر ﷺ الظلف المحرق. عن أم بجيد رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله! إن المسكين ليقوم على بابي فما أجد له شيئاً أعطيه إياه. فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجدي إلا ظلفاً محرقاً فادفعيه إليه في يده»[1] رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن خزيمة بإسناد صحيح.

والظلف للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس.

لربما يقع هذا الظلف من هذا المسكين الذي يسأل عن حاجة موقعاً ينقذ حياة ويسدُّ جوعة.

إنه أسلوب رائع في التربية عرض بطريقة بيانية جذابة مؤثرة، تعاونت فيها الصورة الجميلة والإثارة الوجدانية، وضرب الأمثال الواقعية والترغيب في الجنة وعظيم الثواب، والترهيب من النار وشديد العقاب. فصلّى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

إن تقدير الصدقة ـ في نظر الشرع ـ لا يعود إلى كميتها بمقدار ما يعود إلى نية صاحبها وإلى نسبتها من ماله.

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله! أيُّ صدقةٍ أفضلُ؟ قال ﷺ: «جهد المقل وابدأ بمن تعول»[2] رواه أبو داود وأحمد وابن خزيمة والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم

---

(١) أبو داود ٢/برقم ١٦٦٧ وصحيح الترمذي للألباني ١/برقم ٥٣٣ ومسند أحمد ٦/٣٨٢ ـ ٣٨٣ وابن خزيمة ٤ ص ١١١ برقم ٢٤٧٢ و٢٤٧٣.

(٢) ابن خزيمة ٤/٩٩ رقم ٢٤٤٤ وأبو داود ٢/١٦٧٧ والحاكم ١/٤١٤ وأحمد ٢/٣٥٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مائة ألف درهم» فقال رجلٌ: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رجل له مالٌ كثير أخذ من عُرضه مائة ألف درهم تصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به»[1] رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

● إن صاحب المال الكثير أخذ من جانب هذا المال مائة ألف،وهي لا تُعدُّ شيئاً بالنسبة إلى ماله فتصدق بها، أما صاحب الدرهمين فقد تصدَّق بنصف ماله. فهل يستويان؟.

أعرف رجلاً، وذلك من نحو أربعين سنة، لم يكن يملك إلا ما يعادل خمسين ريالاً، لقيه في الطريق رجلٌ يعرف صدقه وفقره، فذكر له أن زوجته وضعت اليوم وليس معه شيء ينفق على أهله وبيته، فما كان من هذا الرجل إلا أن أعطاه المبلغ الذي معه، وهو كل ما يملك ومضى لسبيله، إنّ هذا المبلغ اليسير[2] شيء كبير عند الله إن كانت نية صاحبه خالصة لله سبحانه.

● والصدقة حتى تكون مقبولة عند الله لا بُدَّ أن تكون طيبة من مال حلال،وأن تكون خالصة لله لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، .وإذا قبلها ضاعفها أضعافاً كثيرة. قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال ابن كثير:

[هذا مثل ضرب الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف] ثم قال:

---

(١) النسائي ٥/٥٩ وصحيح النسائي للألباني ٢/برقم ٢٣٦٧ وابن خزيمة ٤/٩٩ رقم ٢٤٤٣ والحاكم ١/٤١٦ وابن حبان ٨ رقم ٣٣٤٧.

(٢) وهذا المبلغ كان وقتذاك يحقق الكثير. فخمسون ليرة سورية من أربعين سنة قد تعدل الألف الآن في قوتها الشرائية والله أعلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

[وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإنَّ هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة].

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجلٌ بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله هذه في سبيل الله قال ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[1]. رواه مسلم والنسائي وأحمد.

● ومن شروط القبول ومضاعفة الثواب أن تبرأ الصدقة من المن والأذى والرياء، فهذه مبطلات لها.

قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٢٦٢ - ٢٦٥].

وقد مرّ بنا في الأحاديث أن التمرة وما يعدلها ينميها الله حتى تكون مثل الجبل، أو مثل جبل أُحد.

● ومن فضل الله أن الصدقة لا تنقص من المال.. بل إنها تجعله مباركاً فيه وتكون السبب في نمائه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ

---

(١) مسلم ٣/رقم ١٨٩٢ وأحمد ١٢١/٤ والنسائي ٤٩/٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنفق أُنفقْ عليك» رواه البخاري ومسلم(١).

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» رواه البخاري ومسلم(٢).

● وعن أسماء أن رسول الله ﷺ قال لها: «تصدقي ولا توعي فيوعي الله عليك» رواه البخاري ومسلم(٣) ولفظه: «ارضخي».

● وعن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عز وجل» رواه مسلم والترمذي(٤).

أجل إن الصدقة لا تنقص المال بل تنميه. وإن الصدقة هي التي تبقى لصاحب المال كما قرّر ذلك رسول الله ﷺ.

● عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» قالت: ما بقي منها إلا كتفها. فقال النبي ﷺ: «بقي كلها غير كتفها»(٥) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول

---

(١) البخاري تفسير سورة هود ٦/٦١ ومسلم ٣/٧٧.
(٢) البخاري الزكاة ٢/٩٨ ومسلم ٣/٨٣ - ٨٤.
(٣) البخاري (الفتح ٥ رقم ٢٥٩٠) ومسلم ٣/٩٣.
(٤) مسلم ٤ رقم ٢٥٨٨ وصحيح الترمذي للألباني ٢/رقم ١٦٥٢.
(٥) صحيح الترمذي للألباني ٢/رقم ٢٠٠٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

العبد مالي مالي. وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للناس»، رواه مسلم[1].

ورويت كلمة فاقتنى بروايات أخرى عند المحدثين: فمن ذلك فأقنى، ومن ذلك فأبقى. ولعل الأخيرة أرجح والله أعلم.

● عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:
«أيكم مال وارثه أحبّ إليه من ماله؟».

قالوا: يا رسول الله ما منا أحدٌ إلا ماله أحب إليه.

قال ﷺ: «فإن ماله ما قدّم، ومال وارثه ما أخّر» رواه البخاري والنسائي[2].

هذا الحوار الحيّ يقرر حقيقة يغفل عنها كثير من الناس. إنَّ المال الذي يكنزه الإنسان ويتركه بعد موته هو مال ورثته.. شقي بجمعه وتحصيله وسيحاسب على كل قرش من أين اكتسبه وهل أدَّى حق الله فيه.. ويستمتع ورثته به. وماله الحقيقي الذي يجده هو ما أنفقه في سبيل الله.

مساكين أولئك الذين يبخلون على أنفسهم في الصدقة وفي المأكل والمشرب والمسكن.. لأنهم محرومون وخاسرون خسراناً مبيناً، لأنهم لم يتنعموا في الدنيا ولا هم سيسعدون في الآخرة، ويحاسبون على هذه الأموال التي لا تتركهم بعد أن تركوها لورثتهم.

● إنّ الناس يتمنون يوم القيامة أن يجدوا ما يفدون به أنفسهم في ذاك اليوم العصيب كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤] وها هو ذا رسول الله ﷺ يذكر لأمته الفداء الميسر لها اليوم، وهو أن يتصدق المرء بما يستطيع يقول: «فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

---

(١) مسلم ٤ رقم ٢٩٥٩.
(٢) البخاري (الفتح ١١/٢٦٠ رقم ٦٤٤٢) والنسائي ٦/٢٣٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

● والناس خطاؤون، والصالحون يتطلعون إلى التخلص من خطاياهم، ومن قواعد دين الإسلام العظيم أنَّ الحسنات يذهبن السيئات كما ذكر ذلك ربنا تبارك وتعالى فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] وقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وها هو ذا رسول الله ﷺ يخبر أمته أن الصدقة تطفىء الخطيئة:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لكعب بن عجرة: «يا كعب بن عجرة! الصلاةُ قربان، والصيام جُنَّةٌ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار» رواه أحمد والحاكم وأبو يعلى بإسناد صحيح[1].

وفي هذا التعبير صورة رائعة تبدو فيها الخطيئة ناراً تحرق صاحبها، وهذا حق لا شك فيه، إذ أن المعاصي أسباب العقوبة وتجعل أصحابها يصلون النار التي توعد الله بها العصاة، وتأتي الصدقة فتطفىء تلك الخطيئة كما يُطفىء الماءُ النار.

وفي رواية ابن حبان[2] للحديث تشبيه آخر لإطفاء الخطيئة وهو قوله: «كما يذهب الجليد على الصفا».

فلو وضعت قطعة جليد على صفاة معرضة لحرّ الشمس ذابت وذهبت، وهكذا تذوب الخطيئة بالصدقة.

وقد تكرر هذا القول من النبي ﷺ. ومن ذلك حديث معاذ المشهور. وفيه أن رسول الله ﷺ قال له: «هل أدلك على أبواب الخير؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «الصومُ جُنَّة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء

---

(١) المسند ٣/٣٩٩ و ٣٢١ والحاكم ٤/٤٢٢.
(٢) موارد الظمآن رقم ٢٦١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

النار» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[1].

ما أكثر خطايانا، وما أشدَّ حاجتنا إلى ما يطفئها.. ألا فلنتصدق.. لنخفف من الأوزار التي نكسبها بسبب المخالفات. سدّد الله خطانا على طريق الحق ووفقنا إلى ما يرضيه.

● والصدقة التي تبلغ بصاحبها منزلة القبول وتنيله البر هي الصدقة بما يحب من المال والطعام والمتاع يقول الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

لمَّا نزلت هذه الآية قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء (وهي حديقة نخل كانت لأبي طلحة وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب) وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ ذاك مالٌ رابحٌ. بخٍ ذاك مالٌ رابحٌ» رواه البخاري ومسلم وروى نحوه الترمذي وأبو داود[2].

والدعوة إلى الانفاق مما يُحبُّ مكملةٌ للدعوة إلى الصدقة ولو بشق تمرة. إنَّ الميسور الغنيّ لا يليقُ به أن يتصدق بشق تمرة أو بكسرة خبز.. ولننظر في قوله تعالى في آيات الطلاق: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

وقد وضَّح الدعوة إلى الإنفاق من الطيب ومما يحب المنفق وضحها الحديث الآتي أتم توضيح: عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: خرج

---

(١) صحيح الترمذي للألباني ٢ رقم ٢١١٠ وابن ماجه ٣٩٧٣.

(٢) صحيح البخاري (الفتح ٣/٣٢٥ رقم ١٤٦٢) ومسلم رقم ٩٩٨ وانظر صحيح الترمذي للألباني رقم ٢٣٩٦ وأبو داود ٢/رقم ١٦٨٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رسول الله ﷺ وبيده عصاً، وقد علّق رجلٌ قنو حشف فجعل يطعن في ذلك القنو، فقال: «لو شاء ربُّ هذه الصدقة تصدق بأطيب من هذا، إنَّ ربَّ هذه الصدقة يأكل حشفاً يوم القيامة»(١) رواه النسائي واللفظ له وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان. ـ والحشف أردأ التمر، وفي المثل العربي: أحشفاً وسود كيلة ـ ويبدو أن صاحب هذه الصدقة كان قادراً على أن يتصدق بأطيب من ذلك، ومن هنا كان تعليق الرسول الكريم ﷺ على هذا التصرف.

إن تقصير الغني وتقديمه القليل بخل ممقوت وهو غير معذور فيه، واستشهاده بالأحاديث التي قيلت فيمن لا يجدون الكثير ولا يملكون إلا القليل تسويغ لبخله ووضع للأمور في غير مواضعها. فلينفق كل إنسان مما آتاه الله.. لينفق ذو سعة من سعته..

إنَّ الصدقة عندما تكون سراً يخفيها صاحبها ويؤتيها الفقراء هي أفضل. قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ولقد عدَّ رسول الله ﷺ الرجل الذي تصدق بصدقة فأخفاها من السبعة الذي يظلهم الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله. في ذلك اليوم الشديد على الخلق، الثقيل أثره على الناس، من شدّة الحرّ والانغماس في بحر العرق، يكون ذاك المتصدق سراً في ظل ظليل، وهناءة وسعادة. كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يذكر فيه رسول الله ﷺ سبعة من الناس يكونون في هذا النعيم والإكرام وهم:

«إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق

---

(١) النسائي ٥/٤٣ وأبو داود برقم ١٦٠٨ وابن ماجه برقم ١٨٢١ وموارد الظمآن رقم ٨٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بالمساجد، ورجلان تحابًا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» رواه البخاري ومسلم[1].

ولنتأمل هذا التعبير الجميل «فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه».

في هذه الجملة صورتان رائعتان يدعوهما البلاغيون بالاستعارة والكناية.

أما الاستعارة فقوله «لا تعلم شماله» فنحن هنا أمام يد ليست كالأيدي إنها تعلم ويحتال عليها ويكتم الأمر عنها حتى لا تدري ماذا حصل قريباً منها ويفوتها العلم.

لقد بثَّ الحياة في اليد فغدت كائناً مستقلاً له علم خاص وإدراك خاص، فالصورة هنا القائمة على التشخيص تظهر اليد كائناً حياً مستقلاً، وقد رمز إليه بشيء من لوازمه وهو العلم.

والكلام بمجمله كناية عن شدة إخفاء الصدقة، فإذا كانت إحدى اليدين لا تعلم ما صنعته اليد الأخرى ولا تدري به لشدة إخفاء الرجل صدقته وكتمانه أمرها، فما بالنا بالآخرين. وإخفاء الصدقة علامة من علامات الإخلاص والصدق وابتغاء ما عند الله، وفيها أيضاً توفير لكرامة الإنسان المحتاج الذي اضطر لأخذ الصدقة واحترام هذه الكرامة، وفيها حرص على ألا يشعر بأي حرج.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ فيما يرويه معاوية بن حيدة[2]، وأبو أمامة[3]،

---

(١) صحيح البخاري ١/١١١ ومسلم ٣/٩٣ والمسند ٢/٤٣٩ والموطأ ٢/٩٥٢.
(٢) رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن انظر «صحيح الترغيب» ٨٧٩.
(٣) رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن انظر «صحيح الترغيب» ٨٨٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأم سلمة[1] أن «صدقة السر تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى».

هناك ألوان في إخفاء الصدقة، يمكن أن نذكر صوراً منها، ويستطيع المرء أن يتوصل إلى صور أخرى غيرها:

● فمن ذلك أن يذهب إلى داره في غيبته ويعطي أهله في جنح الظلام دون أن يذكر اسمه أو أن يرسل أحد أولاده للقيام بالمهمة ذاتها[2].

● ومن ذلك البيع والشراء، ومما يروى عن بعض الصالحين[3] أنه كان يقول: الصدقة الخفية في البيع والشراء، فقد يشتري المرء المتاع لا يحتاج إليه بضعف ثمنه ليروج بضاعة الرجل المحتاج، وقد يبيع الإنسان الحاجة بربع ثمنها إذا كان المشتري فقيراً.

● ومن ذلك الهدايا، وافتعال المناسبات لها، لا سيما إذا كان المحتاج ذا مكانة ومن أهل اليسار سابقاً، لأنه من الصعب عليه أن يقبل الصدقة؛ ولذا يقدم إليه المبلغ المراد إعطاؤه إياه على أنه هدية.

● ومن ذلك إعطاؤه المال على هيئة قرض، يسدده عند الميسرة، وهو ينوي في قلبه أنه صدقة لا يطالبه به.

يتهدد الجفاف عدداً من أصقاع المسلمين، وتطلُّ المجاعة بشبحها المخيف على هاتيك البلاد وأهلها إخواننا من المسلمين.. فما أعظم أجر من يتقدم بما يستطيع من المال والمعونة والحض على إطعام الطعام والمساعدة إلى أهل تلك البلاد.. لا سيما إن كانت تربط المرء المسلم بهم رابطة من قرابة أو جوار أو صداقة أو معرفة.

وأَجْدِرْ بالموسرين من المسلمين أن يقوموا بذلك، وربنا تعالى يقول:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن وانظر «صحيح الترغيب» ٨٨٢.

(٢) كما كان يفعل والدي رحمه الله.

(٣) أظنه أبا حنيفة رحمه الله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

والمسغبة: المجاعة. ومقربة: أي قرابة في النسب. والمتربة: الفقر الشديد والمسكين ذو المتربة هو الفقير المدقع اللاصق بالتراب.

وتسودُ أزمة اقتصادية خانقة العالم، وتتردى الأوضاع الاقتصادية في عدد من بلاد المسلمين فتهبط العملة فيها، وترتفع الأسعار، ويبقى دخل الفرد محدوداً مقارباً لما كان في سابق الأيام، وإن زاد فإنه لا يزيد بالمستوى المكافىء لزيادة الأسعار، ويعانون في بعض الديار نقصاً في المواد أو فقداً لها.

فلنفكر في هؤلاء الإخوة. ولنقدم لهم المساعدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لتكن هذه المساعدة هدايا أو أموالاً. فإذا وفق المرء لذلك وكتم مساعدته وأخفاها كان عمله من صدقة السرّ التي لها شأن كبير عند الله، وثواب جزيل يجده في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الصدقة والأقارب:

إن الصدقة على المساكين من الأقارب صدقةٌ وصلة رحم، ولا بد من التنبيه هنا إلى أنَّ المراد بالصدقة النافلة، أما الزكاة الواجبة فلا تصح على من تلزمك نفقته.

ويعلو شأن الصدقة كُلَّما زادت القرابة، وتفاقمت حاجة القريب إلى المساعدة، كأن يكون يتيماً، أو مريضاً زَمِناً، أو شيخاً هرماً، أو صاحب عاهة مقعدة عن العمل، ويعظم ثوابها تبعاً لعظم شأنها. وكذلك يعظم شأن الصدقة على القريب المحتاج إذا كان هذا القريب يبطن العداوة ويقابل الإحسان بالإساءة.

وقد دلَّ على فضل الصدقة على القريب الكتاب والسنة:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

● يقول الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ قال سيد قطب:

[هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا (الإنسان) إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة. هذه العقبة التي بينها الله له في هذه الآيات... هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة لو تخطاها لوصل]. فاليتيم الذي فقد الوالد المعين جديرٌ بأن يجد من قريبه الموسر الرعاية والمساعدة فإذا جاءت المجاعة كان إطعامه من اقتحام العقبة التي من جاوزها دخل الجنة.

● وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة» رواه أحمد والنسائي والترمذي[1] وحسنه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

● وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات: أيها أفضل؟ فقال ﷺ: «على ذي الرحم الكاشح» رواه أحمد والطبراني وسند أحمد حسن[2].

قال المنذري: [الكاشح: هو الذي يضمر عداوته في كشحه، وهو خصره، يعني أن أفضل الصدقةِ الصدقةُ على ذي الرحم المضمر العداوة في باطنه].

---

(١) مسند أحمد ٤/٢١٤ والترمذي أبواب الزكاة: باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة ٢/٢٢.
والنسائي كتاب الزكاة باب الصدقة على الأقارب ٥/٩٢ رقم ٢٥٨٢ وانظر صحيح الترغيب للألباني رقم ٨٨٣.
(٢) صحيح الترغيب للألباني رقم ٨٨٤.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكانت الفضيلة لهذه الصدقة لأمور:

منها: أنه لم يقابل عداوته بالعداوة. بل قابل ذلك بـالإحسان ولم يحمله الحب في التشفي والانتقام لنفسه على أن يترك قريبه المحتاج يتعثر في حاجته ويتجرع غصص الجوع والفاقة.

ومنها: أنه وصل رحمه.

ومنها: أنه تصدق على محتاج.

ومنها: أن عمله هذا ربما كان سبباً في انتزاع تلك العداوة من صدر ذاك القريب وإحلال المحبة محلها، وبذلك تتراص صفوف الأقرباء والأمة، وتتحاب القلوب، وتتعاون على الخير قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

ومن أطرف الأحاديث وأحلاها في موضوع الصدقة على الأقارب حديث زينب الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وعنها التي تقول: قال رسول الله ﷺ:

«تصدَّقْنَ يا معشر النساء! ولو من حُليكنَّ» قالت: فرجعتُ إلى عبدالله بن مسعود فقلت: إنك رجلٌ خفيف ذات اليد وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فائته فسله، فإن كان ذلك يجزي عني، وإلا صرفتها إلى غيركم. فقال عبدالله: بل ائتيه أنتِ.

فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتُها حاجتي، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال. فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أنَّ امرأتين في الباب يسألانك: أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما. ولا تخبره من نحن. قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله. فقال له رسول الله ﷺ: «من هما؟» فقال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ الزيانب؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: امرأة عبدالله بن مسعود. فقال رسول الله ﷺ: «لهما أجر القرابة وأجر الصدقة» رواه البخاري ومسلم والنسائي[1].

إنّ العلاقة بين الأقارب علاقة ود ومحبة وترابط ويجب أن تُنمّى.. وهي ما تزال موجودة في المجتمع الإسلامي ولله الحمد، ولعل هذه العلاقة هي التي تميزنا عن المجتمعات الأوربية التي طغت عليها النزعة المادية.. وعلينا أن ندرأ تسلل تلك النزعة إلى مجتمعاتنا. إنّ نظرة متأملة لقصة زينب رضي الله عنها لتدلنا على مدى الترابط في نطاق الأسرة في المجتمع النبوي. إنّ على الزوجين والأخوين والأقرباء عامة أن يتعاونوا ويتقاسموا أعباء الحياة ومسؤولياتها.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»[2].

● ومما يجدر التنبيه إليه في موضوع الصدقة: الصدقة الجارية والتداوي بالصدقة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم والنسائي وأبو داود والترمذي[3] وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «داووا مرضاكم بالصدقة»[4] وهو حديث حسن.

● وأخيراً فلو أنصف الناس لشكروا هذا الذي يقبل الصدقة؛ لأنه يكسبهم الأجر العظيم، وينجيهم من العذاب الأليم فوجود من يستحق

---

(١) انظر تخريجه في الحديث الحادي عشر من هذا الكتاب. وقد شرحناه هناك.
(٢) صحيح البخاري ٣/١٢٠ وصحيح مسلم ٧/١٧١.
(٣) مسلم رقم ١٦٣١ وأبو داود رقم ٢٨٨٠ والنسائي ٦/٢٥٢ والترمذي ٢/٢٩٨.
(٤) انظر تخريجه في الدرر بتحقيقنا رقم ٢٢٤ ومختصر المقاصد بتحقيقنا ٤٥٠ والحلية ٢/١٠٤ و ٤/٢٣٧ ومجمع الزوائد ٣/٦٣ - ٦٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الصدقة وقبوله لها من مظاهر إكرام الله للعبد. فقد ورد في الصحيح: «تصدقوا فسيأتي عليكم زمانٌ يمشي الرجل بصدقته فيقول الذي يأتيه بها: لو جئت بها بالأمس لقبلتها، أما الآن فلا حاجة لي فيها فلا يجد من يقبلها»[1] متفق عليه. ويذكرني هذا الحديث بمعنى مهم وهو أن فعل المكرمات فرصة إذا سنحت للمرء فما ينبغي له أن يفوتها فربما لا تتاح له مرة أخرى.

قد تضطر الليالي إنساناً كريماً كان موسراً وجيهاً قد تضطره إليك يطلب عونك وينشد مساعدتك فاعلم أن هذه مكرمة ساقها الله إليك فاحذر أن تفوتك هذه الفرصة، وفي أحداث التاريخ قصص، وفي الحياة وقائع تدل على أن من يتاح له مثل هذه الفرصة فيغتنمها يفوز بالخير الكبير والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

وقوله ﷺ: «والصبر ضياء»:

للعلماء في تفسير كلمة (الصبر) في هذا الحديث رأيان: الأول: أن المراد بالصبر هنا الصوم.

والثاني: أنَّ المراد به هنا معناه العام، وهو الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، والصبر على النائبات وأنواع المكاره.

ونحن نرجح الرأي الأخير، وفي الحديث صورة رائعة:

الصبر ضياء يمسح بلسان شعاعه كل الظلمات التي تعترض طريق الإنسان في الحياة.

فالمؤمن الذي آمن بفكرةٍ مُعَرَّضٌ في كُلِّ لحظةٍ إلى أن يصيبه الأذى في عقيدته. وقد يضعف عن تحمُّلِ الأذى فيهيمُ على وجهه في تيه

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٣/٢٨١ رقم ١٤١١) ومسلم رقم ١٠١١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الضلال، وينحرف عن الجادَّة، ولا عاصم له من هذا التردّي المهلك إلا الصبر الذي يساعده على تخطي تلك الظلمات بضياء يبصره الصراط السويَّ، ويذلّل له العقبات، ويستمر به على طريق الحق.

ومن أجل ذلك كان الصبر صفة أولي العزم من الرسل وأتباعهم وأصحابهم، وكان الصبر من عزم الأمور. وحوادث الدهر ونوائب الزمان كثيرة، فقد تحل بالمسلم نازلة فادحة تحمله على الانفعال الشديد الذي قد يودي به فيهلك نفسه ويقضي على مصالحه الدنيوية والأخروية، والصبر ضياءٌ يوضح له حقيقة الموقف، ويجعله سوياً متماسك الأعصاب. ويمكن أن تفهم من هذا التعبير النبوي الكريم (الصبر ضياء) أن قليلاً من الصبر يغلب مصائب كثيرة، فالضياء الخافت يقوى على التغلب على ظلام دامس متكاثف.

إنّ الدنيا دار ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١ - ٢] فيها المكدرات والمنغصات والشدائد والنوائب، وهي لا تصفو دائماً لأحد:

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ ... مَنْ سرَّه زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

وكيف لا تكون كذلك وهي من هوانها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوي ذلك لما سقى كافراً منها شربة ماء[1]، فلا ينفك المرء فيها عن مصاب أو بلوى، ومكدر أو منغص، لا سيما إن كان مؤمناً فإنَّ أشدَّ الناس بلاءً في هذه الدار الفانية الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من المؤمنين الصادقين. عن سعد بن أبي وقّاص قال: قلت يا رسول الله أيّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذي عن مسهر بن سعد (انظر صحيح الترمذي للألباني ٢/برقم ١٨٨٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فالأمثل من الناس. يبتلى الرجل على حسب دينه: فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[1].

ولقد أخبرنا ربنا أنه سيبلونا ليعلم المجاهدين منا والصابرين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وعدد ربنا أنواعاً من البلوى تصيب الخلق حتماً فقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] يقولون بألسنتهم وقلوبهم: إنا لله ملكاً وعبيداً يفعل بنا ما يشاء، وإنا إليه لراجعون في الآخرة فيجازينا. ويتذكرون نعم الله عليهم ليروا أن ما أبقى لهم أضعاف ما استرده منهم.

إنّ المؤمن ينظر إلى الأمور بعين الذي يعلم أنه لا يجري في هذه الدنيا شيءٌ إلا بتقدير الله جل جلاله ومشيئته وفعله. فمن رضي فله الرضا. ومن سخط فعليه السخط.

ماذا يفيد التسخط؟ هل يعيد للمتسخط فقيداً، أو يجعله سعيداً؟ هل يشبع له بطناً؟ هل يجلب له أمناً؟ لماذا لا يواجه الإنسان هذه الحياة شجاعاً راضياً بقضاء الله وقدره؟ لماذا لا يواجهها وهل يعمل ما يستطيع أن يعمل في هذه الظروف والأوضاع التي شاءت إرادة الله أن يكون فيها ما قدر وقضى؟

وما أروع هذا الحديث الصحيح: «عجباً لأمر المؤمن. إنَّ أمره كله له خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له.

---

(١) انظر (صحيح الترمذي للألباني ٢ برقم ١٩٥٦) وابن ماجه رقم ٤٠٢٣.

وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم[1].

إنّ الصبر والرضا بقضاء الله وقدره والتسليم لأمره. . إنَّ ذلك يحول المصيبة إلى نعمة؛ لأن الصابر يحوز رضوان الله، ويكون محلاً لذاك الوصف والجزاء والثناء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ ألا ما أسماه من ثناء أن يقول الله في صاحبه: إنه هو المهتدي، وما أجلها من مكافأة أن تكون عليه صلوات من الله ورحمة.

قيل للحسن البصري: من أين أُتي الخَلْقُ؟

قال: من قلة الرضا عن الله.

قيل: ومن أين أُتوا من قلة الرضا عن الله؟

قال: من قلة المعرفة بالله.

إنَّ الرضا هو المنزلة التي تلي الصبر. وإنها لمنزلةٌ يسعد صاحبها ويُسَرُّ.

وقد يعجز المرء عن سلوك سبيل الصبر، لأنَّ النوازل والكوارث تغير العادات، وتزيل ما كان مألوفاً للإنسان. وما كل إنسان قادر على أن يتكيف بسرعة مع الوضع الجديد. إنه عندئذ خليق بأن يتصبر، أي يتكلف الصبر ويروض نفسه عليه وقال إبراهيم بن كنيف النبهاني[2]:

تعزَّ فإنَّ الصبر بالحر أجمل ... وليس على ريب الزمان معوّلُ
فإن تكنِ الأيامُ فينا تبدلت ... بنعمى وبؤس، والحوادثُ تفعلُ
فما لِيَّنت منا قناةً صليةً ... ولا ذللتنا للتي ليس تجملُ
ولكن رحلناها نفوساً كريمة ... تُحمَّلُ ما لا تستطيع فتحملُ
وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحت لنا الأعراض والناس هُزّلُ

---

(١) صحيح مسلم ٤/برقم ٢٩٩٩.
(٢) الحماسة: ١/٨٨.

«الصبر ضياء» إنها صورة محببة مرغبة بالصبر تقوم على التشبيه وتسمى التشبيه البليغ، فالصبر كالضياء في الإنارة وإزالة ظلمات الكوارث والمصاعب ويكفي الصبر شرفاً أن الله مع من تحلّى به. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومن كان الله معه فإنه يمضي في الحياة لا يبالي بصعوبة تعترضه، ولا يضعف أمام قوة تواجهه.

والصبر ـ كما قال العلماء ـ أنواع:

● **فمنها**: الصبر على امتثال ما أمر الله به، والانتهاءِ عما نهى عنه. وليس لمن قلَّ صبره على طاعة ربه حظٌ من صلاح ولا توفيق.

● **ومنها**: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوّة، ومسرَّة مأمولة، فالصبر هنا يهدّىء النفس ويجعل طاقات الإنسان عاملة فيما يعود عليه وعلى أمته بالخير والسداد.

أما الذين لا يصبرون على ذلك فتراهم محطمين، يصابون بألوان من الأمراض النفسية والجسمية، كالعشاق المستهامين الذين لم يستطيعوا الوصول إلى الزواج ممن يحبون. وكثير من هذه الرغبات والمسرات أوهام.

● **ومن** هذه الأنواع: الصبر على تحصيل ما يتوقع الإنسان من الخير الذي يرجوه، والأمور الكريمة السامية التي يتطلع إليها من العلم والمال والجاه. ومن أجمل ما قيل في ذلك قول محمد بن بشير[1]:

إنَّ الأمور إذا انسدَّت مسالكها ... فالصبرُ يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومد من القرع للأبواب أن يلجا

● ومن أنواع الصبر: الصبر على المصائب والرزايا التي لا يد للمرء

---

(١) الحماسة ٢/٣٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيها، مثل فقد الأحبة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة، وأذى الناس، والصبر عليها تعقبه الراحة منها، ويكسبه المثوبة عنها.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور
وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور

وقال عمر بن عبدالعزيز: [ما الجزع مما لا بدّ منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ وما الحيلة فيما سيزول؟

وإنما الشيء من أصله، فقد مضت قبلنا أصول، نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضلُ فيهم المنايا، وهم فيها نهبٌ للمصائب، مع كل جَرْعةٍ شَرَق وفي كل أكلة غَصصٌ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى. ولا يُعمَّرُ معمرٌ يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم، فأين المهربُ مما هو كائن؟ وإنما نتقلب في قدرة الطالب، فما أصْغَر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غداً، وأكبرَ خيبةَ الخائب فيه][1].

وماتَ أخ لملك فقال يعزيه بعض أهل اليمن: [إنَّ الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولا بُدَّ مما هو كائن، وقد حلَّ ما لا يُدْفع، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات، وقد أقام معك ما سيذهب عنك وستتركه، فما الجزع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنقل عنه؟ وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد الأصل؟

فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر، وإنما أهل الدنيا سَفْرٌ لا يحلون عقد الركاب إلا في غيرها، فما أحسن الشكر عند النعم، والتسليم عند

---

(١) الأمالي ٢/١٠٢.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الغِيَر، فاعتبر بمن قدر رأيت من أهل الجزع: هل ردَّ أحداً منهم إلى ثقةٍ من دَرْكٍ؟

واعلم أن أعظم من المصيبة سوءُ الخلف. فأفق. والمرجع قريب.

واعلم أنما ابتلاك المنعم، وأخذ منك المعطي، وما ترك أكثرُ، فإن نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر][1].

ومن أجمل ما قرأت في الصبر قول المهلب بن عوف:

[إنَّ الدنيا تجودُ لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمعُ لتُشتت، وتُحلي لتُمِرَّ، وتزرع الأحزان في القلوب بما تفجأ به من استرادد الموهوب. وكل مصيبة تخطئك جللٌ، ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل، وإن حادثاً ألمَّ بك، فاستبدَّ بأقلّك، وصفح عن أكثرك، لمن أجلّ النعم عليك، وقد تناهت إليك أنباء من رُزِيءَ فصبر، فأصيب فاغتفر. فاستشعر اليأس مما فات إذا كان ارتجاعُهُ ممتنعاً، ومرامه مستصعباً][2].

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال ﷺ: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً»[3].

وكمال الصبر يكون عند الصدمة الأولى، ولا مانع من البكاء فإنه جائز، لكنَّ المحرم هو الجزع وتخريق الثياب وطول الحزن. والحداد أكثر

---

(١) الأمالي ٢/١٠٠ وينسب كثير مما في هذه التعزية لأكثم بن صيفي كما أحفظ.

(٢) الأمالي ٢/١٠١.

(٣) هذا الحديث أورده النووي في «الأربعين» وقال ابن رجب ١/٤٦٠: [..وعزاه إلى غير الترمذي، واللفظ الذي ذكره الشيخ رواه عبد بن حميد في «مسنده» بإسناد ضعيف عن عطاء عن ابن عباس] قلت: وهذا اللفظ بمعنى حديث صحيح أخرجه الترمذي (صحيح الترمذي للألباني ٢ رقم ٢٠٤٣) وأحمد في المسند ١/٢٩٣ وقد أورده النووي أولاً في مطلع الحديث التاسع عشر من أربعينه. والله أعلم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من ثلاثة أيام إلا على زوج. والصبر سبيل الفلاح قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

* * *

وقوله ﷺ: «والقرآنُ حجةٌ لك أو عليك»:

القرآن كتاب الله المنزل على محمد ﷺ ووحيه المعجز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. أنزله ليكون دستوراً للعالمين، إنه عصمة لمن تمسَّك به، ونجاةٌ لمن اتبعه، لا تنقضي عجائبه، ولا تتناهى غرائبه، ولا يَخْلَقُ[1] على كثرة الرد أوجب الله تدبره، وتعبَّد المسلمين بتلاوته، وضمن لهم حفظه إلى يوم القيامة، ليكون لهم مرجعاً يهيمن على حياتهم، وقدوة يتأسون بها في معاشهم، وعندئذ يقودهم إلى السعادة التامة في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة.

[إنه الضياء والنور، وبه النجاة من الغَرور، وفيه شفاء لما في الصدور، من خالفه من الجبابرة قصمه الله][2].

هو الفصل ليس بالهزل، من ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ له الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم[3].

[هو العروة الوثقى، والمعتصم الأوفى، وهو المحيط بالقليل والكثير،

---

(١) لا يخلق: لا يبلى، وهي من الباب الخامس، وقد وردت أيضاً من الباب الأول والرابع أما إذا كانت بمعنى الإيجاد من العدم فمن الباب الأول فقط.

(٢) كلام مقتبس من الغزالي في الإحياء ١/ ٢٧٩.

(٣) كلام مقتبس من حديث ضعيف أخرجه الترمذي. وانظر تخريجه في أول كتابنا لمحات في علوم القرآن.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والصغير والكبير، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا يُخلِقُه عند أهل التلاوة كثرة الترديد، هو الذي أرشد الأولين والآخرين، ولمَّا سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١ - ٢][1].

فهذا القرآن العظيم يكون حجة لك أيها العبد إنْ أنت امتثلت أمره، واجتنبت نهيه، فتحتجُّ به في المواقف التي تسأل فيها كالقبر والموقف يوم الحساب، أو حجة عليك إن لم تمتثل أمره ولم تجتنب نواهيه.

نعم إذا أدرك العبد بقلبه ومشاعره أن هذا الكلام كلام الله رب العالمين.. إذا أدرك أنه كلام عظيم لو أنزل على جبل لخشع وتصدع.. إذا أدرك ذلك خشع قلبه ووجل واستشعر خشية الله.

[كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه، ويقول: هو كلام ربي. فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار وعلم أنَّ الخالق لجميعها والقادر عليها، والرازق لها واحدٌ، وأن الكلَّ في قبضة قدرته، مترددون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إنْ أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي. وهذا غاية العظمة والتعالي. فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام][2].

فإذا أدرك العبد عظمة كلام الله فليقبل على هذا القرآن بحضور قلب متجرداً له عند قراءته، منصرف الهمة إليه عن غيره، وإذا لم يستطع أن يحضر قلبه فليعد الآية مرة أو مراراً وليتدبرها امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿أَفَلَا

---

(١) كلام مقتبس من الغزالي في الإحياء ١/٢٧٩.
(٢) الإحياء ١/٢٨٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢ ومحمد ٢٤] ومما يساعد على التدبر الترتيل والترديد فعن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ: بنا ليلةً فقام بآية يرددها هي ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] رواه النسائي وابن ماجه بسند صحيح(١).

وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

وعلى المسلم الذي يريد أن يكون القرآن حجة له أن يقرأ القرآن وكأنه أوامر ونواه موجهة إليه بالذات، فإن سمع أمراً أو نهياً قدَّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو عيداً قدر أن ذلك موجهٌ إليه، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود أن يعتبر ويأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وفيها من العظات والعبر والدورس الشيء الكثير. ففي القرآن آيات كثيرة(٢) تدل على

---

(١) ابن ماجه ١ برقم ١٣٥٠.

(٢) من ذلك قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

وقوله تعالى ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وقوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أن هذا الكتاب أنزل علينا ولنا وأن فيه الهدى والموعظة والبيان والبصائر لمن آمن واتقى وكان من الموقنين.

قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلّمه الله.

وإذا قَدَّرَ ذلكَ لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه.

ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات.

إذا وفق العبدُ بعد ذلك كله للعمل يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقف عند حدوده ويحتكم إليه ويرضى بحكمه كان القرآن حجة له يوم القيامة.

أما إن لم يكن كذلك بأن أعرض عنه ولم يتله حق تلاوته ولم يستحضر بنفسه عظمة قائله ولا عظمته أو كان يقرؤه بلسانه ولا يحقق أوامره ونواهيه كان حظه من القراءة حركة اللسان. وقد قال بعض السلف: رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، وكان ظالماً لنفسه يدخل في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

إن القرآن إن لم يحكمه المرء في حياته كان حجة عليه يوم القيامة، وانطبقت عليه الآية الكريمة ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، وإذا تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولذلك قيل: إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن ناداه الله تعالى: مالك ولكلامي؟ وأنت معرض عني؟ دع كلامي إن لم تتب إليّ.

ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات، وقد كتب إليه في عمارة مملكته، وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه. فلعلّه لو ترك الدارسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت.

والقرآن اليوم حجة على معظم المسلمين ويكاد يصدق في كثير منهم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

فقد استحال القرآن من كتاب هداية ودستور حكم إلى تراتيل تفتتح بها الحفلات، ويتطرب لها هواة الأنغام وتتلى في المآتم وعلى القبور..

وبعد القرآن عن الحياة وا أسفاه.. وهذه الحقيقة المرة المؤلمة أكبر نكبة حلت بالمجتمع الإسلامي، وواجب الدعاة إلى الله اليوم أن يعملوا على إعادة القرآن أساساً في حياة الناس، يستلهمون منه الحلول لمشكلاتهم، ويصدرون عنه في كل شؤون حياتهم حتى يكون حجة لهم يوم القيامة.

وقد قال بعض أهل العلم: العلم إن لم ينفعك ضرك. فالعلم بالقرآن إن لم يعمل به صاحبه كان حجة عليه، وسئل عن هذا العلم فإذا عمل فيه ويمكن أن يفهم من قوله ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك» أن القرآن حجة لك في الدنيا على المطالب الشرعية والأحكام، أو حجة عليك لخصمك



شبكة الألوكة - قسم الكتب

المحق، فالمرجع إليه عند التنازع وتمتاز هذه الجملة بالإيقاع المأنوس، وفيها الطباق البعيد عن التكلف (لك أو عليك).

* * *

وقوله: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» حقيقة قائمة في دنيا الناس، وهي أنهم في كل يوم يبيعون أنفسهم.. فمنهم من يبيعها للرحمٰن، ومنهم من يبيعها للشيطان. أما الأولون فهم المجاهدون الدعاة الصالحون، وأما الآخرون فهم الأشقياء العابثون اللاهون. أولئك الذين هانت عليهم أنفسهم فباعوها للطاغوت أو لشهوة رخيصة، أو منفعة موقوتة.

إن الحياة في حركة دائمة، وليس من شأنها الوقوف.. وكل يوم يمضي ينقص من عمر الإنسان ويدنيه من أجله.. والمرء خلال هذه الأيام التي تتصرم يكسب ويبيع نفسه.. فالصفقة إذن غالية جداً، والمبيع ثمين. وأي شيء أغلى وأثمن من نفس الإنسان التي بين جنبيه.

كل إنسان يسعى بنفسه كل صباح.. فمنهم من يبيعها لله بطاعته فيعتقها من العذاب وتكون له الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأنَّ لهم الجنة.. فنعم البيع بيعهم.. إنه والله بيع رابح. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها.. إنه والله بيع خاسر يصدق عليهم قول الله تعالى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟

مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] وقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقد رأينا في حياتنا قوماً يبيعون أنفسهم برشوة يسيرة أو كبيرة، أو بمنصب هزيل أو جليل، أو بأكلة أو ثوب أو بوعد كاذب. يبيعون أنفسهم فيهلكونها، ويقلبون الحق باطلاً، ويقفون في صف الشيطان.. وهم في هذا يهلكون أنفسهم.. وأي هلاك أعظم من ولوج نار الله الحامية التي لا يفتر عذابها ولا يتوقف.. إن الإنسان في الدنيا إذا تعرّض للنار احترق وانقضت حياته بالموت.. أما في الأخرة فالأمر مختلف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

إن الوقت هو رأس مال المسلم، فالذي يغدو يستقبل يوماً عمله فيه هو الذي يقرر نتيجة بيعه لنفسه في ذلك اليوم. وبيع النفس صورة قرآنية معبّرة عن المقصود أحسن تعبير.

والاهتمام بأداء الصلوات في أوقاتها إشعار للمسلم بقيمة الوقت، والمبادرة إلى أداء الواجب قبل فوات الوقت المحدد، الوقت هو الحياة كما قال الحسن البصري: يا ابن آدم إنما أنت أيام مجموعة كلما ذهب يوم ذهب بعضك.

وقال أيضاً: ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم. أنا خلق جديد. وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة.

ويروى عن ابن مسعود أنه قال: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

ويروى عن غيره قوله: كل يوم يمر بي لا أزداد فيه علماً يقربني من الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم.

وهذه الصورة البيانية الرائعة فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها تلفت أنظارنا إلى قيمة الوقت.. إنَّ الوقت هو الذي يقرر نجاة المرء وعتقه من النار أو هلاكه وسكناه الجحيم.

إن الوقت هو رأس مال المسلم في هذه الحياة فكل لحظة تمر محسوبة من عمره ولن تعود.. وهو ينقضي سريعاً بل إنه يمر مرَّ السحاب، اسأل نفسك عن السنوات الماضية التي مرت عليك كيف انقضت؟ وكيف مرَّت؟ تجد كأنها يوم أو يومان.. والوقت أنفس شيء في هذا الوجود فإن أتيحت لك فسحة في العمر واستغللتها بالعمل والنشاط استطعت أن تكسب وتتعلم وتبني وتعمل خيراً، وإن ضيعتها فات عليك الكسب والعلم والبناء والثواب الجزيل.

ويحسُّ بقيمة الوقت الشيخ الذي ضيع شبابه بالعبث والعصيان حتى إذا أدركه الهرم تمنى لو عاد الشباب إليه ليعمل من الصالحات ويستكثر منها، وكذلك المرء يوم القيامة يحس بقيمة العمر وأهمية الوقت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: آخرها].

إنّ الأجل مغيب عنا، فما تدري نفس متى يكون أجلها وهو غيب من الغيب لا يعلمه إلا علام الغيوب.

تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جَنّ ليل: هل تعيش إلى الفجر
فكم من سليم مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

فإذا كان ذلك كذلك فعلينا أن نبادر بالأعمال قبل أن يأتينا شيء من نوائب الدهر.. وما أكثرها.. فقد يُفاجيء بعضنا فقرٌ مُنْسٍ أو غنىً مطغٍ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أو مرضٌ مفسدٌ، أو هرمٌ مُفْنِدٌ، أو موتٌ مجهزٌ، أو الدجال، أو الساعة وبذلك تفوت الفرصة، ولا يمكن استدراك ما فات. ويندم المرء ولات ساعة مندم.

والتسويف يُضَيِّعُ العمر ويذهب فرص الخير. وقال الحسن البصري: إياك والتسويف، فإنك بيومك، ولست بغدك. فإن يكن غدٌ لك فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم، ومن يضمن البقاء إلى غد؟

يذكرون أن الحجاج أصحر يوماً في طلب الصيد، فلما حضر الغداء أمر جنده أن يأتوه بضيف فذهبوا يبحثون حتى وجدوا أعرابياً، فحملوه إلى الأمير، فدعاه إلى الطعام، فذكر له أنه صائم. قال: أصوم في مثل هذا اليوم من الحر؟ قال: صمت ليوم أحرّ منه. قال: تغدَّ معنا اليوم وصم غداً. قال: وهل يضمن لي الأمير أن أعيش إلى غد. فأفحمه.

والتسويف زيادةً على أنه مغامرة وتعطيل للطاقة، فهو إرهاق، ذلك لأن لكل يوم عمله، فإذا أجلت عمل اليوم إلى الغد جمعت على نفسك عمل يومين. قيل لعمر بن عبدالعزيز: أخر هذا العمل إلى الغد. فقال: لقد أعياني عمل يوم واحد فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين... فإذا سوّف المرء اضطر أن يؤجل عملاً منهما إلى يوم آخر، وهكذا.. تتأخر الأعمال ويتعود الإنسان على الكسل.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر أنه قال: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وأذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك[1].

● ومما ينبه الإنسان إلى قيمة الوقت: التذكير بالموت، وكفى بالموت واعظاً وكذلك التذكير بالمسؤولية والحساب يوم القيامة.

---

(١) انظر تخريج الحديث وشرحه في كتابنا «قضايا في الدين والحياة» ص ١٨٨.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

● ومما ينبه الإنسان إلى قيمة الوقت قسم الله تعالى بأجزاء عدة من الوقت كقوله تعالى ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾. فإذا أقسم الله بمخلوق من مخلوقاته دلَّ ذلك على أهميته.

● ويؤسفنا أن ترى أنَّ أوقات كثير من المسلمين مهدرة مضيعة بالأمور الآتية:

- بالجلوس في المقاهي والتسكع في الطرقات والتجول في السيارات.
- وبمشاهدة التلفزيون وأفلام الفيديو وبسماع الغناء.
- وباللعب بأنواع من اللعب المحرم كالنرد والورق وما إلى ذلك.
- وبالكلام الفارغ والمزاح والغيبة.

● مع أن حاجة أمتنا إلى الإفادة من كل لحظة حاجة متعاظمة ولا سيما بالنسبة إلى الشباب.

● والفراغ قد يكون نعمة عندما يُملأ بما يرضي الله، وقد يكون نقمة عندما يُملأ بما يسخط الله.

والفراغ الآن بواقعه سبب الفساد في حياة كثير من الرجال والنساء والشباب، وإذا توفر للشباب والشابات الفراغ والمال كان الفساد العريض. يقول أبو العتاهية في أرجوزته المشهورة[1]:

علمت يا مجاشعُ بنَ مسعده أن الشباب والفراغ والجده
مفسدة للمرء أيُّ مفسدة

وقد قيل:

كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظر غداً لا يدركه
لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره[2]

---

(١) ديوان أبي العتاهية ٤٤٨.
(٢) روضة العقلاء ٢٥٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال الدكتور أبو شادي:

احرص على النفع الأتم ... من الدقيقه
إن تنسها تنس الأهم ... بل الحقيقه
ما العمر إلا جمعُها ... أو ضيعُها
ما النجح إلا نفعها ... لا دفعها[1]

وقال أبو العتاهية:

لا تأمن الموت في طَرفٍ ولا نَفَسٍ ... ولو تمنَّعْتَ بالحجّاب والحرس
واعلم بأنَّ سهام الموت قاصدة ... لكل مُدَّرِعٍ منَّا ومُتَّرسِ
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنّ السفينة لا تجري على اليبس[2]

وقال ابو البقاء[3]:

وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شانُ
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجان
وأين ما شاده شداد في ارم ... وأين ماساسه في الفرس ساسان
واين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مردّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سنة فالدهر يقظان

تمر السنة فتنقص من أعمارنا.. بل الشهر.. بل اليوم.. بل الساعة.. والحديث يذكرنا بالغدو كل يوم، والعجيب أننا نسرُّ بمرور هذه الأزمان للحصول على مال أو إجازة أو ما إلى ذلك وهي من أعمارنا كما قال القائل:

يَسرُّ المرءَ ما ذهب الليالي ... وكان ذهابهن له ذهاباً

---

(١) أقوال مأثورة ١١١.
(٢) روضة العقلاء ٢٦١.
(٣) نفح الطيب ٦/٢٣٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والسنة في نظر كثير منا هينة يسيرة، ولكنها ليست كذلك عند الله ولا في الحقيقة.

السنة بالنسبة إلى الوليد الذي ولد الآن مدة كبيرة نحسُّ بها إحساساً قوياً، فبانقضائها تتغير معالمه، وتنشط حركته بعد أن كان ساكناً ويشرع في النطق المفهم بعد أن كان أعجم.

والسنة بالنسبة إلى الطلاب عند امتحان آخر السنة شيء كبير، إذا رسب فيه حزن؛ لأن سنة مضت من عمره دون أن يتقدم فيها في معارج العلم، ولانه تأخر في نوال الشهادة التي يرتزق منها وتكسبه نظرة اجتماعية حسنة. وإذا نجح في ذاك الامتحان فرح لأنه أوشك أن يدخل الحياة العملية كاسباً وعضواً فعالاً.

إن القطرة من الماء تنزل من السماء لا نُحِسُّ بها، ولكنها عندما تتجمع هذه القطرات ساعات تشكل سيلاً مدمراً يهدد الحياة، ويخرب البيوت، ويهلك الزراعة ويأتي على كثير مما يحرص الناس على بقائه.

إن القطرة من الماء لا تغني ولا تروي، ولكنها عندما تتجمع فتملأ الكأس تروي وتذهب الظمأ وينتفع منها.

إنَّ السنة شيء كبير جداً جداً.. إنها تدني الفتى من الشيخوخة وتنقص من عمر الإنسان وتقترب به من النهاية التي قدر أجلها.

إنها اثنا عشر شهراً، والشهر ثلاثون يوماً، واليوم أربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة.. تصور نفسك يا أخي منتظراً من يأتيك بشربة من الماء أنت بحاجة إليها، فتأخر دقيقة أو دقيقتين كم ترى الزمن فيهما كبيراً.. فما بالك بآلاف الدقائق التي تمتلىء بها السنة؟

إن هذه السنة التي انقضت من أعمارنا أصبحت مسجلة علينا بمالها وما عليها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فلنحاسب أنفسنا على ذلك الوقت قبل أن نحاسب.. لنقف نتأمل:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هل كانت لنا أم كانت علينا؟ هل نحن الآن أقرب إلى الله؟ هل نحن الآن أكثر التزاماً لشرعه منا في مثل هذا الوقت من العام المنصرم؟ هل أدينا حق الله في أنفسنا وأموالنا وأولادنا وأهلينا؟ هل أدينا حق الله في ديننا والدعوة له؟ لقد ازدادت حسنات المحسنين منا، وازدادت سيئات المسيئن منا، فليحمد الله المحسنون وليستقميوا على الجادة، وليتب المسيئون، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين لقد عبَّر الرسول الكريم عن مرور الوقت ببيع الإنسان نفسه، وهذا البيع هو الذي يقرر الحقيقة النهائية «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»

فمن ازداد عملاً صالحاً، واستكثر من الطاعات، وابتعد عن المحرمات المكروهات أعتق نفسه من النار.

ومن كان مسيئاً مرتكباً للمعاصي والمحرمات خسر الدنيا والأخرة وهذا هو الاهلاك.

وهذه الدنيا لا تبقي على أحد، فكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ومن شكَّ في هذا لم يكن من العقلاء.. أين الملوك والقواد الكبار.. بل أين الرسل والأنبياء.. أين الخلفاء؟ أين فلان وفلان ممن تعرف؟ لقد ماتوا جميعاً.. ونحن إلى الموت صائرون، فلنعدّ لذلك اليوم عدته.. ولنستفد من وقتنا الذي هو عمرنا.. فما ندري متى يواجهنا هاذم اللذات.. إنَّ الموت لا يختص بالمتقدمين في السن.. فكم من شاب في ريعان شبابه وسد الثرى، وكم من هرم عمر حتى بلغ أرذل العمر.

روى ابن حبان في صحيحه أنه جاء في صحف موسى:

عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح.. عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك.. عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب.. عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل.. عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها[1].

---

(١) الترغيب والترهيب ٤/ ٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إننا عندما نحسن الإفادة من وقتنا نضمن لأنفسنا النجاة يوم القيامة فقد جاء في الحديث: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ وعن عمله ماذا عمل فيه؟»[1]. والملاحظ أن سؤالين من أربعة كانا في الوقت.

والوقت في حسّ المسلم أبداً سواء في صلاته أم في خوفه كما ورد: المسلم بين مخافتين بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين آجل قد بقي ولا يدري ما الله قاضٍ فيه.

قال ابن القيم:

والعجبُ كل العجب من غفلةِ مَنْ لحَظَاتُه معدودةٌ عليه، وكلُّ نَفَسٍ من أنفاسه إذا ذهب لم يرجع إليه، فمطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يحمل، ويسار به أعظم من سير البريد ولا يدري إلى أيّ الدارين ينقل، فإذا نزل به الموتُ اشتد قلقه لخراب ذاته، وذهاب لذاته، لا لما سبق من جناياته، وسلف من تفريطه حيث لم يقدم لحياته.

فإذا خطرت له خاطرة عارضة لما خلق له دفعها باعتماده على العفو، وقال قد أنبأنا أنه هو الغفور الرحيم، وكأنه لم يُنَبَّأْ أن عذابه هو العذاب الأليم[2].

قال الحسن البصري:

نهارك ضيفك فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بذمك. وكذلك ليلك[3].

---

(١) سبق تخريجه قبل صفحات.
(٢) حادي الأرواح: ٢٤.
(٣) أدب الدنيا والدين ١٠٩ وأقوال مأثورة: ١٩٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن الاهتمام بالوقت يجعل للحياة قمية رفيعه، ويسمو بالإنسان إلى مستوى راق حتى يغدو هذا الإنسان وحده، لا يشغل نفسه بالترهات والتوافه من الأمور.

والاهتمام بالوقت يعود على الأمة بالخير، ويتيح للطاقات والمواهب أن تتفتح وأن تؤتي كلها.. فإذا المخترعات في خدمة الإنسان.. وإذا ثمرات العقول تقدم إلى الإنسانية كلها.

والاهتمام بالوقت والحرص على الاستفادة منه يجعل الإنسان ذاهمة نشيطة وذا دأبٍ متصل، فلا تراه مخلداً إلى الأرض، ولا قابعاً في فراشه تغمره أحلام اليقظة وخيالات الأحلام.. بل تراه أبداً مُتَفَتِّحَ الذهن يملأ وقته بما يعود عليه بالنفع إما في دينه وإما في دنياه.

ولقد كان رجال السلف الصالح يستفيدون من وقتهم أعظم الاستفادة يقول الحسن البصري رحمه الله:

يا بن آدم إنما أنت عدد، فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك[1].

وقد كان علماؤنا يستفيدون من أوقاتهم فلا يضيعون لحظة واحدة دون أن ينتفعوا منها.

جاء في مفتاح السعادة[2] أن الحسن بن زياد اللؤلؤي (كان يدرس بعد صلاة الصبح مسائل الفروع إلى الزوال. ثم يدخل منزله فيقضي حوائجه إلى وقت الظهيرة، ثم يخرج للظهر ويجلس للواقعات إلى العصر، ثم يصلي العصر فيناظرون في الأصول إلى الغروب، ثم يصلي المغرب ويدخل المنزل، ثم يخرج فيذكرون المسائل المعلقة إلى العشاء، فإذا صلى العشاء جلس لمسائل الدور والوصايا إلى ثلث الليل.

---

(١) عيون الأخبار ٢/٣٦١.

(٢) مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ٢/٢٥٧.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان لا يفتر عن النظر في العلم. وكانت له جارية إذا اشتغل بالطعام أو الوضوء أو بغير ذلك تقرأ عليه المسائل حتى يفرغ من حاجته).

وكذلك فقد [كان الحافظ العراقي منصرفاً إلى العلم والكتابة والتحصيل في جميع أوقاته، ولا يصرف لحظة من وقته في غير الاشتغال بالعلم أو العبادة ولم يكن له هم سوى السماع والتصنيف والإفادة، وكان عنده دأب عجيب لا يعرف الملل سبيلاً إلى نفسه][1].

[أما عبادته فكانت شيئاً عظيماً حقاً، فلقد كان صواماً قواماً مواظباً على قيام الليل وصيام الأيام البيض من كل شهر والست من شوال، وكان كثير التنقل، كثير الذكر والتلاوة، فقد ذكروا أنه كان إذا صلى الفجر جلس في محله بعد الصلاة يذكر ربه إلى أن ترتفع الشمس، فيصلي الضحى، وكان لسانه دائماً رطباً بذكر الله، وكان لا يراه الرائي إلا مشتغلاً بالعلم أو العبادة، ويستفيد من وقته في هذين الأمرين أحسن الاستفادة، فقد ذكروا في ترجمته أنه كان إذا ركب أكثر من التلاوة، ذلك لأن الكتابة والرجوع إلى المصادر حالة الركوب أمر متعذر فهو يستفيد من هذا الوقت بتلاوة القرآن. ويبدو أن الله تبارك وتعالى بارك له في وقته فقد ترك مؤلفات كثيرة كما ترك في عصره أثراً واضحاً في تخريج عدد من العلماء الذين جمعوا بين العلم والعمل والدعوة إلى الله][2].

وإليكم مثالاً آخر من علمائنا وما أكثرهم.. إنه ابن الجوزي الذي [كان عازفاً عن اللهو وإضاعة الوقت، وكان يستفيد من وقته أتم الاستفادة، وذلك عن طريق تنظيم الوقت وقله مخالطة الناس... ولنستمع إليه يحدثنا عن تصرفه مع الناس الفارغين الذين يزورون العلماء ويضيعون أوقاتهم. قال رحمه الله: (لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما اعتاده الناس من

---

(١) انظر المقدمة التي كتبتها للباعث على الخلاص للحافظ العراقي ص ٩٤.
(٢) مقدمة الباعث ص ٩٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني، وما يتخلله غيبة. وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه، واستوحش من الوحدة. . **فما رأيت أن الزمان أشرف شيء والواجب انتهازه بفعل الخير كرهت ذلك**، وبقيت منهم بين أمرين، إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان.

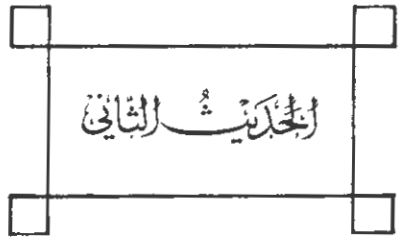
فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبري الأقلام وخرم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي][1].

هذا وقد نبه القرآن إلى أن الاستفادة من الوقت تنجي المسلم من التحسر والندامة ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ **[الشورى: ٤٧]**.

---

(١) انظر المقدمة التي كتبتها لكتاب القصاص والمذكرين ص ١٠ وانظر «صيد الخاطر» ص ٢٢٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب



عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:

«يا عبادي! إني حرّمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا.

يا عبادي! كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي! كلكم جائعٌ إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً. فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي! لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ مازاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي! لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي! لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

رواه مسلم ١٧/٨ واللفظ له [شرح النووي ١٣٢/١٦] والترمذي ٣١٦/٣ وابن ماجة ٢/ رقم ٤٢٥ والبخاري في الأدب[١] المفرد ٧١ وأحمد ١٦٠/٥ و١٧٧.

وذكر مسلم بعد أن أورده قال: كان أبو إدريس الخولاني (وهو راوي الحديث عن أبي ذر) إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.

وكان الإمام أحمد يقول عن هذا الحديث: هو أشرف حديث لأهل الشام[٢].

وراويه أبو ذر الصحابي المشهور الذي ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة منه.

في هذا الحديث العظيم الشريف يتجلى اللطف الرباني، والعناية الإلهية بالخلق، ويبدو هذا من أمور عدة وردت في الحديث، منها تكرار هذا النداء الندي الرائع الحنون الرؤوف: يا عبادي يا عبادي.. فقد تكرر ـ في رواية مسلم التي أوردناها ـ عشر مرات ولهذا النداء وقع كبير عند أصحاب القلوب الشفافة، والأرواح النامية، يتيهون لسماعه ويطربون له، وتهتز أوتار قلوبهم وأعماق مشاعرهم حين يلامس هذا النداء مسامعهم حتى قال قائلهم:

---

(١) وقد رواه بسند مسلم ونصّه.

(٢) جامع العلوم والحكم ١٩٥ وفتاوى ابن تيمية ١٥٧/١٨.

ومـمـا زادني شـرفـاً وتـيـهـاً وكـدت بـأخمصي أطـأ الثـريـا
دخـولي تحت قـولـك يـا عبـادي وأن صـيّـرت أحمـد لـي نبـيـا

وفي هـذا الحديث القـدسي الشريف نـواح متعددة سنقف عنـدهـا متأملين، نحاول أن نكشف عن وجوه الإبداع البياني فيها. وقبل أن نلج رياض هذا الحديث الجميلة الغناء نود أن نذكر القراء بكلمة موجزة عن الحديث القدسي.

فنقول: [الحديث القدسي حديث يسنده النبي ﷺ إلى الله عز وجل فيرويه النبي ﷺ على أنه كلام الله تعالى. وهناك أحاديث قدسية لا يصرح الرسول ﷺ بعزوها إلى الله تعالى ولكن المعنى والسياق يدلان على ذلك، ومن هذه الأحاديث حديث الصوم المشهور.

والقدسي نسبة تكريمية للقدس، ومعناه التنزيه والطهارة. وقد يدعو بعضهم الأحاديث القدسية بالأحاديث الإلهية.

ومن المفيد أن نُشير إلى أن وصف الحديث بأنه قدسي لا يعني أبداً أنه صحيح، إذ أن الصحة والضعف يعتمد فيهما على دراسة السند والمتن، بينما هذا الوصف يتعلق بنسبة الكلام إلى الله تبارك وتعالى.

والحديث القدسي كلام الله بالمعنى أما اللفظ فللرسول صلى الله عليه وسلم.

هذا القول هو الذي نُرجِّحه، وهناك قول آخر مرجوح في نظرنا يدعي أن الحديث القدسي كلام الله بلفظه ومعناه ولكن لم يرد به التحدي.

وقد قلنا إنه مرجوح وغير صحيح لما يأتي:

لو كان الحديث منزلاً بلفـظه ومعناه لكـان ينبغي أن يكون لـه من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للقرآن؛ إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله.

وكان يجب ـ بناء على ذلك ـ أن تمنع روايته بالمعنى إجماعاً، لأن

علماء المسلمين متفقون على أن القرآن الكريم لا يجوز أن تروى آياته بالمعنى، بينما يجيز الجمهور رواية الحديث القدسي بالمعنى.

ولو كان الحديث القدسي منزلاً بلفظه ومعناه لكان يجب أن يتعبد بتلاوته، ولكان يجب أن يحرم على المحدث مسه عند من يقول بتحريم مسّ القرآن على المحدث، ولا يقول بذلك أحد من أهل العلم.

والحكمة التي اقتضت إنزال الحديث القدسي بمعناه أنه إنما أنزل لمجرد العمل ولم ينزل للتحدي ولا للتعبد بتلاوته. والعملُ بما فيه يحصل بإنزال معناه فقط.

ويرد هنا سؤال وجيه وهو إذا كان لفظ الحديث القدسي لرسول الله فكيف نؤول قوله ﷺ: «يقول الله تعالى».

والجواب أن المقصود نسبة مضمون الحديث لا نسبة ألفاظه، وهذا التعبير كثير الاستعمال في اللغة العربية قديماً وحديثاً، فإذا أراد إنسان شرح بيت من الشعر قال في شرحه: قال الشاعر كذا وكذا... وقد ورد هذا الاستعمال في القرآن حيث حكى الله تبارك وتعالى عن نوح وموسى وفرعون وزكريا وعيسى مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم، وبأسلوب غير أسلوبهم، ونسب ذلك إليهم.

قال تعالى حكاية عن موسى وفرعون ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ - ٥٠] وقال تعالى حكاية عن مريم وزكريا عليهما السلام ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فحكى جل جلاله أقوالهم بلسان عربي مبين، وهم لم يكونوا يعرفون العربية، وبذلك يتضح أن الحديث القدسي كلام الله بالمعنى واللفظ للرسول صلى الله عليه وسلام.

وهكذا فإن الفرق بين القرآن والحديث القدسي من وجهين.

أولهما: أن القرآن كلام الله بلفظه ومعناه أي إنه سبحانه أنزله بلفظه ومعناه جميعاً، بينما الحديث القدسي ـ كما ذكرنا ـ كلام الله بمعناه فقط واللفظ للرسول. . وقد شبه الشيخ مصطفى الزرقا الحديث القدسي والقرآن تشبيهاً موضحاً فقال: [الحديث القدسي نظير ما لو أعطي شخص كتاباً، أو ألقي عليه كلام بإحدى اللغات، وكلف أن يترجمه إلى لغة أخرى. فالترجمة باللغة المنقول إليها هي من صياغته وعبارته ولكن معانيها إنما ينقلها نقلاً على سبيل الحكاية.

أما القرآن فنظير ما لو أعطي شخص كتاباً موجهاً إلى جماعة وكلف أن يتلوه عليهم بنصه تبليغاً دون تصرف][1].

وقد أنزل القرآن الكريم بلفظه ومعناه لأنه كتاب للتحدي، وإننا لنقرأ فيه التحدي المثير وذلك في آيات عدة منها قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤] وقد بلغ رسول الله ﷺ التحدي الوارد في آيات القرآن فتحدى العرب كافة أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولزمتهم الحجة، وكان القرآن المعجزة الباقية على وجه الدهر، بخلاف الحديث القدسي الذي أنزل لمجرَّد العمل به كما أشرنا إلى ذلك فيما سلف.

وثانيها: أن هناك فرقاً آخر بين الحديث القدسي والقرآن يتصل بطريقة النقل، فالقرآن منقول إلينا بالتواتر، كتب في عهد النبي ﷺ وهو ﷺ الذي كان يملي وَدُوِّنَ في المصحف.

أما الحديث القدسي فقد نقل إلينا كما نقلت معظم الأحاديث النبوية

---

(١) في الحديث النبوي ص ٧٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن طريق الآحاد، ولذلك فإنَّ فيه الصحيح والحسن والضعيف والموضوع.

والمتواتر أعلى درجات الحديث الصحيح ويفيد اليقين، وقالوا في تعريفه: إنه الكلام المروي الذي ترويه جماعة يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم في كل مراحل السند من أول السند إلى آخره ولا بُدّ في الخبر المتواتر من أن يكون راويه معتمداً على الحسّ وأن يورد الخبر بصيغة الجزم واليقين[1].

ونودُّ أن نورد نص حديث أبي ذر كما جاء في مسند أحمد وسنن الترمذي وسنن ابن ماجه، ذلك لأن الوقوف على الروايات المتعددة للحديث تعين في تصور المعنى وبيانه.

أما أحمد فأخرجه في موضعين من مسند أبي ذر رضي الله عنه في كتابه:

أولهما: (٥/ ١٦٠): حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا عبد الرحمن وعبد الصمد قالا حدثنا همام عن قتادة عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

إني حرمت الظلم على نفسي وعلى عبادي، ألا فلا تظالموا.

كل بني آدم يخطىء بالليل والنهار ثم يستغفرني فأغفر له ولا أبالي.

وقال:

يا بني آدم! كلكم كان ضالاً إلا من هديت، وكلكم كان عارياً إلا من كسوت، وكلكم كان جائعاً إلا من أطعمت، وكلكم كان ظمآن إلا من سقيت فاستهدوني أهدكم، واستكسوني أكسكم، واستطعموني أطعمكم، واستسقوني أسقكم.

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم، وصغيركم

---

(١) انظر كتابنا الحديث النبوي ص ١٩٥ ومابعدها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكبيركم، وذكركم وأنثاكم[1]. . على قلب أتقاكم رجلاً واحداً؛ لم تزيدوا في ملكي شيئاً.

ولو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم، وصغيركم وكبيركم، وذكركم وأنثاكم على قلب أكفركم رجلاً؛ لم تنقصوا من ملكي شيئاً[2].

وثانيهما: (١٧٧/٥): حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا ابن نمير، ثنا موسى يعني ابن المسيب الثقفي عن شهر عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: إن الله تبارك وتعالى يقول:

يا عبادي! كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، ومن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة، فاستغفرني بقدرتي، غفرت له ولا أبالي.

وكلكم ضال إلا من هديت، فسلوني الهدى أهدكم. وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلوني أرزقكم، ولو أنَّ حيكم وميتكم، وأولاكم وأخراكم، ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا على قلب أتقى عبد من عبادي لم يزيدوا في ملكي جناح بعوضة.

ولو أن حيكم وميتكم، وأولاكم وأخراكم، ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا، فسأل كل سائل منهم ما بلغت أمنيته، وأعطيت كل سائل ما سأل؛ لم ينقصني إلا كما لو مرَّ أحدكم على شفة البحر فغمس إبرة ثم انتزعها.

ذلك لأني جواد ماجد واجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلامي، وعذابي كلامي، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له: كن، فيكون.

أما الترمذي فقد أخرجه في أبواب صفة القيامة (٣١٦/٣): قال:

---

(١) في المسند كلمتان لم أعرفهما: قال عبد الصمد: وعسيكم وبينكم.
(٢) في المسند إضافة وهي: إلا كما ينقص رأس المخيط من البحر.

حدثنا هناد، أخبرنا أبو الأحوص، عن ليث عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل:

● يا عبادي كلكم ضال إلا من من هديت، فسلوني الهدى أهدكم. وكلكم فقير إلا من أغنيت، فسلوني أرزقكم.

● وكلكم مذنب إلا من عافيت، فمن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني غفرت له ولا أبالي.

● ولو أن أولكم وآخركم، وحيكم وميتكم، ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادي؛ ما زاد ذلك في ملكي جناح بعوضة.

● ولو أن أولكم وآخركم، وحيكم وميتكم، ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادي؛ ما نقص ذلك من ملكي جناح بعوضة.

● ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم، وحيكم وميتكم، ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا في صعيد واحد، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مرَّ بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه.

ذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد. عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له: كن، فيكون.

هذه الروايات بالإضافة إلى رواية ابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد وكلها عن أبي ذر تبين ما يمكن أن تتعرض له بعض الروايات من نقص في بعض الجمل، وتستدرك على النساخ ما يمكن أن يكون قد فاتهم هذا وقد أخرج الطبراني هذا الحديث بمعناه عن أبي موسى الأشعري[1] وكلها تؤكد وتبسط الأفكار الرئيسية الواردة في هذا الحديث من

(١) قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: إلا أن إسناده ضعيف.

تحريم الظلم والتذكير بنعم الله وتقرير أن المعصية إنما تضرُّ فاعلها فقط ولا تضر الله سبحانه ولا تنقص من ملكه، وأن خزائنه لا تنفد، وأن الناس مؤاخذون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ويحسن أن نورد رواية ابن ماجه هذه. قال: (٢/برقم ٤٢٥٧).

[حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا عَبْدَةُ بن سليمان عن موسى بن المسيَّب الثقفي، عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى يقول:

يا عبادي! كلكم مذنبٌ إلاّ مَنْ عافيت. فسلوني المغفرة، فأغفر لكم. ومن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني بقدرتي؛ غفرت له.

وكلكم ضال! إلاّ من هديت. فسلوني الهدى أهدكم. وكلكم فقير إلا من أغنيت. فسلوني أرزقكم.

● ولو أن حيكم وميتكم. وأولكم وآخركم، ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا فكانوا على قلب أتقى عبد من عبادي، لم يزد في ملكي جناح بعوضة.

ولو اجتمعوا فكانوا على قلب أشقى عبد من عبادي، لم ينقص من ملكي جناح بعوضة.

● ولو أن حيكم وميتكم، وأولكم وآخركم، ورطبكم ويابسكم، اجتموا فسأل كل سائل منهم ما بلغت أمنيته؛ ما نقص من ملكي إلا كما لو أنَّ أحدكم مرّ بشفة البحر فغمس فيها إبرة ثم نزعها.

ذلك بأني جواد ماجد. عطائي كلام. إذا أردت شيئاً فإنما أقول له: كن فيكون]

من أول ما يلفت أنظارنا في هذا الحديث الرئع التنبيه على إنسانية الإنسان، هذا المعنى الذي يواجهنا في كثير من النصوص الدينية الإسلامية

في الكتاب الكريم والسنة المطهرة.. إننا نلمس هذه المساواة في الناس فلا التقدم في الزمان يجعل للمتقدم فضيلة ولا التأخر يلحق به نقيصة، ومن هنا كانت هذه المساواة التي تسوي بين أول الخلق وآخرهم، ولا الكبر في السن يعطي الكبير مزية عن غيره، جاء في بعض هذه الروايات «ورطبكم ويابسكم» وقد فسرها العلماء بالشباب والشيوخ... بل إن المساواة في الحقوق والواجبات ليست في الناس فقط بل إنها تتجاوزهم إلى الجن أيضاً.. إن الخلق في هذا متساون إنسهم وجنهم وأولهم وآخرهم وصغيرهم وكبيرهم وغنيهم وفقيرهم وعالمهم وجاهلهم فإذا كان هذا بالنسبة إلى الخلق والثقلين، فإنه أوضح بالنسبة إلى الإنسان. نعم في هذا الحديث تقرير لإنسانية بني الإنسان ومساواتهم، فالكل جائع إلا من أطعمه الله، والكل عار إلا من كساه الله، والكل ضال إلا من هداه الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧] ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. فالإنسان بذاته لا يملك شيئاً، والكل من الله الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى... ألا فليعد كل امرىء إلى إنسانيته، وليطامن من غروره في كل ما يفتخر البشر به من طعام وملبس وعبادة وهداية. وما أعظم هذا التأديب من الله تبارك وتعالى.

إن الفضل فيما يتنعم به المترفون من الطعام والشراب والكساء لله وحده، وإن الفضل في الأمن الذي يرتع فيه المتقون بسبب الهداية لله وحده. وفي هذا من التذكير بإنسانية الإنسان وضعفه ما فيه.

وفي هذا الحديث الجميل هذا الإيقاع الرائع، الذي يخيل إليك أنك تسمع كلاماً موزوناً.. تلمسه في كل جملة من جمله.. وربما كان للموازنة والطباق أثرٌ في ذلك، بالإضافة إلى القدرة القادرة في اختيار الألفاظ الزاخرة بالطاقة الموسيقية الرائعة.

وانظروا وأسمعوا: يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستعطموني أطعمكم.

يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم.

وهكذا جمل الحديث كلها.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أتقى رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم و إنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

ويتدرج الإيقاع بتماوج وتفسير يؤدي خدمة للمعنى حتى تصل إلى نهاية الحديث.

في هذا الحديث الجليل خمسة أمور:

● **الأول**: تحريم الظلم.

● **والثاني**: التذكير بنعم الله الكثيرة الوفيرة التي تغمر عباده من الهداية والإيمان، ومن الطعام الطيب، والشراب العذب، ومن الكساء الواقي من البرد والحر، المتخذ للزينة والأبهة والتفاخر، ومن مغفرة الذنوب والمعاصي.. وإنها لنعم عظيمة سنقف عندها متأملين إن شاء الله فيما نتسقبل من دورس هذا الحديث.

● **الثالث**: تقرير أن المعصية لا تضر الله ولا تنقص من ملكه شيئاً، وأن الطاعة لا تنفعه ولا تزيد في ملكه، بل النفع والضر هو للعباد أنفسهم.

● **الرابع**: تقرير أن خزائن الله لا تنفد، وأن أبوابه لا تحجب وأنه يطلب من عباده دعاءه.

● **الخامس**: أن أعمال العباد محصاة عليهم وأنهم سيرون جزاءها في الأخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾.

* * *

يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا:

إنَّ الله تبارك وتعالى حرّم الظلم على نفسه.. فما يكون منه ظلم كما قال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤] وقال: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠ ـ الروم: ٩] ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ . فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٣ ـ ٥٤] ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ۖ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧] ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١].

والآيات في تحريم الظلم كثيرة مشهورة معروفة. وقد حرم سبحانه الظلم على نفسه، لأنه سبحانه منزه عن النقائص تقدست صفاته. وقد نطقت بذلك الآيات الكثيرة والأحاديث.

وبعد أن تقرر أنَّ الله تبارك وتعالى لا يظلم قال سبحانه: «**وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**» وقوله: «**فلا تظالموا**» تأكيد لقوله: «**وجعلته بينكم محرماً**» ذلك لأنَّ الإنسان بطبعه ميَّال إلى ظلم الآخرين ما لم يمنعه

من ذلك مانع شرعي أو اجتماعي أو عرفي، ويصدق قول الشاعر إلى حد بعيد عندما قال:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وأعظم الأسباب في لزوم العفة والبعد عن الظلم الدين والخوف من الله والتزام شرعه. وفي هذا الحديث بيان أن الظلم من جهة واحدة محرم والتظالم من جهتين بأن يظلم المسلم أخاه ويقابله ذاك بالظلم كل ذلك محظور في شريعة الإسلام المطهرة.

والأحاديث في هذه كثيرة. فمن ذلك ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الظلم ظلمات يوم القيامة»[1].

فهذا الجناس اللطيف بين الظلم والظلمات في هذا الحديث الموجز الجميل يدل على أن الظلم يكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً، بينما يكون المؤمنون الصالحون العاملون مغمورين بالنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وينطلقون إلى السبيل السوي الذي يقودهم إلى الجنة.

وكذلك فنستطيع أن نفهم الظلمات أيضاً أنها الشدائد، والشدائد ظلمات لا يتبين الواقع فيها سبيل الرشاد، وهي عقوبة للظالم ونكال به.

إن هذا الحديث يخيف المؤمن الصادق من الوقوع في ظلم الآخرين ويحجزه عن ذلك.

قال العلماء: الظلم نوعان:

أحدهما ظلم النفس، وهذا درجات **أعظمها** الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فإن المشركجعل المخلوق في منزلة الخالق، فعبده، فظلم نفسه إذ أهلكها.

والظلم وضع الأشياء في غير مواضعها. وأكثر ما ورد في القرآن من

(١) صحيح البخاري (الفتح ٥/١٠٠ رقم ٢٤٤٧) ومسلم ٨/١٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ثم يلي الشرك المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر.

والثاني: ظلم العبد غيره، وهو المذكور في هذا الحديث. وقد قال النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت اللهم فاشهد»(١).

إن كل إيذاء للمسلم ظلم له.. فلا يجوز أن يقع المرء في عرض أخيه، ولا أن يعتدي على ماله، وأعظم المحرمات عند الله بعد الشرك قتل النفس التي حرم الله، وقد استقر ـ عند العرب ـ تعظيم مكة والشهر الحرام ويوم الحج، ولذا فقد ربط الرسول ﷺ بين حرمة دم المسلم وماله وعرضه وبين حرمة هذه الأمور التي لا يماري فيها أحد من السامعين، وهذا أسلوب موفق ناجح من أساليب البيان والإقناع. وفي رواية أنه قال في هذه الخطبة: «ألا لا تظالموا، إنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه»(٢).

والمال من الأسباب الرئيسية في وجود الخلاف بين الناس، وقد حذّر الإسلام من أكله بالباطل، فلا يحل مال مسلم إلا عن طيب نفس منه، ويدل ذلك على أن أخذه بموافقة صورية من صاحبه غير جائز.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] رواه البخاري ومسلم والترمذي(٣).

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١/١٥٧ رقم ٦٧) وصحيح مسلم ١٦٧٩.

(٢) المسند ٥/٧٢.

(٣) صحيح البخاري (الفتح ٨/٣٥٤ رقم ٤٦٨٦ وصحيح مسلم رقم ٢٥٨٣ وصحيح الترمذي للألباني ٢٤٨٥ وانظر الترغيب والترهيب ٣/٧٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أجل .لا يضيع شيء عند الله ،فقد يملي للظالم ولكنه إذا أمسكه لم يفلته ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣] ولنا عبرة بما حصل للأمم من قبلنا، فقد أصاب العذاب القرى الظالمة، وكان أخذها أليماً شديداً.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإنْ لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» رواه البخاري[1].

وصية غالية نفيسة يوجهها رسول الله ﷺ إلى الذين صدر منهم ظلم لإخوانهم.. يوصيهم بالمسارعة إلى أن يتحللوا ممن ظلموهم، ويطلبوا منهم العفو والمسامحة بعد أن يؤدوا لهم ما أخذوه منهم، لأنَّ في هذه الحياة الدنيا مجالاً للعمل والاسترضاء وأداء الحقوق لأصحابها، فقد يكون التحلل بدفع نصيب من المال، والمال موجود، وقد يكون بطلب المسامحة والعفو... فليغتنم العبد هذه الفرصة من قبل أن يأتي يوم لا درهم فيه ولا دينار.. إن الظالم يومئذ إن كان له عمل صالح أخذ من حسناته بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلومين فطرحت عليه، فكان من الهالكين. وهذا هو المفلس حقاً كما سمّاه النبي ﷺ في الحديث الجميل المعبر الآتي:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته،

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١٠١/٥ رقم ٢٤٤٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1].

والتعبير عن هذا الظالم الهالك بأنه مفلس في غاية الروعة وصدق الدلالة، ذلك لأن المفلس في الدنيا على حدّ تعريف الصحابة له قد يصبح من كبار الأثرياء. وكم رأينا في الحياة ناساً كانوا مملقين فقراء، ثم أغناهم الله من فضله وغدوا من الأغنياء الموسرين، وقد سمعت كلمة لاقتصادي كبير يقول: إن المرء مهما ساءت أحواله المادية لا يعد مفلساً ما دام قادراً على العمل ولديه الأمل في الكسب. أما في الآخرة فالذي يضيع حسناته ويحمل فوق سيئاته سيئات الذين ظلمهم ويطرح في النار.. هذا هو المفلس حقاً.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا (ثلاثاً ويشير إلى صدره) بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[2].

كلما ابتعدت البشرية عن شريعة الله تفاقم بين جنباتها الظلم، وتخاصم أبناؤها وتظالموا، ذلك لأن النفس البشرية عندما تتجرد من الدين والإيمان تستيقظ فيها نوازع الشر، والظلم من شيم النفوس.

إي والله، لولا أن شريعة الله هذبت طباع الناس، وكفكفت من سيطرة الشح عليها، وكبحت من جماح العداوة التي لازمتهم منذ أن نزلوا إلى الأرض ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[البقرة: ٣٦].. لولا أن شريعة الله فعلت ذلك لساد الظلم أرجاء الكون كما هو واقع الآن، وكما كان الأمر قبل بعثه النبي ﷺ..

---

(١) صحيح مسلم ١٨/٨ وجامع الترمذي ٢٩١/٣.
(٢) صحيح البخاري ١١٢/٣ وصحيح مسلم ١٨/٨.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

إننا لنرى ونسمع اليوم من أحداث العالم أموراً صارخة في الظلم: انحدر فيها الإنسان الذي تنكب شرع الله إلى أسفل سافلين حيث ينحط عن مستوى الحيوان، القوي يظلم الضعيف، والغني يظلم الفقير، والكبير يظلم الصغير..

وقد عمَّ هذا وطم.. وإنا لله وإنَّا إليه راجعون.

وقد ولَّد هذا الظلم في نفوس كثير من الناس عقداً قاتلة، وجار على الموهبة فجعل نورها يخبو، وتوقدها يخمد، وشعلتها تنطفىء، وحيويتها تذبل، وأفسد التربية، فأضحت المادة والمصلحة الشخصية والأثرة في نظر كثير من الناس هي الهدف والغاية.

وكان من نتائج هذا الظلم سيادة الحقد بين الناس، فلا رحمة ولا تعاطف، ولا عدالة ولا تآلف، ولا إنصاف ولا إحسان.. بل القسوة والعدوان، والاضطهاد والطغيان، والاستخزاء والهوان.

فحوَّل ذلك الحياة إلى جحيم لا يطاق.. ونشط الإجرام.. وزادت نسبة الانتحار.

نعم.. لو تعَّمق الناس في نظرتهم لتلك الحياة لرأوها جحيماً حقيقياً، وبؤساً لا يوصف، لو أمعنوا النظر.. وتأملوا في حقيتها لرأوا ذلك عين اليقين. ولكنهم في غفلتهم لاهون، وبسفاسف الأمور مشغولون، وبأغلال المهانة التي يطوقهم بها طواغيتهم مقيدون، وصدق الله العظيم: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [سورة التكاثر: ٤ ـ ٧].

إن العدالة المطلقة التي بلغت مستوى الكمال هي العدالة الإلهية التي يلمسها المؤمنون في العقيدة والتشريع، في كل حكم وفي كل تصرف من أحكام الشريعة وتصرفاتها.

ومن هذه العدالة أنَّ الله تبارك وتعالى ترك مجال الاختيار متاحاً لكل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عبد، يتجه حيث يريد، ولو شاء سبحانه وتعالى لجعل الناس كلهم مؤمنين.

قال ابن تيمية: [إن الظلم الذي حرّمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، وأن يعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات، ويعاقب هذا بذنب غيره، أو يحكم بين الناس بغير القسط، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها. وإنما استحق الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه][1].

ومما ينسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلمُ مَرْتَعُه يُفْضي إلى الندمِ
تنام عينك والمظلوم مُنْتَبِهٌ ... يَدْعو عليك وعين الله لم تنمِ[2]

إنَّ على المرء أن يتذكر جيداً أنَّ الزمان لا يدوم عل حال، فإذا كان اليوم مقتدراً فربما لا يكون غداً كذلك.. بل قد يأتي يوم يكون فيه ضعيفاً يمكن أن يقع عليه انتقام المظلومين أو عدوان الظالمين، فالظلم مرتعه وخيم، وهو يفضي إلى الندم حين لا ينفع الندم. ومما ينسب إلى سيدنا علي[3]:

وحقِّ الله إنَّ الظلمَ لؤمٌ ... وإن الظلم مرتعه وخيمُ
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غداً عند المليك من الظلومُ
ستنقطع اللذاذة عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الهمومُ
لأمر ما تصرَّفت الليالي ... لأمرٍ ما تحركت النجوم
سل الأيام عن أمم تقضت ... ستخبرك المعالِمُ والرسومُ
تروم الخلد في دار المنايا ... فكم قد رام مثلك ما تروم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبَّهْ للمنية يا نؤومُ

---

(١) الفتاوى ١٨/١٤٦.
(٢) ديوان الإمام علي: ١١٠.
(٣) ديوان الإمام علي: ١١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لهــوت عن الـفنــاء وأنـت تفـنى فـمــا شيء مـن الــدنيــا يــدوم

إن الظالم قد ينام غير مبال بما يقع بالمظلومين الذين لا يستطيعون النوم لتجرعهم مرارة الظلم فيتضرعون إلى الله ويدعون أن ينتقم لهم من ظالميهم، ودعوة المظلوم مستجابة وليس بينها وبين الله حجاب.

روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

وفي حديث أبي هريرة أن ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه

صورة رائعة تبين لنا أن دعوة المظلوم مستجابة. وفي روايات أن الدعوات الثلاث هي دعوات المسافر والوالد والمظلوم[1].

وقال شاعر يصف دعوة المظلوم:

وساريةٍ لم تَسْرِ في الليل تبتغي محلاً، ولم يقطع بها البيد قاطعُ
سرت حيث لم تسرِ الركاب ولم تُنَخْ لِوِرْدٍ ولم يقصر لها القيد مانعُ
تمرُّ وراء الليل، والليل ضاربٌ بأرواقه، فيه سميرٌ وهاجعُ
تفتح أبواب السماوات دونها إذا قرع الأبواب منهنَّ قارعُ
إذا وفدت لم يردد الله وفدها على أهلها، والله راءٍ وسامع

أجل وقد رأينا في واقع الحياة تحقق استجابة دعوة المظلوم، فلا نامت أعين الطغاة الظلمة.

قال ابن نباته:

يا رُبَّ ذي ظُلْمٍ كمنتُ لحربه فأوقعه المقدور أي وقوع

(١) الترغيب والترهيب ٣/٧٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وما كان لي إلاّ سلاحُ تهجدٍ وأدعية لا تتقى بدروع
وهيهات أن ينجو الظلوم وخلفه سهام دعاء من قسي ركوع
مريشةً بالهدب من جفن ساهر منصلةً أطرافها بنجيع

ولقد قال الحكماء من علماء سلفنا، والبلغاء من شعرائنا حكماً في التحذير من الظلم وبيان عاقبته الوخيمة ملأت بطون الكتب، ونود أن نورد نبذة منها، ونحن نعيش في ظلال قوله سبحانه في هذا الحديث القدسي الجميل: «يا عبادي إني حرمت الظلم عن نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

وقد عقد البحتري باباً خاصاً في كتابه «الحماسة» وهو الباب الثاني والستون فيما قيل في ذم عاقبة البغي والظلم، وخصَّ ابنُ قتيبة هذا الموضوع بشيء من الاهتمام في كتابه «عيون الأخبار».

قال أُبَيُّ بنُ حُمام العبسي[1]:

أيا قومنا لا تظلمونا فإنّنا نرى الظلم أحياناً يُشلُّ ويُعْرِجُ
ويترك أعراض الرجال كأنّها فريسة لحم ليس عنها مهجهجُ

أي: ليس عنها مدافع.

وقال درهم بن زيد الأنصاري[1]:

أرى قومنا ـ والبغي مُهْلِكُ أهله ـ يريدون ظلماً في العشير ومأثما
يريدوننا عن خطة لا نريدها وقولٍ، نواحيه لهم تقطر الدما

وقال المتلمس الضبعي:

ومن يبغ أو يسعى على الناس ظالماً يقع غير شكٍّ لليدين وللفم

وبمعنى هذا البيت ما رواه الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: كان رجلٌ من العرب إذا رأى رجلاً يظلم ويعتدي يقول: فلان لا يموت

---

(١) الحماسة للبحتري: ١٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

سوياً. فيرون ذلك، حتى مات رجل ممّن قال ذلك فيه، فقيل له: مات فلانٌ سوياً. فلم يقبل، حتى تتابعت الأخبار فقال: إن كنتم صادقين فإن لكم داراً سوى هذه تُجازون فيها[1].

وهناك مثل عامي شائع في بعض البلاد العربية معناه: إذا رأيت ظالماً فلا تدفعه بيدك، إنه سيقع منكباً على وجهه، من غير جهد منك.

ويقول محرز بن خلف:

إذا ظالمٌ قد حالف الظلمَ مذهباً ... وجار غلواً في قبيح اكتسابه
فكله إلى ريب الزمان وجوره ... سيبدي له ما لم يكن في حسابه
فكم ذا رأينا ظالماً متجبراً ... يرى النجم، تيهاً، تحت ظل ركابه
فلما تمادى واستطال بجوره ... أناخت صروف الحادثات ببابه
وعوقب بالذنب الذي كان يجتني ... وصبَّ عليه الله سوط عذابه
فلا فضة تحميه عند انفضاضه ... ولا ذهب بثنيه عند ذهابه

ويبدو أنَّ حمل بن بدر كان رجلاً ظالماً وصُرع لظلمه، فقال فيه قيس بن زهير العبسيّ[2]:

ولولا ظلمه ما زلت أبكي ... عليه الدهر ما طلع النجومُ
ولكن الفتى حَمَلَ بن بدرٍ[3] ... بغى، والبغي مرتعه وخيم

وكتب رجلٌ من الكتاب إلى سلطان: «أعيذك بالله من أن تكون لاهياً عن الشكر، محجوباً بالنعم، صارفاً فضل ما أوتيت من السلطان، إلى ما تقل عائدته، وتعظم تبعته من الظلم والعدوان.

وأن يستزلَّك الشيطان بخَدْعه وغروره وتسويله، فيزيل عاجل الغبطة،

---

(١) عيون الأخبار ١/٧٥.
(٢) الحماسة للبحتري ١٦٦.
(٣) انظر بعض أخبار حمل بن بدر في قصة داحس والغبراء في كتاب قصص العرب والأغاني. وانظر ما جاء في كتاب قول على قول ٢/٢٠٧ وما بعدها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وينسيك مذموم العاقبة، فإنَّ الحازم من يذكر في يومه المخوفَ من عواقب غيره، ولم يغرَّه طول الأمل، وتراخي الغاية، ولم يضرب في غَمْرة من الباطل ولا يدري ما تتجلَّى به مغبتها، هذا إلى ما يتبع الظالم من سوء المنقلب، وقبيح الذكر، الذي لا يفنيه كرّ الجديدين، واختلاف العصرين»[1].

وذكر الظلم في مجلس ابن عباس، فقال كعب: إني لا أجد في كتاب الله المنزل أن الظلم يخرب الديار. فقال ابن عباس: أنا أَوجِدُكَهُ في القرآن. قال الله عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾[2] [النمل: ٥٢].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: «أما بعد، فإذا دعتك قدرتُك على الناس إلى ظلمهم فاذكر قدرة الله عليك، وفناء ما تؤتي إليهم وبقاء ما يؤتون إليك والسلام»[3].

ولو قرأنا في أسفار التاريخ لوجدنا عدداً من الظلمة قد ابتلوا بأظلم منهم.

قال حسان بن ثابت:

نـدع السؤال عن الأمـور وبحثهـا ... ولـرب حافـر حفرة هـو يصـرع[4]

وذكر الإمام الطبري في تاريخه أن محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أمر بعمل تنور من خشب فيه مسامير حديد ليعذب به خصومه. ولما غضب عليه المتوكل أنزل في هذا التنور الذي أعده هو. ثم قتل[5].

---

(١) عيون الأخبار ١/٧٥.
(٢) عيون الأخبار ١/٧٦.
(٣) عيون الأخبار ١/٧٩.
(٤) حماسة البحتري ١٦٦.
(٥) تاريخ الطبري ٩/١٥٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال عباد بن عمرو التغلبي[1]:

ما ورَّثَ البغي قوماً غيرهم رشداً ... بل يهلكون به والدهر ألوان

وقال صالح بن عبد القدوس[2]:

وما غنم العادي على الناس ظالماً ... ولا خاب مظلوم عفا حين يظلم

وقال جواس بن القعطل[1]:

يا قومنا لا تظلمونا حقنا ... والظلم أنكد غبُّه مشؤوم

قد نال بالعقبات منه وائلاً ... يومٌ أصم على الرقاب غشوم

وتهالكت غطفان فيه فدارها ... موروثة، وإناؤها مثلوم

وقال كعب بن مالك الأنصاري[2]:

إياكمُ أن تظلموا أو تناصروا ... على الظلم إن الظلم يردي ويهلك

لوى ببني عبس وأحياء وائل ... وكم من دم بالظلم أصبح يسفك

وقال يزيد بن الحكم الثقفي[2]:

ومن يتخبط بالمظالم قومه ... وإن كرمت فيهم وعزت مناصبه

يخدّشْ بأظفار العشيرة خده ... ويجرح ركوباً صفحتاه وغاربه

وقال ضرار بن الأزور الأسدي[3]:

إنّ الأمور قد آصفاها الإله لكم ... فلا يزيلنكم بغي ولا بطرُ

تفكروا هل بغى ممن مضى أحد ... إلا أحاط به من بغيه الغِيَرُ

وقال حسان بن ثابت[4]:

وكم حافر حفرة لامرىء ... سيصرعه البغي فيما احتفر

النداءُ العلوي المحبب الذي تكرر في مطلع كل جملة (يا عبادي)..

---

(١) الحماسة: ١٦٧.

(٢) الحماسة: ١٦٨.

(٣) الحماسة: ١٦٩.

(٤) الحماسة: ١٧٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نداءً يصل هذا الإنسان بخالقه، ويذكره بعبوديته له، هذه العبوديه التي إن تحققت في المرء فجرت فيه المعاني الكريمة من التحرر والشجاعة والاستقامة:

«يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم».

نداء في إثر نداء من الله العلي الكبير، ملك الملوك، جبار السموات والأرض..

نداءات تلامس أسماعنا وقلوبنا وتهز مشاعرنا ونفوسنا، وتذكرنا بالنعم الكثيرة العظيمة، تذكرنا بإحسانه تبارك وتعالى إلى عباده مع غناه عنهم وفقرهم إليه.

إنّ هؤلاء العباد لا يقدرون على جلب منفعة لأنفسهم، ولا على دفع مضرة عنهم، إلا أن يكون سبحانه هو الميسر لذلك.. ولذلك فقد أمرهم أن يسألوه ذلك ولما كانت الهداية أعظم نعم الله على العباد ابتدأ بالتذكير بها فقال:

«يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم».

والحق أن أجل نعم الله على العبد نعمة الهداية إلى الإيمان قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ومن المفيد أن نقف أمام لفظة الهداية.

إن للعلماء تفريقاً دقيقاً مهماً بين أنواع من المعاني لهذه الكلمة، ومعرفة هذه الفروق بين تلك المعاني يُعين على فهم النصوص القرآنية والحديثية.

إننا نقرأ في كتاب الله قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. ونقرأ قوله سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ليس من شك في أن ظاهر الآيتين متعارض فواحدة تقول: ليس عليك هداهم والأخرى تقول إنك لتهدي.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وبالوقوف على الفروق الدقيقة بين المعاني يزول الإشكال وتفهم الآيتان على الوجه الصحيح قال ابن تيمية[1]:[الهدى أربعة أقسام:

أحدها: الهداية إلى مصالح الدنيا، فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم، وبين المؤمن والكافر].

أقول: ويوضح هذا المعنى المثل، فالطفل الصغير يُهدى من أول لحظة ينزل فيها من بطن أمه إلى الرضاعة، واستدعاء العون بالبكاء.. والحيوان الأعجم يهدى كذلك إلى الرضاعة ثم الرعي، والطائر يهدى إلى بناء عشه وتفريخ بيضه وإلى كيفية دفع الأذى عن نفسه... إلى غير ذلك قال تعالى على لسان موسى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٨ ـ ٥٠].

ثم قال شيخ الإسلام:

والثاني: الهدى بمعنى دعاءِ الخلق إلى ما ينفعهم وأمرِهم بذلك، وهو نصب الأدلة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فهذا أيضاً يشترك فيه جميع المكلفين، سواء آمنوا أو كفروا. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٣] فهذا مع قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] يبين أن الهدى الذي أثبته هو البيان والدعاء، والأمر والنهي، والتعليم وما يتبع ذلك. ليس هو الهدى الذي نفاه، وهو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه إلا الله.

القسم الثالث: الهدى الذي هو جعل الهدى في القلوب، وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد... وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في

---

(١) الفتاوى ١٨/١٧١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القرآن في مثل قوله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وفي قوله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]..... وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].....

والقسم الرابع: الهدى في الآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣ - ٢٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]... وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا، كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا - وكما أنَّ قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٣][1] انتهى.

وهكذا فإن قوله: «فاستهدوني أهدكم» أي اطلبوا مني التوفيق إلى الهداية وإحلالها في القلوب أهدكم.

قال الإمام النووي:

[قال العلماء: لفظ الهدى له معنيان:

١ ـ أحدهما بمعنى الدلالة والإرشاد: وهو الذي يضاف إلى الرسل والقرآن والعباد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الأسراء: ٩] ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

(١) الفتاوى ١٨/١٧٢ - ١٧٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١١٧] أي بينا لهم الطريق. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

٢ ـ والثاني بمعنى اللطف والتوفيق والعصمة والتأييد، وهو الذي تفرد الله به.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقالت القدرية: حيث جاء الهدى فهو للبيان، بناءً على أصلهم الفاسد في إنكار القدر، وردّ عليهم أصحابنا وغيرهم من أهل الحق مثبتي القدر لله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] ففرق بين الدعاء والهداية][1].

وقال الراغب الأصفهاني:

[وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عمَّ بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعمّ منها كل شيء بقدرٍ فيه حسب احتماله كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٤٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤/٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧] وقوله ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكوت: ٦٩] ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٣] ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النور: ٤٦].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، والمعنيُّ بقوله: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٥] ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإنّ من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه. ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة. ومن حصل له المعنى الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله.

ثم ينعكس فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث.

والإنسان لا يقدر أن يهدي أحداً إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات....

وكل هداية ذكر الله عز وجل أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة نحو قوله عز وجل ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾



شبكة الألوكة - قسم الكتب

[آل عمران: ٨٦] وكقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧].

وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختصَّ من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة كقوله عز ذكره ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

لقد وقفنا وقفة طويلة عند هذه الفقرة التي فيها كلمة (الهداية) لانَّ فهمها خالطه اضطراب شديد عند علماء الكلام، فزلت أقدام رجال الفرق في فهمها كالقدرية، وقد ناقشهم في فهمهم المغلوط شيخ الإسلام ابن تيمية مناقشة موضوعية مفحمة في مواضع من رسائله وكتبه وفتاواه، والخوض في تفصيل ذلك يخرج بنا عن حدود الدارسة الحديثية، وفي الإشارة إلى ذلك كفاية إن شاء الله.

إذا تأملنا الواقع التاريخي نجد مصداق هذا الحديث القدسي الرائع. لقد كانت الدنيا ترسف في أغلال الضلال والخرافة والجور قبل أن يبتعث الله عبده محمداً ﷺ فهداهم الله إلى الحق بهذا النبي وبالكتاب الذي أنزله عليه.. وناداهم ودعاهم.. فمنهم من اهتدى وانقاد إلى الحق.. وهؤلاء هم الذين هداهم الله هداية توفيق وإرشاد، وزادهم هدى وآتاهم تقواهم، وأعرض آخرون واستحبوا العمى على الهدى.

وموقف الناس من هداية الله مختلف بحسب اختياراتهم ومعادنهم، فمن كان شريراً ومعدنه خسيساً آثر العمى على الهدى، ومن كان خيراً ومعدنه طيباً اختار الهدى واستجاب لدعوة الله وهؤلاء هم المقصودون هنا، وهم المدعوون أن يطلبوا الهداية والتوفيق.

يا عباد الله أقبلوا على الله، واطلبوا الهدى من الله.
يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم.

* * *

ولنتحدث عن النعم الأخرى التي أشار إليها هذا الحديث القدسي العظيم:

«يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم».

إنَّ نعم الله علينا كثيرة وصدق الله العظيم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [ابراهيم: ٣٤] ومن هذه النعم نعمة الكفاية... إن الطعام يدفع غائله الجوع، ويجلب اللذة والمتعة، وإنه ليمدُّ الجسم بسبب الحياة والنشاط، ويتيح لموهبة الإبداع أن تظهر في مجال الفكر والفن والعمران والحضارة. ولقد امتنَّ الله على قريش بأنه أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [سورة قريش].

إنَّ من أهم الضرورات سدّ حاجة البطن إلى الطعام، ومن هنا كان إطعام الطعام قربة من أعظم القربات التي يتقرب الناس بها إلى الله، ويوصف بها الإبرار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٥ - ٩] **ومن هنا** أيضاً كان منع الطعام عن الجار الجائع نافياً للإيمان روى البخاري في «الأدب المفرد» والحاكم البيهقي والطبراني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»(١).

هذا والناس مفتقرون إلى الله أشد الأفقتار وهو سبحانه غني عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وله

---

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٥٣٨٢ وقال: صحيح. وانظر «المستدرك» ٤/١٦٧.

سبحانه خزائن السموات والأرض وهو الرزاق ذو القوة المتين.. إن الذي يطعمه الله هو الذي يُطعم.. وإطعام الله للإنسان يتحقق بأن يهيىء له ما يأكله من النبات والحيوان، ويوفر له المال الذي يجلب به طعامه، ويتفضل عليه بالوضع الصحي السليم، فكم من غني يملك الأموال الطائلة، وفي حوزته طيبات الطعام والشراب، ولكنه لا يقوى على تناولها وذوقها لمرض أصابه..

إن المطعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، والأسباب قد تتخلف.. انظر يا أخي إلى الوضع الذي تعرضه علينا الأنباء القريبة في حياتنا: يسود الجفاف بقعة ما من العالم.. فتنتشر المجاعة ويشكو أهلها ويضجون، ويتصورون أنّ حلّ مشكلتهم في أن ينزل الغيث.. ولكن قد يحصل أن الأمطار المرجوة تأتي مدمرة لمزارعهم، مخربة لبيوتهم، مهلكة لمواشيهم، فيتحول سبب الخصب والنماء إلى عارض مدمّر.. وما يحل ما يحل بالناس إلا بسبب الذنوب.

أليس هذا دليلاً ملموساً ناطقاً على أن المطعم الحقيقي هو الله «كلكم جائع إلا من أطعمته».

وقد يغترُّ المرء بما وصل إليه من تقدم في التقنية والآلات التي تستنبط الماء من باطن الأرض فيلجئه هذا الاغترار الأحمق إلى أن يكفر بنعمة الله، ويستغني عن رحمة الله، كما حصل في بعض البلاد، إذ قال متطاول على الله، مجاوز لحدّ العبودية، بعد أن استحضرت بلاده آلات متقدمة قال: إننا لسنا بحاجة بعد اليوم إلى رحمة السماء.. فحقت عليه كلمة العذاب.. فإذا القحط والجفاف يسود سنوات حتى نضبت المياه من أعماق الأرض، وجفت الآبار، وأضحت تلك الآلات حديداً لا يسمن ولا يغني من جوع.

إن المطعم الحقيقي هو الله رب العالمين.. لا بُدَّ أن تستقر هذه البديهية في نفس الإنسان المؤمن، وعندئذ فلا ينبغي أن يتوجه بالسؤال والدعاء إلا إلى الله. يقول تعالى:

«فاستطعموني أطعمكم» إن الالتجاء إلى الله ودعاءه والطلب منه من لوازم الإيمان. والدعاء شيء مهم في حياة المسلم.. ندبه إليه في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ضروراته كالطعام وفي أمانيه وتطلعاته، بل إن الصلاة التي هم أركان الإسلام دعاء في أوضاع متعددة من القيام والركوع والسجود والجلوس، ومعناها في اللغة الدعاء.

وربنا يأمرنا في هذا الحديث وفي أحاديث أخرى بأن نتوجه إليه بالدعاء، ووعد بالإجابة «فاستطعموني أطعمكم» وكذلك فإننا نجد مثل هذا الأمر في كتاب الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أمر كريم بالدعاء، ووعد سخي بالإجابة.

والدعاء من أعظم العبادة فعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أخرجه الأربعة وصححه الترمذي والحاكم(١).

ويؤيده ما أخرجه الترمذي من حديث أنس رفعه «الدعاء مخ العبادة»(٢).

وقد تواردت الآثار عن النبي ﷺ بالترغيب بالدعاء والحث عليه كحديث أبي هريرة: «ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء» أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وصححه ابن حبان والحاكم(٣).

---

(١) الفتح ٩٤/١١ وانظر أبو داود برقم ١٩٧٤ والحاكم ٤٩١/١ وابن ماجه ٣٨٢٧ وصحيح الترمذي للألباني برقم ٢٦٨٥ وانظر تعليقنا على الحديث ٤٤ من «أحاديث القصاص» لابن تيمية.

(٢) الترمذي ٢٢٣/٤.

(٣) انظر «صحيح الترمذي» للألباني برقم ٢٦٨٤ وابن ماجه برقم ٣٨٢٩ والمستدرك ٤٩٠/١ والأدب المفرد طبع السلفية برقم ٧١٢ ومسند أحمد ٣٦٢/٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وحديث أبي هريرة رفعه «من لم يسأل الله يغضب عليه» أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه والبزار والحاكم كلهم من رواية أبي صالح الخوزي، وهو مختلف فيه، وقد قواه أبو زرعة[1].

ويؤيده حديث ابن مسعود رفعه «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل» أخرجه الترمذي[2].

والدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه.

هذا وإن كل داع بصدق وإخلاص يستجاب له، لكن تتنوع الإجابة فتارة تقع بعين ما دعا، وتارة بعوضه، وقد ورد في ذلك حديث صحيح أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عبادة بن الصامت رفعه: «ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يَدْعُ بمأثم أو قطيعة رحم»[3].

ولأحمد من حديث أبي هريرة «إما إن يعجلها له وإما أن يدخرها له»[4].

ولأحمد في حديث أبي سعيد رفعه «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث:

- إما أن يعجل له دعوته.
- وإما أن يدخرها له في الآخرة.
- وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»[5].

---

(١) الأدب المفرد ط السلفية برقم ٦٥٨ وابن ماجه ٣٨٢٧ والترمذي ٤/٢٢٤ والمستدرك للحاكم ١/٤٩١.

(٢) الترمذي ٤/٢٧٩ وانظر ضعيف الترمذي للألباني برقم ٧٢٠.

(٣) صحيح الترمذي للألباني برقم ٢٨٢٦.

(٤) المسند ٢/٤٤٨ والحاكم ١/٤٩٧.

(٥) المستدرك للحاكم ١/٤٩٣ والمسند لأحمد ٣/١٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن شروط الإجابة:

١ ـ الإخلاص وقد دل على ذلك قوله تعالى في سورة غافر: ٦٥ ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

٢ ـ ألاَّ يكون في دعائه إثم ولا قطيعة رحم. وقد دل على ذلك الأحاديث المذكورة آنفاً.

٣ ـ أن يكون طيب المطعم والملبس.

٤ ـ ألاَّ يستعجل لقوله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يقل: دعوت فلم يستجب لي» رواه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي وأبو داود[1].

٥ ـ التوبة.

٦ ـ الاستغفار.

يحرص الإسلام على أن يبقى أتباعه متعلقين بالله، ذاكرين عبوديتهم له، وافتقارهم إليه، ويحذرهم في نصوص كثيرة فيها القصص والموعظة والترغيب والترهيب من أن يغترُّوا بما أعطاهم، وأن ينسوا حاجتهم إليه.

وإننا نقرأ في كتاب الله قصة الرجلين، جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب وحفتا بالنخل، وجعل له بينهما زرعاً، وكانت الجنتان تغلان له الكثير فيأكل ويتمتع ويبيع... وكان مع صاحبه المؤمن الفقير فقال يتطاول عليه:

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] وحملته هذه النعم الوفيرة على الكفر بالله فادعى أن جنته هذه ستبقى أبداً هكذا ولن تبيد، ثم جاوز ذلك إلى الكفر فأنكر قيام الساعة، وادّعى أنه سيكون له عند ربه إن كانت هناك

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١١ برقم ٦٣٤٠) وصحيح مسلم ٤ برقم ٢٧٣٥ والموطأ ٢١٣/١، وصحيح الترمذي للألباني برقم ٢٩٩٧ وأبو داود ١٤٨٤.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

آخرة خير منها، فأنكر عليه صاحبه المؤمن وذكره بالله ونصحه، ولكن الغنى أطغاه، والنعمة جعلته يستغني عن رحمة الله ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٦] يذكره ببدايته وفيها عبرة لمن كان له قلب حاضر، وتابع قائلاً: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٨ - ٤١].

[إن صاحبه لمؤمن، فما تشعره كل هذه المظاهر بالهوان، وما تنسيه عزة ربه الديان وما تغفله عن واجبه الصحيح في رد صاحبه البطر إلى جادة الطريق ولو استدعى ذلك أن يجبهه بالتقريع، وأن يذكره بمنشئه الصغير من التراب المهين][1].

[ويبدو أن صاحبه لم يستمع إليه، فهو يقسو عليه قسوة الغاضب لدينه، ويدعو على جنته أن يرسل الله عليها الصواعق، فتصبح جرداء ملساء تزل فيها القدم أو يصبح ماؤها غائراً لا يستطيع أن يطلبه فضلاً عن أن يستخرجه. .][1] وتنتهي هذه القصة بنهاية رادعة لهذا الذي استغنى عن رحمة ربه، وكفر نعمه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

إن هذا الحديث القدسي الرائع ليذكرنا بضرورة اللجوء إلى الله، لأنه وحده الهادي، ولأنه هو وحده المطعم، ولأنه هو وحده الكاسي، «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم».

---

(١) التصوير الفني في القرآن ٥٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ علينا أن نعيد هذه النعم إلى المنعم حتى يديمها علينا ويكرمنا بالهداية والإطعام والإكساء.

وكما كان الطعام ضرورة من ضرورات الحياة فكذلك كان الكساء أيضاً ضرورة فهو يدفع البرد ويقي الحر ويحمي من الحشرات، وهو بعد ذلك زينة وجمال.

وقد يكون التفاخر به أمام الناس أوضح من الطعام، لأنه أكثر ظهوراً.

إن الله عز وجل هو الذي يهيء الكسوة وموادها وأسبابها للإنسان.

فليطلب المرء الكسوة من الله ولا يطلب من أحد سواه، وليعلم أن الكاسي الحقيقي هو سبحانه فليعرف النعمة للمنعم.

وكأني بالحديث قد ذكر هذه الأمور الضرورية لتدل على غيرها من الشرب والسكنى والأمن وما إلى ذلك من ضرورات الحياة.

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شرح هذا الحديث(١):

[هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله، وأنّ من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يُحرمها في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته خطاياه في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] ومثل هذا كثير من القرآن، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال تعالى حاكياً عن آدم وزوجه عليهما السلام أنهما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

(١) جامع العلوم والحكم ٢/٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]. . وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره، وأن كل ما أشرك معه باطل فقال لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ [الشعراء: ٧٥-٨٣] فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة مستحق أن يفرد بالألهية والعبادة والسؤال والتضرع والاستكانة له عز وجل. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وفي الحديث دليل على أنّ الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك. كما يسألونه الهداية والمغفرة وفي الحديث: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع»[1].

وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته.

[وقد ذكروا] أن موسى عليه الصلاة والسلام قال:

يا رب إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحيي أن أسألك قال: سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك.

فإن كل ما يحتاج العبد إليه إذا سأله من الله فقد أظهر حاجته فيه وافتقاره إلى الله وذلك يحبه الله].

---

(١) انظر «ضعيف الترمذي» للألباني برقم ٧٣٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجاء في فتاوى ابن تيمية:

وفي هذا الحديث ما يدل على [وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام، ودفع المضرة كاللباس، وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة، وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك[1].

* * *

يقرر هذا الحديث القدسي حقيقة ملموسة وهي صدور الأخطاء والمخالفات من العباد، ويذكّر بصفة من صفات الله الحسنى.. وذلك في قول الله تعالى في الحديث المذكور: «يا عبادي أنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم».

إن بني آدم خطاؤون، وقد ركبت فيهم الشهوة التي قد تتغلب على إرادتهم فيقعون في المعاصي، فإذا أخطؤوا وعصوا ربهم ناداهم بهذا القول الحاني الرؤوف: لا تنسوا يا عبادي أني أنا الغفار الرحيم، وأني أغفر للمستغفرين، وأتوب على التائبين فاستغفروني أغفر لكم.. إن القنوط من المغفرة يدفع صاحبه إلى طريق المعصية والانحراف، ويحمله على الإيغال في الجريمة والضلال، فيهلك نفسه وأهله ومجتمعه يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وقد أخبرنا رسول الله في الحديث الصحيح خبر ذاك القاتل الذي قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم أراد التوبة، فقال له قائل: ليس لك توبة، فحمله هذا القنوط على قتل ذلك الرجل فكمل به مائة[2].... إن في هذا الحديث دعوة إلى التوبة والإنابة إلى الله واستغفاره. فلنعد إلى الحق ولنقبل على الله ولنتب إليه فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين.

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ١٨/١٧٩.

(٢) صحيح البخاري ٤/١٣٩ وصحيح مسلم ٤ برقم ٢٧٦٦.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ثم يقرر الحديث الجميل أن المعصية لا تضر الله سبحانه والطاعة لا تنفعه؛ وأن العباد لن يبلغوا ضره ولا نفعه، إنهم أضعف من ذلك وأعجز. قال قتادة: «إنَّ الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً به عنهم، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦] وقال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ﴾ [الحج: ٣٧]. قال ابن رجب:

[إنّ الله تعالى يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه، كما يكره منهم أن يعصوه، ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشدَّ من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض، وطلبها حتى أعيى، وأيس منها، واستسلم للموت، وأيس من الحياة، فغلبته عيناه فنام واستيقظ وهي قائمة عنده، وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح[2]. هذا كله مع غناه عن طاعات عبادة وتوباتهم إليه، وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه، ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده، ومحبته لنفعهم، ودفع الضر عنهم، فهو يحب من عباده أن يعرفوه، ويحبوه، ويخافوه، ويتقوه، ويطيعوه، ويتقربوا إليه، ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره، وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده كما في رواية عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر لهذا الحديث:

«مَنْ علمَ منكم أني ذو قدرة على المغفرة، ثم استغفرني غفرت له ولا أبالي».

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أن عبداً أذنب ذنباً فقال: يا رب إني

---

(١) الفتاوى ١٨/١٩٤.

(٢) انظر صحيح البخاري ٨/٥٧ وصحيح مسلم ٨/٩٢ - ٩٣ والترمذي ٣/٣١٧ وابن ماجه برقم ٤٢٤٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عملت ذنباً فاغفر لي فقال الله: علم عبدي أنَّ له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب. قد غفرتُ لعبدي»[1]][2].

[وأخرج أبو نعيم أن الفضيل بن عياض رحمه الله قال:

ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جل جلاله: مَنْ أعظمُ مني جوداً، والخلائق لي عاصون؟ وأنا لهم مراقب أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولّى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم. أجودُ بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء. مَنْ ذا الذي دعاني فلم أستجب إليه؟ أم مَنْ ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم مَنْ ذا الذي أناخ ببابي فنحيته؟.

أنا الجواد ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني.

فأين إلى غيره يهرب الخلائق؟ وأين عن بابه يلتجىء العاصون؟.

وقد قيل:

أسأت ولم أحسن وجئتك تائباً ... وأنّى لعبدٍ عن مواليه يهرب؟
يؤمل غفراناً، فإنْ خاب ظنُّه ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ][3]

إن الطاعة تنفع العباد ولا تنفعه سبحانه وهو الغني عن العالمين، وإن المعصية تضر العباد ولا تضره سبحانه وهو ذو القوة المتين، وقد قرر هذا الحديث هذا المعنى بهذه العبارات التي تقدمتها مناداته عباده «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً».

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١٣ برقم ٧٥٠٧) وصحيح مسلم ٤ رقم ٧٥٠٧.
(٢) جامع العلوم والحكم ١٩٨ - ١٩٩.
(٣) جامع العلوم والحكم ١٩٩ - ٢٠٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

[إن ملك الله لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم برءة أتقياء قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة، قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملك كامل][1] لا يتأثر بطاعة العباد ولا بمعصيتهم..

وهذا التفصيل في ذكر الخلائق من أول البشرية إلى آخرها ومن الجن والإنس يوضح الشمول الذي يراد تقريره، وهي صورة بالغة البيان والتأثير.. وفي الحديث إشارة إلى أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا صلح صلح الجسد كله، وإذا برَّ واتقى برّت الجوارح واتقت وإذا فجر فجرت الجوارح وعصت. كما قال ﷺ: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقال: «التقوى ههنا»[2].

قال ابن تيمية: [.. والملك قد **يراد** به القدرة على التصرف والتدبير، **ويراد** به نفس التدبير والتصرف، **ويراد** به المملوك نفسه الذي هو محل التدبير، **ويراد** به ذلك كله. وبكل حال فليس بر الأبرار وفجور الفجار موجباً لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه، بل هو بمشيئته وقدرته، يخلق ما يشاء.

فلو شاء أن يخلق ـ مع فجور الفجار ـ ما شاء، لم يمنعه من ذلك مانع، كما يمنع الملوكَ فجورُ رعاياهم التي تعارض أوامرهم.. ولو شاء أن لا يخلق مع بر الأبرار شيئاً مما خلقه، لم يكن برهم محوجاً له إلى ذلك ولا معيناً له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين][3].

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢٠٠.
(٢) صحيح مسلم ٨/١١.
(٣) مجموع الفتاوى ١٨/١٩٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

في هذه القطعة من الحديث تصوير رائع لسعة ملك الله، ولوفرة ما عنده، وهل هناك أدلُّ على هذا من هذه الصورة المعبرة الرائعة: لو أن الخلق من عهد آدم إلى أن تقوم الساعة.. إنسهم وجنهم وصغيرهم وكبيرهم، ومؤمنهم وكافرهم، قاموا في صعيد واحد، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمنيته وبالغ فيها ما شاء أن يبالغ، والإنسان ذو طمع وحرص.. فأعطى سبحانه كل واحد منهم مسألته؛ لم ينقص هذا مما عند الله إلا بمقدار ما تنقص الإبرة إذا أدخلت البحر مرة واحدة، إنَّ هذا البلل اليسير الذي يعلق على الإبرة الملساء هو مقدار أعطيات السائلين. وفي رواية: بمقدار ما ينقص رأسُ الإبرة إذا أدخل البحر.

ما أروعها من صورة تقرر سعة ما عند الله، وغنى خزائن الله، قال تعالى:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

إن هذا يدل على كمال قدرة الله سبحانه وكمال ملكه، وإن ملكه وخزائنه لا تنفد بالعطاء ولو أعطى هؤلاء الذين ذكروا في هذا الحديث.

وفي هذا الحديث حث الخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به.. وقد ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها شيء الليل والنهار» وقال:



شبكة الألوكة - قسم الكتب

«أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه» أخرجه الشيخان[1].

[إنّ إكرام الله لعباده غزير كثير، فَيَدُ الله ملأى سحاء، وكلمة سحاء تعني أنها دائمة الصب والهطل بالعطاء، ووصفها بالامتلاء لكثرة عطائها، فجعلها كالعين التي لا ينقصها كثرة الاستقاء منها][2].

وفي رواية للبخاري ومسلم: «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه»[1].

إن العاقل لا يؤمل للشدائد غير الله عز وجل، لأنه القادر على كل شيء، وهو الحيّ القيوم الذي لا يرجى غيره، ولا يخيب من أقبل عليه وسأله بصدق، فبيده مفاتيح الخزائن، وبابه مفتوح لمن دعاه، لم يؤمله مؤمل لنائبة نزلت به فرده، ولم يرجه راج لأمر عظيم فخيبه، ولم يطرق بابه محتاج ملهوف فلم يفتحه له. . إنه الكريم الجواد مجيب دعوة المضطر إذا دعاه وكاشف السوء. إنه جواد واجد ماجد يفعل ما يريد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام إنما أمره لشيء إذا إراده أن يقول له كن فيكون قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فهو سبحانه إذا أراد شيئاً من عطاء أو عذاب أو غير ذلك قال له: كن، فيكون. فكيف يتصور أن ينقص هذا؟.

وإذا استقر هذا المعنى في قلب المسلم لم يسأل إلا الله ولم يرج إلا الله، ولم يخضع إلّا لله. ولله درُّ محمود الوراق الذي يقول:

---

(١) البخاري ٦/٩٥ ط الشعب في تفسير سورة هود ومسلم ٧/٨٠.
(٢) التصوير الفني في الحديث ص ٩٨ ـ ٩٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شادَ الملوكُ قصورهم وتحصّنوا ... من كلِّ طالبِ حاجةٍ أو راغبِ
غالوا بأبواب الحديد لعزها ... وتنافسوا في قبح وجه الحاجب
فإذا تلطف في الدخول عليهمُ ... راجٍ تلقوه بوعد كاذبِ
فاطلبْ إلى ملكِ الملوكِ ولا تكنْ ... بادي الضراعة طالباً من طالبِ

وقال آخر:

لا تخضعنّ لمخلوق على طمع ... فإن ذاك مضر منك بالدين
واسترزق الله ممّا في خزائنه ... فإنما هي بين الكاف والنون

ويُختم هذا الحديث بتقرير أن أعمال العباد محصاة وسَيُوْفَّوْنها يوم القيامة، وأن الذي يحصيها هو الله الذي يعلم السر وأخفى، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ووالله إنَّ هذا لأمر يخيف المرء المؤمن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

فالمسؤولية على العبد «فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

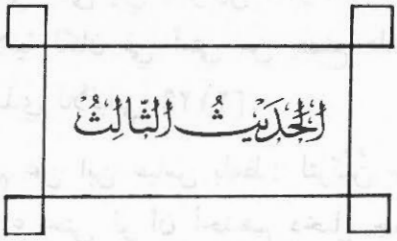
وقد أخبر الله عن أهل الجنة أنهم يحمدون الله على ما رزقهم من فضله فقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأخبر عن أهل النار أنهم يلومون أنفسهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

www.alukah.net
شبكة الألوكة



عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال:
«لتتبعُنَّ سنَنَ من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جُحْر ضبٍّ لسلكتموه». قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»

● رواه البخاري في كتاب الأنبياء من صحيحه في باب ما ذكره عن بني إسرائيل [البخاري ٤/١٣٥ والفتح ٦/٤٩٥] وفي كتاب الاعتصام في باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم [البخاري ٩/٨٣ والفتح ١٣/٣٠٠] ورواه مسلم في كتاب العلم [مسلم ٨/٥٧ والنووي ١٦/٢١٩] ورواه أحمد في المسند [٣/٨٤ - ٨٩ - ٩٤].

● وروى الحديث بلفظ مقارب ابنُ ماجه عن أبي هريرة [رقم ٣٩٩٤] وأحمد عنه في المسند بلفظ: «والذي نفسي بيده لتتبعُنَّ سُنَنَ الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً فباعاً، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: ومن هم يا رسول الله أهل الكتاب؟ قال: « فمن؟» [المسند ٢/٣٢٧ و ٤٥٠ و ٥١١ و ٥٢٧] والحاكم ١/٣٧ عنه أي عن أبي هريرة.

● وروى الشافعي هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو قال ابن حجر: بسند صحيح بلفظ: «لتركبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كان قَبْلِكم حُلْوَها وَمُرَّها» [الفتح ١٣/٣٠١]

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ورواه الترمذي أيضاً عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بلفظ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك» [تحفة الأحوذي ٣٦٨/٣ وصحيح الترمذي للألباني ٢١٢٩].

● ورواه الحاكم عن ابن عباس بلفظ: لتركبُنَّ سنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» [المستدرك ٤٥٥/٤].

● ورواه الحاكم أيضاً عن عمرو بن عوف بلفظ: «لتسلُكُنَّ سَنَنَ من قبلكم حَذْو النعل بالنعل، ولتأخذن مثل أخذهم، إن شبراً فشبر، وإن ذراعاً فذراع، وإن باعاً فباع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه» [المستدرك ١٢٩/١ وانظر الباعث على الخلاص بتحقيقنا ص: ١٣٥].

هذا الحديث بهذه الروايات عن هؤلاء الصحابة حديث صحيح جليل، وإنه من دلائل نبوته ﷺ. وما أكثر هذه الدلائل! ولقد ألفت فيها المؤلفات على مر العصور، وأحسب أن عصرنا الحاضر زاخر بمئات الأدلة على نبوته ﷺ مما جدَّ في هذا الزمن ولم يكن يعرفه أسلافنا.

أشهد أنه رسول الله حقاً وصدقاً، فصلوات الله وسلامه عليه، وجزاه الله من الخير ما هو أهله.

يؤكد رسول الله ﷺ بأسلوب مؤيد بعدد من المؤكدات كالقسم واللام ونون التوكيد وغيرها أن المسلمين سَيُبْتَلَوْن بآفة ماحقة وعيب كبير.. سيتبعون طريق اليهود والنصارى دون وعي ولا تفكير.. إنهم سيصابون بمرض التقليد الأعمى.

ويعبر الحديث الشريف عن هذا المعنى بطرائق من التعبير المبدع.. إنهم سيتابعون اليهود والنصارى في طريقهم شبراً بشبر.. وإن مشى القوم ذراعاً مشوا ذراعاً، وإن مشوا باعاً مشوا باعاً... ولو دخل اليهود والنصارى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جحر ضب لتابعهم على ذلك المسلمون ودخلوه! ولو أتوا بأمر تأباه الفطرة علانية لفعلوه!! وجحر الضب ضيق جداً ومظلم جداً.. ودخوله صعب أيما صعوبة.. ومؤذ أعظم الإيذاء.. ولكنه التقليد الذي يشل التفكير ويعطل المحاكمة السليمة. إن حجر الضب لا يرضى عاقل بسلوكه فضلاً عن سكناه والاستقرار فيه. ولكن التبعية هي التي تحمل على سلوك هذا الطريق الوعر المهلك.

هذا وقد أُمِرْنا أنْ نَدْعُوَ الله كُلَّ يومٍ وليلةٍ مراتٍ ومراتٍ أن يهدينا صراطاً مستقيماً غير صراط اليهود والنصارى.

روى عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم اليهود ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: النصارى هم الضالون. وقال الحافظ ابن كثير [وقد روي حديث عدي هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة][1].

ورَوَى مثلَ حديثِ عديٍّ عبدُ الله بن عمر وابنُ عباس وابنُ مسعود وغيرهم من الصحابة وقال ابن أبي حاتم: [ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً].

فكيف يسوغ لنا بعد هذا أن نرتضي تقليدهم وسلوك طريقهم؟! وهناك أحاديث كثيرة تأمر المسلمين بالتميز عنهم، والحرصِ على البُعد عَنْ سبيلهم. فمن ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[2].

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تكره أن يجعل المصلي يده في خاصرته وتقول: إن اليهود تفعله[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ط الشعب ١/٤٦.
(٢) فتح الباري ٦/٤٩٦.
(٣) فتح الباري ٦/٤٩٥.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وروى أبو داود عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم»[1].

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال ﷺ: لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[2].

وقد عرف أعداء الله اليهود أن سبيل المسلمين متميز عن سبيلهم كما دلَّ على ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يواكلوها ولم يجتمعوا معها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه[3] قال ابن تيمية: [فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيّه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه][4].

هذا وقد حذرنا ربنا في القرآن الكريم من اتباع سبيل المجرمين والمغضوب عليهم والضالين من أهل الكتاب فقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

---

(١) أبو داود برقم ٦٥٢.

(٢) أبو داود برقم ٢٣٥٣.

(٣) صحيح مسلم ١/١٧٩ وانظر شرح النووي ٣/٢١٢.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٦٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٤٩].

ونهانا عن اتباع أهواء الذين كذبوا بآيات الله فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

والايمان برسالة الإسلام والاستقامة عليها هو سبيل الخلاص. وهو يقضي بأن لا يسلك سبيلاً غير سبيل تلك الشريعة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

ومن اتبع سبيل الكافرين ضل وكان مستحقاً للعقوبة الرادعة: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

ولا يزال أعداؤنا في فكر وتخطيط وعمل مستمر حتى يفتنونا عن ديننا، ويزحزحونا عن خصائصنا التي أكرمنا الله بها ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۚ ﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فإن لم يستطيعوا قبلوا أن يحملونا على اتباعهم بالمعاصي والمخالفات، وترك معالم الدين.. ولذلك حذر رسول الله ﷺ أتباعه الراغبين في النجاة من الانسياق وراء الراكضين في طريق التقليد، وقد فصّل لنا الآيات، وضرب الأمثال، وقصّ علينا القصص، حتى تستبين سبيل



شبكة الألوكة - قسم الكتب

المجرمين ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الأنعام: [٥٥]. فلا عذر لمنحرف بعد ذاك البيان المعجز.. ولا يغتر المرء بكثرة الهالكين ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

يقسم رسول الله ﷺ أن هذه الأمة ستتبع سَنَنَ اليهود والنصارى في المعاصي والمخالفات، وقد تحقق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ منذ آماد، وما يزال الملسمون سائرين في ذاك الطريق.. إلا من رحم ربك وقليل ما هم. ولعلّ من الحكم البالغة التي يمكن استنباطها من إكثار القرآن من ذكر قصة بني إسرائيل وتكرر هذه القصة بأساليب مختلفة، كلها رائع ومعجز، لعل من تلك الحكم أن يبين الله للناس مخاطر تقليد هذه الأمة التي انحرفت عن الصراط السوي فضلت وأضلت وكذبت وقتلت كما قال: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

لقد عرض القصص القرآني تجارب هذه الأمة (بني إسرائيل) مع رسالات الله وأنبيائه ومواقفها المختلفة مع موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام. لنأخذ العبرة ولنتجنب سلوك طريق الانحراف ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

فلنعتبر يا عباد الله.. ولنمتثل أمر الله.. ولنعرف أعداءنا.. ولنحذر من الركون إليهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

وما دخل على أمتنا ما دخل عليها من التدهور والضيم والضعف إلا بعد أن تنازلت عن تميزها وذاتيتها، وذهبت تقلد أعداء الله من اليهود والنصارى والكفار عامة. أجل.. لقد بدأ الوهن يدب في أوصال أمتنا عندما شرعنا نبتدع في الدين ما ليس منه ونُحِلُّ ذلك محلَّ ما سنَّه الله ورسوله، تقليداً لمن حذرنا الله ورسوله من تقليدهم والتشبه بهم ومحاكاتهم.

ولا تسود بدعةٌ إلا على حساب سنة تختفي... وهكذا سار كثير من المسلمين في هذا الطريق المنحرف، فتوارت معظم حقائق الدين في حياتهم، وقامت صورٌ ومظاهر ترتدي رداء الدين ولكنها لا تحمل حقيقته، فأصابهم الوهن والتخلف.

بينما مضى أعداؤنا يتعلمون ويخترعون ويبدعون... وقد كانت خطواتهم الأولى معتمدة على ما اقتبسوه منا ومن ثقافتنا وعلومنا.. وبلغوا من القوة مبلغاً كبيراً.. فانبهرنا بتقدمهم وعلومهم.. وأعجبنا بهم.. وخدعنا بعض عملائهم من أبنائنا فدعونا إلى أن نأخذ ما عندهم بخيره وشره، وحلوه ومره..

لقد أضاعت أمتنا بسبب ذلك خصائصها وهويتها. وعمَّ هذا في عدد من أصقاع عالمنا الإسلامي، وأوت هذه الأمة التي كانت قائدة الركب، ورائدة التقدم، أوت إلى جحر الضب تستكنُّ فيه، تعاني من الضيق والضنك، والفاقة والبؤس، ما تعاني، وتخلفت وتأخرت وطمع بها عدوها وهاجمها وهي خلو من العدة والقوة، فاستسلمت وانهزمت، فاحتل ذاك العدو أرضها، وشرع يرسم لها المخططات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وانقادت مكرهة في بادىء الأمر، ثم قام نشءٌ من ابنائها ممن رُبُّوا على



شبكة الألوكة - قسم الكتب

مناهج الكفار، يدعو بدعوة أعدائه، ويسير في طريق الهدم، يخربون بيوتهم بأيديهم، ويحققون لعدوهم بغيته تامة.

إن هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ. فأنت ترى كثيراً من المسلمين يرددون بحماقة بالغة شعارات وعبارات يسمعونها من اليهود والنصارى.. إنك لترى هؤلاء المخدوعين في الأنظمة السياسية صدىً لهم وتبعاً.. وهم في الأنظمة القانونية عالة عليهم، وهم في الأحوال الاجتماعية مقلدون دون وعي، وأكبر برهان على ذلك ما تراه في عالم الأزياء والمودات، يُطيل القوم ثياب نسائهم فيطيل هؤلاء المقلدون ثياب نسائهم، وإذا قصروها قصروها، وتنتشر في شبابهم طريقة في الحلاقة فسرعان ما يقلدهم كثير من شباب المسلمين، ولو كانت هذه الطريقة تشويهاً في ذوقنا ونظرنا.

وإليكم مثالاً يؤكد معنى الحديث:

كان نظام العمران السائد في بلاد المسلمين متفقاً مع عقيدتهم وأخلاقهم وقيمهم.. فَسُكَّانُ المنزل مستورون لا يراهم جيرانهم ولا يرون أحداً.. حديقته وساحته في وسطه، ينعمون بالهواء الطلق، ويستمتعون بالحديقة الغناء الزاخرة ـ في كثير من الأحيان ـ بأنواع الورود والرياحين، والفل والياسمين، وأصناف الزهور والزروع التي تزين الدار وتنشر في جنباته الروائح الزكية، ويستمتعون بالمياه الصافية تتدفق في بحيرة تقوم في وسط الساحة. فيجتمع في هذا المنزل الستر والهدوء، والجمال والشذى الطيب، وتتوافر فيه المواصفات الصحية الكاملة التي تراعي المناخ.

لا يخشى السكان النظرة المريبة، ولا المراقبة المزعجة.. ولا تبلغهم جلبة السوق وضجة الطريق. وللضيوف مكان منعزل خاص[1]، لا يضايق

---

(١) يدعوه أهل الشام بالبراني. وهذه كلمة قد وردت في كلام سلمان «من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه».
انظر القاموس المحيط وتاج العروس وأساس البلاغة.

أحداً من أهل الدار، ولا يسمع الضيف صوتاً من الداخل، ولكننا عندما أدركتنا جرثومة التقليد الأعمى تركنا ذلك اللون المدهش من طراز البناء، واستبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وارتضينا أن نقيم مساكن من الإسمنت، أشبه ما تكون بصناديق مغلقة، حرها لاهب، وبردها قارس، والناس يتراؤن منها، يطلع الرجل الأجنبي على عورات جيرانه، والآخرون يطلعون على عوراته.

وهكذا في كل شؤون الحياة، نتبعهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. قال النووي: [والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر. وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فقد وقع ما أخبر به ﷺ][1] وقال ابن بطال: [أَعْلَمَ ﷺ أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء، كما وقع للأمم قبلهم. وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأنّ الآخر شر، والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس][2].

قال ابن حجر: [قلت: وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ وسيقع بقية ذلك][2].

لقد عرضنا شيئاً ممَّا تحقق في العادات والأحوال الاجتماعية من اتباع طريقة اليهود والنصارى، وهذا قل من كل، وغيض من فيض، ولو أننا تأملنا وأجلنا نظرنا في العلوم الانسانية والنظريات الفكرية والاقتصادية والمذاهب الأدبية عند كثير من المسلمين لوجدنا ذلك أي اتباع اليهود والنصارى واضحاً جلياً.

إن كثيراً من الباحثين المسلمين في علم النفس والتربية وعلم الاجتماع يتبعون سَنَنَ الكفار ويسيرون خلفهم لا يحيدون عن طريقهم قيد شعرة، ولا يفكرون في مناقشتهم أو النظر في صحة ما يقولون.

---

(١) شرح مسلم ١٦/ ٢٢٠.

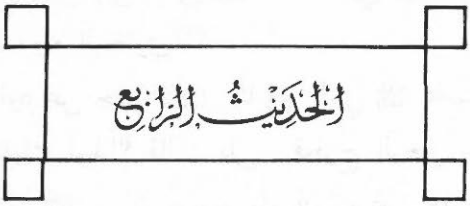
(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٠١.

وكذلك أولئك الذين ينادون ببعض النظريات الفكرية والاقتصادية يرددون ما يقول اليهود والنصارى عن الدين، ولو كان الاسلام يختلف أعظم الاختلاف عن أديانهم، ولو كانت أوضاع أمتهم الاجتماعية مباينة لأوضاع الناس في اوربا.

أنهم حصروا أنفسهم في الأُطر والتعابير والنظريات والآراء التي يراها القوم، وكأنهم أدخلوا أنفسهم في جُحْر الضب، لا يملكون منه فكاكاً، ولا يستطيعون خلال إقامتهم فيه حراكاً، ولا يقوون على الخروج منه.

إن دعوتنا إلى الخاصة من العلماء والمفكرين من أبناء أمتنا أن يخرجوا من جحر الضب، وأن يَدْعوا قومهم إلى سلوك الطريق المتميز المستقيم ليسعدوا في الدنيا والآخرة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة



عن جابر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إذا كان جنح الليل ـ أو أمسيتم ـ فكفوا صبيانكم؛ فإنَّ الشياطين تنتشر حينئذٍ.

ـ وفي رواية: واكفئوا صبيانكم عند المساء فإنَّ للجن انتشاراً وخطفة ـ فإذا ذهب ساعة من الليل فخلّوهم. وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله، فإنّ الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قربكم واذكروا سم الله، وخمّروا آنيتكم واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً، وأطفئوا مصابيحكم عند الرقاد، فإنَّ الفويسقة ربَّما اجترَّت الفتيلة فأحرقت أهل البيت» رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه[1].

وفي رواية لمسلم وابن ماجه عن جابر قال قال ﷺ: غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج؛ فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء»[2].

---

(١) البخاري: الأشربة الفتح ١٠/٨٨، وبدء الخلق الفتح ٦/٣٥٥ والاستئذان الفتح ١١/٨٥ ومسلم الأشربة ٣ رقم ٢٠١٢(٩٧) وأبو داود الأشربة ٣ رقم ٣٧٣١ و٣٢و٣٣ وابن ماجه الأشربة ٢/رقم ٣٤١٠ بنحوه والمسند ٣/٣١٩ وانظر إرواء الغليل ١/٧٩ ـ ٨١.

(٢) مسلم رقم ٢٠١٢ (٩٦) وابن ماجه ٣٤١٠.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وعن جابر قال: جاء أبو حميد ـ وهو رجل من الأنصار ـ من النقيع ـ وهو مكان ـ بإناء من لبن إلى النبي ﷺ فقال النبيّ ﷺ: «ألا خمرته ولو أن تعرض عليه عوداً» رواه البخاري[1].

وروى أبو داود عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ فاستسقى. فقال رجل من القوم: ألا نسقيك نبيذاً؟ قال: بلى. فخرج الرجل يشتدّ، فجاء بقدح فيه نبيذ. فقال النبي ﷺ: «ألا خمرته ولو أن تعرض عليه عوداً»[2]

وعن جابر قال قال ﷺ: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإنّ في السَّنَة ليلةً ينزل فيها وباءٌ لايمر بإناءٍ ليس عليه غطاءٌ أو سقاءٍ ليس عليه وكاءٌ؛ إلا نزل فيه من ذلك الوباء» رواه مسلم[3].

وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «لاتتركوا النار في بيوتكم حين تنامون».

رواه مسلم وأبو داود والترمذي[4].

وعن أبي موسى قال: احترق بيت على أهله بالمدينة من الليل، فلما حُدِّثَ رسول الله ﷺ بشأنهم قال: «إن هذه النار إنما هي عدو لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم[5]» رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عباس قال: جاءت فأرة فأخذت الفتيلة، فجاءت بها، فألقتها بين يدي رسول الله ﷺ على الخمرة التي كان قاعداً عليها، فأحرقت منها مثل موضع الدرهم فقال: «إذا نمتم فأطفئوا سُرُجكم، فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا فتحرقكم» رواه أبو داود والحاكم وابن حبان[6].

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١٠/٧٠).
(٢) أبو دواود ٣ برقم ٣٧٣٤.
(٣) صحيح مسلم ٣ برقم ٢٠١٤.
(٤) صحيح مسلم ٣ برقم ٢٠١٥ وأبو داود برقم ٥٢٤٦ والترمذي ٣/٨٥.
(٥) صحيح البخاري: الاستئذان الفتح ١١/٨٥ ومسلم: الاشربة ٣رقم ٢٠١٦ (١٠١).
(٦) أبو داود الأدب ٤ رقم ٥٢٤٧ والحاكم ٤/٢٨٤ وابن حبان: موارد الظمآن رقم ١٩٩٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن أبي هريرة قال: أمرنا رسول الله ﷺ بتغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإكفاء الأناء.

رواه ابن ماجه [1].

وروى أحمد قريباً منه عن أبي أمامة وعن عبد الله بن سرجس[2].

هذه جملة من روايات هذه الأحاديث في بعض كتب السنة، وأكثر هذه الروايات كانت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. ويبدو أن الرسول ﷺ قد تكرر منه هذا التوجيه السامي الرفيع في أكثر من مناسبة، وقد روى هذه الأحاديث المختلفة في ألفاظها وأزمانها ومناسباتها عدد من الصحابة كما مرَّ بنا آنفاً أمثال جابر وأبي هريرة وابن عمر وأبي موسى وابن عباس وأبي أمامة وعبد الله بن سرجس.

تضمنت هذه الأحاديث الرائعة الوصية بأمور خمسة هي:

تغطية الأواني، وإيكاء الأسقية، وإغلاق الأبواب، وكف الصبيان عن الخروج في المساء، وإطفاء النار عند النوم.

ولو نظرنا فيها لوجدنا أنها كلها تدور حول الأمن الذي يحرص الإسلام على أن يكون قائماً في النفس والأسرة والمجتمع.. الأمن في مجالاته المتعددة: الأمن من الشيطان، والأمن من الحشرات والجراثيم، والأمن من اللصوص والوحوش، والأمن من النار والحريق، وتحقيق الأمن من هذه الأمور مطلب الإنسان في كل زمان ومكان.

ونحن نرى في أيامنا هذه فتك هؤلاء الأعداء بالناس الفتك الذريع، فما أكثر صرعى الشيطان الذين يصرعهم ويقضي على سعادتهم الدنيوية والأخروية.. وكذلك فإنَّ عدداً من الأصقاع المختلفة نجد الإنسان فيها نهباً للجراثيم والأمراض التي تجرها عليه الحشرات..

---

(١) ابن ماجه: برقم ٣٤١١.

(٢) انظر مجمع الزوائد ١١١/٨.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأما فقدان الأمن في عدد من بقاع العالم اليوم فذلك أمرٌ يثير الذعر، فاللصوص والمجرمون وقطاع الطرق ينشرون المخاوف في تلك البقاع.

إن الإنسان ـ مهما تقدمت الحضارة والتقنية ـ يبقى أنساناً يتأثر بالجراثيم، ويتعرض لمكر الشيطان وفتنته، ويخشى تعرضه لعدوان الوحوش والمجرمين، ويخاف على نفسه وولده من هؤلاء الأعداء. ولم يحقق الأمنَ مِنْ هؤلاء الأعداءِ نظام كما حققه الإسلام كلما طبق في هذه الدنيا. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أما الأمران الأول والثاني وهما: تغطية الأواني وإيكاء الأسقية فهذا سبقٌ عظيم من الإسلام للتحذير من أكل طعام مكشوف معرض للجراثيم التي يحملها الجو، والذباب الناقل للأمراض، والحشرات السامّة.

وعلى الرغم من وجود الثلاجات المحكمة، وخزائن الطعام فإنَّ هذا الأمر يبقى في غاية الأهمية، وينبغي مراعاته، ذلك لأن كثيراً من الناس ينسون وضع أواني الطعام في أماكنها التي توفر لها الحفظ، وقد تدخل بعض الحشرات إلى هذه الأماكن، وعندئذٍ تبقى تغطية هذه الأواني الوسيلة الوقائية الوحيدة التي تدفع عن ملتزمها الضرر والخطر.

إنَّ من البديهيات في الصحة أن كشف الأطعمة وتعرضها للجراثيم سب في انتشار كثير من الأمراض.. والعمل بهذا التوجيه النبوي الكريم يوفر المال ويصون الصحة.

وتغطية الأواني أضحت ميسورة جداً، فكثير من علب الأطعمة لها أغطية متصلة بها، وكذلك القدور كلها، وهناك صحون لها أغطية تكون معها.

وإن أكثر البيوت لا تخلو من الصراصير والهوام والحشرات والحيوانات الأليفة، فنسيانها وتغطية تلك الأواني يعرضها لما ذكرنا بشكل محقق.

وقد يشاهد المرء ما تتعرض له هذه الأواني من سقوط بعض الحشرات فتعاف نفسه الأكل منها، ويلقى ما فيها من طعام في القمامة ويخسر ما أنفق فيها. وإذا خفي عليه ما داخلها من الجراثيم وتناولها تعرّض للأذى المحقق والمرض.

وفي التعبير بإكفاء الاناء في بعض الروايات توجيه كريم يقضي ألا يبقى الإناء معرضاً للغبار والجراثيم والهوام، بل ينظف ويكفأ على مكان نظيف، وإكفاء الإناء قلبه حتى يصب ما فيه، وبذلك تتحقق الصيانة بأجلى مظاهرها.

وقد بحث العلماء دلالة هذا الأمر (غطوا الإناء وأوكوا السقاء وأغلقوا الباب وأطفئوا السراج...) فذهب بعضهم إلى أن الأمر ههنا أمر للإرشاد لكونه لمصلحة دنيوية ـ وهذا ما جزم به النووي[1] ـ والتحقيق أنه للندب، لأن هذه المصلحة الدنيوية تفضي إلى مصلحة دينية، وهي حفظ النفس المحرم قتلها، والمال المحرم تبذيره، ولذا فقد قال القرطبي في شأن هذا الحديث: [فمن فرَّط في ذلك كان للسنة مخالفاً ولأدائها تاركاً][2].

وهناك من يرى أن الأمر ههنا للوجوب. قال ابن دقيق العيد: [هذه الأوامر لم يحملها الأكثر على الوجوب، ويلزم أهلَ الظاهر حملُها عليه.. وهذا لا يختص بالظاهري بل الحمل على الظاهر إلّا لمعارضٍ ظاهرٍ يقول به أهل القياس، وإن كان أهل الظاهر أولى بالالتزام به، لكونهم لا يلتفتون إلى المفهومات والمناسبات][3].

قلت: والحكم ـ فيما يبدو ـ يختلف باختلاف الأحوال، فلا ينزل عن الندب قط، وقد يضحي واجباً إذا تحقق الضرر من ترك الأواني دون غطاء، لاعتبارات شرعية عامة مقررة من نحو قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

---

(١) الفتح ١١/٨٦.
(٢) الفتح ١١/٨٦.
(٣) الفتح ١١/٨٧.

وأما تغطية الإناء بعود عند عدم وجود الغطاء فقد قال ابن حجر:

[المعنى أنه إن لم يغطه فلا أقل من أن يعرض عليه شيئاً. وأظن السرّ في الاكتفاء بعرض العود أن تعاطي التغطية أو العرض يقترن بالتسمية، فيكون العرض علاقة على التسمية، فتمتنع الشياطين من الدنو منه][1].

قلت: وهناك سر آخر وهو أن يعود المرء نفسه على التغطية، فإن لم يجد غطاء وضع عوداً، وقد يدفعه ذلك إلى تأمين الغطاء وهذه لفتة تربوية، رائعة، فالتغطية مطلوبة حتى ولو لم يجد الغطاء فليبحث عن عود وليستعن بالله. وقوله ﷺ: «خمروا الآنية» صورة بيانية لطيفة، جاء في أساس البلاغة: [خمرتها: ألبستها الخمار].

وجاء في النهاية: [التخمير التغطية].

أقول: ومن ظلال هذه الكلمة نتصور الإناء كالفتاة التي لا يليق بها إلا أن تكون لابسة الخمار، وهو الغطاء الذي يقيها من الحشرات والجراثيم كما يقي الخمار الفتاة نظرات الإثم والفجور.

وإيكاء الأسقية هو أن يشد الوكاء المتصل بالقربة ويحكم حتى لا يدخل فيه شيء، وهو قريب من تغطية الأواني. ويريد الإسلام منا في هذا أن نعود أنفسنا وأزواجنا وأولادنا على تغطية أي إناء.. فإذا أصبحت هذه الخصلة عادة مستحكمة عند المرأة فإنها تعمد إلى تغطية أي إناء تفتحه لتأخذ منه شيئاً، ونأمن مخالفة السنة والوقوع في المحاذير الكبيرة.

والتعويد ينبغي أن يلاحظه رب البيت بالنسبة إلى الزوجة الجديدة والأبناء والبنات.

وأما الأمر الثالث: وهو إغلاق الأبواب فهو من التوجيهات السامية التي دعا إليها الشرع المطهّر، وهو من الأخذ بالأسباب التي أمرنا بها[2].

إن إغلاق الأبواب أمان من اللصوص والمجرمين، والذباب

---

(١) الفتح ١٠/٧٢.

(٢) الفتح ١١/٤٠٩ - ٤١٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والحشرات، والوحوش والحيوانات، والحرّ والبرد، والضجيج والجلبة، وأمان من الشياطين والفضوليين. وقد بينت بعض الروايات للحديث أنَّ إغلاق الباب ينبغي أن يكون مقروناً بالتسمية «وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله؛ فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً». والأمر بإغلاق الأبواب ورد مطلقاً، فهو ينطبق على الباب الخارجيّ للدار كما ينطبق على الغرف التي يقيم فيها الأنسان.

فمن الخطأ ما يحصل في كثير من البيوت من دخول المرء غرفة نومه ووضعه ثيابه وباب الغرفة مفتوح لم يغلق... فقد يكون ذلك سبباً لانكشاف العورة وفضح الأسرار، وفيه إساءة لتربية الناشئة.

وقد يحصل أن ينسى واحد من السكان إغلاق باب البيت الخارجي بعد دخوله، أو أن يفتحه صبيٌّ صغير.. فقد يمكن ذلك السارق من اقتحام الدار دون عناء، ولو كان الباب مغلقاً لكان ذلك أصون للدار وأحفظ لها من السرقة.

إنَّ الأمر بإغلاق الأبواب يتصل برعاية حرمة البيوت وستر العورة وحفظ الأسرار.

والحرص على ستر العورة من مقتضيات المروءة، وقد دعا إليه الإسلام.. وقد يشيع في عدد من البيوت التساهل في هذا؛ لأنّ الأمهات والنساء المقيمات في البيت كالأخوات والعمات ألفن التكشف أمام هذا الفتى عندما كان صغيراً، وتستمر نظرتهن إليه على أنه صغير، فلا يحترسْنَ من انكشاف مواضع من أجسادهن أمامه كالفخذ والبطن وما إلى ذلك، ولا تبالي إحداهن من أن يدخل عليها ابنها الفتى غرفتها وهي متبذلة.. وهذا كله لا يجوز في شرع الله.

إن المسلم والمسلمة مأموران أن يغلقا على أنفسهما الأبواب إشعاراً لمن يريد الدخول أن يستأذن. والأمر بالاستئذان ورد في كتاب الله تعالى، وقد قُسِّم أهل الدار قسمين: أطفال لم يبلغوا الحلم. وناس بلغوا الحلم.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

أما الذين لم يبلغوا الحلم فمطالبون بالاستئذان في أوقات ثلاثة: من قبل صلاة الفجر، وفي الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، ويمكنهم أن يدخلوا في غير هذه الأوقات من غير استئذان.

أما الكبار الذين بلغوا الحلم فعليهم أن يستأذنوا في كل وقت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ النور: ٥٨.

إذا كان تشريع الإسلام للأقارب من أطفال وبالغين، وكلهم من المحارم، ما تقدم، فما القول بالنسبة إلى الأجانب الذين لا يجوز أن يروا شيئاً من المرأة الأجنبية.

إن كثيراً من الكوارث الأخلاقية المشينة تحصل من وراء التساهل في تطبيق أحكام دين الله، فلنتق الله في أنفسنا وأزواجنا وأبنائنا وبناتنا، ولنسرع حكم الله وتوجيه رسوله ﷺ.

إن معظم النار من مستصغر الشرر.. ألا فلنقم بيوتنا على الإسلام لنسعد في الدنيا والآخرة.

وإذا كان إغلاق الباب مقروناً بالتسمية كان ذلك جمعاً للأمرين المشروعين: الأخذ بالأسباب، وذكر الله.

فقد شرع الإسلام للمؤمنين به أذكاراً ندبهم إلى ترديدها في آناء من النهار. فمن ذلك ذكر الله عند دخول البيت مع إغلاق الباب، وعند الخروج منه، فقد أخرج مسلم والأربعة عن جابر رفعه: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء. وإذا دخل الرجل فلم يذكر الله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»[1] وأمره بإغلاق الباب يتأكد بدخول الليل.

هذا كله إن لم يكن هناك مصلحة في فتح الباب كاستقبال الضيوف أو طلاب العلم، أو الرغبة في تغيير هواء الغرفة، أو إتاحة المجال للمراجعين والسائلين وما إلى ذلك. ولا شك في أنَّ المرء في هذه الحالات يكون قد أخذ احتياطه الذي يضمن له الستر والصيانة، لأنه يتوقع دخول الناس عليه في كل آن.

والحذر من الشيطان أمر ينبغي أن يكون في تصور المسلم واهتمامه، فإذا كان الصادق المصدوق يخبرنا أن المسلم إذا أغلق بابه وذكر الله أمن ألا يفتح الشيطان باباً مغلقاً. فكيف يمكن أن يتساهل في تطبيق هذا التوجيه والأمر؟

وأما الأمر الرابع: وهو إطفاء النار والمصابيح عند النوم فهذا نصح كريم، واحتياط يرعى مصالح الناس. وهذا النصح عظيم النفع في كل حين، ولا سيما في عصرنا هذا الذي كثرت فيه أسباب الحريق، فقد وجدت مواقد تعتمد على البترول والغاز والكهرباء، وتعدد استعمال الكهرباء في غير الوقود، فهناك المكواة ومصابيح الإضاءة وأدوات التنظيف والجلي والغسل والتبريد، وأي تهاون في أسباب الحريق الناتجة عن سوء استخدام هذه الأدوات يعرض البيت وساكنيه إلى أخطار لا يعلم مداها إلاّ الله.

فنار الحطب ينبغي أن تطفأ قبل النوم، وكذلك نار مواقد البترول، وأما نار الغاز التي كثر استعمالها في الأيام الأخيرة فإنَّ مما يتصل بوصية الرسول ﷺ بإطفاء النار قبل النوم تعهد قارورات الغاز التي قد تكون في متناول الأطفال أو تتعرض إلى أن تنطفىء شعلتها وتبقى هذه القارورة ترسل الغاز المحرق الذي يملأ جو البيت.. وهو فوق أنه محرق سام قاتل.

---

(١) صحيح مسلم ١٠٨/٦.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد حصل أنَّ امرأة قامت تهيء لطفلها في جوف الليل رضعة وكان صنبور الغاز مفتوحاً وهي لا تدري، فجاءت توقد عود الثقاب لتشعل الموقد فالتهمتها النار من كل جانب وماتت حرقاً، وتعرض الطفل إلى اليتم، ونكبت الأسرة نكبة كبرى.

فيحسن أن يغلق صنبور القارورة نفسه وأن يتأكد رب البيت منه كل ليلة بنفسه قبل النوم.

ومما يتصل بالوصية بإطفاء النار كذلك ألا يترك القدر أو الإبريق على النار ثم يغادر المكلف بالطبخ رجلاً كان أو امرأة المكان إلى مكان آخر أو إلى السوق، فقد يستغرق في الحديث أو العمل، وينسى ما تركه على الموقد، فيسبب لنفسه خسارة مالية، وقد تتعدى ذلك إلى الأرواح.. وقد حصل بسبب إهمال هذا الاحتياط حوادث كثيرة بلغنا بعضها.

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن الفأرة ـ ودعاها الفويسقة ـ ربما جاءت إلى فتيل المصباح الذي يوقد بالزيت تشدُّه بغية أن تقرضه وتأكل ما اتصل به من الزيت، فيكون ذلك سبباً لاشعال حريق ضخم.

بل قد حصل في زمانه ﷺ، وقد ذكرت روايات الحديث التي أوردتها حادثتين وقعتا في زمانه:

إحداهما: ما جاء في حديث أبي موسى: أن بيتاً في المدينة احترق على أهله من الليل، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ قال: «إن هذه النار عدوٌ لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم» متفق عليه[1]. وفي هذا الحديث بيان أنَّ هذه النار عدو لنا.. إن ترك دون رقابة آذانا ونكل بنا، وإن بقي تحت رقابتنا استطعنا أن نفيد منه.

---

(١) مضى تخريجه قريباً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذه صورة رائعة تجعل المؤمن لا يبقي هذا العدو في بيته دون تقييد.. لأنه كما ذكرنا لن يقصر في إيذائه لا سيما إن وجد غفلة من عدوه.. والنوم غفلة.

وثانيهما: ما جاء في حديث ابن عباس: أن فأرة جرت فتيلة المصباح.. وما زالت تجرها حتى ألقتها بين يدي رسول الله ﷺ على البساط الذي كان جالساً عليه، فأحرقت منه موضع الدرهم، ويبدو أنها عندما فوجئت بالناس فرت، فعلّق النبي ﷺ على هذه الحادثة بالنصح الكريم فقال: «إذا نمتم فأطفئوا سرجكم» ثم بين دور الشيطان في هذا الحادث فقال: «فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا فتحرقكم» رواه أبو داود والحاكم وابن حبان[1]. وفي هذا الحديث مَثَلٌ على الاسلوب التربوي للنبي الذي لا يدع حادثة لفتت أنظار الناس دون أن يعلق عليها بالنصح الرشيد الكريم.

إذن ينبغي أن نسدَّ على الشيطان الطرق التي يمكن أن يتوصل بها إلى إيذائنا، ومنها إطفاء النار.

وفي تعبير النبي ﷺ تعميم واضح حيث قال: «فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا» فبيَّن أنّ الفأرة وسيلة لها مثيلات.. وهذا من جوامع كلمه ومن إيجازه الرائع.. فقد جدَّت اليوم بظهور أنواع جديدة من الوقود والإضاءة وسائل متعددة ينتج عنها الحريق.

وما أعجب غفلة المسلمين عن الشيطان الذي هو عدو لهم.

وتعاون الأعداء على المسلمين أمر واضح فقد تتعاون النار والشيطان بوسائله المتعددة على إيقاع الأذى.. فلنحذر ذلك.. ولنسدَّ الطرق المؤدية إلى ذلك.

---

(١) مضى تخريجه قريباً.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأما الأمر الخامس: وهو منع الأولاد من الخروج إذا أظلم الليل فهو أسلوب تربوي رفيع يحجز الأولاد عن الفساد وعوامله وزمانه.

وفي هذا الأسلوب التربوي صيانة للأطفال عن أذى الشيطان، وهذا أمرٌ غيبيٌّ غير ملموس ولكنه محقق ما دام قد وَرَدَ في حديث ثابت عن النبي ﷺ.. إن الشياطين ينتشرون في أول الليل عندما ينشر الظلام جناحه.. ولهم خطفات.

وإنه لإكرام من الله تعالى أن يعلمنا رسوله ﷺ بأوقات الخطر التي يتعرض لها الأطفال من الشياطين لنحرص على أن نباعد بينهم وبين تلك الأخطار الكبيرة التي يمكن أن تمسهم في هذه الأوقات.

إن الشيطان عدو لنا.. فما أجدرنا أن نحترس منه ومن كيده وشره، وخطفاته ونفثاته، ووساوسه وهواجسه.

هذا وإن في كف الأولاد عن الخروج في الليل صيانةً لهم عن أمرٍ مشاهد ملموس أيضاً، وهو تعرضهم للأذى من شياطين الإنس، الذين ينشطون في الليل لنشر المنكرات..

●والليل ـ عند هؤلاء المنحرفين ـ وعاءُ الجرائم، وموسمُ المعاصي.. وهذا عامٌّ في البلدان كلها.. ذلك لأن الناس ـ كباراً وصغاراً ـ مشغولون في النهار، مشغولون بالعمل والدراسة، وخاضعون لرقابة الأهل وأصحاب المصالح، فإذا خيَّم الليل على الكون نشط أهل الشر وأعوانه الشياطين واستغلوا إخلاد الناس إلى الراحة، وفراغ الناس من أعمالهم، وشرعوا يروجون للباطل والمعاصي.

وإني لأعلم علم اليقين ـ والتجربة تؤكد ـ أن عدداً من المنحرفين كان سببُ انغماسهم في المعاصي ترك أهلهم لهم في الليل يعبثون ويتسكعون في الشوراع.. فقادهم ذلك إلى التعرف على رؤوس الفساد، ثم وقعوا في الفجور وارتكاب المحرمات.

إنَّ رفاق السوء من العصاة والفسقة ينتظرون قدوم الليل لإغواء إخوانهم..

وفي الليل ينشط روّاد الرزيلة ممن يروجون للمخدرات والمسكرات والمخالفات الشرعية لأنهم يتسترون بالظلام..

● والليل - عند الصالحين - وقت الأنس بالله، والفراغ لمناجاته، يناجونه قائمين راكعين ساجدين يتلون آيات الله ويسبحونه.. كما وصفهم الله سبحانه ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨] ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧].

والليل ليس هو وقت الحركة والتنقل والتجول، هذا بالنسبة إلى الكبار، ويكون الصغار الذين يخشى عليهم أولى بالسكون ولزوم المنازل، وقد امتنَّ الله على عباده بالليل الذي جعله سكناً قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦] وفصلت آية القصص هذا ووازنت بين الليل والنهار لتستبين هذه النعمة الكبرى. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

إن الأولاد ينبغي أن يكفوا في أول الليل ويلزموا منازلهم، وهذا يجعلهم تحت رقابة الأبوين لا سيما إن كانا يشعران بمسؤوليتهما. وبهذه المناسبة فإنني أود أن أشير إلى الترابط بين الحديث الذي ندرسه وبين

الآيات التي تلوناها آنفاً. . . فالكبار يسكنون في الليل، والأطفال الذين لا يستطيعون أن يقدروا الأمور حق قدرها يلزمون بالسكون.

إن اليوم في عرف الإسلام ينتهي بغروب الشمس. . فإذا دخل الليل فزع الناس إلى بيوتهم يتهيؤون للنوم فيتعشون ثم يصلون العشاء الآخرة ويؤون إلى فراشهم.

روى البخاري ومسلم عن أبي برزة أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها[1].

هذا وقد تحول الليل ـ وأأسفاه ـ في كثير من بلاد المسلمين إلى وقت للعبث واللهو والتسكع في الطرقات. . وما كانت حياة السلف هكذا أبداً.

إن قوماً يسهرون في عبث ولهو حتى بعد متنصف الليل لا يستطيعون أن يقوموا إلى صلاة الفجر ولا أن يؤدوا أعمالهم المطلوبة منهم بكفاءة وعطاء مجزىء. . ولما زرت ديار الغرب وجدت القوم هناك إذا جاء الليل أخلدوا فيه إلى الراحة والنوم المبكر ليستيقظوا في الغد ويباشروا أعمالهم بنشاط وجد وحيوية. ونحن أحق بالتزام هذا النمط من العيش لما تقدم ذكره من النصوص.

سمعت أن رجلاً يعمل بعمل يوجب عليه أن يكون على رأس عمله في الصباح الباكر. . ولكنه كان يقضي الليل في سهرات عابثة ولا يعود إلى داره إلا في الثلث الأخير من الليل. . فكان يأتي إلى عمله مكدود الجسم، واهن القوى، خائر العزيمة، مشوش الفكر، لا يستطيع إنجاز عمله. . .

فكان ذلك سبباً في إخفاقه في حياته العلمية وخموله. وقد تبيَّن أن السبب في هذا السلوك تربية أهله له يوم كان صغيراً، فقد تركوه لرفاق السوء يقضي معهم الليل، واستحكمت هذه العادة فيه بعد أن أضحى رجلاً كبيراً.

الإسلام دين الله الخالد، أنزله العليم الخبير، وهو المنهج الوحيد

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٢ برقم ٥٦٨) وصحيح مسلم ١ برقم ٦٤٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الضامن للسعادة والإصلاح في كل زمان ومكان.. والحديث الذي ندرسه اليوم يذكرنا بهذه الحقيقة.

إن هذا الدين يقرر في تشريعاته كلها مبدأ الوقاية وسدَّ الذرائع الموصلة إلى الكوارث والنكبات والمعاصي والمخالفات.. تلمس ذلك في الكليات والجزئيات في أحكام هذه الشريعة المطهرة التي عالجت شؤون الحياة كلها.

تلمسه في التوجيهات النبوية التي مرَّ بنا طرف منها في هذا الحديث كما تلمسه في نظام العقوبات في الإسلام... فقد كانت تلك العقوبات زاجرة رادعة، لأن مرتكب الكبيرة التي رتَّب الشارع حداً على اقترافها عضو فاسد في المجتمع يستحق هذه المعاملة الشديدة الحازمة.

فعقوبة الزنا ـ مثلاً ـ عقوبة حاسمة زاجرة؛ لأن الشرع رغب في الزواج ويسّر أسبابه، وندب الذين لا يستطيعون إلى الصيام، ودعا المؤمنين والمؤمنات إلى غض البصر على وجه الالزام، وحرّم الخلوة بالمرأة الأجنبية والتبرج والتهتك... وما إلى ذلك... فإذا أقدم مجرم على هذه الكبيرة بعد هذه السدود والاحتياطات والقيود والارشادات دلّ ذلك على أن هذا المجرم ذو نزعة شريرة ومعدن خسيس وأنه أهل للعقوبة الزاجرة... وهكذا شأن العقوبات الأخرى.

وهذا المنهج الرباني هو القمة في العدالة والتربية والتوجيه وبناء نفوس الأفراد وإقامة المجتمعات وهو يختلف عن منهج الكفار الذي يُبيح كل أسباب الجريمة.. ثم يضع العقوبة على من يقترفها.

هذا بالنسبة إلى المعاصي... وكذلك الأمر بالنسبة إلى الكوارث والنكبات.. إن هذه الشريعة المطهرة ترشد المسلمين إلى أسباب الوقاية من هاتيك الكوراث.

● إن التهاون في الوقاية من أسباب الكوارث غلط وحماقة.. والشرع



شبكة الألوكة - قسم الكتب

يأمرنا بالأخذ بالأسباب، وتحري الأسلوب الفعال في الوقاية من كل مرض وخطر. ومع ذلك فإننا نرى كثيراً من الناس يهملون الوقاية ويتساهلون في الاحتياط.. إننا نرى هذا الوضع الشاذ المستنكر عند عدد من أبناء مجتمعنا.. فقد يمرض طفل بالتهاب في معدته أو لوزتيه بسبب تناوله أطعمة معرضة للجراثيم أو أشربة باردة، ويسارع أهله إلى الطبيب يعالجون طفلهم بالأدوية الفعالة القوية، وقد يستعملون بعض المضادات الحيوية.. ولكنهم بعد أن يبرأ مريضهم لا يهتمون بالوقاية من أسباب المرض التي عرفوها، فتتجدد المتاعب عليهم وعلى طفلهم، وينفقون المال والوقت والصحة مع أن أبسط مبادىء الحياة والحكمة تقرر أن الوقاية خير من العلاج.

● والحديث الذي نتأمله يدعو إلى الوقاية من أسباب المرض والحريق وانحراف الأولاد ووقوعهم في حبائل الشيطان.

فقد دعانا إلى تغطية الأواني وإيكاء الأسقية لنتقي أسباب المرض والتعرض إلى الجراثيم. ودعانا إلى إطفاء النار قبل النوم لنتقي أسباب الحريق.

ودعانا إلى إغلاق الأبواب لنتقي شر اللصوص والمجرمين والهوام.

ودعانا إلى إيواء أولادنا عند المساء في بيوتهم لنتقي شر شياطين الجن والإنس. وهذا هو الأسلوب الناجح المفيد في التربية والتوجيه.

● ليس هناك أمر من أمور الخير إلاَّ دعت إليه شريعة الإسلام بنصوص من الكتاب والسنة، وليس هناك أمر من أمور الشر إلاَّ نهت عنه هذه الشريعة الخالدة بنصوص من الكتاب والسنة.

● وهذه النصوص إما أن تكون صريحة تذكر الأمر عينه كما رأينا في هذا الحديث الجميل، وإما أن تكون عامة تشمل بعمومها أشياء كثيرة منها ما هو قائم الآن، ومنها ما سيجدّ من المستحدثات من الخير والشر كما في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[1] وكما في قوله: «إنما الأعمال بالنيات»[2].

● أما أسلوب الحديث فقد ورد بروياته المتعددة بأسلوب الايجاز شأن أكثر الأحاديث. فأنت ترى أن كل موضوع مستقل بجملة قصيرة لا تزيد على كلمتين: «خمروا الآنية» «أجيفوا الأبواب» «أطفئوا المصابيح» والقِصَرُ في الجملة يورث الكلام قوة وجزالة في الأسلوب، ومع هذا الإيجاز البالغ فلقد توافرت للحديث الجميل صفة الوضوح، وهي صفة لا تفارق الكلام النبوي أبداً.

إن من يعملُ بما يبلغه من هدي الرسول ﷺ يسعد في الدنيا وينأى عن أسباب الهلاك الدنيوي والأخروي، ويكسب الأجر على امتثاله وعمله في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

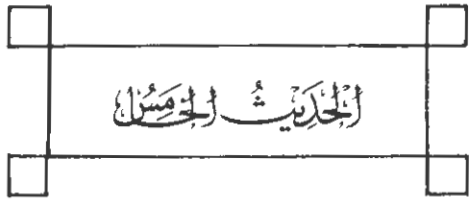
---

(١) ابن ماجه ٢/٧٨٤ والموطأ ٢/٧٤٥ والمستدرك ٢/٥٨ والسنن الكبرى ٦/٦٩.

(٢) انظر تخريجه في كتابنا قضايا في الدين والحياة ص ٢٧٣.



شبكة الألوكة - قسم الكتب



قال أبان بن عثمان بن عفّان: إنَّ زيد بن ثابت خرج من عند مروان نصف النهار. قال: قلت: ما بعثَ إليه هذ الساعة إلا لشيء سأله عنه. فسألتُه، فقال: سألنا عن أشياءَ سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«نضَّر الله آمرأً سَمِعَ منَّا حديثاً فبلَّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه. ورب حامل فقه ليس بفقيه.

● ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم:

إخلاصُ العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإنَّ دعوتهم تحيط من وراءهم.

● ومَنْ كانت الدنيا نيته فرَّق الله عليه أمره، وجَعَلَ فقرهُ بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما كتب له.

● ومن كانت الآخرة نيته جمع الله [له][1] أمره، وجَعَلَ غناهُ في قلبه،

---

(١) سقطت من رواية ابن حبان واستدركتها من ابن ماجه (٤١٠٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأتته الدنيا وهي راغمة» رواه الشافعي في الرسالة الفقرة رقم ١١٠٢.

ورواه ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن رقم ٧٢) وروى ابن ماجه القسم الأول من الحديث في المقدمة برقم ٢٣٠ والقسم الأخير منه برقم ٤١٠٥ وكذلك فقد روى أبو داود القسم الأول منه برقم ٣٦٦٠ والترمذي أيضاً (صحيح الترمذي للألباني برقم ٢١٣٩).

ورواه المنذري في «الترغيب والترهيب» ١/٥٣ وقال: [رواه ابن حبان في «صحيحه» والبيهقي بتقديم وتأخير، وروى صدره إلى قوله «ليس بفقيه» أبو داود والترمذي وحسّنه والنسائي وابن ماجه بزيادة عليهما].

ورواه الدارمي ١/٧٥. وروى البغوي في «شرح السنة» نحوه عن ابن مسعود إلى قوله: «من وراءهم» ١/٢٣٦.

وانظر: «المستدرك» ١/٨٨ و٨٧ و٨٦ ومسند أحمد ٥/١٨٣.

ورواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/٣٩ وما بعدها[٢].

عالج هذا الحديث الرائع الجميل أموراً عدَّة، كلها تندرج في صفات الداعية إلى الله وهذه الأمور هي:

١ ــ تبليغ الدعوة بأمانة دون زيادة ولا نقصان.
٢ ــ الاخلاص في العمل.
٣ ــ ومناصحة ولاة الأمر.
٤ ــ لزوم الجماعة.
٥ ــ الزهد في الدنيا وابتغاء الدار الآخرة.

---

(١) انظر كتابنا «الحديث النبوي» ١٤٠ رواية الحديث بالمعنى فقد دللنا على أحاديث أخر بمعنى هذا الحديث ولفظه.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولننظر في هذه الأمور.

● **تبليغ الدعوة**: يدعو رسول الله ﷺ كل واحدٍ من المسلمين ممن سمع حديثاً أن يبلغه وبهذا تكون الأمة الإسلامية أمة الدعوة.

ويطالعنا أول ما يطالعنا في الحديث دعاء النبي ﷺ: «نضَّر الله امرأً سمع منَّا حديثاً فبلغه غيره».

قال المنذري (١/٥٣): [قوله «نضَّر» هو بتشديد الضاد المعجمة وتخفيفها حكاه الخطابي، ومعناها: الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة والحسن، فيكون تقديره: جَمَّلَهُ الله وَزَيَّنَهُ. وقيل غير ذلك].

وجاء في «المختار»: [نضَّرَ الله آمرأً، بالتشديد، أي نعَّمه. وفي الحديث: «نضَّر الله آمرأً سمع مقالتي فوعاها...»]

وجاء في «اللسان» [نضَر الله وجهه ينضُره أي حسَّن. ونَضَرَ وجهه يتعدى ولا يتعدى... ويقال: نضَّر الله وجهه، بالتشديد، وأنضر وجهه بمعنى، وإذا قلت: نضّر الله امرأً يعني: نعّمه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أدَّاها إلى من لم يسمعها» نَضَرَه ونضَّره وأنضره أي نعَّمه، يروى بالتخفيف والتشديد من النضارة، وهي في الأصل حُسْنُ الوجه والبريقُ، وإنما أراد حسن خلقه وقدره].

وجاء فيه أيضاً: [قال الحسن المؤدب: ليس هذا من الحسن في الوجه إنما معناه: حسَّن الله وجهه في خلقه، أي جاهه وقدره. قال: وهو مثل قوله: «اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه» يعني به ذوي الوجوه في الناس وذوي الأقدار].

وجاء فيه أيضاً:[وقال الفراء في قوله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] قال: مشرقة بالنعيم. قال: وقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] قال: بريقه ونداه. والنَّضرة: نعيم الوجه.

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] قال: نضرت بنعيم الجنة والنظر إلى ربها عز وجل].

وجاء في «مفردات الراغب»: [النَّضرة الحسنُ كالنضارة، قال: ﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي رونقه قال: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]. ونَضَرَ وجهُه ينضُرُ فهو ناضر. وقيل نَضِرَ ينضَرُ. قال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ونضّر الله وجهه].

بعد هذه الجولة في المعجمات مع كلمة (نضر) نتبين أن معنى هذه المادة هو الحُسْنُ والجمال والرونق والبهجة. وهذا ما قاله ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: ٥/٤٣٩ [النون والضاد والراء أصل صحيح يدل على حسن وجمال وخلوص. منه النَّضرةُ: حُسْن اللون].

ووجدنا أن هذه المادة أكثر ما يوصف بها الوجه، إذا استعملت في وصف الإنسان، وهذا طبيعي، لأن الحسن إنما يبدو في الوجه. ونَضرة المرء إنما تكون في وجهه أول ما تكون.

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم ثلاث مرات كانت في موضعين مقرونة بالوجه. والنَّضرة بمعنى الحسن، والحسن ماديٌّ ومعنوي.

فالدعاء بأن يُحسَّن الله وجه إنسان يبلغ الناس دين الله ينصرف إلى الحسن المعنويّ لأن الجمال بمعناه المادي فطري وقع وكان.

وقريب من ذلك بياض الوجه في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧].

إنَّ رسول الله ﷺ يدعو بأن ينضّر الله امرأً سمع حديثاً، فبلّغه كما سمعه، أي يجمّله ويحسّنه ويزيّنه، ومن ينضّرْهُ اللهُ كان من الفائزين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

السعداء في الدنيا والآخرة، وهذا التنضير يكونُ في الدنيا بحسن السمعة وطيب الذكر وخالص الثناء، وقد يستمر الذكر الحسن للمرء إلى ما بعد موته، كما هو شأن كثير من الدعاة إلى الله الصادقين. ويكون في الآخرة بالنجاة والفوز بالجنة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فالداعية إلى الله والعالمُ العامل، كل منهما معلمٌ يبينُ للناسِ الحقَّ، ويدلهم على سبيل الرشاد، فيكون بذلك سبباً إلى هدايتهم وخلاصهم من نار الله الموقدة.

وقد وردت روايات أُخَرُ للحديث فيها دعاء للمبلِّغ بالرحمة كما جاء في حديث ابن مسعود الذي أخرجه ابن حبان: «رحم الله من سمع منَّا حديثاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»[1].

وتلتقي هذه الرواية مع الرواية السابقة في المعنى العام، وقد تفسِّرُ المراد من التنضير، وما أعظمها من مكافأة.

وقد استجابت أمة الإسلام إلى هذه الدعوة، فنقل الصحابة الكرام ما سمعوه من النبي ﷺ وسارت الأجيال التي جاءت على هذه السنة الطيبة حتى وصلت إلينا هذه الشريعة بنصوصها كاملة محررة تامة.

إنها لسلسلة متصلة بعلم النبوة أخبر الصادق المصدوق ﷺ أنها ستكون وقد تحقق والحمد لله، وذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تسمعون ويسمع منكم ويُسمع ممن يَسْمَعُ منكم»[2] رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم.

ويقرر رسول الله ﷺ حقيقة ملموسة في دنيا الواقع وهي احتمال أن يكون المبلِّغ محدود الإمكانات والمواهب، لا يفقه معاني ما يبلغه بعمق

---

(١) موارد الظمآن برقم ٧٤.

(٢) مسند أحمد ط شاكر برقم ٢٩٤٧ وأبو داود برقم ٣٦٥٩ وموارد الظمآن برقم ٧٧ والحاكم ١/٩٥.

واستيعاب، وربما كان المبلِّغ أوعى وأقدر على الفقه والاستيعاب والاستنباط والفهم والإفهام. فكم من تلميذ فاق أستاذه، وكم من رجل اهتدى إلى الإسلام بسبب سماعه كلمة من إنسان عادي، فحقق الله على يد هذا المهتدي من النصرة للإسلام وتأييده الشيء الكثير.

إنَّ المواهب في الناس موزعة في الأزمنة والأمكنة، فقد يُبَلِّغُ موهوبٌ دعوة الحق فينشرها ويغير واقع بلده وعصره.

إنّ المصلحين العظماء الذين استطاعوا أن يكونوا روّاداً وقواداً قادوا أقوامهم إلى ذروة المجد أفراد استمعوا إلى كلمة الحق من إنسان مخلص فاطمأنت لها قلوبهم واقتنعت بها عقولهم.. فحققوا ما حققوا. وقد يكون المبلِّغ إنساناً عادياً.

إنَّ الذي يسمعُ حديثاً عليه أن يبلغه للناس كما سمعه ليحظى بدعوة الرسول العظيمة، ولا يطلب منه التبليغ إلا إذا تأكد لديه أنه سيكون أداؤه مطابقاً لما سمع، ويتحقق هذا في أن يكون وعاه وحفظه كما دلت على ذلك الروايات الأخر، ومن ذلك قوله: «نضّر الله امرأً سمع حديثاً فحفظه...».

لا ينتظر المسلمُ الغيورُ ليبلغَ الناسَ ما عرفه وصولَهُ إلى مرتبة عالية في العلم.. إننا نطالبه بالدقة والأمانة في النقل فيبلغ كما سمع؛ فربما صادف إنساناً أقدر منه على الفهم وإدراك دقائق ما يروي إن قوله ﷺ «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» يدل على أنه ليس في الإسلام رجال دين... لا.. ليس هناك طبقة معينة تشرِّع وتنفرد وحدها بإعلان رأي الدين.. بل كل مَنْ حَمَلَ حديثاً كان عليه أن يبلغه كما سمعه، وقد يكون السامع أفقه منه لمعاني الحديث لموهبته وعمق نظرته ومضاء بصيرته.

إن الإسلام يفيد من كل واحد من المسلمين، والإنسان من حيث هو إنسان كائن محترم وعنصر ثمين.. بغض النظر عمَّا خصَّ الله به كل إنسان من طاقات ومواهب. فيجب أن نفيد من الذكي العبقري، ومن الإنسان

العادي، ومن الفقير ومن الغنيّ، ومن المثقف ومن الأميّ، ومن الرجل ومن المرأة.

وجاء في بعض روايات هذه الحديث: «ليبلغ الشاهد الغائب. ليبلغ الشاهد الغائب» مرتين «فرب مبلَّغ أوعى من مبلِّغ» وفي رواية «من سامع».

وجاء في حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رحم الله من تعلم فريضة أو فريضتين فعمل بهما أو علّمهما من يعمل بهما»[1].

وأولى الناس بالتبليغ العشيرة الأقربون والجيران الأدنون، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقال عز من قائل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]

وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران ١١٠]

إنَّ الذي يعرفه عامة المسلمين من الإسلام شيءٌ غير قليل:

إنهم يعرفون أهم أحكام الصلاة والزكاة، ويعرفون أكثر المحرمات كالقتل والسرقة والزنا والربا وعقوق الوالدين، ويعرفون أكثر الواجبات وخصال البر كالجهاد وبر الوالدين وتربية الأولاد على الإسلام.

فلماذا لا يبلغون ما يعرفون؟ ولما لا يذكّرون؟.

إنهم لو فعلوا ذلك حازوا نضرة الوجوه والثواب الأعظم الذي عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله لعلي: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» متفق عليه[2]. وحمر النعم إبل هي أنفس أموال العرب.

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/٤٢.

(٢) انظره في البخاري ٤/٣٨ وفي مسلم برقم ٢٤٠٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد يكون السببُ الذي يحول بينهم وبين التبليغ تقصيرهم في العمل بمقتضى ما يعرفون. ولكن لماذا التقاعس عن العمل لا سيما وأن المؤمن يعلم أنه محاسب على تصرفاته.

إن الجدير به أن يقلع عن هذا التقصير، ويبادر للعمل والدعوة معاً، وربما كان تبليغه حاثاً له على العمل، كما حصل لكثير من الذين كانوا ينصحون وهم متكاسلون..

ولكنهم عندما شرعوا في تبليغ الناس رجعوا إلى أنفسهم ولاموها وعملوا حسب طاقتهم.

بقي أن نشير إلى أن بعض علماء الحديث يحتجون بهذا الحديث على منع الرواية بالمعنى، فقد رأى الخليل بن أحمد أن من رواه بالمعنى فقد أزاله عن موضعه ومعرفة ما فيه[1] وقال الخطيب البغدادي يرد عليهم:[2]

[أما الحديث..... فهو حجة عليكم؛ لأنه قد علل فيه ونبه على ما يقول بقوله ﷺ: «فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه ليس بفقيه، وإلى من هو أفقه منه» وكأنه قال: إذا كان المبلِّغ أوعى من السامع وأفقه، وكان السامع غير فقيه، ولا ممن يعرف المعنى؛ وجب عليه تأدية اللفظ، ليستنبط معناه العالم الفقيه، وإلا فلا وجه لهذا التعليل إن كان حال المبلِّغ والمبلَّغ سواء[3]. على أن رواة هذا الخبر نفسه قد رووه على المعنى، فقال بعضهم (رحم الله) مكان (نضّر الله).. و(من سمع) بدل (امرأً سمع)... و(روى مقالتي) بدل (منا حديثاً).. و(بلغه) مكان (أدّاه).. وروى (فرب مبلَّغ أفقه من مبلِّغ) مكان (فرب مبلَّغ أوعى من سامع) و(رب

---

(١) الحديث النبوي ١٤٢ نقلاً عن الباعث الحثيث.

(٢) الكفاية: ٣٠٥.

(٣) أما إذا كان المبلغ فقيهاً واعياً فله أن يرويه بالمعنى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حامل فقه لا فقه لـه) مكان (ليس بفقيـه).. وألفاظ سـوى هذه متغـايرة تضمنها هذا الخبر.

وقد ذكرنا طرقه على الاستقصاء باختلاف ألفاظها في كتاب أفردناه لها[1].

والظاهر يدل على أن هذا الخبر نقل على المعنى، فلذلك اختلفت ألفاظه وإن كان معناها واحداً و الله أعلم].

يقول ﷺ:

«ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب مسلم:

إخلاص العمـل لله، ومنـاصحة ولاة الأمـر، ولزوم الجمـاعة، فـإنَّ دعوتهم تحيط من وراءهم»

● جاء في «النهاية»:[2] [الإغلال: الخيانة، أو السرقة الخفية.... ومنه الحديث: «ثـلاث لا يُغِلُّ عليهنّ قلب مسلم..» هـو من الإغلال: الخيانة في كل شيء.

ويروى «يَغِلُّ» بفتح الياء، من الغِل وهو الحقـد والشحناء. أي لا يدخله حقدٌ يزيله عن الحق.

ورُوي «يَغِلُ» بالتخفيف، من الوغول: الدخول في الشر.

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تُسْتَصلحُ بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر.

و«عليهن» في موضع الحـال، تقديـره: لا يَغِلُّ كـائناً عليهن قلب مسلم]

● وجاء في «الصحاح»[3]

---

(١) أي طرق حديث «نضر الله وجه امرىء...» جمعها الخطيب في كتاب أفرده لهذا الحديث.

(٢) النهاية لابن الأثير ٣/٣٨١.

(٣) الصحاح ٥/١٧٨٤.

[وفي الحديث: «لا إغلال ولا إسلال» أي لا خيانة ولا سرقة، ويقال: لا رشوة. وقال شريح: ليس على المستعير غير المُغِلِّ ضمان. وقال النبي ﷺ: «ثلاث لا يُغِلّ عليهن قلب مؤمن» ومن رواه «يَغِلُّ» فهو من الضغن].

● وقال البغوي في «شرح السنة»(١):

[«لا يَغِلُّ عليهنَّ» بفتح الياء وكسر الغين: من الغِلّ وهو الضغن والحقد. يريد: لا يدخله حقدٌ يزيله عن الحق.

ويروى بضمِّ الياء من الإغلال، وهو الخيانة، وفي الحديث: أنه كتب في كتاب صلح الحديبية: «لا إغلال ولا إسلال» فالإغلال: الخيانة، والإسلال: السرقة. يقال: فلان مُغِلّ مُسِلّ، أي خائن سارق، والسَّلة: السرقة. فأما الغلول في الغنيمة ـ وهو الخيانة فيها ـ ليس من هذا. سمي غلولاً لأن الأيدي مغلولة عنها، أي ممنوعة. يقال من الغلول في الغنيمة: غَلَّ يَغُلُّ بضم الغين قال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] ويقال من الخيانة في غيرها: أغلّ يُغِلّ.

ويقال من الحقد: غلَّ يَغِلُّ بكسر الغين]

● وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»(٢):

[..أي لا يبقى فيه غِلٌّ، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غِلَّه، وتنقيه منه وتخرجه عنه، فإنَّ القلب يَغِلُّ على الشرك أعظم غل، وكذلك يَغِلُّ على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غِلاً ودغلاً، ودواء هذا الغِل واستخراج أخلاطه: بتجريد الاخلاص والنصح ومتابعة السنة].

---

(١) شرح السنة ١/٢٣٦.

(٢) انظر «تهذيب مدارج السالكين» ٣٢١.

إذن أرجح الروايات رواية «يغل» وقد مرَّ شرحها. ولنبدأ في شرح الخصلة الأولى وهي الإخلاص.

الإخلاص شرط من شروط قبول العمل عند الله وعند الناس. فمن عمل شيئاً لم يكن خالصاً لله لم يقبله الله وكذلك فإنَّ الناس لا يقبلونه، ولا ينتفعون منه.

والإخلاص أن لا يشرك العامل في قصده أحداً غير الله، فينأى عن الشرك والرياء والمصلحة والسمعة، والنصوص التي تدعو إلى الإخلاص في الكتاب والسنة كثيرة جداً، نورد منها ما يأتي:

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وقال: ﴿إِنَآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣] وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥] وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن الاحاديث: قوله ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب عنه «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق عليه[1].

ومنها حديث سعد بن أبي وقاص قال قال ﷺ: «إنَّك لن تخلَّف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة» متفق عليه[2].

---

(١) انظر تخريجه ص ٢٧٣ من كتابنا «قضايا في الدين والحياة».

(٢) البخاري ٢/٧٢ ومسلم برقم ١٦٢٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومنها حديث أبي هريرة «إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم(١).

ومنها حديث أبي موسى قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً: أي ذلك في سبيل الله»؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» متفق عليه(٢).

ومنها حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه:

● رجلٌ استشهد، فأُتي به، فعرَّفه نعمته، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

● ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها. قال فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

● ورجلٌ وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك.

قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جوادٌ، فقد قيل. ثم أمر به فسُحبَ على وجهه ثم ألقي في النار» رواه مسلم(٣)

---

(١) مسلم برقم ٢٥٦٤.

(٢) البخاري ١/ ٣٠ ومسلم ١٩٠٤.

(٣) مسلم برقم ١٩٠٥ والنسائي ٦/ ٢٠ ـ ٢١ كتاب الجهاد باب من قاتل ليقال فلان جريء. وانظر صحيح الترمذي للألباني ١٩٤٢.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومنها الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه»[1]

وللعلماء العارفين أصحاب القلوب الحية أقوال جميلة في الإخلاص نذكر بعضها فيما يأتي:

● فمن ذلك أن الفضيل بن عياض قال في شرح قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] قال: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصُه وأصوبُه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد تنوعت عباراتهم في تعريف الإخلاص:

● فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

● وقيل: هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

● وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه.

● وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

● وقيل: الإخلاص ألّا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه.

---

(١) مسلم برقم ٢٩٨٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

● وقال مكحول: ما أخلص عبدٌ قطُّ أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

● وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

● وقيل لسهل: أيُّ شيء أشدُّ على النفس؟ فقال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب[1].

● وقال سهل: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله خاصة.

● وقال إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله.

● وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات.

● ومما ينسب إلى سيدنا عيسى عليه السلام: الخالص من الأعمال هو الذي يُعمل لله تعالى، لا يحب أن يحمده عليه أحد.

● وقال الفضيل: تركُ العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[2].

[والإخلاص أمر في أعماق القلب، لا يطلع عليه أحدٌ إلا الله تبارك وتعالى، ولكنه يتجلى في أمور عديدة، وثمرته تبدو واضحة جلية في مجال الدعوة.

ومن هنا نرى الفرق واضحاً بين رجلين تساويا في أمور كثيرة، و لكنهما اختلفا في الإخلاص.

يتجلى الإخلاص عند الداعية في أن لا يريد من دعوته إلا وجه الله. فلا يريد أن يحظى بمكانة اجتماعية مرموقة، ولا يهمه كثيراً أن يكون

---

(١) هذه الأقوال كلها من تهذيب مدارج السالكين ٣٢٢.

(٢) وهذه المجموعة الأخرى من الأقوال مأخوذة من الإحياء ٤/٣٦٩ - ٣٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مرفوعاً أو أن يكون مغموراً بين الناس. ولا يبالي بالناس ولا بثنائهم، ولا يسعى أبداً لكسب إعجابهم ومحبتهم ومدحهم واحترامهم، وليس معنى هذا أن يكون حريصاً على أن يذمه الناس ويسيئوا به الظن.. لا وإنما يبغي أن يسير في الدعوة على الطريق السويّ، لا يريد بذلك إلا وجه الله. ولا يبغي من دعـوته أن يكسب المـال الوفيـر.. فمـا أسـوأ الـذين يـزعمـون أنهم يريدون الله ورضوانه، وهم في حقيقة الأمر لا يريدون إلا الدرهم والدينار.

ويتجلى الإخلاص في الداعية في أن يُسَرَّ إذا تحقق الخير على يديْ غيره كما يسر لو تحقق على يديه.

وللإخلاص أثر كبير في استجابة المدعويين إلى مضمون الدعوة؛ لأن الإخلاص يكسب صاحبه جرأة منقطعة النظير في الإقدام على ما يرى أنه مصلحة له، ويكسبه قوة هائلة.

ومن أروع الأمثلة على القـوة التي يمنحهـا الإخـلاص لصـاحبـه القصة][1] الرمزية المعبِّرة المذكورة في كتب التراث، والتي كتبهـا بعض الكتاب المعاصرين مسرحية جميلة. وخلاصتها:

[كان عابد من العبَّاد في الأمم السابقة يعبد الله دهراً طويلاً، فجاءه قوم فقالوا:

إنّ ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى. فغضب لذلك، وأخذ فأسه على عاتقه، وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ مسنّ، قال: أين تريد... رحمك الله؟

ـ قال: أريد قطع هذه الشجرة.

ـقال: وما أنت وذاك؟ تركت عبادتك، واشتغالك بنفسك، وتفرغت لغير ذلك.

---

(١) انظر رسالة من صفات الداعية بقلمنا.

ـ قال: إنَّ هذا من عبادتي.

ـ قال: فإني لا أتركك تقطعها.

فقاتله، وما هي إلا لحظات حتى طرحه العابد على الأرض، وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك. فقام عنه، فقال إبليس: يا هذا.. إنَّ الله تعالى قد أسقط عنك هذا، ولم يفرضه عليك، وأنت لا تعبدها، وما عليك من غيرك؟ ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها، وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لي من قطعها. ونابذه القتال، وتصارعا، فغلبه العابد ثانية، وصرعه، وقعد على صدره. فلما رأى إبليس عجزه وضعفه سلك طريق الاحتيال، وعلم أنَّ هذا الرجل ما دام مخلصاً لله فلن تكون قوة في الأرض تغلبه أو تثنيه عن عمله.. وبالفعل.. فقد لجأ إلى أن يغير العابد نيته، وأن يريد شيئاً غير الله وثوابه..

فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك، وهو خيرٌ لك وأنفع؟

قال العابد: وما هو؟

قال إبليس: أطلقني حتى أقول لك. فأطلقه. فقال إبليس: أنت رجلٌ فقير لا شيء لك، إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك، وتشبع، وتستغني عن الناس.

قال العابد: نعم.

قال: فارجع عن هذا الأمر، ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما، فأنفقت على نفسك وعيالك، وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها، ولا يضير عبّادَها قطعها شيئاً، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها.

فتفكر العابد فيما قال إبليس... ثم قال: صدق الشيخ، لست بنبي

فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها، فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة. ثم وضع يده في يد الشيخ وتعاهدا.. وقد عاهده إبليس على الوفاء بذلك، وحلف له.

ورجع العابد إلى صومعته، فبات، ولما أصبح رأى دينارين عند رأسه، فأخذهما، وكذلك في الغد. ثم أصبح في اليوم الثالث وما بعده، فلم ير شيئاً. فغضب، وأخذ فأسه على عاتقه، ومضى إلى الشجرة يريد قطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة. فقال: كذبت. والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها. فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة. فقال: هيهات. وما هي إلا لحظة حتى أخذه إبليس، وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره، وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك. فنظر العابد، فإذا لا طاقة له به. قال: يا هذا. غلبتني.. فخلِّ عني.. وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن؟.

فقال: لأنك غضبت أول مرة لله، وكانت نيتك الآخرة، فغلبتني بقوة الله، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدينار.. فصرعتك.][1]

إنَّ هذه القصة الرمزية لتبيِّنُ بجلاء قيمة الإخلاص وأثره.

[إن الإخلاص بعد هذا كله يكسب الداعية احترام الناس وإعجابهم.. ويكسبه استجابتهم لدعوته وتأثرهم بها.

فإذا كان الإخلاص بهذه الدرجة من الأهمية والأثر، فإنَّ على الداعية أن يبالغ في حمل نفسه على الإخلاص، ويروضها على اجتناب الرياء، والحذر من مكايد الشيطان، وحبائل الهوى، وعليه أن يبتعد عن العجب بالفعل، وألاّ يعبأ بما يسعى إليه الكثيرون من لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع][1].

---

(١) من صفات الداعية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أعرف حادثتين تحقق النصر فيهما لرجل لأنه كان فيما يبدو ـ صادقاً مخلصاً في موقفه وعمله!

١ ـ كُلّف مدرس صغير ضعيف متدين بتدريس طالبات في المستوى الثانوي ودار المعلمات، فاعتذر وطلب أن يعفى ولكنه موظف، ولم يُستجب لطلبه.. فلما لم يجد بداً قابل المسؤول. وقال: أنا مستعد للتدريس إذا وافقت على أن تتحجَّب الطالبات في درسي، وإلا فلن أذهب للتدريس ولو أدَّى الأمر إلى فصلي من عملي.

ووافق المسؤول على طلبه؛ لأنه كان مضطراً، ولاضطراره سبب يطول ذكره.

وبدأ هذا المدرس تدريسه، وكانت الطالبات محتجبات حتى من كان منهن على دين غير دين الإسلام.

ولكنه بعد مدة قصيرة رأى أن موقفه غير مضطرد، فهو يجلس في غرفة الأساتذة وفيها اختلاط بين المدرسين والمدرسات، والمدرسات يجلسن معه حاسرات متبرجات متزينات.

فذهب إلى المسؤول وقال: إنني أشعر بالحرج في موقفي المزدوج، فأنا أرفض قبول طالبة غير محجبة، وأجلس في الوقت نفسه مع مدرسات سافرات. ولذلك فأنا أطلب منك إعفائي من تدريس البنات، أو إلزام المدرسات بالاحتجاب عندما أدخل.

قال له: إن النظام لا يساعدني على هذا. قال: إذن أود أن تعلم أنه إن مضى أسبوع ولم تلتزم المدرسات بالحجاب فسأترك التدريس. وخرج.

ولم يكن هناك مدرس سواه، ولمس المسؤول صدقه في كلامه، فلم يكن أمام المسؤول إلا الاتصال بمديرة الثانوية وإبلاغها قرار المدرس، وبيّن لها أنها ستبقى إلى آخر السنة دون مدرس. ووقعت المديرة في أزمة.

عاد الرجل إلى بيته وهو مصمم على تنفيذ ما ذكره للمسؤول، والرزق



شبكة الألوكة - قسم الكتب

على الله، فلما دخل قالت له زوجته: إن زميلك فلاناً جاء يسأل عنك عدة مرات وذكر آخر مرة أنه ينتظرك بعد العشاء في منزله لأمر هام.

وزميله هذا إنسان طيب من المصلين. ذهب صاحبنا إلى منزل زميله، ولما دخل غرفة الضيوف فوجيء بمديرة دار المعلمات ومعها عدد من المعلمات، فعرف حقيقة هذا الأمر الهامّ.. وجرى نقاش بَيْنَهُ وبَيْنَها، خلاصته أن المديرة عاتبت صاحبنا قائلة: يا أستاذ أنت تريد أن تغطيني، و الله إن أبي لم يستطع ذلك.

قال لها: أنا لا أريد أن أحملك على شيء، ولا أملك ذلك، لأنني لست بولي لك ولا بوليٍّ للأمر، وكل ما في الأمر أني لا أريد أن أرتكب إثماً بجلوسي مع امرأة لا تمتثل أمر الله في الحجاب، وجلوسي معك على مرأى من الطالبات فتنة لهنّ، فقد تظن واحدة منهنَّ إذا رأتني أن هذا جائز. وقد تقول أخرى: إن موقف هذا الإنسان متناقض، فكيف لا يجيز ظهور الطالبة أمامه سافرة، ويجلس مع المدرسات وهن بأتم زينة؟

قالت: يا أستاذ أنا لا أصلي، وكنت أودُّ أن تأمرني بالصلاة قبل الحجاب، أوليست الصلاة أهمَّ من الحجاب؟

فأجابها: نعم الصلاة أهم من الحجاب بالنسبة لك: أما أنا فإن تحتجبي أمامي فهذا أهم بالنسبة لي أما الصلاة فخاصة بك أنت.

وحاورته فلم تجد إلا تصميماً.. فقالت عندئذٍ: هناك حل أرجو أن يكون مناسباً، وهو أن تكون غرفة خاصة للمدرسين، وإذا اضطرت واحدة منا أن تجيء إليكم تحجبت.

قال صاحبنا: ذلك ما كنا نبغي. وكتب الله له الغلبة والتأييد.

٢ ــ أصدرت الحكومة ورقة يانصيب على سيارة ألزمت الموظفين الذين هم من الدرجة الأولى بشراء هذه الورقة وجعلت ريع هذا اليانصيب لتسليح الجيش.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجاء أحد الموظفين ليقبض راتبه، فأخبره أمين الصندوق أنه اقتطع من راتبه قيمة الورقة قال: لا تفعل.. وإلا فإني سأترك الراتب عندك. ولم يستطع أمين الصندوق أن يعطيه راتبه كاملاً فمضى صاحبنا وترك راتبه.

وبعد أيام اضطر أمين الصندوق أن يصفي حسابه، فاتصل بمدير المعارف وأخبره بالخبر فاستدعى المدير هذا الموظف، وسأله لماذا لم تنفذ أمر الدولة بشراء ورقة يانصيب.

قال: لأن هذا حرام، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. قال: لكن هذا اليانصيب لأمر خيري. قال: إن الخير لا يأتي عن طريق الشر. وأنا أطلب منكم فتح باب التبرع لهذا الموضوع لترى أنني سأتبرع بأكبر مبلغ يمكن أن يتبرع به موظف.

وعندئذٍ وأمام هذا الإصرار صُرِف راتبه كاملاً.

* * *

إن الرجل في كلتا الحادثتين كان مخلصاً في موقفه. لا يريد سمعة ولا جزاء، بل كان فيهما مضحياً بعمله ووظيفته التي يحرص كثير من الناس على الحصول عليها.

إنَّ الإخلاص منحه قوة جعلته يتحدى الأنظمة والأعراف ويتغلب عليها.

يقرر رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح أن قلب المسلم الذي يتصف صاحبه بالخصال الثلاث: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة لا يدخله حقد يزيله عن الحق ولا غل على أحد من المسلمين.

وقد بحثنا في الإخلاص، ونود أن نتأمل الخصلتين الأخريين وهما: مناصحة ولاة الأمر ولزوم الجماعة.

ذكرت كتب اللغة أن النصح تحرِّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاح



شبكة الألوكة - قسم الكتب

لصاحبه[1]. وقال ابن الأثير: النصيحة كلمةٌ يُعبَّر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، فليس يمكن أن يُعبَّرَ عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناها غيرها[2]. والنصح خلاف الغش. وذكر علماء اللغة أن هذه الكلمة مأخوذة من أحد الأصليين:

إما من قولهم (نصحت له الود) أي أخلصته، وناصح العسل خالصه.

وإما من قولهم (نصحت الجلد) أي خطته، والناصح الخياط[1] فهي إما من الإخلاص، وإما من الإحكام[1].

وقال ابن فارس: النون والصاد والحاء أصل يدل على ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما[3]. والفعل نصح يتعدَّى بنفسه وباللام، تقول: نصحه، ونصح له، وهو باللام أفصح لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤].

والمناصحة صيغة تدل على المشاركة غالباً، وقد يراد بهذه الكلمة هنا النصح، وذلك بدلالة سياق الحديث.

ومن الروعة في بيان الرسول الأعظم ﷺ أن يجمع بين مناصحة أولي الأمر ولزوم الجماعة؛ ذلك لأن اجتماعهما يحقق المصلحة التامة في تقويم الخطأ والبعد عن الفتن

إن الذي يخلص في عمله، ويناصح ولاة الأمر، ويلزم جماعة المسلمين؛ لا يكون في قلبه غِلٌّ لأحدٍ من الناس أبداً وإنه عندئذٍ لخليق أن يكون سعيداً في دنياه وآخرته.

وهذا الموضوعُ دقيق جداً وحساس جداً، تدخل فيه عواملُ عدة،

---

(١) المفردات للراغب.

(٢) لسان العرب لابن منظور.

(٣) معجم مقاييس اللغة. لابن فارس.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونوازع شتى، من النفس والدنيا، والمجاملة، والخوف والرجاء؛ ولذا جاءت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تحذر من هذه الأمور.

والنصُّ هنا مجملٌ، ولكنه جمع جوانب الموضوع بكل إحكام ووضوح.. فمناصحة أولي الأمر مطلوبة، ولزوم جماعة المسلمين مطلوب، ولا يجوز أن يحقق المرء واحداً ويفرط في الآخر.

وجاء في الحديث ذكر الحكمة في دعوة أولي الأمر ومناصحتهم.. فقد ذكر النبي ﷺ أن دعوة أولي الأمر مع البقاء في إطار الجماعة تحيط بمن وراءهم من العامة والأتباع.

لا بُدَّ في المناصحة من أن يكون الناصح حذراً من وساوس الشيطان، وحظوظ النفس، وإغراء الدنيا، والفتنة بزينتها، يقظاً لدقة المداخل في هذه الأمور كلها، ثابت القدم والقلب أمام المخاوف، مؤثراً لما عند الله، لا يخشى في الله لومة لائم.

ولم يَخْلُ عصرٌ من العصور من وجود أعلام في أمة الإسلام يقولون كلمة الحق بالحكمة والأسلوب المقبول، لا يجاملون ولا يداهنون، وعلى ربهم يتوكلون، ولا يبالون بما يلقون، وهم قليلون، ولا عجب، فإن الكرام قليل.

ووجد كذلك في معظم العصور ناس يظهرون بمظهر الناصح، يسوّغون الباطل، وقد يحلون الحرام ويحرمون الحلال، يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل. وقد حدثتنا كتب التاريخ أنه كلما اشتد طغيان الطواغيت، وعظم انحرافهم عن نهج الإسلام، كثر هؤلاء المرتزقة من أدعياء العلم الذين يقولون ما لايرضى الله ولا يوافق الحق.

إن مناصحة أولي الأمر ولزوم الجماعة - كما ذكر الحديث - يحقق للإنسان ما ذكرنا من السعادة في الدنيا، والنجاة يوم القيامة... فإن لم يستطع المرء أن يقول كلمة الحق فليحذر من أن يقول الباطل ويحرف



شبكة الألوكة - قسم الكتب

أحكمام الدين، لأن الله جعل في السكوت سعة لمن لا يستطيع أن يقول كلمة الحق وقد يكون الصمت نفسه موقفاً معبراً.

إن النصيحة هي الدين، كما جاء في حديث تميم الداري قال قال النبي ﷺ: «الدينُ النصيحةُ» ثلاثاً. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم والنسائي وأبو داود وأحمد[1].

والحديث الذي نشرحه يخصُّ النصيحة بأولي الأمر.. لأنهم يصلح بصلاحهم المجتمع، ويفسد بفسادهم، وقديماً قيل: الناس على دين ملوكهم. ومن هنا كانت دعوة الرسول لملوك الأرض، حيث كتب لهم رسائل دعاهم فيها إلى الإسلام، وحملهم مسؤولية أقوامهم إن هم أبوا أو أعرضوا، فقد قال في رسالته لهرقل: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين»[2].

وأولو الأمر بشر، يخطئون ويصيبون، ويخضعون لتأثيرات شتى من وساوس النفس، ولهم المنصب والكلمة المسموعة، وبأيديهم القوة والمال، فهم بحاجة إلى من يشير عليهم بالرأي السديد ويخلص لهم النصح فيما يواجهون. وما أجل حديث أبي هريرة قال قال النبي ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه» رواه أبو داود[3] فالمرآة تبين للمرء ما بوجهه من القذى والشعث، فسرعان ما

---

(١) انظر مسلم كتاب الإيمان برقم ٥٥، والنسائي كتاب البيعة ١٥٦/٧ وأبو داود كتاب الأدب برقم ٤٩٤٤ وأحمد ١٠٢/٤.
وانظر شرحه في «فتح الباري» باب الدين النصيحة، ولم يورده البخاري لأنه ليس على شرطه. هذا وكنت من نحو أربعين سنة ألقيت محاضرة بدمشق عن النصيحة، وكانت عندي بطاقاتها قبل هجرتي، والبطاقات تشكل رسالة. وما أدري الآن أين هي.

(٢) انظر أول صحيح البخاري.

(٣) أبو داود: كتاب الأدب برقم ٤٩١٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يصلح شأنه ويزيل قذاه وشعثه، وهو أخوه يبالغ في نصحه والإحسان إليه.

وأتبع رسول الله ﷺ المناصحة بلزوم الجماعة، لأن الخروج على الجماعة، يمزق الأمة، ويضعف قوتها، ويطمع فيها الأعداء.. فلا يباح بحجة النصح الخروج على الإمام المسلم الذي يقيم الصلاة ويحكم شرع الله ولا يقول بكلمة الكفر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعمل على إعلاء كلمة الله.

ودعوة أولي الأمر ومناصحتهم عظيمة الأثر؛ فقد روي عن بعض الصالحين أنه قال: لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان، لأنه بصلاحه يصلح الناس.

وقد فطن بعض الدعاة الملهمين إلى أهمية ذلك، فكان من أشهرهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فهدى الله به وبمن استجاب لدعوته الجمَّ الغفير من الناس. ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد جاء في أثر عن عمر أو عثمان ما يدل على أثر السلطان في الإصلاح.

قال السيوطي أخرج الخطيب عن عمر قال: «والله لما يَزَعُ الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن»(١)

وقال القرطبي: [وذكر ابن القاسم قال: حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: «ما يزع الإمامُ أكثر مما يزع القرآن» أي من الناس. قال ابن القاسم: قلت لمالك ما يزع؟ قال: يكف](٢).

وقال ابن كثير: [وفي الحديث «إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع

---

(١) انظر «الدار المنثور» ٤/١٩٩.

(٢) انظر «تفسير القرطبي» ١٣/١٦٨ في تفسير سورة النمل.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بالقرآن» أي ليمنع بالسلطان من ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع][1].

ولا بُدَّ أن تستكمل الصفات المهمة الآتية فيمن يتصدّى لمناصحة أولي الأمر:

● ومن أهم هذه الصفات العلم والمعرفة، أجل ينبغي أن يكون الناصح على معرفة من الموضوع الذي يأمر به أو ينهى عنه أو يذكر به، وعنده دليل من كتاب الله وسنة رسوله، أو يكون مما علم من الدين بالضرورة، ويكون مطلعاً على أقوال أهل العلم الموثوقين.

● ومن هذه الصفات الأسلوب الحسن، ولنتأمل قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

فلقد أمر الله نبيه موسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون الطاغية مدعي الألوهية أن يقولا له قولاً ليناً، فما بالنا بمن يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟

ولنتأمل قول الله تعالى لرسوله وحبيبه محمد ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

● ومن هذه الصفات التزام جماعة المسلمين، إن العمل الفردي لا

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» طبعة الشعب ١٠٩/٥ وقال المحققون في التعليق على هذا الكلام: [هذا النص ورد عن عثمان بن عفان، وليس بحديث مرفوع إلى النبي ﷺ والذي في «سنن البيهقي الكبرى»: «من يزع بالسلطان أكثر ممن يزع بالقرآن» وقد حكاه صاحب كنز العمال جـ ٩] ولم يذكروا الصفحة. قلت: ولا يعني ابن كثير بقوله (وفي الحديث) أنه حديث مرفوع لأن الموقوف حديث أيضاً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يجدي، ولا يعود على الأمة إلا بالبوار، فالتنازع والتفرق سبيل الضعف والإخفاق قال تعالى ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولا بد للمسلم من أن يكون ضمن جماعة المسلمين الذين هم كالبنيان المرصوص.

عن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالجماعة وإياكم والفُرقةَ، فإنَّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة»(١). رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يد الله مع الجماعة»(٢).

وفي حديث ابن عمر: «ويد الله على الجماعة».

● ومن هذه الصفات الحرص على تجنب الفتن؛ لأنَ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذه الصفة مهمة جداً.. إن غفل الإنسان عن مراعاتها أفسد أكثر ممَّا كان يريد أن يصلح.. وهذا مشاهد في الواقع العملي.

قال الشيخ أحمد الزرقا: [فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة قُدِّم دفع المفسدة غالباً](٣) وهذه قاعدة فقهية عامة تطبق على كثير من شؤون الحياة.

هذه أمور ينبغي أن تتوافر فيمن يتصدى للنصح، وهناك أمور أخرى غيرها ولكننا ذكرنا ما نرى أنه أهم وأولى بالتقديم.

وإذا كان الناصح عالماً يمتلك الأسلوب الحسن في التذكير والنصح ملتزماً جماعة المسلمين لا يشذ عنهم ولا ينفرد دونهم، حريصاً على اجتناب الفتن وتفريق الأمة الواحدة.. إذا كان كذلك استطاع أن يقول كلمة الحق، وكان لكلمته سلطان كبير وتأثير واسع.

---

(١) ابن ماجه برقم ٢٣٦٣ وصحيح الترمذي للألباني برقم ١٧٥٨.
(٢) صحيح الترمذي للألباني برقم ١٧٦٠.
(٣) شرح القواعد الفقهية ص ١٥١.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

عن جرير بن عبد الله قال: بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم» رواه البخاري ومسلم والنسائي[1].

وفي رواية للنسائي عن جرير قال: أتيت النبي ﷺ فقلت له: أبايعك على السمع والطاعة فيما أحببتُ وفيما كرهتُ. قال النبي ﷺ: «أَوَ تستطيعُ ذلك يا جريرُ؟ أَوَ تطيق ذلك؟ قل: «فيما استطعتُ» فبايعني «والنصح لكل مسلم»[2].

وفي رواية لمسلم عن جرير قال: بايعتُ النبي ﷺ على السمع والطاعة. فلقَّنني «فيما استطعت» «والنصح لكل مسلم»[3].

وأولو الأمر داخلون في قوله «لكل مسلم» والمطلوب أن يقوم المرء بما يستطيع من توجيه النصح لكل مسلم، والمبدأ العام الذي يقرره الإسلام أنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وعن عبادة بن الصامت قال:

بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم. رواه البخاري ومسلم والنسائي[4].

وفي رواية للبخاري أنَّ عبادة قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناهُ، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان[5].

---

(١) البخاري في كتاب الايمان ١/١٧، ومسلم في كتاب الايمان ١/برقم ٥٦، والنسائي في كتاب البيعة ٧/١٤٠.
(٢) النسائي في كتاب البيعة ٧/٤٧.
(٣) مسلم رقم ٥٦ (رقم ٩٩).
(٤) البخاري ٩/٦٤ ومسلم برقم ١٧٠٩ والنسائي ٧/١٣٨.
(٥) البخاري ٩/٤٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يجوز لأصحاب الرأي والحكمة، ورجال العلم والفضل، أن ينزووا في بيوتهم، ويعزلوا أنفسهم عن الناس.. ولا يجوز لهم أن يغلب عليهم اليأس.

إنهم مطالبون بأن يقولوا كلمة الحق بالوقت المناسب والأسلوب المناسب، ويعذروا أنفسهم. إنهم إن فعلوا ذلك قطعوا الطريق على فئتين: قطعوا الطريق على الانتهازيين المنافقين وعلى المغرضين الحاقدين.

نعم.

- هناك ناس منافقون يسوّغون الباطل ويُفتون بما يرضي الأهواء.
- وهناك ناسٌ حاقدون مغرضون لا همَّ لهم إلا النقد والشتم والتحريض على النقمة.

ألا فليستشعر العلماء والمفكرون مسؤوليتهم، وليتقدموا إلى النصح بالحكمة..

وسيكون لذلك أثر كبير تصلح به الأمور ويكون من ورائه الخير العميم، وعلى أولي الأمر أن يستجيبوا للنصح ويشكروا الناصحين.

أما إذا أوصدت الأبواب دون العلماء فهم عندئذٍ معذورون في عدم إسماعهم كلمة الحق للحكام، ولكن عليهم في الوقت نفسه أن يبحثوا عن وسيلة تمكنهم من إعلان رأيهم، لعله يصل إلى أسماع هؤلاء الحكام أو مستشاريهم

إنّ طلبنا من العلماء أن يتقدموا إلى نصح الحكام لا يعني أن يتنازلوا عن كرامتهم، ولا أن يعرّضوها للإهانة، لأنَّ كرامة العالم من كرامة الدين.

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني:

يقولون لي: فيك انقباض، وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهُم هانَ عندهم ... ومن أكرمتْهُ عزةُ النفس أُكرما
وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّني ... ولا كلُّ من لاقيتُ أرضاه مُنْعِما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت ... أقلِّبُ كفي إثره متندما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولم أقض حقَّ العلم إنْ كان كلما ... بدا طمعٌ صيَّرْتُه ليَ سُلَّما
إذا قيل: هذا منهلٌ، قلتُ: قد أرى ... ولكنَّ نفس الحرِّ تحتملُ الظما
ولم أبتذلْ في خدمةِ العلمِ مهجتي ... لأخدُمَ من لاقيتُ، لكن لأُخْدَما
أأشقى به غَرْساً وأجنيهِ ذِلَّةً ... إذنْ فاتباعُ الجهلِ قدْ كانَ أحزما
ولو أنَّ أهل العلم صانوهُ صانهم ... ولو عظَّموه في النفوس لعظّما
ولكنْ أهانوهُ فهانَ، ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تجهّما[1]

هذا كله إذا كان السلطان يحكم تحت مظلة الإسلام، ولكنه مقصر، أما إذا كان معلناً كلمة الكفر، مجنداً قوته وسلطانه للقضاء على الإسلام فالبعد عنه واجب، والحذر من أن يستغلّ قاصديه من العلماء متعين. والله أعلم.

قال ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه زيد بن ثابت:

«ومن كانت الدنيا نيته فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له؛ ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[2].

هذا الكلام الجميل الرائع عليه نور النبوة، وهو من جوامع كلمه ﷺ، وقد استكمل سداد المعنى، وجمال الأسلوب، وحسن الإيقاع، وروعة الصورة، وقوة الديباجة.

ويقوم هذا النصّ على الموازنة بين من كانت الدنيا نيته وبين من كانت الآخرة نيته، وقد توزعت فيه الكلمات بين قسمي الكلام توزعاً يعين على إيجاد موسيقى داخلية، تزيد في جمال النص.

---

(١) طبقات الشافعية ٣/٤٦٠ أقول: وقد ذكر السبكي عقب هذه الأبيات شعراً نحوه لابن دقيق العيد فارجع إليه.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/برقم ٤١٠٥ وموارد الظمآن رقم ٧٢.
وروى الترمذي نحوه عن أنس؛ انظر صحيح الترمذي للألباني رقم ٢٠٠٥ وقد سبق في مطلع الكلام على الحديث تخريجه فتأمل.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويدلُّ الحديث على أنَّ من كانت الدنيا نيته كان معذباً في الدنيا، خاسراً يوم القيامة؛ إنه موزِّع الاهتمامات، يمزق نفسه هذا التفرق في أموره، وكان فقيراً ولو ملك الكثير.

وأنَّ مَنْ كانت الآخرة نيته كان سعيداً في الدنيا، فائزاً يوم القيامة، إنه مُوَحِّدُ الاهتمامات، اجتمعت نفسه فأعانه ذلك على النجاح، وكان غنياً ولو أفلس.

والرزق مقسومٌ قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢ - ٢٣]. . نعم رزق الإنسان مقسومٌ وهو جنين في بطن أمه كما جاء في حديث ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بِكَتْبِ رِزقِهِ، وأجله وعمله وشقيٌّ أو سعيد. . .» رواه البخاري ومسلم[1].

يكتب رزقه وهو في هذا المرحلة المبكرة من الخلق، ثم يستوفيه لا يفوته منه مثقال ذرة حتى تنتهي حياته كما جاء في قوله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» رواه الحاكم وغيره[2] وهو حديث صحيح.

والواقع المشاهد ينبىء أنَّ الذكاء، وحسن العلاقات الاجتماعية بالناس، وحلاوة الحديث، وعلو النسب وسعة العلم. . . أنَّ كل ذلك لا علاقة له بالرزق. فكم من بليد غبي انطوائي جاهل وضيع النسب حاز من الأموال الشيء الكثير. ولله در أبي تمام الذي يقول:

---

(١) البخاري ٤/٨٨ ومسلم ٤/برقم ٢٦٤٣.

(٢) انظر تخريجه في كتابنا «لمحات في علوم القرآن» ص ٤٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ينال الفتى من عيشه وهـو جاهـل ويُكدي الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجـري على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهـائمُ[1]

ولا يعني تقريرُ هذه الحقيقة أن يقعد الإنسان عن طلب الرزق؛ لأن من سنن الله التي سنَّها في هذه الحياة أنَّ الرزق المقسوم يأتي عن طريق الطلب والأخذ بالأسباب.. ولكن المزية العظمى للإيمان بهذه الحقيقة أن المسلم يجمـل في الطلب وينـظم وقته ليتسـع لأداء الواجبـات الكبرى، ويحفظ كرامته ولا يذل لكائن مهما كان، ويرضى بما قسم الله له.

يقرر الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ من كانت الدنيا قصده وهمه الأوحد فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته إلا ما كتب له. وهذه الفكرة في غاية الأهمية بالنسبة لنا ولعصرنا، لأننا مغزوون بحضارة الغرب التي تسود الدنيا اليـوم، وهي حضارة تقـوم على تجاهـل الإيمان بالآخرة، وتبني تصـورها ونـظرتها للكـون والإنسان والحيـاة على استبعاد الآخرة وكل ما يتصل بعالم الغيب.

ولننظر في قوله: «فرق عليه أمره»

إن مطالب الدنيا وشهواتها كثيرة، ومصائبها متنوعة.. فالذي لا يقصد إلا الدنيا تراه مستغرقاً بين السعي وراء المطالب والشهوات، جزعاً بسبب المصائب التي لا يخلو منها مخلوق..

وبين هذا وذاك تتوزع نفسه.. ولا يكون أمره مجتمعاً.

وقد ذكر ربنا الشهوات التي زين حبها للناس.. فذكر النساء وهي فتنة كبيرة[2] وذكـر المال وهـو فتنة هـذه الأمة[3] وذكـر البنين وهم من زينة الحيـاة

---

(١) الديوان ١٧٨/٣ وأقوال مأثورة ٣٧٧.

(٢) في حديث أسامة بن زيد المتفق عليه ونصه: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» البخاري (الفتح ٩ رقم ٥٠٩٦) ومسلم رقم ٢٧٤٠.

(٣) في حديث كعب بن عياض الذي أخرجه الترمذي ونصه: «أن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المـال» صحيح الترمذي للألباني رقم ١٩٠٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدنيا وذكر الخيل والأنعام والحرث. ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤] ومن هذه الشهوات شهوة الجاه والمنصب.

[والإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ويضمن القصد والاعتدال في الحياة.

والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة، أو يكبح فيها نزوة، وهو يظنُّ أنَّ الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب، وهي قصيرة مهما طالت، وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيها التي لا تنال][1] قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧ - ٨]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ [النمل: ٤ - ٥] يقول تعالى عن الذين لا يؤمنون بالآخرة [حبّبنا إليهم قبيح أعمالهم، ومددنا لهم في غيهم، فهم في ضلالهم حيارى تائهون، يحسبون أنهم يحسنون صنعا، لا يفكرون في عقبى أمرهم ولا ينظرون إلى ما يؤول إليه سلوكهم][2].

فمن كان قصده الدنيا كان في معاناته للهموم في هذه الشؤون مستغرقاً متحيراً متردداً، فهو في عذاب لتبلبله وقلقه واضطراب نفسه.

وكذلك فالإنسان معرض إلى البلوى فإذا أصيب من لا قصد له إلا الدنيا.. إذا أصيب في ماله أو نفسه أو عزيز عليه لم يجد ما يعزيه عن مصابه.. لأنه لا نصيب له في الآخرة، ولا يفكر فيها.. فيزيد هذا شتاتاً وتفرقاً.. أما من كان همه الآخرة فإن المصيبة تتحول لديه إلى نعمة إن هو

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٢٧.

(٢) تفسير المراغي ١٩/١٢٠.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

صبر «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1].

إنه مسكين لا يبصر إلا الأدنى الفاني، ولا يفكر إلا بالقريب الزائل. . .

إنَّ أمره مفرق، واهتمامه موزع، ورأيه وفكره مشتت، ومن كان كذلك كان في قلق دائم، وغم مسيطر، واضطراب قاتل. وما أروع هذا المثل الذي ضربه الله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

وهذه أولى النقمات التي تحيق بمن كانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، وهي والله ليست باليسيرة. ومع هذا السعي المتعدد والاهتمام المتوزع فإنَّ فقره كائن بين عينيه. وهذه الصورة المعبرة رائعة في الدلالة. . إنه لا يبصر إلا الفقر، ولا يواجه إلا الفقر، يخزن الأموال ويكنزها ويخشى الفقر، يدير أعماله التجارية والصناعية ويتوقع الفقر، يخشى الغوائل والأزمات ويتوقع العوز والفاقة يقول أبو الطيب:

ومن ينفق الساعاتِ في جمع ماله مخافة فقر، فالذي فعل الفقرُ[2]

ولا يأتيه إلا ما كتب الله له «واعلم إن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»[3]

● أما الذي تكون نيته الآخرة فهو العاقل حقاً؛ لأن الآخرة هي دار القرار. إنك يا ابن آدم مهما بقيت في هذه الدنيا فأنت عنها متحوِّل وصائر إلى دار شقاء دائم، أو دار نعيم خالد. ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ

---

(١) رواه مسلم ٤/برقم ٢٩٩٩.
(٢) أقوال مأثورة: ٢٧.
(٣) سبق تخريجه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إن الذي يريد الآخرة إنسان سعيد مطمئنّ النفس، هادىء البال، قد جمع الله له أمره، ليس في قلبه حقد ولا غل، ولا يحزن على شيء فاته، يناقش القضايا من خلال الشرع، ويزنها بميزانه الدقيق، لا يتناقض أمام الناس ولا أمام نفسه.

يعترف بنعم الله ويشكره عليها، ويرضى بما أصابه ويعلم أن الآخرة خير وأبقى، جمع الله له أمره.

وأمر آخر ينعم به وذلك أنَّ غناه في قلبه، وهذا هو الغنى الحقيقي. يُعبِّر عن ذلك الحديث الآخر «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[1] متفق عليه. هناك ناس يملكون الملايين وهم فقراء في حقيقة الأمر.. فقراء بالنسبة إلى نظرتهم إلى المال وإنفاقه؛ ألم يأتكم نبأ ذاك الزاهد الذي عرض عليه غني جبة فأبى أن يقبلها، فأصرَّ عليه، فقال له: إن كنت غنياً أخذتها منك. ففرح ذاك الغني. فسأله الزاهد: كم عندك من المال فقال: خمسون ألفاً، قال له: ألا تريد أن يكون مالك مائة ألف؟ فقال: إي و الله. فقال: لا آخذها منك.. إنك فقير[2].

* * *

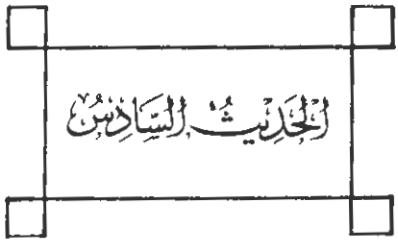
وبعد فإن موضوعات الحديث مترابطة ينظمها سلك واحد.. إن من يعلم شيئاً من الدين مطالب أن يبلغه.. إنه إن فعل أصابته دعوة النبي، والإخلاص في هذا التبليغ شرط للقبول، والنصح مع لزوم الجماعة يحقق للتبليغ أن يحقق المقصود منه، وابتغاء ثواب الله في الآخرة يحقق له غنى القلب، وفي ذلك عز الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١١ برقم ٦٤٤٦) وصحيح مسلم رقم ١٠٥١.
(٢) أقوال مأثورة: ٤٩.



شبكة الألوكة - قسم الكتب



عن أبي صِرْمةَ عن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ ضارَّ أضرَّ الله به، ومن شاقَّ شقَّ الله عليه».

أخرجه أبو داود في الأقضية من «سننه» (برقم ٣٦٣٥) والترمذي في باب ما جاء في الخيانة والغش (١٢٨/٣) وصحيح الترمذي للألباني (برقم ١٥٨٤) وابن ماجه في باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (برقم ٢٣٤٢ وصحيح ابن ماجه للألباني برقم ١٨٩٧) والبيهقي في باب لا ضرر ولا ضرار من «السنن الكبرى» ٧٠/٦ وأحمد في «المسند» ٤٥٣/٣.

راوي هذا الحديث الصحابي الجليل أبو صِرمة. وهو من المقلين جداً[1]، ويعرف بأبي صِرْمة ابن قيس الأنصاري المازني من بني مازن بن النجار، وقد اختلف في اسمه، شأنه شأن الذين يُعْرفون ويشتهرون بكناهم، فقيل: مالك بن قيس، وقيل: قيس بن مالك، وقيل: لبابة بن قيس، وقيل: غير ذلك. قال ابن عبد البر: لم يختلفوا في شهوده بدراً وما بعدها. وقال ابن حجر في «تهذيب التهذيب»: ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي وأبو معشر لم يذكروه في البدريين، فيحرر قول ابن عبد البر.

---

(١) كما يدل على ذلك ما جاء في «تحفة الأشراف» ٢٢٧/٩ و«مسند أحمد» ٤٥٣/٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان شاعراً محسناً، وذكره محمد بن الربيع فيمن قدم مصر من الصحابة[1].

قوله: ضارَّ أي أوصل ضرراً إلى مسلم.

وضارَّ الله به: أي أوقع به الضرر البالغ.

وشاقَّ: أي أوصل مشقة إلى مسلم بمحاربة أو غيرها.

وشاق الله عليه: أي أدخل عليه ما يشق عليه.

هذا الحديث على إيجازه يقرر قاعدة عامة من قواعد الشريعة تندرج تحتها أحكام كثيرة وهي: أن إلحاق الضرر بالنفس أو بالغير محظور في شريعة الإسلام، وكذا إلحاق المشقة بالنفس والآخرين.

ولقد عدَّ العلماء الحديث المشهور «لا ضرر ولا ضرار»[2] قاعدة مهمة من قواعد الشريعة.

قال ابن الأثير: [الضَّرُ: ضد النفع، ضرَّه يضُرّه ضَرّاً وضِرَاراً، وأضرّ به يُضرّ إضراراً فمعنى قوله: «لا ضرر» أي لا يضر الرجل أخاه فينقصه شيئاً من حقه.

والضرار: فِعال من الضَّر، أي لا يجازيه على إضراره بإدخال الضرر عليه.

والضرر: فعل الواحد، والضرار: فعل الاثنين، والضرر ابتداء الفعل. والضرار الجزاء عليه][3].

---

(١) انظر «تجريد أسماء الصحابة» للذهبي و«تهذيب التهذيب» لابن حجر و«عون المعبود» و«تحفة الأحوذي».

(٢) ابن ماجه ٢/رقم ٢٣٤٠ والموطأ ٢/٧٤٥ والسنن الكبرى ٦/٦٩ والمستدرك ٢/٥٨ والحلية ٩/٧٦ والدارقطني ٤/٢٢٧.

(٣) النهاية ٣/٨١ - ٨٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال أحمد الزرقا: [الضرر إلحاق مفسدة بالغير مطلقاً. والضرار: إلحاق مفسدة بالغير على وجه المقابلة له، لكن من غير تقييد بقيد الاعتداء بالمثل والانتصار للحق. وهذا أليق بلفظ الضرار، إذ الفعال مصدر قياسيٌّ لـ (فَاعَلَ) الذي يدل على المشاركة][1].

إن كل فعل أو قول فيه ضرر بغير داع معتبر شرعاً لا يجوز، سواء كان هذا موجهاً للمرء نفسه أو للآخرين، ويخرج بهذا القيد إقامة الحدود، فهي وإن كانت ـ من الناحية اللغوية ـ ضرراً على من تقام عليه، لكنها في الحقيقة عين النفع ومحض الإحسان للفرد والمجتمع.

وصور الضرر لا تحصى، فهي كثيرة متجددة، وقد ذكر العلماء عدداً منها، ولكنَّ هناك صوراً تحدث لم يكن الناس يعرفونها، فيبقى الحديث على إطلاقه شاملاً لها.

وهذا الحديث بهذه الصفة وهي الإيجاز مثل رائع في الإيجاز الذي هو مزية من مزايا الحديث وخاصة من أبرز خصائصه.

جاء رجل إلى أحد مشايخي[2] يسأله عن حكم شرب الدخان. فقال الشيخ رحمه الله: نحول أولاً السؤال إلى الأطباء لنعرف أثره، فإن حكموا أنه ضار فهو داخل في عموم قوله ﷺ «لاضرر ولا ضرار». ويكون حراماً. أما إذا قالوا: إنه لا ضرر فيه فهو غير حرام.

أقول: بل أجمع الأطباء من المسلمين وغيرهم على أن ضرره محقق، فكيف لا يكون حراماً. نسأل الله أن يعيذ المسلمين من كل ضار لهم في أجسامهم وعقولهم ودينهم ودنياهم.

قال ابن رجب[3]: [ومما يدخل في عموم قوله ﷺ «لا ضرر» أن الله

---

(١) شرح القواعد الفقهية لأحمد الزرقا ص ١١٣.

(٢) وهو العلامة الفقيه الزاهد الورع الأمار بالمعروف الشيخ صالح العقاد رحمه الله.

(٣) جامع العلوم والحكم ٢٧١ ـ ٢٧٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لم يكلف عباده فعل ما يضرهم البتة، فإن ما يأمرهم به هو عين صلاح دينهم ودنياهم، وما نهاهم عنه هو عين فساد دينهم ودنياهم، لكنه لم يأمر عباده بشيء هو ضار لهم في أبدانهم أيضاً، ولهذا أسقط الطهارة بالماء عن المريض وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وأسقط الصيام عن المريض والمسافر وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأسقط اجتناب محظورات الإحرام كالحلق ونحوه عمن كان مريضاً أو به أذى من رأسه وأمره بالفدية.

وفي «المسند» عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟

قال: «الحنيفية السمحة»(١).

ومن حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إني أرسلت بحنيفية سمحة»(٢).

وفي هذا المعنى ما في الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ رأى رجلاً يمشي قيل له: إنه نذر أن يحج ماشياً. فقال: «إن الله لغني عن مشيه فليركب» وفي رواية: «إن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه»(٣).

وفي السنن(٤) عن عقبة بن عامر أن أخته نذرت أت تمشي إلى البيت فقال النبي ﷺ: إنَّ الله لا يصنع بشقاء أختك شيئاً فلتركب»].

وفي قوله ﷺ: «من ضارَّ أضرَّ الله به» ما يدل على أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشرّ، وهناك نصوص كثيرة تدل على هذا المعنى.

---

(١) المسند ١/٢٣٦.
(٢) المسند ٦/١١٦ و٢٣٣.
(٣) صحيح البخاري (الفتح ٤ برقم ١٨٦٥) ومسلم ٣ رقم ١٦٤٢.
(٤) أبو داود رقم ٣٢٩٣ وابن ماجه ٢١٣٤ والنسائي ٧/٢٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال ﷺ: «من يسّر على معسرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَنْ نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»[1].

ومن مكر مكر الله به ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومن نسي الله نسيه الله قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١] وقال سبحانه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]

ومعنى الضرر معروف وهو نوعان: مادي ومعنوي. وكلاهما محظور.

فضرب المسلم دون حق وجرحه وإيذاؤه بسلاح ضرر مادي يصيب البدن؛ وسرقة ماله واغتصاب أرضه أو بيته وحرمانه من حقه ضرر مادي يتعلق بالاقتصاد، والتدليس والغش في المعاملات والمكر..... كل أولئك من الضرر المحرَّم.

قال السيوطي:

[القاعدة الرابعة الضرر يزال، أصلها قوله ﷺ: «لاضرر ولاضرار»....اعلم أن هذه القاعدة ينبني عليها كثير من أبواب الفقه:

من ذلك الردّ بالعيب، وجميعُ أنواع الخيار من اختلاف الوصف المشروط، والتعزيرُ، وإفلاسُ المشتري، وغير ذلك، والحجر بأنواعه، والشفعة لأنها شرعت لدفع ضرر القسمة، والقصاص والحدود والكفارات وضمان المتلف، والقسمة، ونصب الأئمة والقضاة، ودفع الصائل، وقتال المشركين والبغاة، وفسخ النكاح بالعيوب أو الإعسار وغير ذلك.

وهي مع القاعدة التي قبلها (وهي المشقة تجلب التيسير) متحدة أو متداخلة. وتتعلق بهذه القاعدة قواعد:

الأولى: الضرورات تبيح المحظورات، بشرط عدم نقصانها عنها،

---

(١) صحيح مسلم ٤/رقم ٢٦٩٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن ثم جاز أكل الميتة عند المخمصة، وإساغة اللقمة بالخمر، والتلفظ بكلمة الكفر بلا إكراه. . . وقولنا بشرط عدم نقصانها عنها ليخرج ما لو كان الميت نبياً فإنه لا يحل أكله للمضطر، لأن حرمته أعظم في نظر الشرع من مهجة المضطر. وما لو أكره على القتل أو الزنا فلا يباح واحد منهما بالإكراه، لما فيهما من المفسدة التي تقابل حفظ مهجة المكره أو تزيد عليها.

الثانية: ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها. ومن فروعه: المضطر لا يأكل من الميتة إلا قدر سدّ الرمق، ومن استشير في خاطب اكتفى بالتعريض كقوله: لا يصلح لك، لم يعدل إلى التصريح. . .

الثالثة: الضرر لا يزال بالضرر. . . .

الرابعة: إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما.

الخامسة: درء المفاسد أولى من جلب المصالح، فإذا تعارض مفسدة ومصلحة قدم دفع المفسدة غالباً؛ لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشدّ من اعتنائه بالمأمورات، ولذلك قال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[1].

ومن ثم سومح في ترك بعض الواجبات بأدنى مشقة كالقيام في الصلاة، والفطر، والطهارة.

ولم يسامح في الإقدام على المنهيات وخصوصاً الكبائر][2].

* * *

وأما قوله: «**من شاق شق الله عليه**» فنود أن نقف عنده قليلاً؛ لأنَّ معناه قريب من معنى الجملة السابقة، والضرر والمشقة وإن كانا يختلفان في المعنى، ولكنهما كليهما من مجال واحد غير محبب.

---

(١) صحيح مسلم ٢/رقم ١٣٣٧ والنسائي ٥/١١٠.
(٢) الأشباه والنظائر ٧٥ - ٧٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

[والشَّق: الخرم الواقع في الشيء... والشِّقُ المشقة والانكسار الذي يلحق النفس والبدن][1].

إن إدخال المشقة على الناس أمر محرم في شرع الله، ومن يفعله فهو مهدد بأن يعاقبه الله بأن يشق عليه.

إن كثيراً من الناس يشقون على عباد الله في معاملاتهم، فيطلبون منهم ما لا يستطيعون إنجازه.. هناك موظفون مهمتهم في الأصل خدمة مراجعيهم، ولكنهم يشقون على الناس، فيسوّفون إنجاز معاملاتهم، ويؤخرونهم، ويطلبون منهم أموراً غير ضرورية فيها عنت عليهم ومشقة.

وقد يشق ضيف على صديق فينزل عنده هو وأسرته ويقيم الأسابيع أو الشهور حتى يوقعه في الحرج والأزمات.

وقد يشق جار على جاره في استعارة بعض الحاجيات التي يكون صاحبها بحاجة إليها، وقد لا يكون عنده غيرها.

وقد يشق صديق على صديقه بكثرة الاقتراض حتى يضيق عليه عيشه، ويأخذ ما يأخذ منه بسيف الحياء، ويكون سبباً في حرمان الرجل وأهله من أمور ضرورية بالنسبة لهم.

وقد يشق بعض المتشددين الغلاة على الناس فيذكرون لهم أحكاماً فيها حرج شديد عليهم ولا تؤيدهم الأدلة.. فيكونون سبباً للتنفير، مع أن القاعدة الشرعية التي هي أصل الشريعة وهي أنَّ (المشقة تجلب التيسير).

قال السيوطي: [الأصل في هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) المفردات للراغب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وروى الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة وغيره: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[1].

وروى أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إن دين الله يسر» ثلاثاً.

وروى أيضاً من حديث الأعرابي بسند صحيح: «خير دينكم أيسره».

....وروي عن عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ولم يجعله ضيقاً»[2]،

قال العملماء: يتخرج على هذه القاعدة جميع رخص الشرع وتخفيفاته.

واعلم أن أسباب التخفيف في العبادات وغيرها سبعة:

الأول: السفر قال النووي ورخصه ثمانية...

الثاني: المرض ورخصه كثيرة...

الثالث: الإكراه...

الرابع: النسيان...

الخامس: الجهل...

السادس: العسر وعموم البلوى...

السابع: النقص: فإنه نوع من المشقة، إذ النفوس مجبولة على حب الكمال فناسب التخفيف في التكليفات، فمن ذلك عدم تكليف الصبي والمجنون، وعدم تكليف النساء بكثير مما يجب على الرجال كالجماعة والجمعة والجهاد والجزية وتحمل العقل...][3].

إن أعداء الإسلام يكيدون ويمكرون، ويخططون لإخراج الناس من دينهم أو لتشكيكهم، واتخذوا لذلك من وسائل الإغراء والإمتاع الشيء

---

(١) صحيح البخاري (الفتح١رقم ٢٢٠).

(٢) صحيح البخاري (الفتح ٦برقم ٣٥٦٠) مسلم ٤/رقم ٢٣٢٧.

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي ٦٨ - ٧٣ ثم أتبع ذلك بفوائد نفيسة فاحرص على الرجوع إليها وقراءتها.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الكثير، وقد ملكوا القوة والعلم والمال، ولا وقوة إلا بالله.

فكيف يرضى رجل غيور أن يشدد على الناس في دينهم ويشق عليهم ورسول الله ﷺ يقول فيما رواه مسلم عن عائشة: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه»[1].

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال:

«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[2] رواه مسلم.

وعن أنس عن النبي ﷺ قال:

« يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» متفق عليه[3].

وعن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» رواه مسلم[4].

والأمر المؤلم أن الاعتدال قليل، وأنت بين متساهل يبحث عن الأقوال السهلة ولو كانت ضعيفة مردودة، وبين متشدد لا يختار إلا الصعب والشديد ولو لم تكن الأدلة تسعفه.

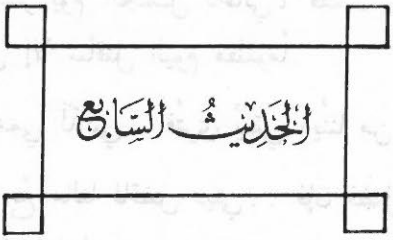
والموقف السليم أن نأخذ بما دل عليه الدليل، وأن نقوم بما نستطيع مما أوجب الله علينا.

إن الحديث عملية تهديد من الله بمعاقبة من يضرون الناس ويشقون عليهم، وهو تهديد زاجر.

---

(١) صحيح مسلم ٤/رقم ٢٥٩٣.
(٢) صحيح مسلم ٤/برقم ٢٥٩٤.
(٣) صحيح البخاري (الفتح ١/برقم ٦٩) وصحيح مسلم ٣/برقم ١٧٣٤.
(٤) صحيح مسلم ٤/برقم ٢٥٩٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة



حديث ابن الزبير:

إنَّ في النصوص الحديثية الموقوفة بياناً رائعاً، وتصويراً أخاذاً لأوضاع المجتمع المثالي الفاضل، وتوضيحاً لعدد من المعاني الكريمة التي جاء بها الإسلام.

وقد عرضنا حديث كعب بن مالك الذي حكى قصة تخلفه عن رسول الله ﷺ وتوبة الله عليه بعد أن مرّ بأزمات متلاحقة، ووقفنا وقفة متأملة معجبين بالإبداع وإحكام القصة وعرضها المشوّق(١).

وها نحن أولاء نعرض قصة الزبير بأسلوب ابنه البليغ عبد الله رضي الله عنهما، وفي هذه القصة عظات رائعات، ودروس نافعات، وعبر بالغات.

كان الصحابي العظيم حواري رسول الله ﷺ وابن عمته الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد بدراً وما بعدها، وهاجر الهجرتين، وهو أول من سلَّ سيفاً في سبيل الله، أسلم وهو ابن ست عشرة سنة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وعذب في الله، وثبت وكان يقول: لا أكفر أبداً.

---

(١) انظر ذلك في كتابنا «قضايا في الدين والحياة» ص ٣٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير قال:

[لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقمت إلى جنبه فقال: يا بني.. وإني لا أُراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً.

وإن من أكبر همي لَدَيْني، أفترى يُبقي دينُنا من مالنا شيئاً؟.

فقال: يا بُني! بِعْ مالنا فاقض ديني.. فإن فَضَلَ من مالنا فضلٌ بعد قضاء الدين شيءٌ فثلثه لولدك.

وكان بعض ولد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير: خبيبٌ وعبَّاد، وله يومئذ تسعة بنين وتسع بنات.

قال عبد الله: فجعل يوصيني بدينه ويقول: يا بُنيَّ إن عجزت عنه في شيءٍ فاستعن عليه مولاي. قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت مَنْ مولاك؟ قال: الله.

قال: فوالله ما وقعتُ في كُربةٍ من دَيْنِهِ إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه.

فقتل الزبير رضي الله عنه ولم يَدَعْ ديناراً ولا درهماً، إلا أرضين، منها الغابة - وهي أرضٌ عظيمة شهيرة من عوالي المدينة - وإحدى عَشْرَة داراً بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر.

وإنما كان دينه الذي عليه أنَّ الرجلَ كان يأتيه بالمال، فيستودعه إياه. فيقول الزبير: لا، ولكنَّهُ سلفٌ، فإني أخشى عليه الضيعة.

وما ولي إمارة قط، ولا جباية خراج، ولا شيئاً إلا أن يكون في غزوة مع النبي ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن الزبير: فَحَسَبْتُ ما عليه من الدَّين، فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف.

قال فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير فقال: يا ابن أخي! كم على أخي من الدين؟ فكتمه فقال: مائة ألف.

فقال حكيم: والله ما أرى أموالكم تَسَعُ لهذه.

فقال له عبد الله: أفرأيتك إن كانت ألفي ألف ومائتي ألف؟.

قال: ما أُراكم تطيقون هذا. فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

قال: وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف، فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف، ثم قام فقال: مَنْ كان له على الزبير حقٌّ فليوافنا بالغابة.

فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له على الزبير أربعمائة ألف، فقال لعبد الله: إن شئتم تركتها لكم؟.

قال عبد الله: لا.

قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخِّرون إن أخَّرتم؟.

قال عبد الله: لا.

قال: فاقطعوا لي قطعة.

فقال عبد الله: لك من هاهنا إلى هاهنا.

قال فباع منها، فقضى دينه، فأوفاه وبقي منها أربعةُ أسهم ونصفٌ. فقدم على معاوية وعنده عمرو بن عثمان، والمنذر بن الزبير، وابن زمعة.

فقال له معاوية: كم قُوِّمت الغابةُ؟ قال: كل سهم مائة ألف.

قال: كم بقي؟ قال: أربعة أسهم ونصف.

قال المنذر بن الزبير: قد أخذت سهماً بمائة ألف.

قال عمرو بن عثمان: قد أخذت سهماً بمائة ألف.

وقال ابن زمعة: قد أخذت سهماً بمائة ألف.

فقال معاوية: كم بقي؟ فقال: سهم ونصف. قال: أخذته بخمسين ومائة ألف.

قال: وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف.

فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا.

قال: لا والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه.

قال: فجعل كل سنة ينادي بالموسم. فلما مضى أربعُ سنين قسم بينهم.

قال: فكان للزبير أربع نسوة، ورفع الثلث، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف. فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف).

صحيح البخاري ٤/٦٩ - ٧٠ وفتح الباري ٦/٢٢٧ وما بعدها.

في هذا الحديث الجميل فوائد كثيرة، وعرض لجوانب رائعة من حياة جيل الصحابة العظيم.

● فالزبير رضي الله عنه في الساعة العصيبة التي توقع فيها قرب أجله كان أكبر همه أن يُقْضى دينُه، حتى يلقى الله وذمته بريئة من أي حق لأحد من الناس.

وهذا يدل على شأن الدين وضرورة الاهتمام بقضائه.

● والزبير رضي الله عنه امتثل أمر رسول الله ﷺ بالوصية وقد ذكر الحديث أنه رضي الله عنه أوصى ابنه بأن يقضي دينه وقال لابنه: إن الشيء الذي يهمه هو هذا الدين وتساءل لكثرة الدين: هل يبقي هذا الدين من تركته شيئاً.

ومعلوم أن الورثة لا يتقاسمون ما تركه لهم مورثهم إلا بعد وفاء الدين، فإذا استهلك الدينُ المالَ لم يبق لهم شيء.

● وهناك في الوصية شيء لطيف، وذلك قوله: يا بني إن عجزت عن إنجاز شيء من هذه المهمة فاستعن عليه مولاي. ويقسم عبد الله أنه ما عرف ما أراد أبوه حتى سأله: يا أبت من مولاك؟ فقال: الله.

ويمتثل الولد أمر أبيه ويقول: والله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه.

وفي ذلك ما فيه من صادق التوكل على الله، ووافر اليقين وعظيم الثقة بالاستعانة بالله.

لقد أمتعنا الإمام البخاري بهذا الحديث ونفعنا.

قلت: في هذا الحديث ذكر لجوانب من حياة الزبير وحياة الصحابة، ولنشر إلى بعضها إشارات موجزة:

● فقد مات الزبير وله تسعة بنين وتسع بنات. وفصلت كتب التراجم وشروح الحديث أسماءهم. أما البنون فهم (عبد الله وعروة والمنذر) وأمهم أسماء بنت أبي بكر، (وعمروٌ وخالد) وأمهما أم خالد بنت خالد، (ومصعب وحمزة) وأمهما الرباب، (وعبيدة وجعفر) وأمهما زينب بنت بشر. وأما البنات فهنّ (خديجة وأم الحسن وعائشة) وأمهنّ أسماء، (وحبيبة وسودة وهند) وأمهن أم خالد، (ورملة) وأمها الرباب، (وحفصة) وأمها زينب، (وزينب) وأمها أم كلثوم.

وهؤلاء هم الذين مات عنهنّ، وتوفي له من الأولاد عدد في حياته.

● وقد توفي عن أربع زوجات وهن (أم خالد والرباب وزينب وعاتكة).

● وفي الحديث أن الزبير ما ولي إمارة قط، ولا ولي جباية خراج قط، أي لم يعمل موظفاً في الحكومة، وقد قال ذلك عبد الله بن الزبير ليبيّن أن كثرة ماله ما حصلت من هذه الجهات المقتضية لظن السوء بأهلها،

بل كان ماله مما يكسبه من الغنيمة وغيرها من الأعمال التي لا علاقة للأموال العامة بها.

● وفي الحديث تصوير واقعي للمستوى الرفيع الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فالزبير كان موضع ثقة الناس، يلجأ إليه كثير من الناس ليودعوا أموالهم عنده، ولكن حرصه الشديد على أموال الناس كان يحمله على أن يتفق مع هؤلاء المودعين على أن هذه الأموال سلف تستقر في ذمته، فيقترضها، ويفعل ذلك لمصلحة هؤلاء الذين وثقوا به.

ذلك لأن الوديعة إذا تلفت بغير تفريط من المستودع، فليس عليه ضمان سواء ذهب معها شيءٌ من مال المستودع أم لم يذهب. ولا يضمن إلا بالتعدي[1].

أما الدين فيستقر في الذمة سواء تلف مال الإنسان أم لا.. وهكذا فإن تصرف الزبير أوثق لصاحب المال، وأبقى لمروءة الزبير رضي الله عنه.

● وفي الحديث بيان لإباء عبد الله بن الزبير وتعففه وعزة نفسه، إذ لم يقبل من أحد الهبة أو أن يحلله من دينه، ولم يقبل عرض تأخير السداد. وهذا ما ربّى الإسلام عليه أتباعه من التعفف والحرص على أداء الأموال لأصحابها، والبعد عن الشبهات.

● ويدل الحديث على هذا المستوى الرفيع الذي كان يحياه الصحابة رضي الله عنهم ومن التعاون والتسامح وإغاثة الملهوف، وإعانة الذي في أزمة أو حاجة، فعبد الله بن جعفر عندما شعر بأن تركة الزبير لا تفي بالديون الكثيرة عرض على ابن الزبير أن يحلله ويتنازل عن حقه، فأبى ابن الزبير.. وإذا عرفنا ضخامة المبلغ أدركنا كرم ابن جعفر وإشفاقه على أبناء الزبير، ورغبته الصادقة في تنفيس كربتهم، وكذلك فإن ابن عمه حكيم بن

---

(١) انظر كفاية الأخيار ٢/١١. ومعجم الفقيه الحنبلي ١٠١٦ وكتب الفقه باب الوديعة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حزام كان يهمه دين الزبير ولما علم مقداره قال لعبدالله:

ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي. ولكن عبد الله أبى ولم يحتج إلى شيء من ذلك.

● والقصة بكاملها تدور حول مغزى مهم وهو الاهتمام بشأن الدين، وأداء الحقوق إلى أصحابها، فإذا كان الزبير ـ مع ما سبق له من السوابق وثبت له من المناقب ومع أنه من المبشرين بالجنة ـ خاف من مطالبة أصحاب الحقوق له بعد موته، وأهمه شأن الدين جداً فما قولنا بالناس الآخرين الذين لم يثبت لهم شيء مما ثبت للزبير. إن أمر الدين لشديد.

وهذا المعنى قررته نصوص كثيرة في الكتاب والسنة:

من ذلك قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨] والآية عامة في جميع الأمانات، وقد استدل بها بعض القضاة من السلف الصالح على أداء الدين، فقد روى ابن أبي شيبة من طريق طلق بن معاوية قال: كان لي دين على رجل فخاصمته إلى شريح فقال له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ أموالَ الناسِ يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»[1] رواه أحمد والبخاري وابن ماجه.

ومن ذلك ما روته ميمونة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يدَّان ديناً يعلم الله أنه يريد أداءه إلا أداه الله عنه في الدنيا»[2] رواه ابن ماجه وابن حبان والنسائي والحاكم.

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٥/٥٤) وابن ماجه ٢٤١١ والمسند ٢/٣٦١. أقول: وقد رأيت هذا في عدد من الناس، كانت نهايتهم التلف.

(٢) ابن ماجه برقم ٢٤٠٨ والنسائي ٧/٣١٥ وموارد الظمآن برقم ١١٥٧ والحاكم ٢/٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إذا أخذ المرء المال يريد وفاءه فإنَّ الله تعالى يؤدي عنه إما بأن يفتح عليه في الدنيا وإما بأن يتكفل عنه في الآخرة، وفي الغالب أنه يؤدي عنه في الدنيا، وأما من فاجأه الإعسار أو مات وله مال لا يعرفه ورثته وضاع على الدائن ماله فإنّ الله يتولاه في الأخرة بأن يتكفل عنه لصاحب الدين ولا يؤخذ من حسناته، فقد قال ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «من مات وعليه دينار أو درهم قضي من حسناته، ليس ثَمَّ دينار ولا درهم»[1] رواه ابن ماجه وهو صحيح.

أما من كان يريد أكل المال فهو مهدد بالإتلاف من الله، ويقع هذا الإتلاف في الدنيا في معاشه أو في نفسه قال ابن حجر: [وهو علم من أعلام النبوة لما نراه بالمشاهدة ممن يتعاطى شيئاً من الأمرين][2]، وإن لم يقع هذا الإتلاف في الدنيا أتلفه الله بعذابه في الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وردُّ الدين من مقابلة الإحسان بالإحسان، فجزاء الذي فرج كربتك أن ترد إليه ماله إن أيسرت، والنية في هذا مهمة جداً والله سبحانه يعلمها، ومدار الأعمال كلها عليها.

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «ما من عبدٍ كانت له نية في وفاء دينه إلَّا كان له من الله عون» رواه الحاكم[3].

وعن عبد الله بن جعفر قال قال ﷺ: «إنَّ الله مع الدائن حتى يقضي دينه، ما لم يكن فيما يكرهه الله»[4] رواه ابن ماجه والحاكم.

---

(١) ابن ماجه برقم ٢٤١٤.

(٢) الفتح ٥/٥٤.

(٣) المستدرك ٢/٢٢.

(٤) هذه رواية الحاكم في المستدرك ٢/٢٣، ورواية ابن ماجه ٢ برقم ٢٤٠٩ (كان الله..).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والدائن هنا بمعنى المدين، واستعمال اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول سائغ في العربية.

والحديث الذي ندرسه دليل على ذلك، فالمال الذي تركه الزبير ما كان يظن أحد أنه سيفي بدينه غير أن الله أعانه وبارك له في المال ونمَّاه.

وروى البخاري عن أبي ذر قال:

كنتُ مع النبي ﷺ فلمَّا أبصر أُحُداً قال: «ما أحب أنه تحول لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا ديناراً أرصده لدين»(١).

وروى أيضاً نحوه عن أبي هريرة بلفظ: «لو كان لي مثل أحد ذهباً ما يسرني أن لا يمر عليَّ ثلاث وعندي منه شيءٌ إلا شيء أرصده لدين»(٢).

فهو ﷺ لا يريد أن يبقى عنده من هذا المال الكثير شيء لو صار إليه إلا ديناراً يرصده لدين، وهذا دليل على الاهتمام بوفاء الدين.

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم» فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ يا رسول الله من المغرم. قال: «إنّ الرجل إذا غرم حدّث فكذب، ووعد فأخلف»(٣).

فقد كان يستعيذ من الدين خشية ألا يقدر على الوفاء، ولأنه - في الغالب - ذريعة إلى الكذب في الحديث والخلف في الوعد. فالاستعاذة من الدين ليست لذاته، بل لما يخشى من غوائله.

وجاء في «الترغيب والترهيب» عن أبي سعيد الخدري قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعوذ بالله من الكفر والدين».

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٥ برقم ٢٣٨٨).
(٢) صحيح البخاري (الفتح ٥ برقم ٢٣٨٩).
(٣) صحيح البخاري (الفتح ٥ برقم ٢٣٩٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فقال رجل: يا رسول الله أتعدل الكفر بالدين؟ قال: «نعم»[1].

رواه النسائي والحاكم من طريق دراج عن أبي الهيثم. وقال: صحيح الإسناد.

وجاء فيه عن عقبة بن عامر أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول:

«لا تُخيفوا أنفسكم بعد أَمْنِها» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «الدين»[2].

رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم والبيهقي وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

فالأسلم للإنسان ألا يقترض إلا عند الحاجة أو الضرورة. وقد قيل لرجل صالح من العلماء[3] كان يسكن بيتاً يحتاج إلى طلاء: لم لا تستدين وتكمل البيت؟ قال: إني لو فعلت لم أسترح في نوم ولا يقظة، وكنت أشعر أن الدائن ينام في فراشي ويشاركني وسادتي، وأنا لا أحب أن ينام معي أحد. إن الدين هم بالليل وذل بالنهار.

ومما يدل على أهمية الدين وتأثر صاحبه الذي يلقى الله وذمته مشغولة بحقوق الناس الحديث الصحيح الذي أخرجه ابن ماجه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من فارقت روحُه الجسدَ وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: من الكِبْرِ والغلول والدين»[4].

والحديث الصحيح الآخر الذي أخرجه ابن ماجه أيضاً عن أبي هريرة

---

(١) النسائي ٨/٢٦٤ والحاكم ١/٥٣٢.

(٢) مسند أحمد ٤/١٤٦ و١٥٤ والحاكم ٢/٢٦ ومسند أبي يعلى ٣ برقم ١٧٣٩.

(٣) هو شيخنا الشيخ صالح العقاد رحمه الله.

(٤) ابن ماجه برقم ٢٤١٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نفسُ المؤمنِ معلَّقةٌ بدينه حتى يقضى عنه»(١).

وكان ﷺ لا يصلي على جنازة من عليه دين ولم يترك ما يسدُّه حتى يتكفل أحد الصحابة بقضاء دينه، فلما فتحت الفتوح صار يصلي عليه(٢).

وقد روى البخاري في باب الكفالة عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي ﷺ أُتي بجنازة ليصلي عليها. فقال: «هل عليه من دين؟» قالوا: لا. فصلّى عليه.

ثم أُتي بجنازة أخرى فقال: «هل عليه من دين؟» قالوا: نعم. قال: «فصلوا على صاحبكم» قال أبو قتادة: عليَّ دينه يا رسول الله. فصلّى عليه(٣).

وأورد البخاري هذا الحديث برواية أوسع في باب الحوالة(٤).

فلما فتحت الفتوح ووجدت عنده الأموال قال كما في حديث أبي هريرة -: «مَنْ ترك مالاً فلورثته ومن ترك كلاً فإلينا»(٥).

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته مَنْ كانوا. ومَنْ ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»(٦).

إنَّ هذا ليبيّن لنا أهمية الدين، وضرورة قضائه حتى ينجو الميت.

---

(١) ابن ماجه برقم ٢٤١٣.
(٢) صحيح البخاري (الفتح ٤/٢٢٩٥).
(٣) صحيح البخاري (الفتح ٤/٢٢٩٥).
(٤) صحيح البخاري (الفتح ٤/٢٢٨٩).
(٥) صحيح البخاري (الفتح ٥/٢٣٩٨).
(٦) صحيح البخاري (الفتح ٥/٢٣٩٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وبقيت مسألة مهمة تتعلق بالدائن ومسألة بالمدين:

أما المدين فإنه مطالب بالمسارعة بسداد الدين عندما يتيسر له المبلغ، ولا سيما في زماننا هذا الذي شاع فيه التضخم ونزول القيمة الشرائية للعملة الورقية، وقد عدَّ الشارع امتناع المرء الميسور عن أداء ما بذمته من الدين ظلماً فقال ﷺ: «مطل الغني ظلم» متفق عليه[1].

وأمر المدين بحسن القضاء: عن أبي هريرة أن رجلاً تقاضى رسول الله ﷺ فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه فقال ﷺ: «دعوه فإنَّ لصاحب الحق مقالاً، واشتروا له بعيراً فأعطوه إياه».

قالوا: لا نجد إلا سناً أفضل من سنه قال: «اشتروه فأعطوه إياه، فإن خيركم أحسنكم قضاء»[2] رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي والحاكم.

وهو يدل على حسن خلق النبي ﷺ وعظم حلمه وتواضعه وإنصافه، وعلى أن من عليه دين لا ينبغي له مجافاة صاحب الحق. وعلى جواز المطالبة بالدين إذا حل الأجل.

إن هذه العناية البالغة برد الدين إلى صاحبه ترجع إلى أصل يرعاه الإسلام ويؤكده وهو أن المال مصون في الإسلام يقول ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[3] فانظر يا أخي رعاك الله كيف قرن الرسول الأعظم ﷺ الدماء بالأموال، وكيف جعل حرمتها مساوية لحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام.

فليتق الله هؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، وما أكثر أنواع

---

(١) صحيح البخاري ٣/٨٣ وصحيح مسلم ٥/٣٤ والنسائي ٧/٢٧٩ والبيهقي ٦/٧٠. وانظر «مختصر المقاصد» بتحقيقنا برقم ٩٤٨.

(٢) صحيح البخاري (الفتح ٥/برقم ٢٣٩٠) وصحيح مسلم ٣ برقم ١٦٠١ وأحمد ٢/٤١٦.

(٣) صحيح البخاري (الفتح ١/برقم ٦٧) وصحيح مسلم ٣/برقم ١٦٧٨. وأخرجه أيضاً أصحاب السنن.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا الأكل الآثم، فقد يستغلُّ بعض الأقوياء قوتهم وأسلحتهم فيعمدون إلى الاستيلاء على أموال الناس، وهذا أكل للمال بالباطل.

وقد يستغل بعض الناس موقعهم وكونهم أصحاب جاه، أو كونهم في وطنهم فيعمدون إلى أكل حقوق الضعفاء والغرباء.. وهذا أكل للمال بالباطل.

وقد يستغل بعض الناس القوانين الأرضية الجائرة فيغتصبون دور الناس وأراضيهم وينتزعون منهم أموالهم، ويأكلون ديونهم.. وهذا أكل للمال بالباطل.

ألا فليتوبوا إلى الله.. وليعيدوا الحقوق إلى أصحابها.. وإن لم يفعلوا فليعموا أن الذين يأكلون سحت ونار في بطونهم، وسيحاسبون عن ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وهذا الحرص الشديد في أداء الديون بعد وفاة الإنسان الذي نواجهه في هذه القصة، من قبل الزبير في وصيته، ومن قبل ابنه بعد الوفاة، هذا الحرص وجدناه عن غير الزبير وابنه، وقد تكون هناك قصص جرت لعدد من الصحابة رضوان الله عليهم، ومن ذلك قصة سعيد بن العاص رضي الله عنه[1] وقيام ابنه بتنفيذ وصية والده بعد دفنه فوراً.

وفي الحديث ما يدل على مشروعية الوصية، فهذا سيدنا الزبير رضي الله عنه عندما أحسَّ بدنوِّ أجله نادى ابنه ليبلغه وصيته التي كانت تدور حول أمرين:

أولهما قضاء دينه، والاستعانة بالله لتحقيق ذلك.

وثانيهما وصيته لأولاد ابنه عبد الله، وهم مساوون في الأعمار لأعمامهم، وكلهم لا يحق لهم أن يرثوا، لأنهم محجوبون بأبيهم وأعمامهم، فأوصى لهم بالثلث بعد قضاء الدين. وقد كانت هذه الوصية

(١) انظر القصة في كتابنا سعيد بن العاص.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شفهية. ويبدو أنَّ الظرف الحرج الذي كان فيه الزبير لم يتح له الكتابة.

وليس من شك أن الكتابة في الأمور كلها أدق وأوثق ولا سيما في الأمور المادية ومن هنا كان الأمر بالكتابة في الدين والوصية والأمور الأخرى.. وإذا كان مع الكتابة شهود يكتبون شهادتهم كان ذلك أحسن. فالكتابة وثيقة تطرد النسيان وتنفي التلاعب والكذب، وتنأى بالإنسان عن التهمة وسوء الظن. وضياع الحقوق، ولكن العقود والوصايا تثبت بالشهود ولو كانت شفهية، ومن هنا جاءت الأحاديث الصحيحة الثابتة في الحض على كتابة الوصية.

● عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما حقُّ امرىءٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه، يبيتُ ليلتين ـ وفي رواية: ثلاث ليال ـ إلاّ ووصيته مكتوبة عنده» قال نافع: سمعت عبد الله بن عمر يقول: ما مرّت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلاّ وعندي وصيتي مكتوبة.

رواه أحمد ومالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والمنذري والدارمي وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي[1].

وجاء في حديث ضعيف رواه ابن ماجة قوله فيما يرويه أنس: «المحروم من حرم وصيته»[2] وقد أورده المنذري في الترغيب[3] وقال: رواه أبو يعلى بإسناد حسن.

---

(١) المسند ٢/٥٧ و١٢٧ والموطأ ٢/٧٦١ وصحيح البخاري (الفتح ٥/برقم ٢٧٣٨). وصحيح مسلم ٣/برقم ١٦٢٧ وأبو داود ٣/برقم ٢٨٦٢ والنسائي ٦/٢٣٩ وابن ماجه ٢/ برقم ٢٦٩٩ وصحيح الترمذي للألباني ٢/ برقم ١٧١٩ والدارمي ٢/٤٠٢ والحلية ٦/٣٥٢ وسنن البيهقي ٦/٢٧٢ و «الترغيب والترهيب» ٤/١٠٤.

(٢) ابن ماجه ٢/٢٧٠٠.

(٣) الترغيب والترهيب ٤/١٠٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والحق أن الوصية تقطع دابر المشكلات، وتوضح الأمور، وتبيّن الحقوق التي للإنسان، والحقوق التي للناس، وتتيح له التصرف بثلث ماله بعد موته، ولكن الشرع حذر من الجور في الوصية أو التعسف في استعمال حقه بأن يوصي بفعل أمور حرّمها الشرع، وقد يكون هذا من الأعمال السيئة التي يختم المرء بها حياته ويستمر تحمله لآثامها بعد موته والعياذ بالله.

* * *

والحديث مثل واضح على بر الولد بأبيه بعد وفاة الوالد، فقد حرص عبد الله على أن يقوم بما أوصاه به أبوه، وقد بذل قصارى جهده لأداء ما علي أبيه من الديون، وهذا من البر الذي أوصى به الشرع وحضّ عليه وجعله من أعظم القربات.

* * *

وفي الحديث إكرام الله للزبير، فقد بارك الله تعالى بالمال الذي خلفه، حتى وفّى الدين كله، وكان للورثة منه مبالغ مجزئة. قال ابن حجر: [وفيه بركة العقار والأرض لما فيه من النفع العاجل والآجل بغير كثير تعب ولا دخول في مكروه كاللغو الواقع في البيع والشراء][1].

---

(١) فتح الباري ٦/٢٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحديث الثامن

أخرج مسلمٌ في «صحيحه» عن أبي أمامة قال: قال عَمْرو بن عَبَسَةُ السُّلَميُّ: كنتُ وأنا في الجاهلية أظنُّ أنَّ الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيءٍ، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً، جرآءُ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة.

ـ فقلت: ما أنت ؟.

ـ قال: «أنا نبيٌ»

ـ فقلت: وما نبيٌ؟.

ـ قال: «أرسلني الله»

ـ فقلت: وبأيِّ شيءٍ أرسلك؟

ـ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله، لا يشرك به شيء».

ـ قلت له: فمن معك على هذا؟.

ـ قال: حرٌّ وعبد.

ـ قال: ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممَّن آمن به.

ـ فقلت: إني متبعُك (أي إني متبعك على إظهار الإسلام هنا، وإقامتي معك).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ قال: إنَّك لا تستطيع ذلك يومك هذا. ألا ترى حالي وحالَ الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرتُ فأتني» (أي لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين، ونخاف عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك، فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك، واستمرَّ على الإسلام في موضعك، حتى تعلمني ظهرتُ فأتني. وفيه معجزة للنبوة، وهي إعلامه بأنه سيظهر)[1].

ـ قال عمرو: فذهبت إلى أهلي.....[2] وقدم رسولُ الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي فجعلت أتخبر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة.... حتى قدم عليّ نفر من أهل يثرب (من أهل المدينة).

ـ فقلت: ما فعل هذا الرجلُ الذي قدم المدينة؟.

ـ فقالوا: الناسُ إليه سراعٌ، وقد أراد قومُه قتله، فلم يستطيعوا ذلك.

ـ قال عمرو: فقدمت المدينة، فدخلت عليه.

فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟

ـ قال: نعم.. أنت الذي لقيتني بمكة؟[3] (أي ألست أنت الذي لقيتني بمكة؟).

ـ فقلت: بلى[4] فقلت: يا نبيَّ الله! أخبرني عمَّا علَّمك الله وأجهله. أخبرني عن الصلاة.

ـ قال: «صَلِّ صلاة الصبح، ثم أقْصِرْ عن الصلاة حتى تطلع

---

(١) هذا من شرح الإمام النووي. وقد وضعته بين قوسين.

(٢) ليس في محل هذه النقط كلام محذوف، كما هي عادتي فيما أنقل، ولكني وجدت وضع هذه النقط ضرورياً لإعطاء فارق زمني.

(٣) من شرح النووي.

(٤) جاءت (بلى) ههنا بعد الاستفهام الذي يحمل معنى النفي: ألست أنت الذي لقيتني؟ وتبقى القاعدة صحيحة وهي أن (بلى) لا تأتي إلا في جواب كلام منفي. وما ذكره النووي من أنه يصح الجواب ببلى وإن لم يكن قبلها نفي واستدل بالحديث مردود.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الشمس حتى ترتفع. فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجد لها الكفار.

ثم صلِّ، فإنَّ الصلاة مشهودة محضورة (أي تحضرها الملائكة وتشهدها)[1] حتى يستقلَّ الظل بالرمح (أي يقوم مقابله في جهة الشمال، ليس مائلاً إلى المغرب ولا إلى المشرق، وهذه حالة الاستواء) ثم أَقْصِرْ عن الصلاة، فإنه حينئذٍ تُسْجَرُ جهنَّمُ. فإذا أقبل الفيءُ فصلّ، فإن الصلاة مشهودة محضورة، حتى تُصليَ العصر، ثم أَقْصِر عن الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان. وحيئذ يسجد لها الكفار».

ـ قال فقلت: يا نَبِيَّ الله! فالوضوء؟ حدثني عنه.

ـ قال: «ما منكم رجلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فيتمضمضُ ويستنشقُ، فينتثر إلاَّ خرَّت خطايا وجهه وفيه وخيا شيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلاّ خرّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء. ثمَّ يغسل يديه إلى المرفقين إلاّ خرّت خطايا يديه من أنامله مع الماء.

ثم يمسح رأسه إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء.

ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلاَّ خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء.

فإن هو قام فصلّى، فحمد الله وأثنى عليه، ومجَّده بالذي هو له أهل، وفرَّغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه».

فحدَّث عَمْرُو بنُ عَبَسَة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال أبو أمامة: يا عمرو بنَ عَبَسةَ انظر ما تقول: في مقام واحد يعطى هذا الرجلُ؟

---

(١) من شرح النووي.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ فقال عمرو: يا أبا أمامة! لقد كَبِرَتْ سِنِّي، ورقَّ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجةٌ أن أكذب على الله ولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لـو لم أسمعْهُ من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً (حتّى عدَّ سبع مرات) ما حدثت به أبداً، ولكني سمعته أكثر من ذلك. (ومعلومٌ أن من سمع مرة واحدة جازله الرواية، بل تجب عليه إذا تعيَّن لها. ومعنى كلام عمرو: لو لم أتحقّقه وأجزمْ به لما حدثت به، وذَكَرَ المرات بياناً لصورة حاله، ولم يرد أن ذلك شرط).

صحيح مسلم ط استانبول ٢٠٩/٢ و ط عبد الباقي ٥٦٩/١ ورقم الحديث ٨٣٢ ، وشرح مسلم للنووي ١١٤/٦ ـ ١١٨، والحديث في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ باب إسلام عمرو بن عبسة. وانظر مسند أحمد ١١١/٤ وما بعدها و ٣٨٥ وما بعدها.

والحديث رواه بطرق مختلفة وألفاظ متقاربة عدد من أئمة الحديث ذكر ابن حجر في الإصابة ٥/٣ منهم الحاكم، وأبا نعيم في دلائل النبوة ٨٦ وأبا يعلى والطبراني وغيرهم.

ورواه أيضاً ابن عبد البر في الاستيعاب ٤٩١/٢، وابن سعد في الطبقات ٢١٤/٤.

إنَّ الفطرة الإنسانية إن لم تدنس تقود صاحبها إلى التوحيد، يقول يقول صلى الله عليه وسلم:

«كل مولود يولد على الفطرة»[1] غير أن البيئة التي ينشأ فيها ذاك المولود إما أن تعينه على الاستقامة والعقيدة الصحيحة، وإما أن تفسد عليه فطرته يقول: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٣/برقم ١٣٥٨) ومسلم ٨/٦ والمسند ٣١٥/٢ وأبو داود ٤/رقم ٤٧١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال ابن القيم: [والصحيح من هذه الأقوال أنهم ولدوا حنفاء على فطرة الإسلام، بحيث لو تركوا وفطرهم لكانوا حنفاء مسلمين، كما ولدوا أصحاء كاملي الخلقة، فلو تركوا وخلقهم لم يكن فيهم مجدوع ولا مشقوق الأذن][1].

ولقد كان عمرو بن عبسة السلمي في الجاهلية يعتقد أنَّ الناس على ضلالة، وكان يرى أن عبادة الأوثان سفه وسخف، وأن الذين يقومون بذلك ليسوا على شيء. ويبدو أنه كان يجهر بذلك، فكان يقول كما ذكر ابن حجر في الأصابة: [2] رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية ورأيت أنها لا تضر ولا تنفع، يعبدون الحجارة ولما سمع بنبأ بعثة النبي وبالمبادىء التي يعلنها استراح لموافقتها لآرائه، فركب راحلته وقصد مكة، فوجد الجوَّ بمكة مكفهراً، المشركون من قريش قوم النبي جرآءُ عليه، والرسول مستخف، وبحث عنه حتى لقيه وسأله عن الرسالة التي كلف بإبلاغها للناس، فقال صلى الله عليه وسلم:

«أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله ولا يشرك به شيء».

وهذا التلخيص المحكم لرسالة الإسلام بدأه ﷺ بصلة الأرحام، وفي ذلك ما يدل على أهمية هذا المبدأ العظيم. . والإنسان من حيث هو إنسان في كل زمان ومكان بحاجة إلى رعاية هذا المبدأ.

وفي هذا التلخيص تقرير لقاعدة مهمة في التكوين الإسلامي والتربية الإسلامية، وهي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده، يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] (لا بد أولاً من أن يُنْزَعَ من القلب كل ما سوى الله لتكون عقيدة التوحيد غير منازعة ولا مشاركة.

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/٦٠٩.
(٢) الاصابة ٣/٥.

وسرعان ما استجاب عمرو لدعوة الرسول فآمن به.. واستشاره في أن يقيم معه. فأشار عليه المصطفى أن يرجع إلى أهله وقال: «إذا سمعت بي قد ظهرت فأتني» وبيّن له أنه لن يستطيع الإقامة في هذا المجتمع الكافر المحارب للمؤمنين يؤذيهم ويضطهدهم ولا سيما إن كانوا غرباء أو أرقاء.

وكان ذلك في وقت مبكر من حياة الدعوة، فلم يكن مع النبي غير أبي بكر وبلال.

وللمرء أن يفهم من ذلك أن ابتغاء العافية أمر مشروع، وأن المسلم إن استطاع أن يحيا في بيئة بعيدة عن الفتنة في الدين والأذى في البدن والمصالح فليفعل. وما كانت الهجرتان إلا لذلك.

وفي الحوار الذي كان بين النبي ﷺ وعمرو فوائد كثيرة.

ففي كلامه ﷺ في ذاك الحوار دليل من أدلة نبوته من أنه سيظهر.

وفيه أمله ﷺ الواسع وثقته بنصر الله له على الرغم من الحال التي كان عليها.

وفيه النصح لمن يستنصحه.

وفيه بيان الضنك والشدة التي كان يعانيها السابقون الأولون وذلك واضح من قوله: «إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا».

ولا شك أنه في حال إقامته بين أهله سيدعو إلى هذا الدين الجديد، وسيبين محاسنه.. وسيدعو إلى نبذ الشرك والوثنية. ولن يلقى أذى لأنه في قومه، فتتحقق بذلك مقاصد كثيرة.

ولما ذهب عمرو كان على ثقة بأن رسول الله سيظهر، ولذا فقد كان يتخبَّر الأخبار وهذا مما يدل على اهتمامه بأمر الدين، والازدياد من العلم والمعرفة بأحوال المسلمين، وما زال يسأل الناس حتى قدم عليه نفر من أهل يثرب، فأخبروه أن النبي هاجر إلى المدينة بعد أن أراد قومه قتله فلم يستطيعوا، وأن الناس سراع إليه، يؤمنون به وينصرونه، وهذه سنة الله في الأنبياء

والدعاة الصادقين.. إن العاقبة للمتقين، وإن النصرة للحق وأتباعه إن هم قاموا بشؤونه.. ولا يخذل أتباع الحق إلا عندما يقصرون في نصرة الله والقيام بما أمر الله به، وعندما يقعون في مخالفة أمره سبحانه.

وسيرة رسول الله التي يعرض الحديث جانباً منها ناطقة بذلك وهي خير شاهد، وجاءت الشواهد تترى تؤيد هذه الحقيقة. ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وفي هذا الحديث ما يدل على ذاكرة النبي ﷺ القوية.. فقد لقي ﷺ عمراً مرة واحدة ومضت سنوات وسنوات.. وعندما لقيه بعد هذه المدة الطويلة عرفه.

وفي هذا الحديث أهمية السؤال في أمور الدين، إن العلم خزائن ومفاتحيها السؤال، فهذا عمرو عندما لقي النبي ﷺ وقد فرضت فرائض بعد مقابلته الأولى يسأل عن الصلاة والوضوء والرسول ﷺ يجيبه.

واهتمامه بالصلاة وأوقاتها يدل على مكانة الصلاة التي هي عمود الدين. وقد كان ذلك سبباً لبيان أحكام شرعية مهمة تتصل بهذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

وفي غير هذا الحديث من مسند عمرو نجده يسأل رسول الله ﷺ عن أمور الدين، فقد أخرج أحمد في المسند[1] أن عَمْراً سأل رسول الله ﷺ: هل من الساعات ساعة أفضل من الأخرى؟ قال: «جوف الليل الآخر أفضل فإنها مشهودة متقبلة حتى تصلي الفجر».

وقبل أن ننظر في جواب النبي ﷺ في أوقات الصلاة يحسن أن نورد نبذة عن هذا الصحابي الجليل.. إنه عمرو بن عبسة بن خالد بن عامر بن غاضره السلمي، وكنيته أبو نجيح، ويقال أبو شعيب قدم مكة فأسلم قديماً

(١) المسند ٤/١١٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما ذكرنا ثم رجع إلى بلاده فأقام بها إلى أن أقبل على المدينة وهاجر إليها بعد خيبر وقبل الفتح فشهدها.

وأمه اسمها رملة، ويقال: إنه كان أخاً لأبي ذر من أمه، ويحتاج هذا إلى تحقيق.

روى عنه بعض الأحاديث عدد من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو أمامة الباهلي وسهل بن سعد رضي الله عنهم(١).

ونزل حمص ومات فيها أواخر خلافة عثمان(٢).

وقد ذكروا في أخباره أن الله أكرمه بكرامة وهي أن تظله سحابة من الشمس وهو يرعى في البرية.

وكان رضي الله عنه أماراً بالمعروف فقد أخرج أحمد في المسند(٢) عن سليم بن عامر قال:

كان معاوية يسير بأرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم. فإذا شيخ على دابة يقول:

الله أكبر. الله أكبر. وفاءٌ لا غدر. إن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء».

فبلغ ذلك معاوية فرجع. فإذا الشيخ عمرو بن عبسة.

● يُبيِّنُ الحديث الأوقات التي يحظر الشرعُ المطهَّرُ على المسلم أن ينشىء فيها صلاة، وهذه الأوقات ثلاثة وهي: عند طلوع الشمس، وعند استوائها، وعند غروبها. وهي مرتبطة ـ كما هو واضح ـ بحركة الشمس فيما يبدو للإنسان في اليوم الواحد.

---

(١) الاصابة.

(٢) المسند ٤/١١١.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وتحرم في هذه الأوقات الصلاة سواء كانت من الفرائض أوالنوافل أو كانت جنازة أو سجدة تلاوة وهناك وقتان آخران مرتبطان بصلاة المسلم.. فإذا صلى الفجر لم يجز له أن يصلي حتّى تطلع الشمس وترتفع، وإذا صلى العصر لم يجز له أن يصلي حتى تغيب الشمس.

وقد ذكر النبي ﷺ في تعليل هذا الحظر أمرين:

أحدهما: غيبي لا يكمن أن يشاهد، وهو أنَّ الشمس تغيب بين قرني شيطان وأن جهنم تُسجَّرُ عند استواء الشمس.

أخرج مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس بن مالك في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد. فلما دخلنا عليه قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعة من الظهر. قال: فصلوا العصر. فقمنا فصلينا. فلما انصرفنا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[1].

والأمر الآخر: يمكن أن يشاهد، وهو سجود الكفار للشمس عند مغيبها.

والأمران يعتمدان على أصلين مقررين بنصوص كثيرة في الكتاب والسنة، وهما التحذير من الشيطان ووسوسته والخضوع له واتباع خطواته وطاعته، والتحذير من مشابهة الكفار وموافقتهم فيما يختصون به ولا سيما في أمور دينهم.

أما التحذير من الشيطان فنجده فى آيات عدة. منها قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[الأعراف: ٢٧] ومنها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١] ومنها قوله:

---

(١) صحيح مسلم ٢/١١٠.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وأما التحذير من مشابهة الكفار ومن سلوك طريقهم فالنصوص فيه كثيرة، وقد استوعب طائفة منها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه النفيس «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» ومن أهمها الفاتحة وفيها ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

● وفي الحديث: تلمس اليسر الذي هو السمة المميزة لهذا الدين في جميع أحكامه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] تلمس هذا هنا في تحديد أوقات الصلاة، فالإنسان أينما كان يستطيع أن يعرف دخول وقت الصلاة، فلو فرضنا أن المسلم كان في موضع وليس معه ساعة ولا تقويم فإنه يستطيع معرفة دخول الوقت من النظر في الشمس وهي علامة ميسورة، سهل استعمالها.

● ويشير الحديث إلى أن الأوقات ليست سواء، فهناك أوقات تكون الصلاة فيها مشهودة تحضرها الملائكة وهناك أوقات لا يجوز للمسلم أن يصلي فيها، فعلى الإنسان أن يغتنم الأوقات المباركة، فلله عز وجل في خلقة أسرار وحكم.

● وفي الحديث بيان أن الوضوء يكفّر الخطايا، وهذا المعنى ورد في أحاديث كثيرة صحيحة، فإذا عرفنا أن ذنوبنا كثيرة وأنّ مغفرة الله واسعة، أدركنا رحمة الله العظمى. فقد شرع لنا الوضوء وفيه هذا الإكرام البالغ من الله، وقد قرر الحديث أن خطايا الفم والأنف والوجه تخرج مع خروج الماء من الفم والأنف وأطراف اللحية، وأن خطايا اليدين تخر مع انحدار الماء من الأنامل، وخطايا الرأس تخر مع بلوغ الماء أطراف شعره، وكذا فإن خطايا الرجلين تكفر عنه بخروج الماء. وهذا يدل على أن لكل عضو من الأعضاء خطايا.

إن المسلم أنظف مخلوق، ونظافته معنوية وحسية.. إنه ملزم في الوضوء بغسل الأعضاء التي تكون على اتصال بالعالم الخارجي مرات في

اليوم الواحد.. ولننظر إلى حكمة غسل رجليه.. فغسلها يصونها عن نشوء الفطور ولا سيما عند الذين يلبسون جوارب النايلون، ويزيل الروائح الكريهة منها، ويساعدها على التنفس عند خلع الجوارب للغسل، ويحرك الدم الذي ينزل ويترسب في القدمين عند الذين يقفون أو يجلسون بصورة دائمة على كراسي، وكثير من الكفار لا يغسلون أرجلهم في السنة أو في العمر إلا مرات معدودة.

● وفي الحديث بيان لتكفير الصلاة للذنوب، والصلاة التي لها هذا التأثير هي الصلاة التي يُفَرَّغُ القلب فيها لله.. يفرغ من الدنيا وشهواتها وضروراتها وأحقادها وهمومها وترهاتها.. يُفَرَّغ لله ومخاطبته وتدبر آياته. ذلك لأن كثيراً ممن يصلون لا يعون من أمر الصلاة شيئاً، ولا يعقلون منها إلا حظاً يسيراً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»[1].

وروى أبو داود في سننه عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال:

«إن الرجل لينصرف ـ أي من صلاته ـ وما كتب له إلا عُشْر صلاته، تُسْعُها، ثُمنها، سُبعها، سُدسها، خُمسها، رُبعها، ثُلثها، نصفها»[2].

وروى مسلم وأبو داود واللفظ له والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ خدام أنفسنا، نتناوب الرعاية، رعاية إبلنا، فكانت عليّ رعاية الإبل، فروّحتها بالعشيّ، فإذا رسول الله ﷺ يخطب الناس، فسمعته يوماً يقول: «ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه فقد أوجب» فقلت بخٍ بخٍ ما أجود هذه[3].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٢/٦٠٣ و٦١٢.

(٢) أبو داود برقم ٧٩٦.

(٣) أبو داود ١/برقم ١٦٩ وابن ماجه ١ رقم ٤٧٠ وابن خزيمة ١/برقم ٢٢٢ والنسائي وصحيح مسلم ١/رقم ٢٣٤ والترغيب والترهيب ١/١١٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وروى أحمد بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج في الشتاء، والورق يتهافت، فأخذ بغصنٍ من شجرة، قال: فجعل ذلك الورق يتهافت فقال: «يا أبا ذر» قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: «إن العبد المسلم ليصلي الصلاة يريد بها وجه الله فتهافت عنه ذنوبه كما تهافت هذا الورق عن هذه الشجرة»(١).

وهي تكفر الصغائر، أما الكبائر فلا بُدَّ من التوبة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر» رواه مسلم والترمذي وغيرهما(٢).

● وفي هذا الحديث نجد أن أبا أمامة يتثبت من صحة الحديث فيقول: انظر ما تقول. في مقام واحدٍ يُعطى هذا الرجل؟ فيجيبه عمروٌ بأنه سمع هذا مرات، ولولا ذلك ما حدث به. ويذكر أنه لا شيء يدفعه إلى الكذب وقد أصبح في نهاية عمره.

وهذا الحوار الأخير يبين لنا مدى التثبت الذي بلغه نقل الحديث في أول مراحله في عهد الصحابة واستمر هذا التثبت والتحري حتى عهد أصحاب المدونات.

وهذا أيضاً يدل على استشعار هؤلاء المسلمين بعظم الكذب عامة وعلى الرسول خاصة.

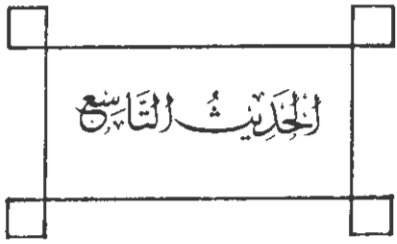
---

(١) المسند ٥/١٧٩ وانظر «الترغيب والترهيب» ١/١١٩

(٢) صحيح مسلم ١/برقم ٢٣٣ وصحيح الترمذي للألباني ١/رقم ١٧٧ وانظر الترغيب والترهيب ١/١١٣.



شبكة الألوكة - قسم الكتب



عن عائشة رضي الله عنها أنَّ قُرَيْشاً أهمَّتهم المرأةُ المخزومية التي سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح. فقالوا: مَنْ يُكلِّمُ فيها رسول الله ﷺ ومَنْ يجترىء عليه إلاّ أسامةُ حِبُّ رسول الله ﷺ، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه.

قال عروة: فلمَّا كلمه أسامةُ فيها تلوَّن وجهُ رسولِ الله ﷺ فقال:

«أتكلمني في حدٍّ من حدود الله؟» [وفي رواية: «أتشفع في حد من حدود الله؟»] قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلَّما كان العشيُّ قام رسولُ الله ﷺ خطيباً. فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:

«أما بعد، يا أيها الناس! إنما أهلك الناس قبلكم [وفي رواية: إنما ضلَّ من كان قبلكم] أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ. والذي نفس محمد بيده [وفي رواية: وايم الله] لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها [وفي رواية: لقطع محمدٌ يدها]».

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك، وتزوجت. قالت عائشة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي رواية [أن بني إسرائيل كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه..] (الفتح ٨٧/٧).

وفي رواية: [كانوا يقيمون الحد على الوضيع...].

هذا السياق للحديث مجموع من روايات وردت كلها في صحيح البخاري، إذ أخرجه البخاري في كتاب الشهادات [٢٥٥/٥]، وفي كتاب أحاديث الأنبياء [٥١٣/٦] وفي كتاب فضائل الصحابة [٨٧/٧] وفي كتاب المغازي [٢٤/٨] وفي كتاب الحدود [٨٧/١٢] وكثير من ألفاظ هذه الروايات ورد في هذه القصة كما جاءت في:

«صحيح مسلم» [١١٤/٥]، و«سنن أبي داود» (٤/ رقم ٤٣٧٣)، و«سنن الترمذي» - تحفة الأحوذي - (٣٢١/٢)، و«سنن ابن ماجه» (٢/ رقم ٢٥٤٧ و ٢٥٤٨)، و«سنن النسائي» (٧٢/٨ - ٧٥)، و«سنن الدارمي» (١٧٣/٢)، و«مسند أحمد» (١٦٢/٦)، و«مجمع الزوائد» (٢٥٨/٦).

* * *

يذكر هذا الحديث الجميل سبب هلاك الأمم، من خلال حادثة وقعت أيام النبوة، أزهى عصور الدنيا، وأعظمها بركة، وتدبر الحادثة ودراستها أمر مفيد امرأة شريفة سرقت[1]، ورُفع أمرها إلى النبي ﷺ، وثبت

---

(١) هذا هو الصحيح أنها سرقت، وكانت سرقتها سبباً لقطع يدها.
وجاء في بعض الروايات [أنها كانت تستعير المتاع وتجحده.]
وجاء في «النهاية» ٢٢٦/٣: [وذهب عامة أهل العلم إلى أن المستعير إذا جحد العاريَّة لا يقطع؛ لأنه جاحد خائن، وليس بسارق، والخائن والجاحد لا قطع عليه نصاً واجماعاً].
وجاء في الصفحة نفسها: [قال الخطابي: وإنما قطعت المخزومية لأنها سرقت وذلك بين في رواية عائشة لهذا الحديث.....
وإنما ذكرت الاستعارة والجحد في هذه القصة تعريفاً لها بخاصّ صفتها، إذ كانت الاستعارة والجحد معروفة بها. =

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ذلك ثبوتاً شرعياً، ولم يبق إلا تنفيذ حكم الله، ويعظم وقع الخبر على قومها، كيف تقطع يد امرأة مخزومية.. إنها من طبقة شريفة ذات مكانة سامية، فأرادوا أن يتلافوا الأمر قبل فوات الأوان، وسألوا عن الإنسان المقرب من النبي الذي يمكن أن يشفع في الموضوع، ووجدوه.. إنه حِبُّ رسول الله ﷺ .. إنه أسامة بن زيد.. وطلبوا منه أن يشفع، واستجاب أسامة، وكلم رسول الله ﷺ في هذه المرأة، فغضب النبي ﷺ غضباً عبرَّ عنه الراوي بتلوّن وجه النبي ﷺ، لأنه كان أميناً على شرع الله، تقسم عائشة، قائلة: «والله ما انتقم لنفسه في شيءٍ يؤتى إليه قطُّ حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم لله»[1].

وقد أورد البخاري هذا الحديث تحت عنوان: (إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله).

وأنكر على أسامة شفاعته قائلاً: «أتشفع في حد من حدود الله» ويفيء أسامة إلى شرع الله ويعتذر ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله.

وفي العشيّ يخطب النبي ﷺ الناس، ويذكر لهم عبرة من عبر التاريخ تتصل بالواقعة القائمة: «إنما أهلك من كان قبلكم».

وفي التاريخ دورس وعظات، ولكن أكثر الناس لا يفقهون ولا يعون ولا يعلمون.. إنَّ التاريخ اليقيني الذي أخبرنا عنه ربنا في الكتاب العزيز حافل بالدروس والعبر قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] وما أعظم حاجتنا إلى الإفادة من تلك العبر العظيمة.

= ... إلا أنها لما استمرَّ بها هذا الصنيع ترقت إلى السرقة واجترأت عليها، فأمر بها فقطعت].

(١) صحيح البخاري (الفتح ٦/رقم ٣٥٦٠) وصحيح مسلم ٤/رقم ٢٣٢٧ وأبو داود ٤/رقم ٤٧٨٥ والموطأ ٢/٩٠٢ ومسند أحمد ٦/٣٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والتاريخ المكتوب المروي الذي وصل إلينا بالطرق الصحيحة كذلك فيه عظات بالغة.

والتاريخ المشاهد الملوس الذي تجري أحداثه قريبة منَّا فيه كذلك عبرة وعظة وتوجيه وإنذار. فهل من مدكر. إن علينا أن نفتح أعيننا ونهيء قلوبنا وعقولنا للنظر والاعتبار. وعندئذ ستتحقق لنا النجاة من أسباب الهلاك والدمار في الدنيا، وتتحقق لنا النجاة من النار في الآخرة.

ألم تقرؤوا قول الله تعالى يضرب لكم المثل البليغ الحافل بالدروس والعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه..

إن رسول الله يذكر سبب هلاك الأمم التي قبلنا، وهو أن أحكام الشريعة عندهم كانت تطبق على فئة دون فئة: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ».

ولنا أن نتأمل التعبير الوارد في الحديث (إنما) و(إنما) كما يقول علماء البلاغة أداة قصر، فتطبيق الأحكام على قوم دون قوم هو وحده سبب هلاك الأمم.

وقد يكون هذا من القصر الإضافي.. ومعناه أن السبب الأول والمهم في هلاك الأمم هو هذا الأمر، حتى إن الأسباب الأخرى بدت لقوة هذا السبب كأنها غير موجودة. ولهذا دلالته العظيمة.

ولنا أيضاً أن نوازن بين حالتين للحدود:

إن طبقت هذه الحدود كما أمر الله، دون مجاملة ولا تقديم ولا تأخير



شبكة الألوكة - قسم الكتب

كانت هذه الحدود ظرفاً للحياة السعيدة الآمنة الهانئة كما جاء في قوله تعالى في الآية الجامعة الرائعة البليغة المحكمة:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وإن طبقت هذه الحدود بجور بحيث يترك الشريف ويعاقب الضعيف، كان ذلك سبباً لهلاك الأمة.

إن الناس سواء أمام حكم الشرع، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين إنسان مغمور وأمير، ولقد جرى على هذا الخلفاء الراشدون، فأقاموا في دنياهم معالم العدالة، ولم يكن لكبيرٍ أو قريبٍ أو غنيٍ أن يعلو فوق حكم الشريعة. ولذلك قام ملكهم، وساد حكمهم، وعمَّ المعمور. وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في أول خطبة له:

القويُّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضيعف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق له. أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا نهى الناس عن شيءٍ جَمَعَ أهلَهُ فقالَ: إنّي نهيتُ عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطيرُ إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلّا أضعفت له العقوبة، لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدّم ومن شاء فليتأخر[1].

وذكر ابن حجر في «الفتح»[2] أن ابن سعد روى في «الطبقات» خبر عبدالرحمن المكني بأبي شحمة ابن عمر بن الخطاب، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح، وخلاصة الخبر كما ذكر ابن الجوزي في «تاريخ عمر بن الخطاب» عن ابن عمر قال:

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ٢٦٧.
(٢) فتح الباري ١٢/٦٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شرب عبد الرحمن بن عمر وشرب معه أبو سروعة بن الحارث بمصر شراباً فسكرا[قال ابن الجوزي: وإنما شرب نبيذاً وظن أن ما شرب منه لا يسكر وكذلك أبو سروعة، وأبو سروعة من أهل بدر، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد، وقد كان يكفيهما الندم على التفريط، غير أنهما غضبا لله سبحانه على أنفسهما، فأسلماها إلى إقامة الحد][1] فلما صحوا انطلقا إلى أمير مصر عمرو بن العاص فقالا: طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه، فصرفهما عمرو. فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرتُ أبي إذا قدمت عليه... فأخرجهما إلى صحن الدار، وضربهما الحدَّ.. فلما علم عمر بذلك أنكر على عمرو أن يضرب ابنه في بيته وكان في جملة ما كتب إليه: [... تضرب عبد الرحمن بن عمر في بيتك، وقد عرفت أنَّ هذا يخالفني. إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به][2].

فلما قدم عبد الرحمن جلده أمام الناس. قال ابن حجر: [وجمهور أهل العلم على الاكتفاء، وحملوا صنيع عمر على المبالغة في تأديب ولده، لا أنَّ إقامة الحد لا تصح إلا جهراً][3].

وقال ابن الجوزي: [وأما كون عمر أعاد الضرب على ولده، فليس ذلك حداً، وإنما ضربه غضباً وتأديباً، وإلا فالحدُّ لا يكرر] ثم قال[4]:

[وقد أخذ هذا الحديث قومٌ من القصّاص، فأبدوا فيه وأعادوا، فتارة يجعلون هذا الولد مضروباً على شرب الخمر، وتارة على الزنا، ويذكرون

---

(١) تاريخ عمر ٢٧٠.
(٢) تاريخ عمر ٢٦٨.
(٣) فتح الباري ١٢/٦٥.
(٤) تاريخ عمر ٢٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كلاماً مرققاً يبكي العوامّ، لا يجوز أن يصدر من مثل عمر. وقد ذكرت الحديث بطرقه في كتاب الموضوعات، ونزهت هذا الكتاب عنه][1].

إن قيام نظام المجتمع على أساس تقسيم الناس إلى طبقات، تتمتع طبقة منها بمزايا تُحرمُ منها الطبقات الأخرى، فتحاز لتلك الطبقة المنافع والأموال، ولا تَنَالُ أحداً من أفرادها العقوبةُ إن اقترف جريمة.. إن قيام المجتمع على هذا النظام ظلم عظيم، له آثاره المدمرة في الحياة. وفي المجتمع، والقيم:

ـ إن قيام هذا النظام يقوّض الأمن، فلا أمن إن زالت العقوبات، وإذا فقد الأمن اضطربت الحياة، وزال طعم السعادة من العيش، وكان القلق المدّمر، وجفّت ينابيع الإبداع، وضعف الإنتاج، وساد البؤس والشقاء.

ـ وانعكس ذلك على المجتمع فعدا الأقوياء الذين يحميهم النظام على الضعفاء، ينهبون أموالهم، ويهينون كراماتهم، وينتهكون أعراضهم.. ويستغيث هؤلاء الضعفاء ولا يجدون المغيث... وإذا طال الأمر استخزى الضعفاء أمام الأقوياء، وفلسفوا هذا الضعف وارتضوه سبيلاً، وفي ذلك ما فيه من إهدار الكرامة، والقبول بالذل والمهانة. إذ كل من لا يطأطىء لهذا الجور الجائر يتعرّض للتنكيل الشنيع، وأي إفساد للمجتمع يزيد على هذا الإفساد؟ إنَّ عامة الناس يؤثرون السلامة وقد يعينون الظالم (الشريف) على ظلمه.. لأن مجرد بقائه مستثنى من العقوبة تهديد لهم.. وهذا هو الهلاك المحقق للأمة.

ـ وإذا ساد هذا الوضع في حياة الناس القلقة والمجتمع المستخزي تزلزلت مكانة القيم الفاضلة في النفوس، وعمَّ النفاق وراجت سوقه، وأصبح القهر والعدوان، والظلم والاغتصاب، أموراً مسوّغة لا يستغر بها الناس

---

(١) تاريخ عمر ٢٧٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتتولد عندهم قابلية للظلم والخنوع، وهذا يزيد في عنفوان المشكلة ويتيح للظالم أن يستمر في ظلمه، وما أحسن ما قال عباس محمود العقاد:

أنصفت مظلوماً. فأنصف ظالماً ... في ذلة المظلوم عذر الظالم
من يرض عدواناً عليه يضيره ... شرٌ من العادي عليه الغانم[1]

وذلك الواقع أكبر نكسة يمكن أن تصاب بها الأمة. وقد تسّمى هذه الأمور بأسماء أضدادها، فالقهر والعدوان يُدْعَوان حرية، والظلم والاغتصاب يسَمَّيان عدالة.. وهكذا.. أما وضع الأمور في نصابها، وتسمية الأشياء بأسمائها فهو تطاول على النظام، وتجرد عن الأخلاص والوطنية، وخيانة للأمة والبلاد. وهذا مع الأسف قائم في بعض المجتمعات المنحرفة عن نهج الإسلام.

إنَّ شرف الشريف لا ينفي عن الجريمة معنى الإجرام لأنها صدرت منه، بل تبقى الجريمة جريمة، ويبقى فاعلها مستحقاً للعقوبة مهما كان وضعه الاجتماعي عند الناس. وهكذا فهم سلفنا الصالح هذه القضية كما ذكرنا آنفاً.

إن الحديث إنذار لكل من يخالف شرع الله، وسننه الكونية في هذا الوجود بأنه سيصيبه ما أصاب الأمم السابقة.

١ ــ وفي الحديث النهي عن الشفاعة في الحدود إذا انتهى الأمر إلى الإمام. هذا وقد رغّب الإسلام بالشفاعة في الحق، ولذلك فقد ورد في الصحيح أنه ﷺ قال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما يشاء»[2].

وهذا نداء لأصحاب الجاه والكلمة المسموعة، أن يسعوا إلى إيصال

---

(١) ديوان من دواوين ص ٢٢.
(٢) البخاري ٢/٩٧ ومسلم ٨/٣٧، وأبو داود ٤/٤٥٤ والترمذي ٣/٣٧٧ والنسائي ٥/٥٨ وأحمد ٤/٤٠٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كثير من الضعفاء إلى حقوقهم، فقد يكون صاحب الحق عيياً لا يستطيع أن يبيّن حجته، وقد يكون جاهلاً بالطرق التي ينبغي أن يسلكها الإنسان لبلوغ حقه، وقد يكون عاجزاً ضعيفاً لفقر أو مرض أو بعد أو ما إلى ذلك.. وقد رتب رسول الله ﷺ الأجر على الشفاعة.

لكن هذه الشفاعة يشترط فيها أن تكون حسنة كما قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

فالسعي في إحقاق الحق، وفي الأمور التي يترتب عليها خيرٌ للفرد أو للأمة أمرٌ مرَّغبٌ فيه، إذ سيكون للساعي نصيب من ذلك. وكذلك فإنَّ الساعي في إبطال الحق وفي الأمور التي يترتب عليها شرٌ للفرد أو للأمة أمر محرّم ويكون على الساعي بسبب سعيه وزر.

وفي ذلك حث عظيم على التعاون على البر والتقوى، وزجر عن التعاون على الإثم والعدوان، وكان الله شاهداً حفيظاً على كل شيء، فيجازي كل إنسان على سعيه ونيته.

كتب الحسن بن سهل لرجل كتاب شفاعة، فجعل الرجل يشكر ويدعو له، فقال الحسن: يا هذا علام تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعات زكاة مروءتنا[1].

والشفاعة في الحدود ممنوعة قال ابن حجر:

[واختلف العلماء في ذلك:

فقال أبو عمر بن عبد البر[2]: لا أعلم خلافاً أنَّ الشفاعة في ذوي الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السلطان، وأنَّ على السلطان أن يقيمها إذا بلغته.

---

(١) الأمالي ٢/١٢٩ وانظر أقوال مأثورة ص ١٢٨.

(٢) هو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ولد سنة ٣٦٨ وتوفي سنة ٤٦٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وذكر الخطابي وغيره عن مالك أنَّه فَرَّقَ بين مَنْ عُرِفَ بأذى الناس ومن لم يُعْرف، فقال:

لا يشفع للأول مطلقاً، سواء بلغ الإمام أم لا، وأما مَنْ لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام...][1].

٢ ـ وفي الحديث دخول النساء مع الرجال في حدّ السرقة، شأنها في ذلك شأنها في الحدود الأخرى، فالمرأة في الإسلام لها مثل ما للرجل من الحقوق[2]، وعليها مثل ما عليه من الواجبات ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وعليها مثل ما عليه من المغارم والمسؤولية الجزائية، وهذا يدل على اكتمال شخصية المرأة الحقوقية.

٣ ـ وفي الحديث ما يدل على قبول توبة السارق. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: [فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت.. وكانت تأتيني بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ].

وقال ابن حجر: [وفي آخر حديث مسعود بن الحكم عند الحاكم قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أن النبيَّ ﷺ كان بعد ذلك يرحمها ويصلها. وفي حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد أنها قالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ فقال: «أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك»[3].

وهكذا فإن الحدود تطهر صاحبها، فقد أخرج البخاريُّ[4] عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا في مجلس فقال: «بايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا» (وقرأ الآية كلها، أي آية الممتحنة)

---

(١) فتح الباري ١٢/٩٥.
(٢) وأما نصيبها في الإرث والدية فهو أمر يتعلق بالمقدار لا في الحقوق ذاتها. فتأمل.
(٣) الفتح ١٢/٩٥.
(٤) الفتح ١٢/٨٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ثم قال: «فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفّارته، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فذلك إلى الله[1] إن شاء غفر له وإن شاء عذبه».

٤ ــ وفي الحديث ما يدلّ على مكانة أسامة وكونه حبيب رسول الله ﷺ، ويا لها من منقبة عظيمة. وهو أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، له كنيتان هما: أبو محمد وأبو زيد، الأمير، حب رسول الله ﷺ وابن حبه وابن حاضنته أم أيمن، أمّره رسول الله ﷺ على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وشهد مؤتة كما ذكر الذهبي والخزرجي.

قالت عائشة: من كان يحبُّ الله ورسوله فليحبَّ أسامة. توفي بوادي القرى وقيل بالمدينة سنة أربع وخمسين عن خمس وسبعين سنة[2].

٥ ــ وفي الحديث ما يدل على منزلة فاطمة رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ فلو سرقت هذه الحبيبة التي هي سيدة نساء المؤمنين والتي هي بضعة من النبي كما جاء في حديث المسور بن مخرمة مرفوعاً «فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها»[3] لو سرقت هذه السيدة الشريفة القريبة من رسول الله ﷺ لما تردد رسول الله ﷺ في إقامة الحد عليها. وهذا مثل ضربه رسول الله لبيان تأكيد ترك المحاباة في إقامة الحد على من وجب عليه، ولو كان ولداً أو والداً أو قريباً أو كبير القدر عظيم المكانة. وفي ذلك أيضاً زجر لمن شفع للمرأة المخزومية التي صعب على قومها إقامة الحد عليها لشرفها.

٦ ــ وفي الحديث ما يدل على استيفاء الرسول لصفات القائد

---

(١) هذه زيادة مهمة وردت في رواية أخرى للحديث أخرجها البخاري. انظر (الفتح ١٢/١٠٨).

(٢) الخلاصة للخزرجي ٢٢ وتقريب التهذيب ٩٨.

(٣) صحيح البخاري (الفتح ٧/برقم٣٧١٤) ومسلم ٤/رقم ٢٤٤٩ ومسند أحمد ٤/٣٢٦ والحاكم ٣/١٥٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المحبوب والزعيم المطاع، ومن أهم هذه الصفات أن يبدأ بالأمور التي هي من قبيل المغارم بنفسه وأهله. وهذا ما نجده جلياً في هذا الحديث، وذلك في قسمه ﷺ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها، وهذا افتراض بعيد الوقوع، ولكنه ﷺ أراد أن يقرر هذا الأمر عند المسلمين جميعاً في كل عصر وفي كل مكان.

ونجد هذا المعنى في أحاديث أُخَر، ففي خطبته ﷺ في حجة الوداع قال:

«كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميَّ هاتين موضوعٌ. ودماءُ الجاهلية موضوعة، وإنَّ أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ـ وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله»[1].

وحرَّم على آله الزكاة. ولم يخصَّ أهله بشيء مما ترك من ماله فقال:

«إنا معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة»[2].

* * *

وقد مرت كلمة حدّ في الحديث فما معناها لغة وشرعاً:

الحد لغة: ما يحجز بين شيئين فيمنع اختلاطهما. وحد الدار ما يميزها.

---

(١) انظر «حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر» للشيخ الألباني فقرة رقم ٦٠ ٧١.

(٢) رواه البخاري ١٢ رقم ٦٧٢٦ ومسلم ٣/رقم ١٧٥٨ ومالك في الموطأ ٢/٩٩٣ وأحمد في المسند ١/٤، ٦، ٩، و٢/٤٦٣ و٦/١٤٥ وأبو داود ٢٩٦٣ وصحيح الترمذي للألباني ١٣١٠ ـ ١٣١١ والنسائي ٧/١٣٦.
وانظره في الجامع الصغير في حرف (لا) فقد رواه عمر وعثمان وسعد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعائشة وأبو بكر وأبو هريرة رضي الله عنهم.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

والحدود تستعمل في العقوبات التي حدّدها الشارع لمن يقترف بعض الذنوب وتثبت عليه إما بالإقرار أو الشهود.

وسميت العقوبات حدوداً لكونها تمنعه المعاودة، أو لكونها مقدرة من الشارع.

وقد تطلق الحدود ويراد بها المعاصي نفسها كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

والحدود التي اتفق المسلمون على وجوبها وشرعيتها هي:

١ ـ الردة
٢ـ والحرابة ما لم يتب قبل القدرة
٣ ـ والزنا
٤ ـ والقذف بالزنا
٥ ـ وشرب الخمر سواء سكر أم لا
٦ ـ والسرقة

وهناك حدود مختلف فيها بين أهل العلم ولتفصيلها مجال آخر[1].

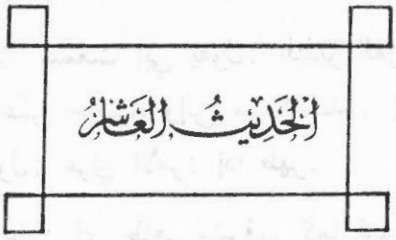
* * *

وفي الحديث ألوان من التعبير، فقد ورد على لسان السيدة عائشة قصة مثيرة، فيها حوار وفيها استفهام إنكاري، وفيها ضرب المثل الافتراضي لإقامة الحجة وتقرير الفكرة، وفيها التذكير بالتاريخ والاتعاظ به.

---

(١) انظرها في فتح الباري ٥٨/١٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة



عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«إنما مثلي[1] ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قوماً فقال:

يا قوم! إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العريان، فالنجاءَ النجاءَ.

فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم[2] فنجوا. وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتّبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذَّب[3] بما جئت به من الحق» متفق عليه.

[رواه البخاري في كتاب الرقاق: باب الانتهاء عن المعاصي ١١/٣١٦. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١٣/٢٥٠. ورواه مسلم في كتاب الفضائل: باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم برقم ٢٢٨٣ ج ٤/١٧٨٨].

---

(١) في رواية أخرى للبخاري: مثلي. وفي رواية لمسلم: إن مثلي.
(٢) في مسلم: فانطلقوا على مهلتهم.
(٣) في مسلم: وكذب ماجئت به.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولنشرح المفردات في هذا الحديث فقد أورده الرامهرمزي في «الأمثال» ص ٢٠. وفيه:

[قال أبو محمد: سمعت أبي يقول: النذير العريان: الذي قد ظهر صدقه، ولا أدري عمّن حكاه وإلى من أسنده. إلّا أني سمعت أبا إسحاق بن السري يقول: عري الأمر: إذا ظهر.

ويقال: الحقُّ عارٍ: أي ظاهر مشرق، كما قيل: الحق أبلج، من بلجة الصبح. قال الفِنْدُ الزماني[1]:

فلما صرّح الشرُّ فأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
[بضرب فيه توهينٌ وتخضيعٌ وإقرانُ
وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعانُ
وفي الشر نجاةٌ حين لا ينجيك إحسان][2]

وقال الخَطيمُ[3]:

وقال وقد مالت بهم نشوة الكرى نعاساً. ومن يعلق سُرى الليل يكسل

---

(١) الفند: لقب شاعر جاهلي اسمه شهل بن شيبان الحنفي من فرسان ربيعة المشهورين، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة سنة. وهذه الأبيات من قصيدة قالها في حرب البسوس، وانظرها في أول الحماسة ١/٦.

(٢) هذه الأبيات الثلاثة ليست في الرامهرمزي ونقلها من الحماسة.

(٣) لم ينسبه أبو تمام. وقد بحثت عن هذا الشاعر فلم أجد شيئا. وجاء في التعليق على الحماسة:
لعله الخطيم بن عدي... أبو قيس بن الخطيم وهو من شعراء الجاهلية. ومعنى الأبيات الثلاثة:
قال لي صاحبي وقد فعل فيه النعاس فعل الخمر بالسكران، ولا بد لمن كثر سيره في الليل أن يعتريه الكسل والتعب: أنخ الإبل التي أهز لها النعاس لنداويها بقليل من النوم، ووسع عن إبل مبتذلة مهزولة، فأجبته لا سبيل إلى ذلك بعد أن أقبل الصبح وذهب الليل. وانظر الحماسة ٢/٣٨٥ (طبعة عسيلان ٢/٤١٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَنِـخْ نُعْطِ أنضـاء النعـاس دواءهـا قليـلاً. ورفـه عن قـلائصَ ذُبَّـلِ
فقلت لـه: كيف الإنـاخـة بعـدمـا حدا الليلَ عُريانُ الـطريقةِ[1] منجلى

وأنشدني بعض شيوخنا عن المازني عـن الجـواداني قـال: أنشدني بشار[2]:

أُسِـرْتُ وكـم تـقـدَّم مـن أسيـرٍ يُـزَيِّـنُ وجـهُـهُ عَـقْـدَ الإسـارِ
كـبشـر أو كـبسـطام بـن قيسٍ أصـيبـا ثـم مـا دَنِسَـا بـعـارِ
وكـيـف ينـالـني مـا لـم ينـلهـم أَعِـدْ نـظراً فـإنَّ الـحـق عـارِ]

وقال الرامهرمزي ص ١٦ - ١٧:

[خرج النبي ﷺ ذات يوم، فنادى ثلاث مرات:

«أيها الناس. إنما مثلي ومثلكم مثل قـوم خافـوا عدواً أن يـأتيهم، فبعثوا رجلاً يترَّبا لهم، فبينما هو كذلك إذ أبصر العدو، فأقبل لينذر قومه، فخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أُتيتم. ثلاث مرات».

قال أبو محمـد: يتربَّـا لهم: هو أن يعلو شـاهقاً، فيـرقب العدوّ وينـذر به. واسمه الربيئة، على مثال فعيلة، مهموز، وهو الذي يقال له: الديدبان].

وجـاء في «النهايـة» ٣/٢٢٥ ونقل هـذا الكلام عنـه ابن منـظور في «لسـان العرب» ١٥/٤٨ في شرح الحديث:

[خصَّ العُريان لأنه أبين للعين، وأغرب وأشنع عند المبصر، وذلك

---

(١) عريان الطريقة: هو الصبح.

(٢) وردت الأبيات محرفة في «الأمثال» وصححتها معتمداً على الديوان ٣/٢٠٨ وتركت كلمة (كبشر) كما جاءت في «الأمثال». بينما جـاءت هذه الكلمـة في الديـوان (ككعب) ولم يستطع المحقق أن يعرف من كعب. ثم قال: (وانظر هل أراد بشار غيره).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عالٍ، فإذا رأى العدو وقد أقبل، نزع ثوبه، وألاح به لينذر قومه، ويبقى عرياناً].

وجاء في «الفتح» ٣١٦/١١ في شرح قوله ﷺ: «يا قوم إني رأيت الجيش بعينيّ»:

[قيل: ذكر العينين إرشاداً إلى أنه تحقق عنده جميع ما أخبر به عنه تحقّقَ من رأى شيئاً بعينه لا يعتريه وهم ولا يخالطه شك].

وأما (النذير العريان) فالصواب ما ذكرناه، وهناك أقوال مرجوحة أوردها ابن حجر في «الفتح». فقد جاء فيه: [قال ابن بطال: (النذير العريان) رجلٌ من خثعم، حمل عليه رجلٌ يوم ذي الخَلَصَة[1] فقطع يده ويد امرأته، فانصرف إلى قومه، فحذرهم، فَضُرِب به المثل في تحقيق الخبر.

قلت [القائل ابن حجر]: وسبق إلى ذلك يعقوب بن السكيت وغيره، وسمَّى الذي حمل عليه عوف بن مالك اليشكري، وأن المرأة كانت من بني كنانة. وتُعِقِّبَ باستبعاد تنزيل هذه القصة على لفظ الحديث؛ لأنه ليس فيها أنه كان عرياناً.

● وزعم ابن الكلبي: أنّ (النذير العريان) امرأة من بني عامر بن كعب لما قتل المنذر بن ماء السماء أولاد أبي داود، كان جار المنذر، خشيت على قومها، فركبت جملاً، ولحقت بهم وقالت: أنا النذير العريان.

● ويقال: إنَّ أول من قاله أبرهة الحبشي لما أصابته الرمية بتهامة، ورجع إلى اليمن وقد سقط لحمه.

● وذكر أبو بِشْر الآمدي أن زنبراً (بزاي ونون ساكنة ثم موحدة) ابن عمرو الخثعمي كان ناكحاً في آل زبيد، فأرادوا أن يغزوا قومه، وخشوا أن

---

(١) ذو الخلصة: بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخثعم، كان فيه صنم اسمه الخلصة. قاموس.

ينذر بهم، فحرسه أربعة نفر، فصادف منهم غرة، فقذف ثيابه، وعدا، وكان من أشدّ الناس عَدْواً، فأنذر قومه.

● وقال غيره: الأصل فيه أنَّ رجلاً لقي جيشاً فسلبوه، وأسروه، فانفلت إلى قومه، فقال: إني رأيت الجيش فسلبوني، فرأوه عرياناً، فتحققوا صدقه لأنهم كانوا يعرفونه، ولا يتهمونه في النصيحة، ولا جرت عادته بالتعري، فقطعوا بصدقه لهذه القرائن].

* * *

وقال ابن حجر ١١/٣١٧:

[وحكى[1] الخطابي أن محمد بن خالد رواه بالموحدة، قال: فإن كان محفوظاً فمعناه: الفصيح بالإنذار، لا يكني ولا يوري، يقال: رجل عربان: : أي فصيح اللسان].

* * *

وقوله «النجاءَ النجاءَ» أي اطلبوا النجاء بأن تسرعوا الهرب، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك الجيش. وهو منصوب على الإغراء.

* * *

وقوله «أدلجوا» أي ساروا أول الليل، أو ساروا الليل كله.

* * *

وقوله «صبَّحهم» أي أتاهم صباحاً، هذا أصله، ثم استعمل فيمن طرق بغتة في أي وقت كان.

* * *

وقوله «اجتاحهم» أي استأصلهم. والاسم الجائحة، وهي الهلاك، وأطلقت على الآفة لأنها مهلكة.

* * *

---

(١) رجعت إلى «غريب الحديث» وبحثت عن هذا القول في مظانه فلم أعثر عليه.

وقوله «فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا. . فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصحبوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم».

قال الطيبي: عبَّر في الفرقة الأولى بالطاعة، وفي الثانية بالتكذيب: ليؤذن بأنَّ الطاعة مسبوقة بالتصديق، ويشعر بأن التكذيب مُستتبِعٌ للعصيان.

* * *

هذا الحديث العظيم البليغ يصور لنا رأفة رسول الله ﷺ البالغة بأمته، وشفقته الحانية عليهم.

● إنه ﷺ يريد لأمته النجاة والفوز والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وقد عرض ذلك في هذا الحديث من خلال صورة مؤثرة وردت خلال قصة سريعة يألف القوم مثلها كثيراً.

هناك قومٌ يعيشون في ديارهم آمنين مطمئنين، ينعمون بملذات وفيرة، ويحيون بين أهليهم وعشيرتهم في سعة من الرزق. . إذا هم يفاجؤون بنذير من أنفسهم. . جاء إليهم عُريانا. . أعجله المسير، فلم يجد وقتاً لارتداء ملابسه. . فانطلق عرياناً يحمل ملابسه بيده، يلوح بها لأبناء قومه قائلاً: أنا النذير العريان. . أنا النذير العريان. لقد رأيت جيش العدو يزحف نحوكم. . رأيته بعيني. . فانجوا بأنفسكم وأموالكم وحريمكم. . فلا طاقة لكم به.

فانقسم الناس قسمين:

صدقته طائفة منهم، فأطاعوه، فأدلجوا. . وساروا. . وارتحلوا من أماكنهم يبتغون النجاة. . وسارعوا إلى الرحيل منطلقين على مهل مكّنهم من أصطحاب الغالي عليهم من متاعهم. . وما زالوا في سيرهم حتى بلغوا مأمنهم، فصانوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم.

وكذبته طائفة أخرى. . فلم يحركوا ساكناً، ولم يقبلوا تحذيره ولا إنذاره، بل ظلوا في أماكنهم، وأخلدوا إلى الحياة في مواضعهم. . فصبحهم جيش العدو. . فاجتاحهم، ونكل بهم، وقتل من قتل من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رجالهم، وسبى نساءهم وحاز أموالهم.. فباؤوا بالذل والخسران والشقاء والمهانة.

يقول ﷺ: «فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق».

إن هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ للمخاطبين مثلٌ مشتق من حياتهم الواقعية، فهم قوم قد ألفوا الغزو والقتال.. يقتل بعضهم بعضاً.. والغزو عندهم وسيلة من وسائل الكسب الشريف.. وإن لم يجدوا من يقاتلون قاتلوا إخوانهم.

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد أخانا

وإذا كانت الأشهر الحرم التي يكفون فيها عن القتل والقتال ضاقت صدورهم، فإذا مر شهر ذي القعدة وشهر ذي الحجة وكاد يدخل شهر المحرم لجؤوا إلى قريش يطلبون منهم أن ينسؤوا حرمة هذا الشهر إلى شهر صفر[1] وهذا هو النسيء الذي قال الله تعالى فيه:

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال عمير بن قيس:

لقد علمت معدٌ أنَّ قومي كرام الناس إن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراماً[2]

---

(١) جاء في زاد المسير ٣/٤٣٥: [كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصدر عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة.. فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، ولا يرد لي قضاء، فيقولون: أنسئنا شهرا يريدون أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر، فيفعل ذلك].

(٢) انظر تفسير ابن كثير ط الشعب ٤/٩١ وسيرة ابن هشام ١/٤٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنّ إدمانهم على القتال عـرّضهم إلى كثير من الحـالات المحرجـة والأزمات القاتلة.. ومن ذلك مباغتة العدو لهم في ديارهم، فتمكن هذه المباغتة أعداءهم منهم، إذ يأتـونهم على حين غرة، فيصيب العـدو منهم مقتلة عظيمة، ويغنم منهم غنائم عدة.

فـإن جاءهم النـذير يقـول: صبحكم العدو.. أو مسـاكم.. أخذوا حذرهم ورصوا صفوفهم، وكمنوا له واستعدوا الاستعداد الذي يحقق لهم النصـر في المعركـة.. وإن أدركوا أنهم لا طـاقة لهم بحـربه رحلوا عن موطنهم، ونزلوا المأمن، أو استجاروا بمن يجيرهم ويدفع عنهم الضيم.

فالرسول هنا هو النذير..

إن التكذيب بدعوة محمد ﷺ، والاستمرار على ما كـان عليه آبـاؤهم من الوثنية واعتقاد الخرافات والأساطير الباطلة، والإخـلاد إلى حياة الجـاهلية بكل مساوئها، والاستمتاع بما يقع تحت أيديهم من متاع وأموال، ورفض الدعوة الجديدة التي تنكر على الناس عبوديتهم لغير الله، وخضوعهم لأنظمة جاهلية، والتي تحررهم من المظالم الاجتماعية القائمة في حياتهم.. إنّ هذا سيعرضهم إلى هلاك محقق وبلاء دونه كل بلاء.. إنه الضنـك في الحياة الدنيا، والعذاب المقيم في الآخرة... إنهم بهذا الموقف الأحمق يشبهون أولئك القوم الذين لم يصدقوا النذير العريان الذي أهمه أمر قومه فانطلق نحوهم محذراً ومنذراً.

أما الذين صدقوا رسـول الله ﷺ وآمنوا بـه واستجابـوا لدعـوته التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور، وتحملوا أعباء الارتحال عن حياة الشرك والخرافة والملذات الآثمـة والمظالم الاجتمـاعية، فقـد فازوا بـالنجاة هم وأهلوهم، وأقاموا المجتمع المثالي الآمن السعيد، وضمنوا لأنفسهم الفوز يوم القيامة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وكان لهم العز في الدنيا والجنة في الآخرة... إنهم بهذا الموقف يشبهون أولئك القوم الذين صدقوا النذير العريان فأخذوا حذرهم فنجوا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا المعنى ورد في حديث آخر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وجابر وأخرجه أحمد أيضاً. وهو صورة رائعة أخرى من الصور البيانية المؤثرة الموضحة المشتقة من حياة القوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«مثلي ومثلكم - وفي رواية: إنما مثلي ومثل أمتي - كمثل رجل استوقد ناراً. فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش والجنادب وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها (وهو يذبُّهنَّ عنها) وجعل يحجزهن، ويغلبنه فيتقحمن فيها.

فذلك مثلي ومثلكم: أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلم عن النار. هلم عن النار. فتغلبوني تقمحون فيها».

وفي رواية جابر: «وأنتم تفلتون من يدي»[1] وجَوُّ الحديث متأثر بالبادية في جزيرة العرب.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال:

جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم.

فقال بعضهم: إنه نائم.

وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً.

قال: فاضربوا له مثلاً.

فقال بعضهم: إنه نائم.

وقال بعضهم: إنَّ العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا:

---

(١) صحيح مسلم ٤/رقم ٢٢٨٤و ٢٢٨٥ وأحمد ٣/٣٦١ و٣٩٢ وانظر تعليقنا على الحديث في كتابنا الحديث النبوي ص ٦٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل ولم يأكل من المأدبة.

فقالوا: أولوها له يفقهها.

فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا:

فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله. ومحمد فرق بين الناس[1].

(فالحديث صورة حضرية، فهنا دار ومأدبة، وناس محرومون وناس محظوظون).

ومما يتصل بهذا المعنى أيضاً حديث أبي هريرة قال قال ﷺ:

«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى».

قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟

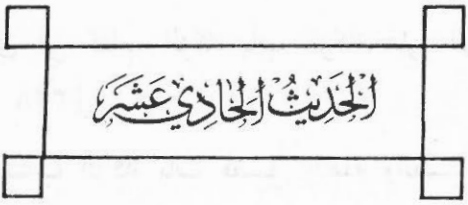
قال: من أطاعني دخل الجنة. ومن عصاني فقد أبى[2].

ولننظر إلى التلطف في الخطاب في الحديث حيث لم يقل: (دخل النار) بل قال: (ومن عصاني فقد أبى).

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١٣ ص ٢٤٩).
(٢) صحيح البخاري (الفتح ١٣ ص ٢٤٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة



عن زينب بنت معاوية الثقفية آمرأة عبد الله بن مسعود قالت: [كنت في المسجد فرأيت النبي ﷺ][1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن» [وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حِجْرِها][1].

قالت: فرجعت إلى عبد الله، فقلت: إنك رجلٌ خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله [أيَجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حِجري من الصدقة][1] فإن كان ذلك يجزي عني، وإلاّ صرفتها إلى غيركم. قالت: فقال لي عبد الله: بل ائتيه أنت.

قالت: فانطلقت [إلى النبي ﷺ][1] فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ [حاجتها مثل حاجتي[1]] قالت: وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة قالت: فخرج علينا بلال. فقلنا له: إئت رسول الله ﷺ فأخبره أنَّ امرأتين بالباب تسألانك: أتجزي الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن.

قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله. فقال له رسول الله ﷺ: «من هما؟» فقال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال

---

(١) هذه الرواية التي بين المعقوفتين من البخاري.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

رسول الله ﷺ: «أي الزيانب؟» قال: امرأة عبد الله فقال له رسول الله ﷺ: «[نعم[1]] لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة».

رواه البخاري في كتاب الزكاة باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر الفتح [٣/ ٣٢٨].

ومسلم في كتاب الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج ٢/ رقم ١٠٠٠].

والترمذي في الزكاة باب ما جاء في زكاة الحلي ٢/ ١٠ وليس فيه إلا الأمر بالصدقة «ولو من الحلي فإنكن أكثر أهل جهنم يوم القيامة».

ورواه ابن ماجه في الزكاة باب الصدقة على ذي قرابة ١/ رقم ١٨٣٤.

ورواه النسائي في السنن الكبرى في كتاب عشرة النساء (كما جاء في تحفة الأشراف).

وأورده ابن حبان بسياق آخر، فقد سمى امرأة عبد الله ريطة، قال ابن حجر[2]: ويقال: بل اسمها زينب فرائطة لقب.

فقال: عن ريطة امرأة عبدالله بن مسعود أم ولده وكانت امرأة صناع اليد، وليس لعبد الله بن مسعود مال. وكانت تنفق عليه وعلى ولده من ثمر صنعتها.

فقالت له يوماً: والله لقد شغلتني أنت وولدك عن الصدقة، فما أستطيع أن أتصدق معكم.

فقال: ما أحب إن لم يكن لك في ذلك أجر أن تفعلي.

فسألت[3] رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني امرأة ولي صنعة

---

(١) هذه الرواية التي بين المعقوفتين من البخاري.

(٢) الاصابة ٤/ ٣٠٣، ورائطة وريطة واحد.

(٣) جاء في ابن حبان [فسأل رسول الله ﷺ هو أو هو فقالت] فأوردت الراجح.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأبيع منها، وليس لي ولا لزوجي ولا لولدي شيء، وشغلوني، فلا أتصدق. فهل لي في النفقة عليهم من أجر؟.

فقال: «لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم. فأنفقي عليهم».

أخرجه في موارد الظمآن في كتاب الزكاة باب النفقة على الأهل والأقارب ص ٢١٢ رقم ٨٣١.

وانظر الحديث في الترغيب والترهيب ١/ ٢٧٠ ورياض الصالحين باب بر الوالدين وصلة الأرحام ص ١٦٣ رقم ٣٣١.

وهذا الحديث رواه أيضاً أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وسأسوق رواية البخاري له ثم أذكر من أخرجه من أئمة الحديث:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، ثم انصرف، فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «أيها الناس تصدقوا». فمرّ على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن، فإني رأيتكنَّ أكثر أهل النار» فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء» ثم انصرف. فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه. فقيل: يا رسول الله. هذه زينب فقال: «أي الزيانب؟» فقيل: امرأة ابن مسعود. قال ﷺ: «نعم إئذنوا لها» فأُذن لها.

قالت: يا نبي الله. إنك أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندي حلي لي، فأردت أن أتصدق بها، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم.

فقال النبي ﷺ: «صدق ابن مسعود. زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم».

أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب الزكاة على الأرقاب [الفتح



شبكة الألوكة - قسم الكتب

٣٢٥/٣] والحديث طويل ولم يَسُقْهُ البخاري بتمامه في موضع من المواضع.

قال ابن حجر في النكت الظراف على الأطراف [٤٣٩/٣]: [وأخرج معظمه في العيدين ولم يخرج فيه قصة «يا معشر النساء تصدقن» إلى آخرها، وكذا قصة امرأة ابن مسعود فإنه ذكرها في الزكاة فقط ولم يورد في العيدين سوى قصة مروان فقط].

فقد أورده البخاري في كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم [الفتح ٤٠٥/١] وفي هذا الموضع زيادة جاءت بعد قوله «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» قلن: ما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصان عقلها» أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟» قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصان دينها».

وأورده البخاري في كتاب العيدين باب الخروج إلى المصلى بغير منبر [الفتح ٤٤٩/٢] وفيه قال أبو سعيد: كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف.

قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجتُ مع مروان، وهو أمير المدينة، في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى، إذا منبر بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجبذت بثوبه، فجبذني، فارتفع، فخطب قبل الصلاة. فقلت له: غيرتم والله. فقال: أبا سعيد قد ذهب ما تعلم. فقلت: ما أعلم والله خير ممّا لا أعلم. فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة، فجعلتها قبل الصلاة.

وأورد البخاري قطعة منه في كتاب الصوم باب الحائض تترك الصوم

والصلاة(الفتح ٤/١٩١) وأورد قطعة منه في كتاب الشهادات باب شهادة النساء (الفتح ٥/٢٦٦).

وأورد مسلم الحديث في كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات [١/ رقم ٧٩] ولم يذكر لفظ الحديث بل قال بمثل معنى حديث ابن عمر. وأورده أيضاً في كتاب صلاة العيدين [٢/ رقم ٨٨٩] وفيه قوله للناس (تصدقوا) ثلاث مرات، وكان أكثر من يتصدق النساء، وفيه إشارة إلى قصة مروان.

وأورد النسائي حديث أبي سعيد موجزاً جداً في كتاب صلاة العيدين في باب استقبال الإمام الناس بوجهه في الخطبة ٣/١٨٧ وفي باب حث الإمام على الصدقة في الخطبة ٣/١٩٠.

وأورده ابن ماجه في باب ما جاء في الخطبة في العيدين [١/ رقم ١٢٨٨].

وهذا الحديث رواه أيضاً ابن عمر وأبو هريرة. وسأوردُ روايةَ مسلم لحديث ابن عمر:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار. فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهم جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار!.

قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير. وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن».

قالت: يا رسول الله. وما نقصان العقل والدين؟.

قال: «أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين».

[مسلم [١/ برقم ٧٩]

وأخرج مسلم عن جابر وابن عباس قصة موعظة النساء، . عن جابر قال:

إن النبي ﷺ قام يوم الفطر، فصلَّى، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة. ثم قام متوكئاً على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال: «تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم» فقامت امرأة من سطة النساء، سفعاء[1] الخدين. فقالت: لم يا رسول الله؟ فقال: «لأنكن تكثرن الشكاة، وتكفرن العشير». قال فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقرطهن وخواتمهن [مسلم ٢/ برقم ٨٨٥].

وعن ابن عباس قال: شهدت صلاة الفطر مع نبي الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان. فكلهم يصليها قبل الخطبة. ثم يخطب.

قال: فنزل نبي الله ﷺ كأني أنظر إليه حين يُجَلِّسُ الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء ومعه بلال فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا . . ﴾ [الممتحنة: ١٢] فتلا هذه الآية حتى فرغ منها. ثم قال حين فرغ منها:

«أنتنَّ على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن: نعم يا نبي الله. لا يُدرى حينئذٍ من هي.

قال: «فتصدقن» فبسط بلال ثوبه ثم قال: هَلُمَّ. فدى لكنَّ أبي وأمي. فجعلن يلقين الفتخ[2] والخواتم في ثوب بلال [مسلم ٢/ ٨٨٤].

هذا الحديث الجميل يحكي لنا قصة موعظة رسول الله ﷺ الرجال ثم

---

(١) السفعة: يوزن غرفة: سواد مشرب بحجرة. ومن سطة النساء: أي من خيارهن.

(٢) الفتخ: واحدها فتخة. قال عبد الرزاق: هي الخواتيم العظام. وقال الأصمعي: هي خواتيم لا فصوص لها وتجمع أيضا على فتخات وأفتاخ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النساء يوم العيد، ويعرض تأثر الصحابة ولا سيما النساء بهذه الموعظة، ومن هؤلاء النساء الصحابية الجليلة زينب التي روت الحديث وذكرت أموراً مهمة عن أسرة زوجها الصحابي العظيم عبد الله بن مسعود.

وروى الحديث عددٌ من الصحابة ذكرنا منهم أبا سعيد الخدري وأبا هريرة وعبد الله بن عمر، ويبدو أن في رواية أبي سعيد للحديث تسجيلاً لموقف بطولي صلب وقفه هذا الصحابي الجليل، ولقد كان جريئاً في قول الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، صداعاً برأي الشرع، أماراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر. ولننظر في رواية أبي سعيد:

كان مروان بن الحكم أميراً على المدينة، وأتى العيد، فخرج أبو سعيد مع مروان إلى المصلى، فلما أتيا المصلى أراد مروان أن يرتقي المنبر ليخطب خطبة العيد قبل الصلاة، وهذا خلاف السنة، فجذب أبو سعيد مروان بثوبه، فجذبه مروان.. ولكم يا أيها القراء أن تتصوروا هذا المنظر.. الأمير يريد صعود المنبر.. ويعمد أحد المصلين إلى صدّه عن ذلك ويجذب ثوبه، والأمير يجذب صاحبه حتى يتخلص منه ويصعد المنبر، ويخطب.

فيقول أبو سعيد منكراً: غيرتم والله، أي غيرتم ما كان عليه رسول الله ﷺ الذي كان يصلي أولاً ثم يخطب. فيقول مروان: يا أبا سعيد قد ذهب ما تعلم. فيرد عليه بجرأة وقوة: ما أعلم والله خير مما لا أعلم.

فقال مروان معتذراً: إن الناس إذا صلوا انطلقوا ولا يجلسون لسماع الخطبة، من أجل هذا جعلتها قبل الصلاة، ولكن أبا سعيد لا يقبل هذا العذر.

ويحكي أبو سعيد بهذه المناسبة صنيع رسول الله ﷺ يوم العيد، ويذكر ما أعقب الخطبة من الاستفسار والسؤال. وما كان من جواب رسول الله ﷺ.

زينب الثقفية امرأة عاقلة، صناع اليد، تعمل وتجلب المال. وكانت تنفق على زوجها عبد الله بن مسعود وأولاده وأيتام كانوا في حجرها، تنفق



شبكة الألوكة - قسم الكتب

عليهم من ثمر صنعتها، وسمعت موعظة النبي ﷺ الآمرة بالصدقة... وفكرت في أمرها.. إنها لا تستطيع أن تتصدق بشيء لأن النفقة تستهلك كل دخلها من صنعتها.

وتصارح زوجها قائلة: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ أمرنا بالصدقة، ولقد شغلتني أنت وولدك عن الصدقة، فما أستطيع أن أتصدق بشيء ما دمت قائمة بشؤونكم.

ويجيبها رضي الله عنه قائلاً: إن لم يكن لك في إنفاقك على البيت أجر فأنا لا أحب أن تستمري في الإنفاق علينا، ولسان حاله يقول: والله لا يضيعنا.

فقالت: فقم فأت رسول الله ﷺ واسأله: أتجزي نفقتي من الصدقة، فإن كان ذلك يجزي عني فبها ونعمت، وإلا صرفت تلك النفقة إلى غيركم.. إني حريصة على الثواب، وعلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ.

فقال عبد الله: بل ائتيه أنت.

فانطلقت زينب إلى النبي ﷺ فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ، سمعت الموعظة، ووضعها البيتي مماثل لوضع زينب، زوجها فقير لا يملك شيئاً، وهي التي تقوم بالإنفاق على البيت من مالها، والزوجة ـ كما هو معلوم ـ غير مكلفة بالإنفاق، ولو أرادت أن تتصدق ما استطاعت إلا أن توقف النفقة على زوجها وبيته.

تقول زينب: وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، وهذا سبب وقوفهما وعدم استئذانهما. وبينما هما كذلك إذ خرج عليهما بلال. فخفَّ الموقف عليهما، وكلفاه أن يسأل رسول الله ﷺ عن مسألتهما، وطلبا إليه ألاّ يذكر من هما.

ولم يتعهد بلال لهما بكتمان اسميهما، وما كان له أن يخفي عن رسول الله ﷺ امراً يعلمه ويسأله عنه رسول الله ﷺ. فعندما سأله أخبره

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قائلاً: امرأة من الأنصار وزينب. فاستوضح ﷺ: «أي الزينب؟» فقال: امرأة عبد الله بن مسعود فأجاب رسول الله ﷺ الجواب الذي يطمئنهما قال ﷺ: «نعم لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة» وأمر زينب، كما في رواية ابن حبان ـ بالاستمرار في النفقة فقال: «فأنفقي عليهم».

وقد استدل العلماء بهذا الحديث على جواز دفع المرأة زكاتها إلى زوجها وهو قول الشافعي والثوري وصاحبي أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن مالك وعن أحمد.

وهذا إن كان زوجها من الأصناف الثمانية الذي يستحقون الزكاة وذكرتهم آية التوبة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفي رواية مسلم أنه ﷺ قال للناس: «تصدقوا. تصدقوا. تصدقوا».

وعندما مرَّ على النساء قال:

ـ «يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكنَّ أكثر أهل النار».

ـ فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟

ـ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء».

وذكرت الروايات أن النساء كنَّ أكثر استجابة بالصدقة، فكنَّ يتصدقن بحليهن وما معهن من مال.

وقد ذكر ﷺ صفات موجودة في المرأة، ونبّه إلى أنها من أسباب دخولهنّ النار، وهي إكثار اللعن، وكفران العشير.

إنّ إدراك نقطة الضعف في الإنسان هو الخطوة المتقدمة في تلافيها، فرسول الله ﷺ يسلط الضوء على هاتين الصفتين، لتكون المرأة المسلمة على حذر منها.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ثم يذكر ﷺ نقصان عقل النساء وذلك لأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، ونقصان دينها لأنها تمكث الليالي لا تصلي.. ومع ذلك فإن المرأة تذهب بلب الرجل الحازم.. وربما تشير عليه بما لا يقره الشرع.. فيوافقها.

وهذا مشاهد ملموس. فكم نجد من تصرفات تصدر من رجال حازمين ذوي عقول راجحة، بسبب سيطرة نساء جاهلات غير متدينات.

فلتتق الله المرأة الصالحة.. ولا تستخدم جاذبيتها وسلطانها فيما لا يرضي الله.

وإنصافاً للحق نقول: إن هناك نساءً صالحات استطعن أن يؤثرن على أزواجهن وآبائهن فضلاً عن أبنائهن، ويحملنهم على الاستقامة والاستمساك بالشرع ونصرة دين الله.

إن المرأة إن ضبطت لسانها فلم تلعن، واعترفت بفضل زوجها ولم تكفره ولم تنس الفضل بينها وبينه لتصرف من التصرفات، ولم تسخر سلطانها على الزوج إلا في طريق الخير، عصمت نفسها من النار وكانت سبباً لصلاح المجتمع.

● في هذا الحديث حثٌّ على الصدقة على الأقارب المحاويج، ذلك لأن الأقربين أولى بالمعروف، عن حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» رواه مسلم ٢/رقم ١٠٣٤ وأحمد والنسائي. وروى نحوه البخاري عن أبي هريرة[1].

فليسد المرء المسلم حاجات أقربائه ثم يتفقد الغرباء.

والشرع الحكيم المطهر يريد دعم أواصر الود والمحبة بين أفراد المجتمع المسلم وتقوية العلاقات والصلات فيما بينهم.

---

(١) انظر«صحيح الجامع الصغير» برقم ١١١٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وطبيعي أن يذكر المرء من ساعده في الأزمة، وأعانه وقت الضيق، والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها والله عز وجل يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن ٦٠]

ولله در القائل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

والإنسان عادة أعرف بحقيقة أقربائه، فهو يعلم مدى احتياجهم وموضع الحاجة فيهم، فإذا أعطاهم كانت صدقته في محلها. أما لو وضعها في ناس غرباء لا يعرف إلا ظواهرهم، فربما لا تقع في موقعها.. إذ يحدث أن يتصدق إنسان على رجل يظنه فقيراً فإذا هو غني، أو على رجل يظنه صالحاً فإذا هو فاسق.

إنّ هذا لا يمكن أن يكون في صدقته على المحتاجين من أقاربه.

والقصة التي يعرضها الحديث قصة واقعية؛ قصة أسرة فقيرة، الزوج لا يملك شيئاً، وله أولاد صغار، وهناك أيتام في البيت، والزوجة صناع اليد، تتقن مهنة تعود عليها بدخل حسن، وهي تعلم واقع البيت ومدى حاجته، وموضع هذه الحاجة، وتنفق كل دخلها على زوجها والعيال، وسمعت الزوجة موعظة الرسول البليغة المؤثرة، فتأثرت بها، وعزمت على تنفيذها، ولكنها تذكرت زوجها وأولاده، إذ لو تركتهم وصرفت نفقتها إلى غيرهم لجاعوا وضاعوا، فلجأت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه، فأفتاها بما يقر عينها ويديم فرحتها، أفتاها بأن لها أجرين.

إن هذا الحديث يذكر المسلمين بالأقارب المعوزين، إذ في معونتهم ومساعدتهم أجران أجر صلة القرابة، وأجر الصدقة.

ولا شك أن الآداب التي تشرع في الصدقة على الأجانب مطلوبة هنا أيضاً، فلا يجوز للمرء أن يمن أو أن يؤذي من يعطيه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤].

● والحديث يدل على أن صلة الأرحام المحتاجين إنما تكون أولاً وقبل أي شيء آخر بإعطائهم ما يسد خلتهم، وبالإنفاق عليهم، ومساعدتهم في تأمين ضرورياتهم، وملاطفتهم وزيارتهم وحسن مقابلتهم.

وصلة الرحم من الأمور التي دعا إليها الشرع ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وما أشدَّ حاجة المسلمين إلى أن يذكروا هذا المطلب الشرعي المهم في هذه الظروف التي غزتهم فيها حضارة مادية لا تقيم وزناً لكل هذه القيم والمثل.

ويؤسفني أن أقرر أنَّ هذه الحضارة قد استطاعت بوسائلها الفعالة أن تؤثر بعض التأثير في بعض الأوساط. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

● وفي الحديث بيان لبعض خصائص المرأة، وفي أحداث القصة ما يكشف عن تمتع المرأة بحقوقها كاملة غير منقوصة.

إن الإسلام أنصف المرأة غاية الإنصاف، وحفظ لها حقوقها المالية والمعنوية كاملة، وصان هويتها عن الذوبان والضياع، واعترف لها بشخصية مستقلة: فاسمها ثابت، وهي تنسب إلى أبيها وقومها، ولها كامل الحرية في التصرف بأموالها دون سيطرة أحد عليها، كائناً من كان، فلها أن تتبرع إن أرادت التبرع بمالها كله أو بعضه دون إذن زوجها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا الحق الطبيعي لم تصل إليه المرأة الأوربية في كثير من البلدان حتى وقت قريب[1].

والزوجة في الإسلام غير مكلفة بالإنفاق على نفسها ولا على أولادها، بل النفقة على الرجل، فإن أنفقت تكرماً عُدَّ عملها من الناحية الدينية عبادة، عليها أجرٌ مضاعف.

فأي تكريم يفوق هذا التكريم؟ وأية رعاية تعلو هذه الرعاية؟

وقد رأينا في الحديث الذي ندرسه زينب تتصرف بمالها كيف شاءت، وتقلب الاحتمالات لتضع المال حيث يكون لها الأجر الوفير من الله.

وقد كان رسول الله ﷺ يوصي بالنساء خيراً طيلة حياته، ويأمر بإكرامهن، وكان يخصهنَّ أحياناً بالموعظة.

وفي هذا الحديث الذي بين أيدينا موعظة موجزة مؤثرة، وجهها رسول الله ﷺ إلى النساء، فتأثرن بها، وقمن بتنفيذها فوراً، والمرأة بطبيعتها سريعة التأثر والانفعال، سهلة الانقياد.

وفي ذلك درس للدعاة، إذ ينبغي أن ينتبهوا إلى موضوع دعوة المرأة وتوجيهها، لتتحلى بالأخلاق الكريمة وإعدادها لحمل رسالة الإسلام وأدائها، وعليهم أن يعطوا هذه الموضوع حقه التام من الاهتمام، إذ النساء شقائق الرجال، والمرأة تشكل نصف المجتمع، وهي في حالات كثيرة موضع

---

(١) انظر رسالتي «التشريع الإسلامي» ص ٣٨ وذكر الدكتور مصطفى البارودي في مهاتفة لي في شهر جمادى الأولى سنة ١٤١١ (كانون أول ١٩٩٠) أن الدول الكاثوليكية في أوربا يكون الزواج الكنسي فيها على أساس الملكية المشتركة، فبمجرد الزواج لا تستطيع المرأة أن تتصرف بمالها إلا بإذن الزوج. يقول: وظل هذا مرعياً حتى عدل التشريع لمن يتزوج مدنياً، ويريد أن يتعاقد على خلاف ذلك، فيكون الاستقلال المالي في هذه الحالة. والله أعلم.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

التأثير الواضح في البيت والمجتمع. وهي المدرسة الأولى التي يتلقى منها الأولاد مثلهم العليا وأخلاقهم.. ففي صلاحها صلاح المجتمع، وفي فسادها فساده.

نعم إن طاعة الله ومراقبته وخشيته وحبه والجهاد في سبيله والابتعاد عما حرم معان تغرسها الأم في نفوس أولادها إن كانت صالحة.

إن كثيراً من المتحدثين في موضوع المرأة لم يسلكوا الجادة المستقيمة في حديثهم، ولم يصارحوا من يخاطبون.. بل كان أكثرهم مجاملين أو متحاملين.

كان بعضهم يعطيها ما ليس لها مجاملة واسترضاء، وكان آخرون يحرمونها ما هو حقٌّ لها جهلاً وعدوانا.

والموقف العظيم هو الموقف الذي نجده في هذا الحديث الشريف.

ذكر الحديث في خلال مخاطبة الرسول النساء أمرين في المرأة:

● **أما الأول**: فهو فطري تسخيري لا خيار للمرأة فيه، وأشار في هذا الأمر إلى عقلها وعبادتها.

فقد قرر الرسول ﷺ أمراً دلت عليه وقائع الأيام، وهو أن الرجل أقوى عقلاً منها، وليس معنى هذا أن كل رجل أعظم عقلاً من كل امرأة.. بل المراد أن هذا هو الأغلب الأعمّ، وإلا فقد يوجد في النساء امرأة ترجح رجال قبيلتها أو بلدها.

وانظر إن شئت إلى النابغين والنابغات في بلاد الدنيا كلها فستجد ارتفاع نسبة النبوغ في الذكور، ونزولها عن ذاك المستوى فى الإناث. تلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ومن هنا كانت شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل.

ولكن الله تبارك وتعالى منحها العاطفة الحانية، والقلب الرقيق، وهي في هذا المجال تفوق الرجال وترجحهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقرر الرسول أمراً يتصل بالعبادة، وهو أن المرأة بحكم تكوينها الفطري يأتيها الحيض والنفاس، وهذا شيء كتبه الله على بنات حواء، وهذا يحول بينها وبين العبادة بينما الرجل لا تحكمه مثل هذه الظروف، فتنقص صلاتها عن صلاته.

● **وأما الأمر الثاني**: فهو تغلبها على الرجل وذهابها بلب الحازم، وهذا الأمر لها فيه دخل كبير، إنها بحكم جاذبيتها وميل الزوج إليها تستطيع أن تقوم بدور مهم أساسي في الإصلاح المنشود إن كانت صالحة.. وتستطيع أن تكون هادمة إن لم تكن كذلك..

إنها على ما فيها من ضعف تملك هذه القوة.. فلتسخر ذلك في سبيل الحق والبناء الهادف والسير على نهج المتقين الأبرار.

● إن مصارحة المرأة بهذه الحقائق، وموعظتها وحضها على الخير ليس في ذلك أي امتهان للمرأة.. بل الامتهان لها أن نكلفها فوق طاقتها، ونطلب منها أغراضاً لا تتفق وتكوينها وفطرتها.. وأن نجعل منها أداة للفتنة والإغواء والإفساد.. هذا هو الامتهان الأكبر لها.

وما انتكست أمور الناس وسارت في طريق الانحراف إلا عندما أخطؤوا في نظرتهم للمرأة وفي تعاملهم معها.

إن الدعاة المسلمين أهملوا المرأة ونسوا واجبهم نحوها، وتركوها في كثير من البلاد تتأثر بالإذاعة والتلفاز، والمجلات الهابطات والصالونات، والبلاجات ودور السينما الهدامة، والأفلام المغرضة، والأفلام الرديئة.

إن عليهم أن يتداركوا الأمر، وما زالت الفرصة متاحة لهم، ولننظر إلى سيدنا رسول الله ﷺ سيد الدعاة والهداة كيف خصَّ النساء بالموعظة والتوجيه، وكيف استجابت الصحابيات الجليلات لتلك الموعظة وتسابقن إلى تنفيذها.

● وقد دل هذا الحديث على أن النهج الأسلم والأفضل أن يكون



شبكة الألوكة - قسم الكتب

مجلس الوعظ للنساء خاصاً بهنّ، ومن هنا كان تخصيصه النساء بهذه الحصة، واختلاط الرجال بالنساء غير محمود العواقب[1]، ولو تأملنا أحكام الشرع المختلفة المتعلقة بالمرأة لوجدنا أنها تؤكد هذا المعنى تأكيداً كبيراً، فلقد رغب الشارع أن تؤدي الصلاة ـ وهي أهم أركان الدين ـ في بيتها «خير صلاة النساء في قعر بيوتهن»[2]، وجعل صلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، بل أفضل من صلاتها في مسجد رسول الله ﷺ الذي تضاعف فيه الصلوات وبمعيته ﷺ. ورغبها إن صلت في المسجد أن تكون في الصفوف الأخيرة «خير صفوف النساء آخرها، وشرّها أولها» رواه مسلم وأصحاب السنن[3]، وذلك حتى لا يراها الرجال ولا تراهم. ونهاها عن التبرج والخروج لغير حاجة. ويخاطب الله نساء النبي ﷺ فيقول: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣].

● وفي الحديث دليل على أن التحدث مع النساء الأجانب عند أَمْنِ الفتنة جائز لا شيء فيه، فزينب الثقفية والمرأة الأنصارية تكلمان بلالاً، وتطلبان منه إلقاء السؤال على رسول الله ﷺ. ولا ينكر ذلك رسول الله ﷺ.

ولا بد من أن يكون الحديث ملتزماً حدود الأدب والشرع، ويكون في أمر موضوعي جاد، ويكون بعيداً عن الابتذال والخضوع بالقول، ويكون المخاطِبُ إنساناً كريماً مستقيماً.. فالكلام عندئذٍ جائز بل قد يكون الكلام مطلوباً.. فللنساء أن يستفتين أهل العلم، ولهنّ إن كنَّ عالمات أن يبلغنّ ما آتاهن الله من العلم، كما كانت الفضليات يفعلن طوال تاريخنا الممتد

---

(١) انظر رسالتي «تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط المستهتر».

(٢) مسند أحمد ٦/٢٩٧ وصحيح ابن خزيمة ٣/برقم ١٦٨٣.

(٣) صحيح مسلم ٢/٣٢ وأبو داود ٦٧٨ وابن ماجه ١٠٠٠ وصحيح الترمذي للألباني ١٨٦ والنسائي ٢/٩٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى عصر قريب، ولهنّ أن يشرفن على إدارة أموالهن والاتصال بمن يقوم بذلك من الرجال.

لهن ذلك كله إن توافرت الشروط الشرعية من اجتناب الخلوة والاختلاط المستهتر، والنظرات المريبة، وتحقق التزام الحجاب الشرعي واللباس السابغ الساتر.

والناس في هذا الأمر بين إفراط وتفريط، والحقُّ في التزام الشرع الذي يفوز المستمسك به، أما العادات المجافية للشرع فليست بملزمة.. بل إن التشدد وإلزام الناس بأمر لم يلزمهم الله به قد يحمل الناس على الانحراف، وقد يكون سبباً من أسباب البعد عن دين الله.. فَلْنتبصَّره وَلْنَع واقِعَنَا، وليكن الحق رائدنا.. إن الغلوَّ يمقته[1] الله وقد حذرنا الله منه أشد التحذير.

● وفي الحديث ترغيب ولي الأمر من الحكام والعلماء بالنصح للرجال والنساء، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفسيرنا لولي الأمر بالحكام والعلماء هو القول الراجح عند أهل العلم.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

:[قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وأولي الأمر منكم) يعني أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية (وأولي الأمر منكم) يعني العلماء. والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء...][2].

وقد جعل الله من مهمات أولي الأمر في الإسلام إقامة الصلاة وإيتاء

---

(١) انظر كتابنا «قضايا في الدين والحياة» ص ١٥١ - ١٧٤.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥١٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]

إن الموعظة نافعة لا سيما عندما تصدر من واحد من أولي الأمر:

فهيبةُ السلطان وقوته، وامتلاكه الزواجر والمرغبات، تساعد على امتثال الناس للنصح، وعلمُ العالم ومعرفتُه للوسط الذي هو فيه، وللوسائل الجذابة تُعين على قبول الناس لدعوة الحق، فعلى الفريقين من الحكام والعلماء أن يغتنموا المناسبات التي تجمع عدداً كبيراً من الناس كالأعياد والأفراح والمآتم والجمع وما إلى ذلك، فيوجهوا الناس إلى طريق الرشاد، وعليهم أن يخلصوا في دعوتهم.

إن العالم ينبغي ألا يدع فرصة تفوته دون أن يستفيد منها في الدعوة إلى الله بالحكمة والأسلوب المقبول، وما يدري، فقد يغدو بعد حين عاجزاً عن قول الكلمة.

وتقوم الآن وسائل متعددة: مسموعة ومقروءة، في إبلاغ الموعظة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمفلح الرشيد من يسعى إليها ويستفيد منها.

هناك الأشرطة التي تسمع في المسجلات . . وهناك الرسائل الصغيرة التي تقرأ في دقائق. . كل ذلك مما أنعم الله به علينا في هذه الأيام.

وعلى أهل العلم أن يفيدوا من التلفاز فهو وسيلة مرئية مسموعة يقبل الناس عليها إقبالاً شديداً وليكن المتحدث في هذه الأداة خفيف الظل، حلو العبارة، موفقاً في اختيار الموضوع والاستدلال والإقناع، محيطاً بجوانبه كلها ليكون مقبولاً من المشاهدين.

● وفي الحديث صورة للتعاون القائم بين الزوجين. . ويبدو أن هذا التعاون كان عاماً. . فهو قائم في أسرة عبد الله بن مسعود، وقائم في أسرة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المرأة الأنصارية التي جاءت إلى باب رسول الله ﷺ ومثل هاتين الأسرتين في ذاك العصر الأغرّ كثير.

إنّ البيت المسلم قائم على التعاون والتكافل، وعلى المودّة والرحمة، وقائم على الخوف من الله ورعاية حدوده.. إنه يرعى هذه المعاني والعواطف رعاية عظمى.. فلئن كانت الزوجة الموسرة غير مكلفة بالنفقة على وجه الإلزام إنَّها بحكم تأثرها بهذه القيم الرفيعة تنفق ابتغاء ثواب الله، ولا تجمد عند النصوص جموداً يلحق البؤس والفاقة بالأسرة. وعندما يكون الزوجان متعاونين متحابين ملتزمين بأحكام الشريعة وروحها وآدابها ومثلها ينشأ الأولاد نشأة طيبة ويتلقون هذه المعاني والقيم منذ تفتحهم على الدنيا، وتصبح جزءاً من كياناتهم وشخصياتهم، ويغدون ناساً فضلاء أنصاراً للفضيلة ومثلاً حية لها، ودعاة إلى الحق يعملون به حتى تكون حياتهم ترجمة حية له.

وهذه المعاني إن لم يتلقها المرء في البيت فصعب عليه فيما بعد أن يتلقاها ويتقبلها ويتخلق بها.

إن المجتمع المثاليّ الذي أقامه رسول الله ﷺ وكان أفراده من الصحابة الكرام مجتمع مؤلف من مثل هاتين الأسرتين الكريمتين، وهو قائم على شرع الله، حافظ لحدوده..

وكان الصحابة فيه مسارعين إلى تنفيذ ما يسمعون من الأوامر والوصايا، فعندما سمعت زينب من رسول الله ﷺ أمره النساء بالصدقة أرادت امتثال الأمر، ولكنها كانت تنفق على زوجها الفقير وأيتام كانوا في كفالتها، فأحبت أن تعلم إن كان هذا الذي تنفقه على زوجها والأيتام معدوداً صدقة لتطمئنَّ وتستمر، وإن لم يكن كذلك فإنها تريد أن تصرف نفقتها إلى غيرهم، وفاتحت زوجها بذلك وطلبت إليه أن يسأل رسول الله ﷺ، فقال لها: بل سليه أنت. فذهبت فوراً إلى رسول الله ﷺ ووقفت على حقيقة الأمر.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

إن مشكلة المسلمين اليوم أنهم لا ينفذون الأوامر التي تبلغهم عن الله وعن رسوله ولا ينتهون عن النواهي... ما أكثر المسائل التي يعلمها المسلمون ولا يطبقونها؛ إن الجهل مشكلة، ولكن عدم العمل بما يعلمون مشكلة أشد وأكبر.

قال الخطيب البغدادي في كتابه الممتع «اقتضاء العلم العمل»:[1]

[وقيل: العلم والد، والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشاً من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل، ولكن اجمع بينهما وإن قلَّ نصيبك منهما.... والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضل الله بالرحمة، وتمَّم على عباده النعمة. فأما المدافعة والإهمال، وحب الهوينى والاسترسال، وإيثار الخفض والدعة، والميل مع الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال ذميمة، وعقباها كريهة وخيمة.

والعلم يراد للعمل، كما العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كَلاًّ على العالم، ونعوذ بالله من علم عاد كلاًّ أو أورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غُلاًّ... وهل أدرك من أدرك من السلف الماضين الدرجات العلى إلا بإخلاص المعتقد، والعمل الصالح، والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا؟ وهل وصل الحكماء إلى السعادة العظمى إلا بالتشمير في السعي، والرضا بالميسور؟ وبذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم؟..

وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها، فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتنم وقته، فإن الثواء قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد][2].

---

(١) ص ١٤ وما بعدها.

(٢) اقتضاء العلم والعمل ص ١٤ وما بعدها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

● وعلى المسلم أن يتبيّن حكم الله في أي أمر يواجهه في حياته، والسؤال ههنا فريضة يأثم إن لم يقم بها. وبنحو ما ذكرنا فَهِمَ عبد الله بن المبارك قول رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].. إن على المسلم أن يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم يسألهم عن كل قضية من القضايا التي تواجهه في الحياة.. وعليه أن يختار من أهل الذكر أفقههم وأتقاهم، فالعلم دين وعلى المرء أن ينظر عمّن يأخذ دينه. فزينب رضي الله عنها لجأت إلى رسول الله ﷺ تسأله بنفسها عندما أبى زوجها أن يسأل هو وتحققت للزوج مصالح عدة عندما أرسل زوجته لتسأل؛ فمن ذلك:

● أنه قد يجد شيئاً من الحرج عندما يلقي السؤال وفيه ذكر فقره واضطراره إلى قبول صدقة زوجته ولا سيما إن كان يسمع سؤاله ناس آخرون.

● ومن ذلك أنه يخلص من مسؤولية نقل الفتوى.

● ومن ذلك أن تتلقى الإجابة بنفسها لتدخل الطمأنينة على قلبها.

● وفي الحديث ما يدل على إباحة كتمان اسم السائل والمستفتي، فلقد طلبت زينب امرأة ابن مسعود والأنصارية من بلال ألا يخبر رسول الله ﷺ عن اسميهما، فقد ذكر العلماء أن بلالاً لم يلتزم لهما بتنفيذ طلبهما، وأن السائل هو رسول الله ﷺ وما ينبغي لبلال أن يكتم شيئاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما المستفتون عن طريق الهاتف فلهم كتمان أسمائهم.

وإذا صرّح أحدهم باسمه واطّلع المسؤول على سر من أسراره فعليه كتمانه وعدم البوح به.

---

(١) ابن ماجه ١ ص ٨١ رقم ٢٢٤ ومجمع الزوائد ١/١١٩ وصحيح الجامع الصغير رقم ٣٩١٣ والفوائد الموضوعة بتحقيقنا رقم ٧٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وللمفتي والمستفتي آداب ذكرها العلماء وألفوا فيها مؤلفات.

* * *

في رواية أبي سعيد للحديث معنى قرره القرآن كثيراً وقررته السنة، وهذا المعنى هو: المؤاخذة بالذنوب في الآخرة ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٢] وحلول المصائب بسببها في الدنيا ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

ويخوف رسول الله ﷺ النساء من ذنوب يقعن فيها خاصة، إشفاقاً عليهن ورحمة بهنّ، فيخبرهن أنه رأى النساء في جهنم أكثر أهلها، وأشار إلى العلاج، وهو الإكثار من الصدقة، فإنَّ الصدقة قد تحول بين المرء وبين النار، وهو ﷺ القائل: «اتقوا النار لو بشق تمرة» متفق عليه[1] والقائل أيضاً: «صدقة السر تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد العمر، وفعل المعروف يقي مصارع السوء»[2] وهذان الذنبان اللذان ذكرهما الرسول ﷺ هما: إكثار اللعن، وكفران العشير.

وهذا الحديث من جوامع كلمه، ومن دلائل نبوته، إذ تكثر هاتان الخصلتان في النساء وهما أكثر وجوداً وأجلى وضوحاً عند النساء منهما عند الرجال.

[وقد تفننت نساء بعض البلاد العربية في اللعن تفناً غريباً، فتسمع الدعاء الفظيع ينهال على الولد البريء الذي تصرف تصرفاً صبيانياً، لم يوافق هوى أمه ورضاها، إنها تدعو عليه أحياناً بأن يرسل الله عليه الحمى والأوجاع المتعددة، وتدعو عليه أحياناً أن يقتل بالرصاص، أو أن تذهب به داهية الدهس أو أن يصيبه العمى، تدعو عليه بذلك وغيره، وهو ابنها وفلذة كبدها][3].

---

(١) البخاري (الفتح) ٣/٢٨٣و١٣/٤٢٣ ومسلم برقم ١٠١٦.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٣٧٥٩ و ٣٧٦٠.
(٣) نظرات في الأسرة المسلمة ١٩٧ و١٩٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أما عَدُوَّاتها من النساء وخصومها من الرجال الأقارب أو أصدقاء الزوج فسيكون لعنها لهم أشد وأقوى. وقد يكون اللعن تسخطاً لنعم الله، فتسب الواحدة حظها وزمانها وما إلى ذلك.

[إن هذه العادة تفسد تربية الولد وتؤذي تكوينه النفسي، وهي ليست عادة كريمة، سواء كان المستهدف الطفل الصغير، أو الجارة الثقيلة، أو الزميلة المسيئة، أو أي مخلوق كان، وقد يكون من آثار هذه العادة ضعضعة البيت المسلم الذي هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي المنشود][1].

وكفران العشير أمر محرم ومذموم شرعاً وعرفاً. إن للزوج مكانة عظمى في الإسلام. إنه يسعى ويكد ويشقى ويتعب ليوفر لأفراد أسرته ما يتطلعون إليه من السعادة والهناء... فإذا قصر في أمر أو عاقته الظروف المادية عن القيام ببعض الواجبات والمطالب كان على الزوجة أن تتفهم وضعه وتكون عوناً له وتعذره. ولكن كثيراً من النساء ينكرن فضله، ويجحدن ما سبق من أياديه، وتقول إحداهن: ما رأيت منك خيراً قط.

وهذه الخصلة الذميمة تعكر صفاء الأسرة، وقد تهدم بيت الزوجية، وتجلب غضب الله ونقمته والله يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وإذا كان هذان الذنبان سبباً لدخول النار، فما القول بالكبائر الموبقة التي يقع فيها الرجال والنساء من التهاون بالصلاة، ومنع الزكاة، وقذف المحصنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور وغيرها؟.

إن الذنوب سبب لدخول النار.. فلنتق الله في أعمالنا وأقوالنا، ولنعلم أن أعمالنا محصاةٌ علينا، وأن أقوالنا من أعمالنا. وما أحرانا أن

---

(١) نظرات في الأسرة المسلمة ١٩٧ و١٩٨.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

نتذكر دائماً مصيرنا يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤].

إن الخوف من الله ومن عقوبته يلجم عن المعاصي. ولنقرأ ولنتدبر هذه الآيات وهي قليل من كثير في كتاب الله: قال تعالى:
﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال تبارك أسماؤه: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤].

وقال عز وجل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة: منها هذا الحديث.

ومنها قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يا عبادي إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

---

(١) مسلم ١٧/٨ والترمذي ٣١٦/٣ وابن ماجه برقم ٤٢٥٧[وقد تقدم تخريجه وشرحه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومنها قوله ﷺ: «لا يصيب العبدَ نَكْبةٌ إلا بذنب»(١).

ومنها قوله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بذنب»(٢).

إن واقع المسلمين اليوم مؤلم، وإن أوضاعهم لمؤسفة، وما ذلك إلا نتيجة للبعد عن دين الله، وللوقوع في مخالفة أمره قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فلنعد إلى الله، ولنتخلَّ عن المعاصي والكبائر التي تملأ حياتنا اليوم.

ولنعلم يا عباد الله أن العقوبة عندما تحل في المجتمع المنحرف تكون عامة تشمل الطائع والعاصي ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

● وفي الحديث أمر بالصدقة. وقد عني الإسلام بمصدريه الكتاب والسنة بالدعوة إليها، وإلى إطعام الطعام، وإيتاء الزكاة وقرنها بالصلاة في مواطن كثيرة من القرآن.

وذكر أن الصدقة قرض لله سبحانه، وأن الله يضاعف أجرها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.. ولم يقتصر الإسلام في طلبها على الأغنياء، بل رغب أن ينفق ذو سعة من سعته، ومنْ قُدِرَ عليه رزقُه فلينفقْ ممَّا آتاهُ اللَّهُ، وقرّر أن درهماً سبق مائة ألف درهم، ورغب بالصدقة ولو كانت شق تمرة ليتقي النار.. وهذا أسلوب تربوي ناجح ينتهي بالإنسان إلى اعتياد الإنفاق في فقره وغناه.

في الحديث أوصى رسول الله ﷺ الرجال بالصدقة، وكرر أمره ثلاث

---

(١) الترمذي ٤/١٨٠.

(٢) أحمد ٥/٢٧٧ و٢٨٠ و٢٨٢ وابن ماجه ٤٠٢٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مرات، ثم جاء إلى النساء وأمرهن بالصدقة ولو من حليهن، والحلي ـ عند أكثر النساء ـ أعز ما تملك المرأة. فامتثلن وتسابقن في تنفيذ الأمر النبوي.

● ولقد خصَّ ﷺ النساء بالأمر بالصدقة بعد أن أمر الرجال، ليكنَّ معينات لأزواجهنَّ على الخير، لا كما كانت النساء في الجاهلية:

كانت المرأة تلوم زوجها كثيراً على الإنفاق والجود، وقليلٌ في نساء ذاك العصر من كانت تحض زوجها على الإنفاق. وقد سجل ذلك الشعر العربي.

● فمن ذلك أن سالم بن قحفان العنبري جاء إليه أخو امرأته زائراً، فأعطاه بعيراً من إبله وقال لأمرأته: هاتي حبلاً يقرن به ما أعطيناه إلى بعيره. ثم أعطاه بعيراً آخر وقال لها مثل ذلك، ثم أعطاه آخر فضجرت فقالت: ما بقي عندي حبل فقال: عليَّ الجمال، وعليك الحبال. فرمت إليه بخمارها وقالت: اجعله حبلاً لبعضها فأنشأ يقول:

لقد بَكَرَتْ أمُّ الوليد تلومُني ... ولم أجترمْ جُرْماً فقلتُ لها: مَهْلا
لا تعذليني في العطاء ويسِّري ... لكلِّ بعيرٍ جاء طالبُه حَبْلا[1]

يقول: لا تلوميني على ما أهبه من جِمالي، بل هيئي لكل بعيرٍ أهبه حبلاً يقادُ به، فما أنا بالبخيل.

● ومن ذلك قول عمرو بن الأهتم التميمي المنقري وهو صحابيٌّ له وفادة على النبي ﷺ:

ذريني، فإن الشح يا أم هيثمٍ ... لصالح أخلاق الرجال سَرُوقُ
ذريني، وحُطِّي في هواي فإنني ... على الحسب الزاكي الرفيعِ شفيقُ
ذريني، فإني ذو فَعَالٍ، تهمني ... نوائبُ يَغشى رزؤها وحقوقُ
وكلِّ كريمٍ يتقي الذمّ بالقِرى ... وللحق بين الصالحين طريقُ
لعمركِ ما ضاقتْ بلادٌ بأهلها ... ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيقُ[2]

---

(١) الحماسة لأبي تمام ٢/٢٦١.
(٢) الحماسة لأبي تمام ٢/٣٠٠ ـ ٣٠١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقول رضي الله عنه: اتركيني على ما أنا عليه من الكرم ولا تلوميني. فإن البخل يزين للإنسان العذر الكاذب، والعلل الباطلة، ويذهب بأخلاقه الحميدة، فكأنه يسرقها منه، ووافقيني وساعديني على الجود فإني أخاف على شر في من عار البخل.

ومن ذلك قول المثلم بن رياح المري وهو شاعر جاهلي:

بكر العواذل بالسواد يلمنني ... جهلاً يقلن: ألا ترى ما تصنع
أفنيت مالك في السفاه وإنما ... أمر السفاهة ما أمرنك أجمع[1]

● ومن ذلك قول عروة بن الورد العبسي:

أرى أم حسان الغداة تلومني ... تخوفني الأعداء، والنفس أخوف[2]

● ومن ذلك قول يزيد بن الجهم الهلالي:

لقد أمرت بالبخل أم محمد ... فقلت لها: حثي على البخل أحمدا
فأني امرؤ عودت نفسي عادةً ... وكل امرىء جارٍ على ما تعودا
أحين بدا في الرأس شيب وأقبلت ... إليَّ بنو عيلان مثنى وموحدا
رجوتِ سقاطي واعتلالي ونبوتي ... وراءك عني طالقاً وارحلي غدا[3]

ومن ذلك قول عبدالله بن الحشرج الجعدي، وهو شاعر إسلامي، وسيد من سادات قيس، وأمير من أمرائها، كان جواداً ممدَّحاً ولي أكثر أعمال خراسان وفارس وكرمان:

ألا بكرت تلومك أم سَلْمٍ ... وغير اللوم أدنى للسداد
وما بذلي تلادي دون عرضي ... باسرافٍ، أميمَ ولا فساد
فلا وأبيكِ ما أعطي صديقي ... مكاشرتي[4] وأمنعه تلادي
ولكني امرؤ عودت نفسي ... على علاتها جري الجواد

---

(١) الحماسة ٢/٣٠٣.
(٢) الحماسة ٢/٣٣٨.
(٣) الحماسة ٢/٣٤٠.
(٤) المكاشرة: إبداء الاسنان بالضحك.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

محافظة على حسبي وأرعى مساعي آل ورد والرقاد[1]

يخاطب أميمة: إن بذلي مالي ليس إسرافاً ولا فساداً، ويقسم بأبيها قائلاً: إني لا أعاشر الصديق وأعطيه مكاشرتي أي ابتسامتي مانعاً عنه مالي، ولكني رجل أجري في البذل والجود جري الفرس الجواد، ولا أفعل ذلك إلا لحفظ شرفي ومراعاة مكارم آبائي.

وغير هذه الأشعار كثير، وقد أوردت هذه الشواهد لأدلل على أن المرأة التي تكون كذلك جديرة بأن توجه إليها هذه النصيحة.

ويبدو أن موقف المرأة هذا كان لأسباب منها: أنها لا تكسب، والمال قليل، فهي تريد أن تستأثر هي وأولادها بالقسط الأوفر من المال والطعام والمتاع والأنعام، ومنها: أن الإنفاق في كثير من الأحيان يكون على حساب مصلحتها وراحتها. فإن كان مالاً ضيق عليها الإنفاق وإن كان طعاماً كان عليها الإعداد والطبخ والتنظيف.

ـ وفي الحديث تذكير بالمصير يوم القيامة.. إنَّ اليوم الآخر حاضر في تصور الصحابة رضوان الله عليهم، وقد كان يحملهم على القيام بالواجبات والقربات حتى ولو أدى ذلك إلى أن يستشهد أحدهم في سبيل الله، ويكفهم عن المعاصي والمخالفات، حتى ولو تعرضوا للشدائد والأزمات، ورسول الله ﷺ في مواعظه يعمق هذا التصور. والذين يخافون ذلك اليوم يوقون شره كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان: ٧ ـ ١٢]

ـ وإذا نظرنا في الصور الجميلة في الحديث رأينا وفرة منها.

فمن ذلك قول زينب: إنك خفيف ذات اليد: كناية عن فقره.

---

(١) ورد والرقاد قبيلتان وانظر الحماسة ٢/٣٤٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقولها: وأيتام في حجري: كناية عن كفالتها لهؤلاء الأيتام.

وقولها: ألقيت عليها الهابة: صورة تعرض المهابة شيئاً يلقى على رسول الله ﷺ وهذه الصورة تكشف عن نظرة الصحابة للرسول ﷺ.

صناع اليد: أي كانت امرأة تتقن صنعة.

من ثمر صنعتها: كأن الصنعة شجرة والدخل ثمرها.

وفي قوله ﷺ ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب (وفي رواية: أغلب) للب الرجل الحازم من إحداكن مقابلة تثير العجب، ففي الطرف الأول من هذه المقابلة ناقصات عقل ودين.

وفي الطرف الآخر، رجل حازم ذو لب مغلوب من قبل أولئك الناقصات اللاتي استطعن أن يذهبن بلبه.

إن ذلك عجيب حقاً، وتذكرني هذه المقابلة ببيتي جرير:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

إن الحديث تصوير للإغراء والجاذبية اللذين يذهبان باللب ويجعلان الرجل القوي مغلوباً. فإذا كانت المرأة كذلك ، وكانت على هذه الدرجة من التأثير على الزوج فإن نصيحتها عندئذٍ مهمة وتؤدي الغرض المطلوب.

فصلَّى الله على هذا النبي الكريم طبيب القلوب، والمصلح الملهم، ووفقنا إلى العمل بهديه الكريم.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحديث الثاني عشر

عن علي رضي الله عنه قال:

بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليهم رجلاً من الأنْصَار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم.

فقال: أليس قد أمركم النبيُّ أن تطيعوني؟

قالوا: بلى.

قال: فاجمعوا لي حطباً. فجمعوا. فقال: أوقدوها ناراً. فأوقدوها. فقال: عزمت عليكم لما دخلتم فيها.

فهمُّوا، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض، وجُعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: إنما تبعنا النبيَّ ﷺ فراراً من النار أفندخلها.

فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إلى يوم القيامة. إنما الطاعة في المعروف».

رواه البخاري في كتاب المغازي: باب سرية عبد الله بن حذافة ٥٨/٨.

وفي كتاب الأحكام: باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ١٢٢/١٣.

وفي كتاب أخبار الآحاد: باب إجازة خبر الواحد الصدوق ٢٣٣/١٣.

ورواه مسلم في كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية ٣ رقم ١٨٤٠.

ورواه أبو داود في الجهاد: باب في الطاعة برقم ٢٦٢٥ ج ٣.

ورواه النسائي في البيعة: باب جزاء من أُمر بمعصية فأطاع ١٥٩/٧.

ورواه أحمد في المسند ٨٢/١ و ١٢٤.

وروى أبو سعيد الخدري القصة بسياق آخر.

أما رواية عليّ فتدل على أن الأمر كان جداً وأنه كان نتيجة لإغضاب القوم أميرهم، فكان منه ما كان.

أما رواية أبي سعيد فتدل على أن الأمير كان صاحب دعابة، وأنه ما قال ما قال إلا مازحاً، ويحسن أن نورد رواية أبي سعيد للقصة كما جاءت في «المسند» و«سنن ابن ماجه» و«صحيح ابن حبان». واللفظ الآتي لابن ماجه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث علقمة بن مُجَزِّز على بعث وأنا فيهم، فلما انتهى إلى رأس غزاته، أو كان ببعض الطريق، استأذنته طائفة من الجيش، فأذن لهم، وأمَّر عليهم عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي. فكنتُ فيمن غزا معه، فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم ناراً ليصطلوا أو ليصنعوا عليها صنيعاً.

فقال عبدالله ـ وكانت فيه دعابة ـ: أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى.

قال: فما أنا بآمركم بشيء إلا صنعتموه؟

قالوا: نعم.

قال: فإني أعزم عليكم إلا وثبتم في هذه النار.

فقام ناس فتحجزوا. فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم. فإنما كنتُ أمزح معكم.

فلما قدمنا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ:

«من أمركم منهم بمعصية الله فلا تطيعوه».

ورواه ابن ماجه[1] في كتاب الجهاد باب لا طاعة في معصية الله ٢/ برقم ٢٨٦٣.

ورواه أحمد في «المسند» ٣/٦٧.

ورواه الهيثمي في «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» في كتاب الإمارة باب فيمن أمر بمعصية برقم ١٥٥٢.

وعبد الله بن حذافة بن قيس السهمي، أبو حذافة أو أبو حذيفة، من السابقين للإسلام، قال ابن حجر في «الإصابة» [يقال: شهد بدراً، ولم يذكره موسى بن عقبة ولا ابن إسحاق ولا غيرهما من أصحاب المغازي][2] وفي «صحيح ابن حبان» أن أبا سعيد الخدري يقول: [وكان من أصحاب بدر وكانت فيه دعابة][3]. وجاء في «المستدرك»[4] أنه كان يرحل ناقة النبي ﷺ في بعض أسفاره ليضحكه، وهذا يؤكد تحقيق الدعابة في طبعه رضي الله عنه. وله رضي الله عنه قصة رائعة في عهد خلافة عمر رضي الله عنه مع الروم ذكرها الحاكم في المستدرك بإيجاز، ونوردها كما جاءت في «الإصابة»[5] لابن حجر قال:

[ومن مناقب عبد الله بن حذافة ما أخرجه البيهقي من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع قال:

---

(١) قال البوصيري في الزوائد: صحيح. وقال ناصر الألباني في صحيح ابن ماجه: حسن.
(٢) الاصابة: ٢/٢٨٧.
(٣) موارد الظمآن ص ٣٧٣.
(٤) المستدرك ٣/٦٣٠.
(٥) الاصابة ٢/٢٨٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجَّه عمر جيشاً إلى الروم، وفيهم عبد الله بن حذافة، فأسروه، فقال له ملك الروم: تنصَّرْ أشركْكَ في ملكي. فأبى. فأمر به، فصلب، وأمر برميه بالسهام، فلم يجزع، فأنزل، وأمَرَ بِقِدْرٍ فَصُبَّ فيها الماءُ، وأغلى عليه، وأمر بإلقاء أسير فيها، فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه إن لم يتنصر. فلما ذهبوا به بكى. قال: رُدُّوه. فقال: لم بكيت؟

قال: تمنيت أنَّ لي مائة نفس تلقى هكذا في الله.

فعجب. فقال: قَبِّلْ رأسي وأنا أخلي عنك.

فقال: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: نعم.

فقبل رأسه، فخلّى عنهم، فقدم بهم على عمر، فقام عمر، فقبل رأسه.

وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهداً من حديث ابن عباس موصولاً، وآخر من «فوائد هشام بن عثمان» من مرسل الزهري].

وذكر البخاري عن ابن عباس أن قوله تعالى في سورة النساء ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] نزلت في عبد الله بن حذافة إذ بعثه النبي ﷺ في سرية[1].

توفي بمصر في خلافة عثمان ودفن في مقبرتها. رضي الله عنه.

نحن في هذه القصة أمام سياقين يتفقان في معظم التفصيلات ويختلفان بعض الاختلاف: يختلفان في اسم الأمير والسبب في أمره

---

(١) انظر صحيح البخاري ٨/٢٥٣ (الفتح)، وقد روى الحديث أحمد في المسند ١/٣٣٧ (ط شاكر ٣١٢٤). والترمذي في كتاب الجهاد باب ما جاء في الرجل يبعث وحده في سرية ٣/٢٠.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

بدخول النار. يَروي أحدَهما عليٌّ رضي الله عنه وَيَرْوي السياقَ الآخر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد نظر العلماء في ذلك: فمنهم من ذهب إلى أن القصة واحدة ونحا منحى التأويل، وقابلتهم مشكلات منها مثلاً أن عبد الله بن حذافة سهمي من قريش، والرواية تنصّ على أنَّ الأمير من الأنصار.

ومنهم من ذهب إلى أن السياقين قصتان ومن هؤلاء ابن القيم وابن حجر، وكأن البخاري يشير في العنوان إلى احتمال تعدد القصة إذ قال:

[باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مُجزِّز المدلجي، ويقال: إنها سرية الأنصاري].

وما دام الحديثان صحيحين ولا يجمع بينهما إلا بضروب بعيدة من التأويل فالقول بتعدد القصة هو الأقرب إلى الصواب والله أعلم.

لا يستقيم أمر الجيوش ولا الدول ولا المؤسسات ولا الجماعات ولا الأسر، إلا بأن تكون طاعة أولي الأمر فيها سائدة، وإلا فسدت أمور الحياة، وساءت العيشة، واضطرب الأمن، واستبيحت الحرمات، وضاعت الحقوق، وعمت الفوضى.

هذه حقيقة ملموسة لا تختصّ بها أمة دون أمة، ولا مجتمع دون مجتمع. وهي عامة في الأزمان والأقوام.

والطاعة سمة الجماعة الراقية العاقلة، وليس في التزامها أيُّ مهانة، ولا يلحق القائم بها أي انتقاص، فالإنسان العاقل عن رضى منه يلتزم بطاعة المسؤول عنه وينفذ أوامره.

والرأي السديد يأخذ طريقه إلى الحياة إصلاحاً وبناءً عندما يُطاع صاحبه، وإلَّا كان هذا الرأي صيحة في واد، بعيداً عن التحقيق.. ويتحول حسرة في قلب صاحبه. ولذا روي عن سيدنا عليّ رضي الله عنه أنه قال: لا رأي لمن لا يطاع.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتؤدي الطاعة مهمة عظمى في الحياة عندما تكون طاعة مبصرة مقيدة بتحقيق المصلحة. وقد عبَّر عن هذا المعنى الحديثُ الذي نحن بصدد دراسته بالعبارة الآتية:

«إنما الطاعة في المعروف».

إن حدود الطاعة تبينها الشرائع بصلاحيات ولي الأمر المقيدة بتحقيق مصلحة الجماعة، وهذه الصلاحيات عبرت عنها الشريعة الإسلامية بتلك العبارة المحكمة التي أوردناها آنفاً: «إنما الطاعة في المعروف» وقوله ﷺ في بعض روايات الحديث نفسه التي أوردها مسلم: «لا طاعة في معصية الله» وبقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» [مسلم برقم ١٨٣٩].

وقوله ﷺ في حديث الحكم بن عمرو الغفاري وعمران بن حصين «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [مسند أحمد ٦٦/٥] وهو حديث صحيح.

وما أروع فقه السلف الصالح لمعنى الطاعة في الإسلام، فهؤلاء الصحابة الذين رفضوا امتثال أمر القائد بإلقاء أنفسهم في النار نموذج.. وغيره كثير.

وهناك مثل رائع يتجلى في كلمة الإمام أبي بكر الصديق العظيم يوم أن بويع بالخلافة إذ قال: «أطعيوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

وطاعة الإمام الأعظم، والأمير الذي يوليه الإمام واجبة سواء كان عادلاً أم جائراً[1] إلا أن يعلن الكفر البواح، أو أن يأمر بمعصية.

---

(١) حاشية ابن عابدين ٣١٠/٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وطاعة الوالدين فرض عين[1]، ومثلها طاعة الزوجة لزوجها واجبة يقول ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»[2].

وعندما يعطي الشرع الطاعة هذا المعنى الديني يمنحها مزية لا يمكن أن تتحقق لها في الأنظمة الأخرى، فطاعة ولي الأمر في المندوب أو المباح الذي يحقق مصلحة للأمة طاعة واجبة على المسلم، ينفذها ولو لم تراقبه عين الرقيب أو الشرطي.

إن الالتزام بقواعد المرور التي أمر بها الحاكم المسلم وتنفيذها واجب، يقوم به المسلم ويراعي أحكامه، حتى ولو لم يكن هناك أحد من رجال الشرطة، وهناك القصة المشهورة في عهد الخليفة الراشد الناصح عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما منع الناس أن يخلطوا اللبن بالماء، والتزم الناس تنفيذ الأمر حتى الفتاة الصغيرة لما أمرتها أمها أن تخلط نبهتها إلى أن أمير المؤمنين أصدر أمره بمنع ذلك. ولا بد من التزام هذا الأمر[3].

الطاعة المطلوبة طاعة مبصرة.. لا معصية فيها ولا عبث.

وقد جاء نفرٌ من المستبدين استغلوا حق الطاعة الذي للحاكم المدعوم بالقوة المسلحة، ففرضوا على الأفراد والأمة أموراً بعضها معصية وبعضها عبث سخيف ظالم لا يحقق مصلحة لأحد...

وهذا قد حصل في تاريخ الأمم الأخرى، وحصل بقلة في تاريخنا.. ففي سِيَرِ الأباطرة والمستبدين في بلاد الكفر أخبار غاية في الغرابة والانحراف.

---

(١) حاشية ابن عابدين ٣/٢٢٠.

(٢) رواه الترمذي ٢/٢٠٣ - ٢٠٤ و٣٣٥ وابن ماجه ١٨٥٢ - ١٨٥٣ وسنن البيهقي ٧/٢٩٢ و«المستدرك» ٢/١٨٧ و١٨٩ وانظر «الترغيب والترهيب» ٣/١٢ ومجمع الزوائد ٤/٣١٠ وصحيح الجامع الصغير ٥٢٩٤.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٠٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي تاريخنا نقرأ مثلاً سيرة الحاكم الفاطمي الطاغية الذي كانت تصرفاته متناقضة مضحكة[1]. وقد وجدنا في العصر الحاضر شيئاً من ذلك عند بعض الطواغيت الذين ظلموا الناس وساموهم الخسف وحملوهم على الطاعة العمياء بالبطش والعنف والإرهاب والتعذيب.

يتبين من هذا الحديث أن الطاعة في الإسلام مقيدة بأن تكون في المعروف، ولذا فقد استحسن رسول الله ﷺ امتناع النفر من الدخول في النار التي أمر أميرهم بدخولها، مع أنه كان أوصاهم بطاعته، وقرر أنهم لو دخلوها لعوقبوا أشدَّ العقوبة.

فليس لأمير أو أب أو زوج أن يطاع في معصية، ومثل المعصية الأمر السخيف الذي لا يحقق مصلحة معتداً بها ويدخل الضرر على المأمور.

فلو تصورنا زوجاً أحمق طلب من زوجته بحكم حقه في أن تطيعه.. طلب متعسفاً أن تضع على رأسها مثلاً قدراً من النحاس وألاّ ترفعه مدة يقظتها، ما كان له ذلك، وليس عليها أن تطيعه.

أو تصورنا والداً كافراً طلب من ولده المسلم أن يشرك.. فليس عليه أن يطيعه. قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

وهناك فساد يترتب على غياب الطاعة المبصرة المنبعثة من الذات، وذلك بأن لا يطيع المكلف إلا إذا رأى العصى الغليظة فوق رأسه. إن هذا يفوت على الأمة مصالح كثيرة من جهة، إذ لا يمكن أن تتوفر رقابة دقيقة تشمل أفراد الشعب جميعاً.

---

(١) انظر ذلك في ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير أول الجزء ١٢.
وانظر الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ١/٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومن جهة أخرى فإن في هذا الأمر امتهاناً للإنسان.. إذ ينزل بنفسه إلى درجة الحيوان الذي لا يستجيب إلا إذا لوح له بالعصا.

● إن طاعة أولي الأمر واجب إسلامي ما دامت في حدود الشرع، ولا بُدَّ من أن نشير إلى أن هناك انحرافاً خطيراً يتصل بهذا الموضوع، ويلبس لبوس الدين، وهذا الانحراف هو ما نجده عند مشايخ الطرق الصوفية.. فقد أطلقوا شعارات، جعلوها مبادىء لا يمكن الخروج عليها ولا مخالفتها للسالكين، وهي قد تنتهي بمن يتبعها إلى الإلحاد والمروق من الدين والعياذ بالله.

فمن هذه الشعارات الأساسية عندهم قولهم: مَنْ قال لشيخه: لم؟ لم يفلح قط. ومعنى هذا أن ينفذ السالك ما يقول الشيخ دون سؤال، وإن سأل لِمَ لم يفلح قط.

وقولهم: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي المغسل. فلا يحق له الاعتراض أبداً.. وهذه الطاعة العمياء طريق يقود إلى الهلاك، وقد بلغني أن بعض أتباعهم قال: والله لو أمرني شيخي أن أكفر لكفرت. والعياذ بالله من الخذلان.

إنَّ سادة المطيعين من البشر الاتقياء في تاريخ الإسلام هم الصحابة، ومع ذلك فقد كانت طاعتهم لرسول الله، وهو نبي مرسل، طاعة مبصرة... كانوا إذا أمرهم الرسول ﷺ بأمر وبدا لهم أن هذا الأمر مخالف لما علمهم هو سألوا وتبينوا، كما جاء في الحديث الصحيح: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1] وسكت النبي ﷺ فإذا بهم يقولون: يا رسول الله ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ فبيَّن لهم أن نصرته في هذه الحالة هي حجزه عن الظلم والأخذ على يده. ومثل هذا كثير.

وإنَّ في ذلك لعبرة لأولي الألباب.

---

(١) صحيح البخاري ١١٢/٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

● ونشأ في الأونة الأخيرة انحراف جديد يتصل بهذا الموضوع، وهذا الانحراف هو ما نجده لدى بعض العاملين في الدعوة إلى الله، ممَّن أقاموا التنظيمات الدعوية، إذ جعلوا من أهم أسسهم التنظيمية طاعة الرؤساء. ولم ينصوا على أنها طاعة مطلقة كما فعل المتصوفة، ولكن الواقع العملي ينبىء عن أنَّ فهم كثير من الأتباع لتلك الطاعة على أنها مطلقة.

وإنَّك لترى الصادق المخلص من هؤلاء الأتباع يتطلب التأويلات ويتكلَّفُ التعليلات لموقفه في الطاعة المنحرفة، يحاول أن يقنع نفسه وأن يدافع عن موقفه أمام الأخرين.

أما من لم يكن كذلك فإنه يعلن أن موقفه هكذا ولو كان غلطاً، ولا يحاول البحث عن مسوغ لتصرفه. على نحو ما قال الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ وإن ترشد غزيه أرشد

إنَّ الطاعة مقيدة بحدود الشرع، فلا طاعة في معصية الله، ومن أطاع في ذلك فهو في نظر الشرع عاصٍ له عقاب شديد وعذاب أليم. وقد نصَّ الإمام النووي رحمه الله على أنَّ الطاعة في المعصية حرام، وذلك في العنوان الذي وضعه لهذا الحديث في صحيح مسلم.

● وإننا لنقرأ في كتاب الله كيف يكون مصير الكافرين يوم القيامة بسبب الطاعة المرذولة الآثمة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨].

إنَّ مصيرهم الخلودُ في جهنم واللعنة والعذاب الشديد، والحسرة البالغة. وماذا تفيد الحسرة في ذاك اليوم العصيب؟

ويحدثنا القرآن أن قوم فرعون عندما أطاعوا ذاك الطاغية انتقم اللهُ



شبكة الألوكة - قسم الكتب

منهم فأغرقهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر، ولعذاب الآخرة أشد قال تعالى:
﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤ ـ ٥٦].

والطاعة برهان على عمق الإيمان، ودليل على صدق الحب، فمن أحبَّ إنساناً أطاعه. أما من زعم أنه محب لخالقه ثم عصاه في حياته وأخلاقه ومعاملاته فإنه كاذب في ذاك الزعم، و لله درُّ الشاعرِ العظيم محمود الوارق الذي يقول:

تعصي الإلـه وأنت تـزعم حبـه هـذا لعمـري في القيـاس بـديع
لـو كـان حبـك صـادقـاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مـطيع[1]

والطاعة تكون مقربة من الله عندما يفعلها المرء برضىً تام، وراحة نفسية كاملة، وعندئذٍ سيشعر بلذة وسعادة عندما يقوم بهذه الطاعة، لأنها ترضي خالقه ومحبوبه..

إنه عندما يفعل ذلك يرضي ربه، ويحسن إلى نفسه، ولا يشعر بتعب ولا مشقة، مهما كان أداء الطاعة مجهداً.

أما الذي يتضجر من الطاعة ويتأفف من قيامه بها فإن طاعته ناقصة، وإن هو قام بالعمل المطلوب منه، ولتوضيح هذه الفكرة وتقريبها نضرب المثال الآتي:

هل يستوي من تأمره بأمرٍ فيقوم به مسروراً مستبشراً يردد كلمات الرضى والقبول والود والاحترام، وآخر تأمره بأمرٍ فيقوم به عابساً متضجراً يضرب الأرض برجله، ويغلق الباب إن واجهه بعنف، ويتأفف ويتسخط، ويمن عليك بِتلك الطاعة؟ هل يستويان؟ لا و الله لا يستويان.

---

(١) أقوال مأثورة ص ٢١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أما الأول فقد خفَّف تصرفه مئونة العمل على نفسه، وأدخل عليه السرور فلهج لسانك بشكره وعُمّر قلبك بحبه.

بينما كان وقع العمل على الآخر شديداً ثقيلاً، وأدخل عليك الاستياء، وقد يحملك على توبيخه وكرهه ويضيق صدرك منه.

● ومن تمام الطاعة المسارعة لتنفيذ الأمر المطلوب والكف عن الشيء المحظور. فهناك فرق كبير بين من يؤمر بأمر فيسارع إلى تنفيذه وبين من لا يطيع الأمر إلا إذ تكرر الطلب ووجه إليه التهديد بالعقوبة.

ولقد كان الصحابة من المسارعين إلى الطاعة ممتثلين قول الله تبارك وتعالى ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ولما نزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

قال الصحابة: انتهينا يا رب. كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه[1] وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٣٥١ وانظره في «تفسير ابن كثير» ٢/٩٢.

(٢) مسند أحمد ١/٥٣ وأبو داود ٣/رقم ٣٦٧٠ وصحيح الترمذي للألباني ٣ رقم ٢٤٤٢ والنسائي ٨/٢٨٦ - ٢٨٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

● وهناك فكرة مغلوطة وهي: أنَّ عصيان أمر من له حق الطاعة دليلٌ على قوة الشخصية، وهذا غير صحيح.. ومن المؤسف أن تشيع هذه المقولة الباطلة في العصر الحاضر في أوساط عدد من النساء، فترى الواحدة منهن تعصي كل أمر يوجه إليها من الزوج قبل أن تفكر فيه وتنظر. تريد بذلك إثبات قوة شخصيتها.

ويورث هذا السلوك شقاء وتعاسة للزوجين في حياتهما الزوجية، وإفساداً للأولاد وتعقيداً لنفسياتهم، وغضباً من الله على الزوجة يوقعها في عذاب الله يوم اليامة.

● إنَّ الطاعة في حدود الشرع عزٌّ لمن يقوم بها، لأنه لا يطيع من يطيعه لذاته، بل يطيعه امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى، ويطيعه لسمو الأمر الذي يؤمر به أو لخطورته إن كان ينهى عنه.

وإن الهدامين ليزينون للسذج والمغفلين أن في التمرد على الأنظمة والشرائع والأديان ورفضها تحقيقاً للذات، وأن فيه تطلعاً إلى التجديد والابداع. وهذه مخادعة وتوريط للوقوع في مشكلات لا نهاية لها.. إن النظام والأمن والاستقرار والسعادة لا يمكن أن يتحقق شيء من ذلك إلا بأن يطيع الناس الأنظمة والشرائع. فالدعوة إلى التمرد والعصيان دعوة إلى الفوضى والاضطراب ونشر الذعر.

إن طاعة أولي الأمر من الحكام الملتزمين بالإسلام وكلِّ من له ولاية والعلماء العاملين مقيدة في أن تكون في حدود الشرع.. وهي دليل على حسن القصد، والرغبة الصادقة في الحياة السعيدة، وفي طلب رضوان الله، وهي تنبىء عن طيب قلب صاحبها.

كم يكون أسى الأب كبيراً عندما يرى ولده شاباً قوياً، يعصي كل أمر يصدره إليه، وكم يكون أسى الزوج مؤلماً عندما يواجه بالعصيان من قبل زوجته، مع أنه يضحي من أجل الأسرة براحته وماله.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن ذاك الأسى المؤلم ينعكس على حياة الأسرة نكداً وشقاءً. وإنه ليهدم الأسرة المسلمة هدماً، هذه الأسرة التي ما زالت هدفاً تصوب السهام نحوه.

وللأم دور كبير في تعليم الأولاد على الطاعة، عندما تكون قدوة لهم في الانقياد لأمر الله عز وجل وطاعة زوجها في حدود الشرع.

إنَّ نمو فكرة الطاعة عند الأولاد وقبولها لديهم، يسهل عليها وعلى زوجها تنشئتهم التنشئة الفاضلة، ويسهل على الدعاة والمربين أيضاً أن يوجهوهم إلى طاعة الله، والتزام أمره، وإعدادهم ليكونوا الأمل المنقذ للأمة.

من الأمور المؤسفة انتكاس الأمور في بعض أوساط الناس، إذ نرى أن الرجال يطيعون نساءهم في أمور لا ترضي الله، من قبول الاختلاط المستهتر، والسرف والعبث، وما إلى ذلك.

* * *

ويحسن أن نورد بعض الأحاديث الدالة على الطاعة:

١ ــ فمن ذلك ما رواه ابن حبان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«آمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث:

آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وتطيعوا لمن ولاه الله عليكم أمركم.

وأنهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[1].

٢ ــ وعن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال:

---

(١) موارد الظمآن رقم ١٥٤٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك»[1].

والحديث في الصحيحين بنسق أتم:

٣ ــ فقد روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال:

بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم[2].

٤ ــ وعن أبي ذر أنه قال:

جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]

حتى نعست فقال:

«يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» ثم قال: «يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة؟»

قلت: إلى السعة والدعة، أكون حمامة من حمام مكة.

قال: «فكيف تصنع إذا أخرجت من مكة؟»

قلت: إلى السعة والدعة أرض الشام الأرض المقدسة.

قال: «فكيفَ تصنع إذا أخرجت منها؟»

قلت: والذي بعثك بالحق آخذ سيفي فأضعه على عاتقي.

---

(١) موارد الظمآن برقم ١٥٤٥.

(٢) صحيح البخاري (الفتح ١٣) برقم ٧١٩٩ و ٧٢٠٠) وصحيح مسلم ٣ رقم ١٧٠٩ واللفظ له وانظر الترغيب والترهيب ٣/٩٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال النبي ﷺ: «أو خير من ذلك؟ تسمع وتطيع لعبد حبشي مجدع»[1].

٥ ـ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[2].

وذكر البخاريُّ ومسلمٌ وبقية الجماعة إلا ابن ماجه[3] أنَّ هذا الحديث: «إنما الطاعة بالمعروف لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» سببُ نزول الآية الكريمة وهي قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] فيحسن بنا أن ننظر في هذه الآية.

وقد أجاد من ربط هذه الآية بالتي قبلها من المفسرين كالزمخشري وغيره وهي قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] فقال الزمخشري:

[لما أَمَر الولاةَ بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها وأن يحكموا بالعدل أَمَر الناسَ بأن يُطيعوهم ويَنْزلوا على قضاياهم. والمراد بأولي الأمر منكم أمراء الحق؛ لأن أمراء الجور اللهُ ورسوله بريئان منهم، فلا يُعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء

---

(١) موارد الظمآن برقم ١٥٤٧

(٢) صحيح البخاري (الفتح ١٣ برقم ٧١٤٤) وصحيح مسلم ٣ برقم ١٨٣٩.

(٣) كما ذكر ابن كثير في التفسير ١/٥١٨ وكما يدل عزوي السابق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق، والأمر بهما، والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. . . . . وكيف تلزم طاعة أمراء الجور. . . وأمراء الجور لا يؤدون أمانة، ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة؟ إنّما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم اللصوص المتغلبة][1].

وقد أخرج مسلم [٣ برقم ١٨٤٤] عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال:

دخلتُ المسجدَ فإذا عبدُ الله بن عمرو بن العاص جالسٌ في ظلِّ الكعبة، والناسُ مجتمعون عليه، فأتيتُهم، فجلستُ إليه، فقال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يُصلح خِباءَهُ، ومنا من ينتضل[2]، ومنا من هو في جَشَرِهِ[3]، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعةً[4]. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلّا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويُنذرَهم شرَّ ما يعلمه لهم. وإنَّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها[5]، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضاً،[6] وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه. هذه. فمن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النار، ويُدْخَلَ الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يُحِبُّ أن يؤتى إليه. ومن بايع إماماً

---

(١) الكشاف ١/٤٠٥.

(٢) يقال: انتضلوا وتناضلوا إذا تراموا بالسهام.

(٣) في جشره: أي مع دوابه، وأصل الجشر الدواب ترعى في مكان ولا ترجع إلى البيوت مساء، بل تبيت حيث ترعى.

(٤) بنصب الصلاة على الإغراء أي أدركوا الصلاة. وجامعة بالنصب على الحال.

(٥) أي جعل سلامتها واستقامتها واجتماع كلمتها في أولها.

(٦) أي يصيّر بعضها بعضاً رقيقاً، أي خفيفاً لعظم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رقيقاً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأعطاه صفقة يده وثمره قلبه[1]، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخرُ ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

فدنوت منه فقلت له: أَنْشُدُك الله، آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعتْهُ أذناي ووعاه قلبي. فقلت له: هذا ابن عمك معاويةُ يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتلَ أنفسا و الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعة. ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله[2].

● إنَّ الآية التي نزلت بسبب القصة التي عرضها الحديث تتضمن **الأمر** بطاعة الله وتتمثل هذه الطاعة باتباع كتابه الكريم، **والأمر** بطاعة الرسول وتتمثل هذه الطاعة بالأخذ بسنته المطهرة بعد موته، وأما في حياته فتتمثل بسؤاله والعمل بما يقول.

والأمر بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمراء فيما يأمرون به مما يدخل في طاعة الله، ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأمر سبحانه عند التنازع بالرجوع إلى حكم الله ورسوله فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وجعل ذلك الرد علامة من علامات الإيمان با لله واليوم الآخر فقال سبحانه ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ وهذا الرد متحتم على المتنازعين وهو شأن من يؤمن با لله واليوم الآخر.

ونعود إلى الحديث لنرى ما يمكن أن يستنبط منه من الفوائد:

---

(١) أي معاهدته له والتزام طاعته. والمراد بثمره قلبه صدق نيته في البيعة.

(٢) وانظره في طبعة استامبول ١٨/٦.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

١ ــ التفت ابن القيم إلى معنى رائع ينبغي أن يذكر به أعوان الطواغيت والظلمة. قال رحمه الله:

[فإذا كان هذا حكم من عذَّب نفسه طاعة لولي الأمر فكيف مَنْ عذب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعة لولي الأمر؟][1].

أقول: ما أعظم عذاب هؤلاء الأعوانِ أعوانِ الطواغيتِ، الذين يتولون تعذيب الأبرياء من المؤمنين الصالحين، من غير ذنب اجترموه، إلّا أن يقولوا ربنا الله.

وقال يعرّض بالعصاة الذين يطيعون أمراء الجور رغبة في المنفعة ورهبة من سطوتهم وببعض الدجالين من المتصوفة: [..فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لما خرجوا منها مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول، فكيف بمن حمله على ما لا يجوز من الطاعة الرغبةُ والرهبة الدنيوية؟

وإذا كان هؤلاء لو دخلوها لما خرجوا منها مع كونهم قصدوا طاعة الأمير، وظنوا أنَّ ذلك طاعة لله ورسوله، فكيف بمن دخلها من هؤلاء الملبسين إخوان الشياطين، وأوهموا الجهال أن ذلك ميراث من إبراهيم الخليل، وأن النار قد تصير عليهم برداً وسلاماً كما صارت على إبراهيم؟

وخيار هؤلاء ملبوس عليه يظن أنه دخلها بحال رحماني، وإنما دخلها شيطاني].

٢ ــ الحديث دل على أنَّ الغضب قد يغطى على ذوي العقول عقولهم، ويبعدهم في تصرفهم عن الحق، كما حصل للصحابي الأمير عندما غضب من جنده فأمرهم بما أمرهم به.

وفي هذه الحالة فلا يُنَفَّذُ من أوامر الأمير الغاضب إلا ما لا يخالف الشرع، وهذا ما فعله الصحابة، أمرهم بجمع الحطب، فجمعوا، وأمرهم

---

(١) زاد المعاد طبعة الأرناؤوط ٣/٣٦٩.

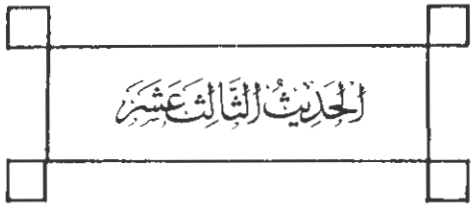
www.alukah.net
شبكة الألوكة

بإيقاد النار، فأوقدوا ولكنهم لم يستجيبوا له عندما أمرهم بدخول النار وحرق أنفسهم.

٣ ـ ودل الحديث على أن الأمر المطلق لا يعم الأحوال كلها، لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب وحتى في حال الأمر بمعصية، فبيَّن لهم الرسول ﷺ أن الأمر بالطاعة مقصورٌ على ما كان منه في غير معصية.

٤ ـ وأخيراً فإن الأمر بالطاعة لا تقتضي أن يتنازل المرء عن شخصيته، ولا أن يلغي فكره، ويعطل عقله ومناقشته للأمور. فهؤلاء الصحابة لم يحملهم الأمر بالطاعة على شيء من ذلك.. بل فكروا وقالوا: إننا لم نتبع هذا النبي ﷺ إلا لننجو من النار فكيف نلقي بأنفسنا فيها؟.

شبكة الألوكة - قسم الكتب



عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه، فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإنَّ لصاحب الحق مقالاً» ثم قال: «أعطوه سنّاً مثل سنِّه». قالوا: يا رسول الله. لا نجد إلا أمثل من سنّه. قال:

«أعطوه فإنَّ خيركم أحسنكم قضاءً».

● ورواه البخاري في **كتاب الوكالة**: في باب الوكالة في قضاء الديون ٤٨٣/٤ وفي باب وكالةُ الشاهد والغائب جائزة ٤٨٢/٤، وفي **كتاب الاستقراض**: في باب استقراض الإبل ٥٦/٥، وفي باب هل يُعطى أكبر من سنّه ٥٨/٥، وفي باب حسن القضاء ٥٨/٥، وفي باب لصاحب الحق مقال ويذكر عن النبي ﷺ: «ليُّ الواجدِ يُحلّ عقوبته وعرضه» قال سفيان: عرضُه يقول مطلتني. وعقوبته حبسه ٦٢/٥. وفي **كتاب الهبة**: في باب الهبة المقبوضة وغير المقبوضة ٢٢٦/٥ وفي باب من أهدي له هدية وعنده جلساؤه فهو أحق ٢٢٧/٥.

● ورواه مسلم في **كتاب المساقاة** في باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه، وخيركم أحسنكم قضاء ٣/برقم ١٦٠١ ط عبد الباقي، و ٥٤/٥ ط استانبول.

● ورواه النسائي في **كتاب البيوع**: في باب استسلاف الحيوان واستقراضه ٢٩١/٧ وفي باب الترغيب في حسن القضاء ٣١٨/٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

● ورواه الترمذي في **كتاب البيوع**: في باب ما جاء في استقراض البعير أو الشيء من الحيوان، وقال: [وفي الباب عن أبي رافع. وحديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، وقد رواه شعبة عن سلمة، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم: لم يروا باستقراض السن بأساً من الإبل وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، وكره بعضهم ذلك] تحفة الأحوذي ٢ / ٢٧٣.

● ورواه ابن ماجه في كتاب الصدقات: في باب حسن القضاء ٢/ برقم ٢٤٢٣.

قال ابن حجر: [هذا الحديث من غرائب الصحيح. قال البزار: لا يروى عن أبي هريرة إلاَّ بهذا الإسناد، ومداره على سلمة بن كُهَيْل] الفتح ٥/٥٨.

روى مثلَ هذه الحادثة على نحو مقارب أبو رافع رضي الله عنه وأخرج حديثه مسلم في صحيحه برقم ١٦٠٠

* * *

ولننظر في حديث أبي هريرة من خلال الروايات المتعددة التي أخرجها البخاري ومسلم وأصحاب السنن، وبذلك تتكامل الصورة.

استقرض رسول الله ﷺ بعيراً في سن معينة، من رجل وقد رجح العلماء أنه أعرابي لرواية أحمد عن عبد الرزاق عن سفيان: جاء أعرابي يتقاضى النبي ﷺ بعيراً. ويكثر الجفاء في الخطاب عند الأعراب. فكان منه ما كان، وأغلظ له في القول، فهمَّ الصحابة رضي الله عنهم بتأديبه ومعاقبته. ولكن الرسول العظيم ﷺ قال: «دعوه. فإنَّ لصاحب الحق مقالاً» ثم قال: «أعطوه سنّاً مثل سنّه».

وفي الروايات الصحيحة الأخرى أنه قال لهم: «اشتروا له بعيراً وأعطوه إياه»[1] فذهبوا ولم يجدوا طلبتهم، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا:

---

(١) فتح الباري ٥ ص ٥٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لم نجد إلا أفضل من سنّه. فقال ﷺ: «اشتروه وأعطوه إياه؛ فإن خيركم أحسنكم قضاءً».

فما كان من الأعرابي إلا أن قال: أوفيتني أوفى الله بك[1] كما جاء في رواية من روايات البخاري للحديث.

في هذا الحديث فوائد عدة، ومواعظ بالغة، ودروس نافعة، وتوجيهات جليلة، نريد أن نقف عند بعضها وقفة متأملة.

١ ـ يصور هذا الحديث حلمه ﷺ، وحسن خلقه، وكريم تواضعه، وعظيم إنصافه.

إنه يعرض لوحة ناطقة بسمو خلقه، تبيّن لنا جانباً من ذاك الخلق العظيم الذي أثنى به الله عز وجل على نبيه، إذ قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ولله درُّ القائل:

أيروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى عليك الواحد الخلاق

ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال الشيخ محمد الخضري: [وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه الصلاة والسلام بنهاية هذه الأوصاف، فما من حليم إلا عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، ونبينا ﷺ لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلّا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً. قالت عائشة رضي الله عنها: ما خُير رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله[2]. ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أحد، وطُلب منه أن يدعو

---

(١) فتح الباري ٤ ص ٤٨٢.
(٢) سبق تخريجه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليهم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(١).

وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزؤوا به، وأخرجوه من دياره، هو وأصحابه، ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركي العرب، حتى تمالأ عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح وقال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(٢).

وعن أنس قال: كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه، ثم قال: يا محمد احمل لي على بعيريَّ هذين من مال الله عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك.

فسكت النبي ﷺ ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده»، ثم قال: «ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي». قال: لا. قال ﷺ: لم؟ قال الأعرابي: لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة. فضحك ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر(٣)](٤).

إنَّ لهذه الأخلاق الكريمة، والمعاملة الحسنة، أثراً كبيراً في استجابة

---

(١) وذلك من حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه الطبراني قال الهيثمي في «المجمع» ٦/١١٧: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا وزميليه ٤/٥٥.

(٣) كذا ذكر الشيخ الخضري رحمه الله في «نور اليقين»، وهناك حديث مقارب عن أنس أخرجه البخاري فتح ٦/٢٥١ ومسلم ٢ برقم ١٠٥٧ وهو مختصر فيه جذب الأعرابي الشديد للنبي ﷺ حتى أثرت حاشية البرد في عنقه ﷺ ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أعطاه، وهناك حديث مقارب لهذا الحديث عن أنس أيضاً أخرجه أحمد ٣/١٥٣ و ٢١٠ و ٢٢٤ وأبو داود بسياق مقارب ٤/برقم ٤٧٧٥ والنسائي أيضاً.

(٤) نور اليقين صفحة ٢٨٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الناس لدعوته ﷺ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن تخلّق الرسول الكريم بهذه الأخلاق جعل المسلمين يلتفون حوله، وينقادون له فقال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثم أمره سبحانه بالاستمرار على هذا النهج من اللين والعفو واللطف في المعاملة فقال: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وما أكثر ما كان يقابل الأغلاط التي تقع من بعض إصحابه ويثور لها من كان معه بالحلم واللين والتعليم، ومن ذلك موقفه من الذي بال بالمسجد[١]، أو الرجل الذي تكلم في الصلاة[٢] ونحو ذلك.

٢ ــ يقص الحديث أن رسول الله ﷺ استدان جَملاً. وأودُّ أن نتوقف قليلاً عن هذا الخبر، لنتذكر أنَّ رسول الله ﷺ كان رئيس دولة، توضع بين يديه الأموال وغنائم الفتوح، ولو أراد أن يكون أغنى إنسان في تلك الدولة لبلغ ذلك وناله ولكنه ﷺ كان يتعفف حتى يضطر إلى الاستدانة.

كان يتعفف ويتزهد، ولا يقبل الصدقة ولا الزكاة، ويقاسي ﷺ هو وأهله من شظف العيش الشيء الكثير، فقد كان ﷺ يربط الحجر على بطنه من الجوع (متفق عليه)[٣] وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير:

والله يا ابن أختي! إن كُنَّا ننظرُ إلى الهلالِ ثم الهلالِ ثم الهلالِ ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبياتِ رسول الله ﷺ نار. قال عروةُ: قلت: يا خالة! فما كان يعيشكم؟ قالت الأسودان: التمر والماء. متفق عليه[٤].

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١/برقم ٢٢٠) وصحيح مسلم ١برقم ٢٨٤.
(٢) صحيح مسلم ١/برقم ٥٣٧ وهو معاوية بن الحكم السُّلمي ومسند أحمد ٥/٤٤٧.
(٣) انظر كتاب الفوائد الموضوعة بتحقيقنا ص ٤٨ وما بعدها والفتح ٤/٢٨٠.
(٤) البخاري (الفتح) ٥/١٩٧ ومسلم ٤/برقم ٢٩٧٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان ﷺ من أجود الناس، كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر كما وصفه بذلك بعض الصحابة: أخرج أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لم يُسألْ شيئاً على الإسلام إلا أعطاه. قال: فأتاه رجلٌ فأمر له بشاءٍ كثير بين جبلين من شاء الصدقة، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاءً ما يخشى الفاقة[1] وكان كثير الأضياف، وكان يتفقد أهل الصفة من حوله ويرعاهم، وكان له زوجات وأولاد... إنّ هذا كله يتطلب النفقة.. فكان ذلك كله سبباً لأن يستدين في بعض الأحيان.

والحديث دليل على أنَّ الاقتراض في البر والطاعة والأمور المباحة لا يعاب.

٣ ـ وجاء الرجل ـ الذي ذكرت بعض الروايات أنه كان من الأعراب ـ جاء يتقاضاه وكانت منه زلة عظيمة عندما لم يتصف بالأدب الذي ينبغي أن يلتزم به من يخاطب الرسول، وسببُ هذه الزلة! الجفاءُ الذي يكون من الأعراب، لقوله ﷺ: «من بدا جفا»[2]، وإلا فإن الرجل طيب، وقد دعا للرسول ﷺ عندما أعطاه.

إن مخاطبة الرسول لها آداب، ولقد نزل قرآن يعلّم المسلمين كيف يخاطبون النبي ﷺ فلا يجوز للمسلم أن يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، ولا أن يجهر له بالقول كجهر بعض الناس لبعض قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٢ - ٣].

---

(١) البداية والنهاية ٦/٤٢.

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٦١٢٣ و ٦١٢٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات ما يدل على أن بعض الناس تصرفوا تصرفاً غير لائق مع مقام النبي ﷺ فأنزل الله سورة الحجرات، وفيها الكثير من الآداب التي ينبغي على المسلم أن يتحلى بها.

٤ ـ وكما يدل الحديث على حلمه العظيم فإنه يدل على صبره، والصبر والحلم يتلازمان فلقد كان ﷺ يصبر على ما يلقى من الأذى، وعلى ما يلقى من التصرفات الجافية التي كانت تصدر من بعض الناس الذين لم تصقلهم مدرسة النبوة بعد.

وفي أخبار صبره وحلمه ﷺ موعظة مؤثرة وحكمة بالغة يحب أن يعيها الدعاة إلى الله، فكل من دعا إلى الله معرّض إلى أن يلقى شيئاً من الأذى.

روى البخاري ومسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار:

إنّ هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. قال فقلت: يا عدوَّ الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1].

وأما ما لقيه الرسول ﷺ من قومه الكفار فذائع مشهور، وكان يقابل ذلك بالصبر والحلم والعفو ممتثلاً أمر الله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

جاء في أثر أخرجه ابن جرير عن أُميّ أنه ﷺ سأل جبريل عندما نزلت هذه الآية: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: إنَّ اللهَ أمرك أن تعفو عمّن

---

(١) صحيح البخاري (الفتح) ٦/٢٥١ وصحيح مسلم ٢/برقم ١٠٦٢ ومسند أحمد ١/٣٨٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك[1]. وهذا الأثر مرسل. وأمي هو ابن ربيعة المرادي ثقة سمع الشعبي وعطاءً وطاووس.

وأخرج الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال:

لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله ﷺ! أخبرني بفواضل الأعمال.

قال: «ياعقبة صِلْ من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك»[2].

أجل. لقد كان ﷺ يعفو عن المسيء، ويعطي كل سائل، ويعرض عن الجاهلين.

وهذا الحديث الذي ندرسه شاهد على ذلك، إذ عفا الرسول الكريم عن هذا الرجل الذي أغلظ له القول، ومنع الصحابة من أن يمسُّوه بأذى قائلاً: «دعوه فإنَّ لصاحب الحق مقالاً».

ولقد كان في رسول الله ﷺ أسوة للمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فاقتدى كثير من السلف الصالح بالنبي ﷺ في أخلاقه وشمائله، فكانوا يعفون عمّن أساء إليهم، ويعرضون عمن يستفزهم ويغضبهم.

من ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس قال:

قدم عُيينةُ بنُ حصن، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته، كهولاً كانوا أو شباناً، [والقراء - في المصطلح القديم - هم العلماء، وما أعظم حظَّ الحاكم عندما يكون أصحاب مجلسه العلماء الصالحين]

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٠.

(٢) مسند أحمد ٤/ ١٤٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي. يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل.

فغضب عمر، حتى همَّ أن يوقع به. فقال الحرُّ: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافاً عند كتاب الله عز وجلّ.[1]

وتستحق قصة عمر مع عيينة أن تدرس، وأن تستخلص منها العبر الكثيرة، لا سيما إذا وازنَّا بين ذاك العصر الزاهر المثالي وواقع المسلمين اليوم.

٥ ــ ومن دلالات الحديث ألّا يغضب المرء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويلتمس لتصرف من أغضبه عذراً، وهذا ما فعله الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه، فلم يغضب من إغلاظ الأعرابي القول له، بل قال: «إن لصاحب الحق مقالاً» وأكرمه.

ــ ولقد كانت وصية الرسول المتكررة لمن قال له أوصني: قال: «لا تغضب»[2].

ــ وقال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب»[3].

ــ وقال سلمان لعلي: ما الذي يباعدني من غضب الله عز وجل؟

---

(١) صحيح البخاري (الفتح) ٨/٣٠٤.
(٢) صحيح البخاري ٨/٢٤.
(٣) صحيح البخاري ٨/٢٤ وصحيح مسلم ٨/٣٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ قال ألاّ تغضب[1].

ـ وقال بعض السلف: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب.[1]

والحلم يكون خلقاً ممدوحاً عندما يكون المرء قادراً على إيقاع الضر على من أغضبه، وقد قيل: أحلم الناس من عفا إذا قدر.[2] أما العاجز فإنه إذا حلم فذلك لأنه ليس له سبيل إلاّ الحلم، فما يكون في هذه الحالة محل ثناء. ومهما يكن من أمر فإن الحلم ممدوح في كل حال، وهو يكسر حدَّة الغضب، ويخفّفُ من وطأة الانفعال، ويُبقي المرء قادراً على أن يفكر التفكير السديد السليم، فكثيراً ما يغلق الغضبُ طرق التفكر والتبصر على الإنسان، فيتصرف تصرفات معينة استجابة لردود الأفعال، وقد يكون في تصرفاته ظلم لنفسه أو للآخرين، وقد يكون فيها الهلاك المحقق، ويندم ولات ساعة مندم.

كان لقمان الحكيم يقول: (ثلاثة لا يعرفون إلاّ في ثلاثة مواطن: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، وأخوك عند حاجتك إليه)[3].

إنَّ حديث أبي هريرة وأمثاله من الأحاديث لتدعونا إلى أن نتخلق بالحلم والعفو عن المسيئين. إنَّ المرء قد تزلُّ قدمُه فيخطىء، فلنلتمس له العذر، وليحكمنا الحلم، ولنفسر هذه الزلة تفسيراً يخفف من وقعها على أنفسنا.

إن المخطئين معنا نوعان:

- نوع طيب زلت قدمه، ولا يريد الاساءة إلينا.
- ونوع خسيس لئيم، يبغي إيذاءنا.

والحلم مع النوعين مطلوب، وهو فضيلة وخلق كريم، وليكن سبيلنا هو

---

(١) أقوال مأثورة ص ١٥٠.
(٢) أقوال مأثورة ص ١٣٣.
(٣) أقوال مأثورة ص ١٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأدب القرآني الذي تعبّر عنه هذه الآيات: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

إن في ذلك تأديباً للمخطئين، وإبقاءً على صداقة كثير من الطيبين الذين قد يخطئون.

أما إن كان هذا المخطىء لئيماً خسيساً فمن الخير للإنسان أن يترفع عن مجاراته:

يقول أبو تمام:

إذا جاريت في خلق دنيئاً ... فأنت ومن تجاريه سواءُ
رأيت الحر يجتنب المخازي ... ويحميه عن الغدر الوفاء[1]

وقال سالم بن وابصة:

إذا شئت أن تُدعى كريماً مكرماً ... أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حرا
إذا ما بدت من صاحب لك زلة ... فكن أنت مرتاداً لزلته عُذْراً[2]

وقال المؤمل بن أميل المحاربي:

وكم من لئيم ودَّ أني شتمته ... وان كان شتمي فيه صاب وعلقمُ
وللكفُّ عن شتم اللئيم تكرماً ... أضر له من شتمه حين يشتم[3]

٦ ــ وهناك درس يستفاد من قوله ﷺ: «فإنَّ لصاحب الحق مقالاً».

صاحب الحق حجته حاضرة، وصوته عال، بينما الذي ليس معه الحق تراه ضعيف الحجة، خفيض الصوت.

---

(١) أقوال مأثورة ص ١١.
(٢) أقوال مأثورة ص ١٤.
(٣) أقوال مأثورة ص ١٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ في هذا لحضّاً للناس على أداء الحق لصاحبه، وبذلك يسلمون وتستقيم أمورهم.

وإنني لأذكر إخواني بأهمية أداء الواجبات التي عليهم.. إن على الموظف أن يقوم بواجبه ولا يقصر في أدائه على الوجه الأفضل.. إنه عندئذٍ لا يدع مقالاً لرئيسه والمسؤول عنه.. وإن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه.

أما الذين يتقاعسون في القيام بواجباتهم، ويقصرون في أدائها، أو يسيئون عندما يقومون بها، فهؤلاء هم الذين يتيحون لرؤسائهم أن يوبخوهم ويعاقبوهم، وقد يكون هذا سبباً لأن يتجاوز هؤلاء الرؤساء الحدود المقبولة في القول والتصرف.. والملوم حقاً من كان السبب.

وفي هذا القول الكريم «إنَّ لصاحب الحق مقالاً» توجيه سامٍ للمسلمين، واستفادة من الحادثة التي جرت أمام الصحابة. وإن المرء عندما يقول الكلمة المناسبة في الوقت المناسب، يكون تأثير قوله قوياً عميقاً. إن من حسن تربيته ﷺ وكريم تعليمه للمسلمين أنه عندما جاءه الدائن يتقاضاه بغلظة وجفاء التمس له العذر، وكفّ أصحابه عنه، وهو رسول الله ﷺ وخير الخلق أجمعين وأكرمهم على الله.

إنّ في هذه التربية العملية للمسلمين توجيهاً لاحتمال من يغلظ في القول إذا كان له شبهة حق.

إنّ علينا أن نعذر صاحب الحق إذا تكلم، وإن علينا أداء ما علينا حتى لا نتيح لصاحب الحق أن يتكلم.

والشرع المطهر في الوقت نفسه طلب من صاحب الحق أن يتقاضى حقه بلطف وإحسان، وطالبه بالسماحة.

روى البخاري عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى وإذا اقتضى»[1] والسماحة تعني الرفق والسهولة في البيع والشراء والاقتضاء.

السماحة في البيع أن يرجح المكيال والميزان، وألا يطلب في المبيع سعراً غالياً، وألا يحتكر ما الناس بحاجة إليه، وأن يقنع في الربح، وأن يقيل النادم إذا رجع عليه بعد أن يتم العقد، وألا يحلف لا صادقاً ولا كاذباً.

والسماحة في الشراء إلّا يتشدد في المساومة، وألا يجادل كثيراً، وألا يبخس البائع وبضاعته حقهما، وألّا يُحلّف البائع، وألا يقول غير الحق.

والسماحة في الاقتضاء أن يُنظر المدين إلى ميسرة إذا كان معسراً، والأحسن من الإنظار أن يضع عنه الدين ويسامحه فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«كان رجلٌ يداين الناس، وكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعلّ الله أن يتجاوز عنا. فلقي الله، فتجاوز عنه»[2] متفق عليه.
وروى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم.

«أتى اللهُ تعالى بعبدٍ من عباده آتاه مالاً

فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢] قال: يا رب آتيتني مالك، فكنتُ أبايع الناس، وكان من خلقي

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٤/٣٠٦ رقم ٢٠٧٦).
(٢) صحيح البخاري (الفتح ٤ رقم ٢٠٧٨) وصحيح مسلم ٣ برقم ١٥٦٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجواز، فكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر.

فقال الله تعالى: «أنا أحق بذا منك. تجاوزوا عن عبدي»[1].

فقال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: هكذا سمعناه من في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا بالنسبة للدائن.

وأما المدين فعليه أن يسدد ما عليه في الوقت المحدّد إلا أن يكون معسراً، أو أن يستأذن صاحب الحق. فقد قال صلى الله عليه وسلم:

«مطل الغني ظلم» متفق عليه[2].

وأخرج أحمد أبو داوود والنسائي من حديث عمرو بن الشريد بن أوس الثقفي عن أبيه عن النبي ﷺ قال:

«ليُّ الواجد يُحِلُّ عقوبته وعرضه» قال ابن حجر: واسناده حسن[3] وإني أعرف ناساً أغنياء يعذبون أصحاب الحقوق، فلا يؤدون ما عليهم، ولا يدفعون للدائنين ما في ذمتهم، لا سيما إن كان الدائنون ضعفاء.

إن هؤلاء الأغنياء ظالمون كما يصرح الحديث بذلك «مطل الغني ظلم» والظلم ممقوت، وصاحبه مذموم، ويعرضه هذا إلى أن يشنع عليه، وقد ينال عقوبة السجن إن رفع الأمر إلى القضاء العادل.

وإن استطاع المدين أن يقابل هذا الاحسان من الدائن بالاحسان فليفعل، فالله سبحانه يقول ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وإن لم يستطع مكافأته فليشكره وليثن عليه.

---

(١) صحيح مسلم ٣ رقم ١٥٦٠.
(٢) صحيح البخاري ٣/٨٣ وصحيح مسلم ٥/٣٤ والنسائي ٧/٢٧٩.
(٣) فتح الباري ٥/٦٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولنعد إلى حديث أبي هريرة:

إن الحديث صورة حية لحب الصحابة لرسول الله ﷺ واستعدادِهم لدفع الأذى عنه وتأديب الذين لا يوقرونه.

فلما أغلظ ذاك الرجلُ القول لرسول الله ﷺ وهمَّ أصحاب النبي به قال ﷺ: «دعوه» ثم علل موقفه المستغرب حقاً، وأكرمه.

٧ ــ والحديث يشير إلى الخيرية التي يظنها كثيرٌ من السذّج محصورة في الصلاة والصيام وما إلى ذلك من التسبيح والتهليل.. إنَّ ذلك كله شيء مهم وطيب ومطلوب، والصلاة والصيام المفروضان ركنان من أركان الإسلام، لكن الخيرية ليست محصورة فيهما. إن سيدنا رسول الله ﷺ يقول: «أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاءً».

أما الدجالون الذين يتظاهرون بمظاهر الصلاح فيطيلون لحاهم ويتشدقون بالكلام المعسول، وإذا عاملت أحدهم بالدرهم والدينار وجدته لصاً غاشاً كاذباً، فإنهم أبعد ما يكونون عن الخيرية.

وقد دعا رسول الله ﷺ ذلك الذي يأتي بصلاة وصيام وهو سيء المعاملة دعاه مفلساً في الحديث الجميل الرائع.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس»؟ ثم بيَّن لهم أن المفلس هو من يأتي من أمته يوم القيامة بصلاة وزكاة وصوم ولكنه يكون سيء السلوك أكل مال الناس، وشتم بعضهم، وسفك دم بعضهم، وضرب بعضهم، فيأخذ خصماؤه من حسناته ما يأخذون، حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار[1].

وقد أطلت النظر في أحاديث النبي ﷺ التي تقرر الخيرية فوجدت جلها يربط هذه الخيرية بمعاملة الناس ضمن حدود الشرع المطهر:

---

(١) صحيح مسلم ١٨/٨ والترمذي ٢٩١/٣.

وإليكم بعض هذه الأحاديث:

● عن عبد الله بن بسر الأسلمي قال قال صلى الله عليه وسلم:

«خير الناس من طال عمره وحَسُن عمله» رواه الترمذي وهو حديث حسن.

● وعن عبد الله بن عمر قال قال صلى الله عليه وسلم:

«خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران خيرهم لجاره» رواه الترمذي وهو حديث حسن.

● وعن عثمان رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه البخاري.

● وعن عبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أي الإسلام خير؟

قال ﷺ: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» متفق عليه.

● وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». متفق عليه.

● وعن أبي هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم:

«أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

● وعن جابر رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم:

«خير الناس أنفعهم للناس».

● وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك قال: «قل آمنت بـالله ثم استقم» رواه مسلم.

● وسأل أبو ذر رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟

فقال ﷺ: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله» ثم سأله: أي الـرقاب أفضل؟ يعني في العتق. فقال ﷺ: «أنفسهـا عند أهلهـا وأكثرهـا ثمناً» قـال أبو ذر: فإن لم أفعل؟ قـال: تعين صانعـاً أو تصنع لأخرق». قـال أبـو ذر: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمـل؟ قال: «تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك» متفق عليه.

فانظروا رعاكم الله كيف قرر ﷺ الخيرية في هذه الأحاديث وأمثالها وربطها بالسلوك ونفع الناس.

إن خير الناس من حسن عمله ومن كان صادقاً في صداقته محسناً إلى جيرانه، ومن تعلم القرآن وعلمه الناس، ومن كان يطعم الطعام ويفشي السلام ويسلم المسلمون من لسانه ويده وهكذا.

وهذا المعنى تشهد له آيات الكتاب الكريم يقول تعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

ومن الأحاديث التي تربط بين الخيرية والسلوك المستقيم حديث ابن عمر الذي أخرجه مسلم قال رسول الله ﷺ: «إن أبر البر أن يصل الرجل ودّ أبيه»

ومنها حديث إياس بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«ولقد أطاف بآل بيت محمد نساءٌ كثير يشكون أزواجهن. ليس أولئك بخياركم» رواه أبو داود.

وانظر يا أخي إلى أكبر الكبائر، فإنك تجدها مرتبطة بالسلوك والمعاملة.

عن نفيع بن الحارث قال قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثاً.

قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور. ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.[1]

وعن المغيرة بن شعبة قال قال صلى الله عليه وسلم:

«إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، واضاعة المال» متفق عليه[2].

ويستنبط من الحديث فوائد أخرى ذكرها العلماء نذكرها بإيجاز:

- أخذ الجمهور بجواز توكيل الحاضر بالبلد بغير عذر. ومنعه أبو حنيفة إلا بعذر مرض أو سفر أو برضا الخصم. واستثنى ما لك من بينه وبين الخصم عداوة[3].
- ودل الحديث على جواز الوكالة في قضاء الديون، ولا تعد الوكالة مطلاً في قضاء الديون، وليس في إقرارها تأخير للقضاء، بل ربما كان فيها تسريع[2].
- ودل الحديث على جواز المطالبة بالدين إذا حلّ أجله[4].

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٥٠ وصحيح مسلم ١/٦٤ والترمذي ٣/٢٥٥.
(٢) صحيح البخاري ٩/٧٨ وصحيح مسلم ٥/١٣١.
(٣) الفتح ٤/٤٨٣.
(٤) الفتح ٥/٥٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

● ودل الحديث أيضاً على أن من كان عليه دين لا ينبغي له مجافاة صاحب الحق.

● ودل الحديث أيضاً على أن من أساء الأدب على الإمام كان عليه التعزير بما يقتضيه الحال إلا أن يعفو صاحب الحق.

فرسول الله ﷺ عفا عن الرجل ولولا ذلك لقام الصحابة بتعزيره وتأديبه.

● ودل الحديث على جواز استقراض الإبل، ويلتحق بها جميع الحيوانات وهو قول أكثر أهل العلم[1].

ومنع من ذلك الحنفية والثوري، والحديث حجة عليهم ومناقشتهم مبسوطة في الفتح[1] وفي كتب أدلة الأحكام[1].

● ودل الحديث على جواز الوفاء بما هو أفضل من المثل المقترض إذا لم يكن هناك شرط في العقد، فيحرم حينئذٍ اتفاقاً.

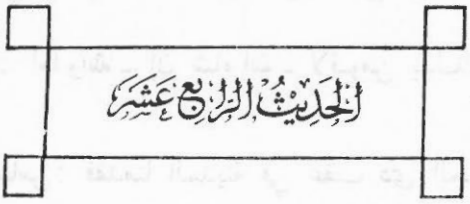
ويرد هذا المعنى الودود في هذه الأيام التي تنزل فيها قيمة العملة، فلو زاد له في الوفاء بأكثر كان داخلاً في حسن القضاء.

إن الذي أسعفك وقضى حاجتك وساعدك في وقت ضيقك جدير بالإكرام وألا تكون مساعدته إياك مؤذية له.

---

(١) فتح الباري ٥/٥٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة



عن ابن عباس قال: كنت أقرىء رجالاً من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى، وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجّها، إذ رجع إليَّ عبد الرحمن فقال:

لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال:

ـ يا أمير المؤمنين! هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعتُ فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة، فتمت.

فغضب عمر ثم قال:

ـ إني ـ إن شاء الله ـ لقائم العشيَّة في الناس، فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم.

ـ قال عبد الرحمن فقلت: يا أمير المؤمنين! لا تفعل؛ فإن الموسم يجمع رَعَاعَ الناس وغوغاءهم[1]، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة، يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة،

---

(١) الرعاع: الجهلة الرذلاء. والغوغاء: أصله صغار الجراد ويطلق على السفلة المسرعين إلى الشر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها.

فقال عمر: أما والله ـ إن شاء الله ـ لأقومنَّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.

قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجلت الرواح حين زاغت الشمس. . . . فلم أنشب أن خرج عمر ابن الخطاب. . . فجلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

أما بعد، فإني قائل لكم مقالة قد قُدِّرَ لي أن أقولها، لا أدري لعلّها بين يَدَيْ أجلي، فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعقلها فلا أُحِلُّ لأحد أن يكذب عليّ.

إنّ الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسولُ الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصِن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف.

ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم [أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم].

ألا ثم إن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أُطريَ عيسى بن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله».

ثم إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترنَّ امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت. ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرّها، وليس فيكم من تقطع الأعناق

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إليه[1] مثل أبي بكر. مَنْ بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو والذي بايعه تغرة أن يقتلا.][2] [انظر صحيح البخاري (الفتح) ١٢/١٤٤].

ثم ذكر عمر رضي الله عنه بيعة أبي بكر.

في هذا الحديث الطويل الجميل فوائد ودروس مهمة:

● في هذا الحديث صورة حية للواقع الجديد الذي انتقلت إليه أمة الإسلام، التي أضحت أمة العلم بعد أن أكرمها الله بالإسلام.

لقد انصرفوا إلى العلم شباباً وشيباً، يعلم الكبير والصغير، ولا يأنف الرجل العظيم الكبير من أن يتعلم ممن هو أصغر منه سناً، ولا يجد في ذلك غضاضة، ويشغلون أنفسهم بالعلم في السفر والإقامة.

فهذا عبد الله بن عباس راوي الحديث، وقد كان من صغار الصحابة، يقول: (كنت أقرىء رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف).

ابن عباس فتى ذكي ألمعي، دعا له رسول الله ﷺ أن يفقهه في الدين، وقد استجيبت هذه الدعوة، فكان رضي الله عنه حَبْر الأمة، ومن أعظم علمائها..

كان مجداً في طلب العلم، وكتابة الحديث، ومذاكرة العلماء من الصحابة، وكان معرضاً عما ينصرف إليه الشباب أمثاله من ابتغاء المتعة والراحة. وما زال كذلك حتى آخر حياته رضي الله عنه، وقد جمع إلى حرصه على طلب العلم الجهاد في سبيل الله.

نقل ابن حجر في «الإصابة» عن الدارمي في مسنده أنَّ ابن عباس

---

(١) جاء في «فتح الباري» ١٢/١٥٠: [وعبر بقوله (تقطع الأعناق إليه) لكون الناظر إلى السابق تمتد عنقه لينظر، فإذا لم يحصل مقصوده من سبق من يريد سبقه قيل: انقطعت عنقه. أو لأن المتسابقين تمتد إلى رؤيتهما الأعناق حتى يغيب السابق عن النظر، فعبر بامتناع نظره بقطع عنقه.... ووقع في رواية أبي معشر المذكورة: ومن أين لنا مثل أبي بكر تمد أعناقنا إليه].

(٢) أي حذراً من القتل.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير. قال: واعجبا لك!! أترى الناس يفتقرون إليك. فترك ذلك وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، يسفي الريحُ عليَّ من التراب، فيخرج فيَراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك. فأقول: لا.. أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني. وقد اجتمع الناس حولي يسألوني. فقال: هذا الفتى كان أعقل مني![1].

وكان عمر يستشير ابن عباس ويقول: غواص[2].

وكان يقرىء عبد الرحمن بن عوف وهو جليس عمر أمير المؤمنين ومستشاره وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين ترك عمر أمر اختيار الخليفة إليهم بعد وفاته.

وفي ذلك ما فيه من بيان لمكانة ابن عباس وفضله.. إن العلم يرفع من مكانة الفتى ليكون مدرساً للكبار من الكرام. وإنّ الإنسان مهما علت منزلته فإنه لا يستغني عن طلب العلم، ولا ينبغي له أن يتكبر.

وقد قرأنا في أخبار بعض العلماء أنه كان يشتغل في مسألة من مسائل العلم وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، ولما طلب منه أن يدع هذا لما هو فيه اشفاقاً عليه، قال: لأن ألقى الله عالماً بهذه المسألة خير من أن ألقاه جاهلاً بها.. ثم لفظ أنفاسه بعد قليل.

فقد روى الصفدي في كتابه «الوافي بالوفيات» في ترجمة إبي الريحان البيروني قال: [عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الوَلوالجي قال: دخلتُ على أبي الريحان، وهو يجود بنفسه وقد حشرج نَفَسُه، وضاق

---

(١) سنن الدارمي ١/١٤١ ـ ١٤٢ وانظرالاصابة ٢/٣٢٣ وانظر المطالب العالية بزوائد الثمانية ٤/١١٤ فقد نقله عن أحمد بن منيع ومسدد.

(٢) الخلاصة ١٧٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صدره. فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوماً في حساب الجدَّات الفاسدة؟

فقلت له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة؟

قال: يا هذا أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة: ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها؟

فأعدت ذلك عليه وحفظ، وعلمني ما وعد.

وخرجت من عنده، وأنا في الطريق فسمعت الصراخ عليه [1].

وحديث ابن عباس يقرر أنه كان قد جاء إلى منزل عبد الرحمن بن عوف في منى فلم يجده، فجلس ينتظره، ويبدو أنّ غرضه قد دل عليه قوله: (كنت أقرىء رجالاً من المهاجرين).

والمنازل في منى مؤقتة، والقوم كلهم على سفر.. إذن فما ينبغي أن يشغل طالب العلم سفر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ألا فليحرص طالب العلم على الجد في التحصيل ليقطف ثمرة جهده عزاً في الدنيا وثواباً عظيماً عند الله إن أخلص النية له سبحانه.

في الحديث كما ذكرنا صورة للمجتمع المثالي في عصر الصحابة:

فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجلسه في منى في آخر حجة حجها، يأتيه رجل فيقول له: إن فلاناً يقول: لو مات عُمر لبايعت فلاناً وحملت الناس على أن يبايعوه بعدي، كما كان الأمر يوم بيعة أبي بكر التي كانت فلتة فتمت. فغضب عمر من كلام هذا القائل، ولكنه لم يُلحق به أذىً ولم يعتقله، ولكنه فكر قليلاً ثم قال لعبد الرحمن بن عوف، وكأنه يستشيره: إني إن شاء الله لقائم العشيةَ في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم.

---

(١) الوافي بالوفيات ٨/١٣٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لم يكن هذا الرجل القائل تلك المقولة ليقدم على هذا التصرف لو لم يكن واثقاً من أنه لن يلحقه مكروه من السلطان. والكلام الذي قاله ليس شيئاً هيناً، إذ أن هذا القول يسوء الخليفة من عدة وجوه:

● أنه يريد أن يغصب الناس أمرهم ولا يتركهم يمارسون حقهم في اختيار الخليفة عن طريق الشورى.

● وأنه يُعرِّض بصنيع عمر رضي الله عنه يوم بيعة أبي بكر رضي الله عنه، إذ أن عمر هو الذي بايع أبا بكر ثم تتابع الناس يبايعون، وسماها فلتة، فكأنه يقول للخليفة: إنني سأفعل عندما تموتُ مثلَ فعلك يوم بيعة أبي بكر، ولئن كانت تلك فلتةً لقد تمت، ولا مانع من أن تتكرر.

● والأمر الثالث الذي ساء الخليفة كما يسوء كلَّ إنسانٍ يُخاطب بمثل هذا الكلام هو أن يُوَاجَهَ الخليفةُ بتوقع موته.

وكان رد فعل عمر رضي الله عنه على هذا القول الجافي المجانبِ للصواب اعتزامَهُ على أن يُلقي خطاباً يحذر الناسَ ممن يريد اغتصاب أمورهم وحرمانهم من ممارستهم حقهم في الشورى، وكان عازماً على إلقاءِ خطبته هذه في عشية ذلك اليوم، لكن مستشاره الأمين الذي كان يمتاز ببعدِ النظر وبحسن التقدير وهو: عبد الرحمن بن عوف نهى الخليفة عن الإقدام على هذه الخطوة، وبَيَّنَ له أن موسمَ الحج يجمع طبقات متفاوتةً من الناس، ففيهم الجهلة، وفيهم السذج الذين لا يعون معنى الكلام، وفيهم ناسٌ في قلوبهم حقد، وفيهم أفراد منطوون على الشرِّ، فربما سمع واحد من هؤلاء الخطبة فنقلها على غير وجهها، بقصدٍ أو بغير قصد، فيكون من وراء ذلك فتنةٌ كبرى وفسادٌ عريض. واقترح عبد الرحمن على الخليفة أن يتمهل حتى يعود إلى المدينة، وهناك النخبة الكريمة من الصحابة وأهل الفقه والعقلاء، فيقول لهم ما يريدُ أن يقولَ بعد أن تكونَ الفكرةُ قد نضجت في رأسه، وبعد أن يكون قد اختار الوسيلةَ المناسبةَ لابلاغ الناسِ رأيهُ السديد.

وقد قبل عمرُ الأخذَ برأي عبد الرحمن، وقرر إرجاءَ إعلان رأيه حتى يصلَ إلى المدينة. وهذا هو ما رواه البخاري عن ابن عباس إذ قال عبد الرحمن لابن عباس في مِنى:

[لو رأيت رجلاً أتى أميرَ المؤمنين اليومَ فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلانٍ يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً، فو الله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتةً فتمَّت.

فغضب عمر ثم قال: إني شاء الله لقائمٌ العشيةَ في الناس فمحذِّرهم هؤلاءِ الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم.

قال عبد الرحمن فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رَعاعَ الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقومَ فتقولَ مقالةً يُطيِّرها عنك كل مُطيِّر، وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تَقْدُمَ المدينة فإنها دار الهجرة والسنّة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلتَ متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها.

فقال عمر: أما و الله ـ إن شاء الله ـ لأقومنَّ بذلك أول مقامٍ أقومُهُ بالمدينة].

وفي هذا تقرير لقاعدة عظيمة وهي أن إمكانات الناس ومواهبهم وطبائعهم متفاوتة، فما ينبغي أن يُخاطب الناس جميعاً بأسلوب واحد، وأنَّ الكلام السديد إن قيلَ في الوسط المناسب كان نافعاً، وإن قيل في غير ذلك ربما جرَّ شيئاً من الضرر، فلينتبه لذلك أهل العلم والتوجيه.

ونعود إلى رواية البخاري للحديث، [قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجّلت الرواحَ حين زاغت الشمس.... فلم أَنْشَبْ أن خرج عمر بن الخطاب..... فجلس عمر على المنبر فلما سكت المؤذنون قام:

فأثنى على الله بما هو أهلُه ثم قال:

أما بعد فإني قائلٌ لكم مقالةً قد قدِّر لي أن أقولها، لا أدري لعلَّها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت راحلته، ومن خشي أن لا يعقلها فلا أحلُّ لأحدٍ أن يكذب عليّ.

إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آيةُ الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أُحصِن من الرجال والنساءِ، إذا قامت البيِّنة أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف.

ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم، فإنَّه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم. ـ أو: إنَّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم ـ

ألا ثم إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله».

ثم إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترنَّ امرؤٌ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمَّت. ألا وإنها كانت كذلك، ولكن الله وقى شرَّها، وليس فيكم من تُقطع الأعناق إليه مثلُ أبي بكر، من بايع رجلاً من غير مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرَّة أنْ يقتلا].

ثم ذكر عمرُ بيعةَ أبي بكر رضي الله عنه.

في هذه الخطبة العظيمة دروس عديدة سأذكر أهمّها فيما يأتي.

ولا بد من أن أشير إلى الإسلوب البليغ المبين الذي نواجهه في هذه الخطبة، والبيان الرفيع الذي يُحسُّ به كل من أوتي نصيباً من الذوق السليم.

١ ــ وأول شيء يلفت نظرنا في الخطبة وفي مناسبتها دور المسجد

في حياة أمة الإسلام فقد كان المسجد في حياة المسلمين كل شيء وبقي كذلك إلى عهد قريب.

ففي المسجد تعقد حلقات العلم، حتى غدا عدد من المساجد جامعات عالمية، يفد إليها طلبة العلم من كل فج ومن كل صوب، ومن أهم هذه المساجد: الحرمان الشريفان، وجامع القرويين، والقيروان، والأزهر، ومساجد العراق، والشام، وخراسان.

وفي المسجد تقوم مجالس الذكر والتلاوة والوعظ.

وفي المسجد تقام الحفلات الاجتماعية على اختلاف أنواعها.

وفي المسجد تعقد ندوات الشورى يتدارس فيها المسلمون أمرهم فيما بينهم، ومن على منبره تعلن القرارت الحاسمة.

وهذا ما نجده في هذا الحديث الصحيح، فعندما بلغت تلك المقولة عمر وهي مقولة خطيرة فحواها حرمان المسلمين من إقامة أمورهم على الشورى، عزم عمر على أن يقوم في الناس خطيباً يحذر المسلمين من خطر هذه المقولة لو تحققت.

وهكذا كانت خطب الجمعة مجالاً لبحث الأمور التي تهم المسلمين وفيها كان يعلن الخليفة منهجه وقراراته.

٢ ــ وبدأ عمر رضي الله عنه خطبته بدعوة السامعين إلى أن ينتبهوا ويعوا كلامه ويتدبروه، وذكر أنه قائل مقالة فمن عقلها ووعاها فليحدِّث بها، أما من لم يستوعب تلك المقالة ولم يعقلها فلا يُحل له أن ينقل عنه شيئاً؛ لأنه عندئذٍ سيكون كاذباً، وجدير بكل امرىء يريد أن ينقل كلاماً أن يرعى هذا المعنى، وأن يلتزم به، فإذا سمع كلاماً ولم يستوعبه فلا يجوز له أن ينقل منه شيئاً.

٣ ــ وفي هذه الخطبة العظيمة بيان لمكانة السنة وأنه لا يُستغنى عنها، فالإسلام قائم على ركنين هما الكتاب والسنة، فمن زعم أنه يستغنى بالكتاب عن السنة فقد ضل ضلالاً بعيداً.

٤ ــ وقد عالج عمر في خطبته هذه أموراً أربعة، هي:

رجم الزاني المحصن، وتحريم الانتساب إلى غير الآباء، والنهي عن إطراء النبي ﷺ، والتحذير من اغتصاب أمور المسلمين بعيداً عن الشورى وقصة بيعة أبي بكر رضي الله عنه.

قال عمر رضي الله عنه: «إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجمَ رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضل بترك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البيِّنة أو كان الحبل أو الاعتراف.

ثم إنا كنا نقرأ في كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

يذكر عمر رضي الله عنه أن رجم الزاني المحصن، وتحريم الانتساب إلى غير الآباء كانا مذكورين في كتاب الله، ونحن الآن لا نجد في المصحف هاتين الآيتين اللتين أشار إليهما عمر، ويفهم من كلامه رضي الله عنه أنهما نسخت تلاوتهما وبقي حكمها، وهذا قسم من أقسام النسخ التي ذكرها علماء الأصول.

نقل الإمام الشوكاني عن أبي إسحاق المروزي وابن السمعاني وغيرهما هذه الأقسام ونحن نذكر الأنواع الأربعة المهمة منها:

[**الأول**: ما نسخ حكمه وبقي رسمه، كنسخ آية الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث. ونسخ العدة حولا بالعدة أربعة أشهر وعشراً.

فالمنسوخ ثابت التلاوة والحكم، وإلى جواز ذلك ذهب الجمهور، بل ادعى بعضهم الإجماع عليه.

وقد حكى جماعة من الحنفية والحنابلة عدم الجواز عن بعض أهل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأصول قالوا: لأنه إذا انتفى الحكم فلا فائدة في التلاوة، وهذا قصور عن معرفة الشريعة، وجهل كبير بالكتاب العزيز، فإن المنسوخ حكمه الباقية تلاوته في الكتاب العزيز مما لا ينكره من له أدنى قدم في العلم.

الثاني: ما نسخ حكمه ورسمه وثبت حكم الناسخ ورسمه، كنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال الكعبة، ونسخ صيام عاشوراء بصيام رمضان.

قال أبو إسحاق المروزي: ومنهم من جعل استقبال القبلة من نسخ السنة بالقرآن، وزعم أن استقبال بيت المقدس بالسنة لا بالقرآن.

الثالث: ما نسخ حكمه وبقي رسمه ورفع رسم الناسخ وبقي حكمه كقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] بقوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله».

وقد ثبت في الصحيح أن هذا كان قرآناً يتلى ثم نسخ لفظه وبقي حكمه.

الرابع: ما نسخ حكمه ورسمه ونسخ رسم الناسخ وبقي حكمه كما ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل: «عشر رضعات متتاليات يحرمن» فنسخن بـ«خمس رضعات...» فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يتلى من القرآن.

قال البيهقي: فالعشر مما نسخ رسمه وحكمه، والخمس مما نسخ رسمه وبقي حكمه، بدليل أن الصحابة حين جمعوا القرآن لم يثبتوها رسماً، وحكمها باق عندهم.

قال ابن السمعاني وقولها: «وهن مما يتلى من القرآن» بمعنى أنه يتلى حكمها دون لفظها.

وقال البيهقي المعنى: أنه يتلوه من لم يبلغه نسخ تلاوته.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومنع قوم من نسخ اللفظ مع بقاء حكمه، وبه جزم شمس الأئمة السرخسي، لأن الحكم لا يثبت بدون دليل، ولا وجه لذلك، فإن الدليل ثابت موجود محفوظ. ونسخ كونه قرآناً لا يستلزم عدم وجوده، ولهذا رواه الثقات في مؤلفاتهم][1].

ومن خطبة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لاتطروني كما أطري عيسى بن مريم وقولوا: عبد الله ورسوله».

والاطراء هو المبالغة في المدح، فلقد نهى النبي ﷺ عن إطرائه، وأرشدهم إلى أن هذا الاطراء وصل ببعض الأمم السابقة إلى الشرك والعياذبالله، كما هو شأن النصارى الذين رفعوا عيسى عليه السلام إلى منزلة الألوهية فضلوا ضلالاً مبيناً.

وقد كان ﷺ يذكر أصحابه دائماً بأنه عبد الله ممتثلاً أمر الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. وكان يقول: إنما أنا عبد الله ورسوله، ونهى أن يفضله أحد على يونس بن متى عليه السلام، فقال فيما رواه مسلم: «ولا أقول إن أحداً أفضلُ من يونس بن متى»[1] وقال: «لا تخيروني على موسى»[2].

وعندما رغب بعض الصحابة أن يسجد له أنكر عليه ذلك وقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي[3].

وإنه ليؤسفنا أن ينحرف بعض الغلاة إلى مواقف لا تتفق وهذا التوجيه النبوي الكريم.

---

(١) انظر إرشاد الفحول للشوكاني ص ١٨٩.

(٢) مسلم برقم ٢٣٧٣.

(٣) الترمذي ٢٠٣ ـ ٢٠٤ وموارد الظمآن ١٢٩٠ ـ ١٢٩١ وابن ماجه ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣ والمستدرك ١٨٧/٢ و ١٨٩ وسنن البيهقي ٢٩٢/٧ ومجمع الزوائد ٣١٠/٤ والترغيب والترهيب ١٢/٣.

إن رسول الله ﷺ له المكانة العظمى في نفوس المسلمين، ومحبته واجبة، ولا ينبغي أن يتقدم عليه في الحب مخلوق أبداً، وذلك كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. التوبة: ٢٤].

ومحبته الحقيقية تكون في اتباع شرعه، والبعد عن مخالفة أمره، فليس لأحد من الناس أن يخالف أمره بدعوى المحبة، إنها عندئذٍ تكون محبة كاذبة، وقد نهى عن إطرائه والمبالغة في مدحه، فالمحب الصادق هو من يستجيبُ لهذا الهدي النبوي الكريم.

إن رسول الله ﷺ أحق الناس بالمدح والثناء، ولكن ذلك ينبغي أن يكون في حدود الشرع والأدب، فلا يخاطب الرسول خطاباً يمنعه الشرع أو لا يتفق مع الأدب حتى ولو كان الدافع لهذا كله المدح.

ولقد وجدنا في بعض المدائح النبوية أسلوباً لا يليق أن يخاطب به أشرف الرسل وخاتم النبيين وسيد ولد آدم، إذ كان في تلك المدائح ما يشبه الغزل والنسيب، وتملأ أبياتها كلمات الغرام والهيام، والأوصافُ التي توصف بها النساء، وما إلى ذلك، وهذا كله لا يتفق والأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأدّت المبالغة في ادِّعاء محبته ﷺ المزعومة عند بعضهم إلى دعائه والاستغاثة به وطلب قضاء الحوائج منه ﷺ، وفي ذلك كله مخالفة لأمره، ووقوع في الشرك الذي هو ظلم عظيم ومعصية مغلظة.

ويؤسفنا أن نقرر أنَّ نفراً من أهل العلم كانوا يقفون مواقِف التسويغ والتأويل لهذه المخالفات المنكرة، ويتعسفون في ذلك تعسفاً ظاهراً، ويحاولون اقتناص إشارات بعيدة من بعض النصوص الواردة رغبة منهم في تأويل عمل هؤلاء المنحرفين، وقد يأتون بالدليل الذي هو حجة عليهم،

ويتمحلون في حمله على تأييد باطلهم، كما فعلوا بحديث استسقاء عمر بالعباس، وبحديث توسل الأعمى بدعاء النبي ﷺ، وقد يعتمدون على منامات يتناقلها بعضهم عن بعض، وحكايات هي إلى الأساطير المخترعة أقرب. . . وبيان ذلك له مجال آخر.

وهناك نوعان من الإطراء المحظور شرعاً:

أما أولهما فأن يطلق المرء على النبي ﷺ وصفاً من أوصاف الربوبية والألوهية مما اختص بالله تعالى، أو أن يقوم بعمل لا يكون إلا لله تعالى كالسجود والدعاء والاستغاثة.

وأما الآخر فمعصية عظيمة كأن يكذب ويخترع قصة فيها معجزة للنبي ﷺ، وكثير من الروايات الواهية التي وردت في هذا الموضوع من هذا القبيل، ومن يجترىء على هذه المعصية فليعلم بأنه مهدد بدخول النار وذلك بقوله ﷺ فيما تواتر عنه: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

هذا وإن أعداء الإسلام ليشجِّعون شيوع أمثال هذه المخالفات فقد كان الوضاعون الذين تحملهم الزندقة على الكذب على النبي ﷺ يضعون بعض هذه الأحاديث.

وأكاد أجزم أنَّ هناك فئة من المستشرقين وأذنابهم ورثت مهمة أولئك الكذابين، فذهبت تشجع هذا الافتراء وتعمل على إحيائه وإبقاء ما هو حي منه بين الناس[2] ومن الأمثلة على ذلك حادثة وقعت منذ ستين سنة أجد في ذكرها فائدة ففي سنة ١٣٥٣ هجرية رغب وزير الأوقاف المصري في

---

(١) انظر طرق هذا الحديث في كتاب تحذير الخواص للسيوطي بتحقيقنا وفي كتاب الأسرار المرفوعة لملا علي القاري بتحقيقنا.

(٢) انظر مقدمتنا لكتاب الباعث على الخلاص من حوادث القصاص للحافظ العراقي ص ٨٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن تعدِّل صيغ المدائح النبوية التي حشيت بالأباطيل المزوَّرة والقصص الضعيفة أو الموضوعة والخرافات المصنوعة، ودعا هذا الوزير العلماء إلى وضع صيغة تعرض حياة النبي ﷺ عرضاً بعيداً عن الخرافات والموضوعات ووضع لذلك جائزة، فما راق ذلك للدكتور طه حسين فكتب يدافع عن الباطل، وينتصر لهذه القصص المكذوبة ويدعو إلى بقائها ويقول:

(أي بأس على المسلمين في أن تتحدث إليهم قصصهم بهذه الأحاديث الحلوة التي تنبئهم بأن أمم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبي ﷺ، كلها يريد أن يكفله، ولكنها ردت عن هذا لأن القضاء سبق بأن رضاع النبي ﷺ سيكون إلى حليمة السعدية؟ وأي بأس على المسلمين في أن يسمعوا أن الجن والإنس والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبي ﷺ؟ وأن الشجر أورق لمولده... وأن السماء دنت من الأرض حين مس الأرض جسمه الكريم؟) ويقول: (لم تصحَّ الأحاديث بشيء من هذا ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا، ويرون في التحدث به والاستماع إليه تمجيداً للنبي الكريم. لا بأس به، ولا جناح فيه)[1].

أرأيتم كم هو حريص على نصرة الخرافة وتعميق جذورها في تصورات الناس؟ إن في الكذب على النبي ﷺ بأساً وجناحاً وإثماً مبيناً وتمجيد النبي ﷺ لا يكون بالكذب والافتراء.

ويقول عمر رضي الله عنه: والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن.

إن الزاني المحصن مجرم خطير، وعضو في المجتمع يجب بتره، لأنه بإقدامه على هذه الجريمة دلَّل على أن الشر فيه أصيل، وأنه لا يقدم على جريمته مضطراً، بل يقدم عليها استجابة لنوازع الإجرام والإفساد والخسة في نفسه، فالمحصن عنده ما يكفيه بالنسبة إلى الغريزة الجنسية،

---

(١) انظر جريدة الوادي في العدد الصادر أول آب (أغسطس) ١٩٣٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومع ذلك فهو يترك ما أحل الله له ويقدم على الفاحشة المغلظة التي فيها عدوان على الأمن، وإفساد للأنساب، وإشاعة للمنكر، ومن هنا كانت عقوبته القتل رجماً؛ وهذه العقوبة من أشد العقوبات في الإسلام على الإطلاق.

وهذا المجرم يستحق هذه العقوبة، لأنه في مجتمع إسلامي يوفر له تلبية غرائزه وضروراته عن طريق الحلال، فلو فرضنا أنه وجد نشوزاً من الزوجة أو نفوراً عنها فقد أباح له الإسلام التعدد، وليس في المجتمع الإسلامي شيء من العقبات في سبيل الزواج التي أوجدها الناس بسبب بعدهم عن الإسلام.

وكذلك فإن في حديث ابن عباس عن عمر قوله: «ثم إنَّا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: **«أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم»** إن الذي ينتسب إلى غير أبيه كافر إن استحل ذلك، وهو إنسان حقير لأنه أساء إساءة بالغة لأبويه، وقد أمر ببرهما والإحسان إليهما، إذ قد يكون في هذا الانتساب لغير أبيه اتهام لأمه، وما أعظمها من جريمة، وما أشنعه من عقوق.

وفي ذلك أيضاً إساءة لأبيه وإنكار فضله عليه.

وفي ذلك أيضاً عدوان على النظام الإسلامي الذي يرعى حرمة الأنساب.

ويؤسفنا هنا أن نذكر أنه قد سرت إلى بعض البلاد الإسلامية عادة موجودة عند الكفار وهي أن تنسب المرأة المتزوجة إلى زوجها لا إلى أبيها، فليحذر المسلمون من هذه العادة، وليعمل العلماء وقادة الفكر في البلاد التي أخذت بهذا العرف، ليعملوا على التحذير منه والتخلص منه.

هذا وقد ذكر العلماء عدداً كبيراً من الفوائد التي تستنبط من هذا الحديث نذكر أهمهما في ما يأتي:

١ ــ يؤخذ العلم عن أهله وإن صغر سن المعلم أو نقص قدره.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢ ــ لا يحدث بالعلم إلا من يعقله، ويخاطَب الناس على قدر فهمهم وعقولهم.

٣ ــ لا يجوز أن يروي أحد شيئاً إلا إذا كان متأكداً من فهمه وحفظه.

٤ ــ يجوز إخبار الإمام بكلام من يُخشى منه وقوع أمر فيه إفساد للجماعة، وعليه عند الإخبار أن لا يذكر اسمه بل يبهمه صوناً له، وهذا ما كان في هذه القصة.

٥ ــ يقام الحد على المرأة إذا وجدت حاملاً ولا زوج لها ولا سيد إلا أن تقيم بيِّنة على الحمل أو الاستكراه، وقد نقل ابن حجر[1] عن ابن عبد البر قوله: «قد جاء عن عمر في عدة قضايا أنه دَرَأ الحد بدعوى الإكراه ونحوه» ثم ساق ابن عبد البر عن طريق شعبة عن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سبرة قال: «إنا لمع عمر بمنى فإذا بامرأة حبلى ضخمة تبكي فسألها فقالت: إني ثقيلة الرأس فقمت بالليل أصلي ثم نمت فما استيقظت إلا ورجل قد ركبني ومضى، فما أدري من هو، قال: فدرأ عنها الحد.

وقال ابن حجر نقلاً عن بعضهم: أن من عرف منها مخايل الصدق في دعوى الإكراه قبل منها، وإما المعروفة في البلد التي لا تعرف بالدين ولا الصدق ولا قرينة معها على الإكراه فلا، ولا سيما إن كانت متهمة.

ونختم تأملاتنا لهذا الحديث بإيراد قصة بيعة أبي بكر كما رواها عمر وأخرجها البخاري، يقول عمر: «وإنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أنَّ الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم... فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت: ماله؟ قالوا: يوعك.

---

(١) الفتح ١٢/١٥٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك. فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في التزوير إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي ويد أبي عبيدة ابن الجراح وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إليَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول إليّ نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

فقال قائل من الأنصار: أنا جُذَيلها المحكَّك، وعذيقها المرجَّب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثر اللغط، وارتفع الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة. فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا منهم رجلاً بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى وإما نخالفهم فيكون فساداً!

وشرح هذه القصة له مجال آخر، ونكتفي بأن نشرح بعض الكلمات

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الواردة فيها. فقوله: «أنا جذيلها المحكك» الجُذَيل - هو تصغير الجِذْلُ: العود الذي ينصب للإبل الجربى لتحتكَّ به، وهو تصغير تعظيم، أي أنا ممن يستشفى برأيه كما تستشفي الإبل الجربى بهذا العود.

والعذيق، مصغر عَذْق والعذق النخلة وهو تصغير تعظيم.

والرُّجْبَةُ هو أن تدعم النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها وكثرة حملها أن تقع[1].

الدَّافة: العدد القليل، وأصله من الدَّف وهو السير البطيء في جماعة[2].

---

(١) انظر النهاية لابن الأثير.
(٢) انظر فتح الباري ١٢/١٥١.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحديث الخامس عشر

قراءة القرآن

عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجّة: ريحها طيب وطعمها طيب.

ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة: لاريح لها وطعمها حلو.

ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر.

ومثل المنافق لا الذي يقرأ القرآن مثل الحنظلة: لا ريح لها وطعمها مر».

رواه البخاري (الفتح)٩/٦٦ في كتاب فضائل القرآن في باب فضل القرآن على سائر الكلام ومسلم ٢/٩٤ (ط استانبول) وفي ط عبد الباقي برقم ٧٩٧ في كتاب صلاة المسافرين في باب فضيلة حافظ القرآن. وفي شرح مسلم للنووي ٦/٨٣ ورواه النسائي ٨/١٢٥ في كتاب الإيمان وشرائعه في باب مثل الذي يقرأ القرآن من مؤمن ومنافق. ورواه ابن ماجه برقم ٢١٤ في المقدمة في باب فضل من تعلم القرآن وعلمه. والترمذي في الأمثال في باب ما جاء مثل المؤمن القارىء للقرآن وغير القارىء وانظر ١١ صحيح

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سنن الترمذي» للألباني ٢/برقم ٢٢٩٩.

وقد وردت الأترجة بلفظ الأترنجة وكل هؤلاء رووه عن أبي موسى.

ورواه أبو داود عن أنس بزيادة عن الجليس الصالح وجليس السوء وذلك في كتاب الأدب من سننه برقم ٤٨٢٩.

هذا الحديث من الأحاديث الرائعة التي تبيّن (فضل قراءة القرآن).. إنه تمثيل موفق لنموذجين من المؤمنين ونموذجين من المنافقين، وهذا التقسيم مبنيٌّ على موقف الإنسان من تلاوة القرآن.

فالمؤمن حلو طيب على أية حال، لكنه يجمع مع الحلاوة الريح الطيب إن كان يقرأ القرآن.

والمنافق مرٌّ خبيث على أية حال، لكن قد يجمع مع المرارة الريح الطيب إن كان يقرأ القرآن.

وهذه الصور معتمدة على معرفة بأنواع النباتات والثمار الموجودة في البيئة العربية، وهي تساعد على مزيد من التذوق والفهم لحالة كل من المؤمن والمنافق.

ويحسن بنا قبل أن ندرس هذا النص أن نشرح بعض الكلمات الواردة فيه.

الأترجة: بضمّ الهمزة والراء، بينهما مثناة ساكنة وآخره جيم ثقيلة، وقد تخفّف ويزاد قبلها نون ساكنة كما ورد الحديث عند الترمذي من رواية أنس رضي الله عنه. وهي ثمر من فصيلة الحمضيات، وقد يسميه العامة في بعض البلاد (الكباد) وإن كان ما يدعوه العامة بهذا الإسم فهو لا ينطبق على ما يدل عليه الحديث، لأن الكباد حامض لا حلو، وقد يكون هناك نوع من الأترج حلو الطعم، وقد حدثني بعض المتقدمين في السن أن في بعض بيوت الشام شجرة يدعونها (الطرنج) وأنها في أوصافها توافق ما جاء في هذا الحديث، ولم أرها وعندئذ فما أشبهها بالبرتقال، وهذا ما رجحه



شبكة الألوكة - قسم الكتب

أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا. والبرتقال ـ عندما يكون مقطوفاً حديثاً ـ له رائحة زكية تفوح وتشم من مسافة لا بأس بها، ولكني تذكرت كلمة للإمام أبي داود ذكرها في «السنن» عند الحديث ذي الرقم ١٥٩٩ فقد قال: [قال أبو داود: شَبَرْتُ قِثَّاءَةً بمصر ثلاثة عشر شبراً، ورأيت أترجة على بعير بقطعتين، قُطِعَتْ وصُيّرت على مثل عدلين].

قلت: وهذا يجعل حجمها كبيراً لا أتصوره في البرتقال ولا الكباد، إلا أن يكون أبو داود يتحدث عن عجيبة من العجائب.

وجاء في «فتح الباري»: [وقيل: الحكمة في تخصيص الأترجّة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة؛ لأنه يتداوى بقشرها، وهو مفرح بالخاصية، ويستخرج من حبها دهن له منافع... وغلاف حبه أبيض فيتناسب قلب المؤمن، وفيها أيضاً من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها، وتفريح لونها، ولين ملمسها، وفي أكلها مع الالتذاذ طيبُ نكهةٍ، ودباغ مَعِدَةٍ، وجودة هضم، ولها منافع أخرى].

قلت: وصفها بلين الملمس يخرج الأترج المعروف بالكباد لأن قشرها ليس ليناً بل مجعداً، ولين الملمس ينطبق على البرتقال.

ومهما يكن من أمر فهي ثمر من الحمضيات طيب الطعم، طيب الرائحة، له فوائد[1] وقد ذكر كثيراً من هذه الفوائد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» ٤/٢٨٤ فقال:

[في الأترج منافع كثيرة، وهو مركب من أربعة أشياء:
قشر، ولحم، وحمض، وبزر. ولكل واحد منها مزاج يخصه.
فقشره حار يابس، ولحمه حار رطب.
وحمضه بارد يابس، وبزره حار يابس[2].

● ومن منافع قشره: أنه إذا جعل في الثياب منع السوس، ورائحتهُ

(١) زاد المعاد ٤/٣١٤.

(٢) الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة مصطلحات تستعمل في الطب القديم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تصلح فساد الهواء والوباء، ويطيب النكهة إذا أمسكه في الفم، ويحلل الرياح.

وإذا جعل في الطعام كالأبازير أعان على الهضم.

قال صاحب «القانون»: وعصارة قشره تنفع من نهش الأفاعي شرباً...[1].

وأما لحمه: فملطف لحرارة المعدة، نافع لأصحاب المرة الصفراء قامع للبخارات الحارة. وقال الغافقي: أكل لحمه ينفع البواسير. انتهى.

وأما حمضه: فقابض كاسر للصفراء، ومسكن للخفقان الحار، نافع من اليرقان شرباً واكتحالاً، قاطع للقيء الصفراوي، مشّهٍ للطعام... نافع من الإسهال الصفراوي.....[1].

وأما بزره: فله قوة محللة مجففة. وقال ابن ماسويه: خاصية حبه النفع من السموم القاتلة إذا شرب منه وزن مثقال مقشراً بماء فاتر.....][1].

والتمر والريحان معروفان، وقال ابن القيم: [الريحان كل نبت طيب الريح، فكل أهل بلد يخصونه بشيء من ذلك].

أما الحنظل فقد فسره صاحب المختار بالشري فقال: [الحنظل: الشري. الواحدة حنظلة] وهو من نباتات البادية، وتضرب العربُ المثل بمرارته.

وقد بين الحديث أن الحنظلة لا ريح لها وأن طعمها مر.

جاء في بعض روايات هذا الحديث زيادة لها دلالة مهمة وهي: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به» [وهي زيادة مفسرة للمراد، وأن التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي لا مطلق التلاوة][2].

---

(١) النقط تشير إلى كلام محذوف.

(٢) الفتح ٩/٦٧.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

والايمان مقرون بالعمل الصالح كما جاء ذلك في مواضع كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله، إذ العمل هو برهان الصدق في تأييد دعوى الإيمان.

فهناك ناس مؤمنون يضعفون أحياناً فيقصرون في العمل، والحديث في بيان فضيلة حاملي القرآن.. إن المؤمن الذي يقصر في العمل يشبه في هذه الناحية المنافق الذي لا يؤمن ولا يعمل. جاء في الفتح:

[قيل خصَّ صفة الإيمان بالطعم، وصفة التلاوة بالريح، لأن الإيمان الزم للمؤمن من القرآن، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القرآة، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه][1]

فالحلاوة ملازمة للمؤمن سواء قرأ أم لم يقرأ، وتزيد هذه الحلاوة طيباً بالشذى المنعش إن قرأ القرآن.

القرآن هدى ونور، وتلاوته وسماعه يحدثان في النفس راحة وطمأنينة ما بعدها راحة ولا طمأنينة.

ورائحة القرآن العطرة وأثره المبهج يعم كل مكان في الوجود حيث كان.. وهو يحافظ على هذا الشذى العطر سواء صدر عن لسان مؤمن أو عن لسان منافق.

إن رائحته الزكية تفوح من تلاوته.. وإن الأثر الطيب لهذه التلاوة يتغلغل في أعماق النفس السوية المؤمنة فيدخل عليها السرور ويبث فيها الانشراح والبهجة والسعادة.

القرآن هو كلام الله المعجز، ووحيه المنزل، نزل به الروح الأمين

---

(١) الفتح ٩/٦٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على قلب محمد ﷺ بلسان عربي مبين، والمكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

إن كتاب الله، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهذا ما نراه في واقعنا المعاصر، وكيف آلت أحوال المجتمعات التي ابتغت الهدى في غيره إلى الشقاء والشقاق والتعاسة والحياة الضنك في الدنيا، ولعذاب الأخرة أشد وأبقى.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، بل يزداد جمالاً فوق جمال، ولا تنقضي عجائبه ولا تنفد كنوزه.. كم من العبقريات الضخمة نظرت في آياته، وتأملت في أحكامه ومعجزاته، ووقفت على الكثير من دلائل الاعجاز، ولكنها مع ذلك لم تستوف ما فيه من كنوز، وتركت للأجيال المقبلة الكثير الكثير.

حقاً.. إنه المعجزة الكبرى لسيدنا رسول الله ﷺ.. ولا يستطيع منصف أن يدرسه ويتذوقه ثم لا يكون في عداد المؤمنين.

من قال به صدق، ومن عمل به أجر وفاز وكان من السعداء في الدنيا الناجين يوم القيامة، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم [لقد من الله تعالى على هذه الأمة - زادها الله تعالى شرفاً - بالدين الذي ارتضاه، دين الإسلام، وأرسل إليها محمداً خير الأنام، وأكرمها بكتابه أفضل الكلام، وجمع فيه سبحانه وتعالى جميع ما يحتاج إليه من أخبار الأولين والآخرين، والمواعظ والأمثال وضروب الأحكام، والحجج القاطعات الظاهرات في الدلالة على وحدانيته، وغير ذلك... وضاعف الأجر في تلاوته وأمرنا بالاعتناء به والإعظام][1].

---

(١) من كلام النووي في التبيان.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

والحديث يبين لنا أن قارئه على أنواع، وقد ذكر أربعة منها، ويمكن أن يدخل فيها أنواع أخرى.

فلم يذكر الحديث المؤمن القارىء الذي لا يعمل، ولا الكافر الذي لا يتظاهر بالإيمان. ولننظر في هذا الآية الجامعة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

إن الإيمان هو الذي يعطي الأعمال قيمتها الحقيقية، فالقرآن للذين آمنوا هدى وشفاء. أما الذين لا يؤمنون فتراهم إذا قرىء عليهم القرآن كأنَّ في آذانهم وقراً فهم لا يسمعون، وهو عليهم عمى فهم لا يبصرون.

والمنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة التي تفوح بالعطر ولكن طعمها مر.

والحديث بهذا التمثيل الذي يقرب الحقيقة إلى الأذهان ويوضح الصورة يرغب في تلاوة القرآن.

وقد وردت أحاديث أخرى ترغب في قراءة القرآن.

ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح[1].

فكلما زاد العبد من قراءة القرآن زاد أجره ونمتْ حسناته، وما أشدَّ حاجة العبد إلى الحسنات يوم القيامة.. إنها طريقه إلى الجنة ووسيلته لبلوغ رضوان الله.

---

(١) صحيح الترمذي للألباني ٣ برقم ٢٣٢٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد يضعف الإنسان بسبب مشاغله عن قراءة القرآن، فتمضى عليه الليالي والأسابيع ولا يقرأ شيئاً من القرآن، وهذه خسارة عظيمة، وعلاج هذا أن يلزم نفسه بورد يومي يلتزم بأدائه كل يوم في وقت معين يخصصه لذلك، ويقدمه على أي عمل دنيوي آخر. ولا يسوّف ولا يؤجل، فما أسرع ما تمضي الأوقات والأيام والشهور، وقد يعينه على هذا الالتزام أن يجلس مع قوم في بيت من بيوت الله يتدارس معهم القرآن تلاوة وحفظاً وتدبراً. فقد روى مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد وأبو داود[1] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليه السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

ففي هذا التوجيه النبوي الكريم إرشاد إلى الطريقة المُعِينة على الاستزادة من الخير العظيم، والثواب الجزيل المترتب على قراءة القرآن ومدارسته، والحق أن المرء عندما يدارس غيره القرآن يكون أكثر استيعاباً وفهماً لآيات القرآن.

إن في ذلك نزولاً للسكينة، على هؤلاء القارئين، وتتغشاهم الرحمة، وتحيط بهم الملائكة، إكراماً لهم وإجلالاً. وجلوس الإنسان مع القارئين يجعله شريكاً لهم في الأجر، فهو إن قرأ مأجور، وإن استمع مأجور.

وقد ذكر العلماء أنّ الاستماع إلى تلاوة القرآن يكسب صاحبه الأجر إن كان منصتاً متدبراً.

وتلاوة القرآن ترقق القلب وتذكر العبد بأصول دينه، وتجدد صلته بالله، وتقذف في قلبه النور، فليس هناك أفضل من كلام الله عز وجل

---

(١) صحيح مسلم ٤ برقم ٢٦٩٩ وصحيح الترمذي للألباني ٣ برقم ٢٣٤٨ وابن ماجه ١ برقم ٢٢٥ وأحمد ٢/٢٥٢ وأبو داود ٢ برقم ١٤٥٥.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

والاشتغال بقراءة القرآن. . إنها عبادة من أعظم العبادات. روى الترمذي عن أبي سعيد قال قال ﷺ رسول الله:

يقول الرب تبارك وتعالى: «من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ممّا أعطى السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[1].

وروى مسلم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[2].

لقد رغب الشرع المطّهر المسلم بقراءة القرآن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فذكر رسول الله ﷺ أنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه.

وقد أخرج مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران. . . . تُحاجّان عن صاحبهما»[3].

إنها صورة معبرة رائعة، فالسورتان العظيمتان تأتيان يوم القيامة تدافعان عن صاحبهما الذي كان يقرؤهما. . وما أحوج المرء في ذاك اليوم إلى الشفيع لأن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] إنه يوم عصيب عظيم ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥] يشغل فيه كل امرىء بنفسه فلا يسأل حميم حميماً. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

---

(١) انظر «ضعيف الترمذي» للألباني رقم ٥٦٢.

(٢) صحيح مسلم ٨٠٤.

(٣) صحيح مسلم ٨٠٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنه فضل عظيم يكون لقارىء القرآن الذي يعمل بـه، هذا في يـوم القيامة.

وفي الـدنيا قـراءة القرآن نـور لصاحبهـا، فقد روى ابن حبـان في صحيحه عن أبي ذر قال:

ـ قلت: يا رسول الله ﷺ. أوصني.

ـ قال: «عليك بتقوى الله، فإنها رأس الأمر كله».

ـ قلت: يا رسول الله. زدني.

ـ قال: «عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء»[1].

إن تلاوة القرآن نور.. إي و الله.. إنَّ قراءة القـرآن وتدبـره تصل المسلم بأفق رفيع، فيه السموّ والطهارة، وفيه تُرى العدالة الإلهية الكاملة، والحق المطلق.

إنَّ قراءة القرآن وتدبره تنأى بالمسلم في لحظات القراءة المسعدة عن مستنقـع الحياة الآسن المـادي القذر الـذي تضيع فيـه القيم، وتثلم فيـه العدالة، وتهدر فيه الحقوق.

وإنها لتشعره بالعزة الحقيقية، والسيادة الصادقة.. إنـه بهذه القـراءة يحسُّ بعبوديته لله التي تحرره من كل قيود الرق التي يرسف بها الآخرون..

وإن هذه القراء المتدبرة لتنسيه ما قد يكون فيـه من ظلم وهزيمـة ظاهرة وهوانٍ، وتعدُّه ليقيم العدل ويحقق الانتصار، ويزيل عنه وعن إخوانه كل مظاهر الهوان ويستأنف الحياة الإسلامية الكريمـة، ويشعر أنـه بعيشه في معاني القرآن الكريمة هو الأعلى وصاحب الحظ العظيم، وكيف لا يكون كذلك وهو يقرأ كلام الله الموجه له؟.

---

(١) من حديث طويل جداً انظره في الاحسان في تقريب صحيح ابن حبان ٢/برقم ٣٦١ والحديث ضعيف.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

أولم يقرأ في كتاب الله قوله سبحانه مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

أجل إن الرب الخالق البارىءالمصور، الجبار المتكبر، قيوم السموات والأرض نزَّل إلينا هذا الذكر الحكيم، وحَمَلَهُ الإنسانُ الكامل سيدُ الأنبياء وخاتمُ الرسل وصفوةُ خلق الله.. كم يكون شعور المؤمن بالعزة والارتقاء عندما يحيا هذا المعنى ويتراءى لناظريه.. إن رجلاً كبيراً من أهل الأرض عندما يخاطب فقيراً بائساً خامل الذكر يدخل عليه السرور والحبور، ويجعله يحس بأنه ذو مكانة إذ خاطبه ذاك الكبير.

فماذا يكون الحال عندما يخاطب الله جل جلاله الإنسان الضعيف بقوله ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا﴾.

إن قراءة القرآن نور لصاحبها في الأرض يبدد ظلمات الجهل والعدوان، ويسعد ذاك الإنسان الضعيف المسحوق بأنظمة الجاهلية.

وهو بعد كلام معجز، بلغ أعلى مستوى من البلاغة عرفه البشر، له حلاوة ظاهرة، وسحر أخاذ، يجد المتذوق في تلاوته متعة لا توصف، وسعادة لا تحد.. إنه كلام جميل لا يمل سماعه، ولا يخلق على كثرة الرد.

وقراءة القرآن سبب لارتقاء المسلم الدرجات العلى في الجنة.

فقد روى الترمذي وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: إقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[1].

---

(١) انظر «موارد الظمآن» رقم ١٧٩٠ وصحيح الترمذي للالباني ٢٣٢٩ وأبو داود ١٤٦٤/٢. ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد برقم ٣٧٨٠. وجاء في مجمع الزوائد ١٦٢/٧ أن أحمد رواه عن أبي هريرة أو أبي سعيد شك الأعمش.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد ورد أيضاً أنَّ من يقرأ القرآن يكون آمناً يوم القيامة يوم الفزع الأكبر فعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر، ولا ينالهم الحساب ـ هم على كثيب من مسك ـ حتى يفرغ من حساب الخلائق:

- رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأمّ به قوماً وهم به راضون.
- وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله.
- ورجل أحسن فيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين مواليه».

رواه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير»(١).

وورد أن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه القرآن، وذكر الحديث سورة البقرة.

فعن أبي هريرة قال قال ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر. إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» رواه مسلم(٢).

والشيطان سبب البلاء والفتنة والغواية، وقد حذرنا الله منه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

فالمطلوب من أفراد الأسرة أن يكثروا من قراءة القرآن، حتى لا يتركوا للشيطان مجالاً للدخول عليهم، ولما كان جلوس المرأة في البيت أكثر من جلوس الرجل طولبت هي أن تعمر البيت بالقرآن، وتطرد الشيطان ما وجدت لها فرصة.

إن البيت الذي تتردد في أجوائه آيات القرآن بيتٌ يقوم على الخير،

---

(١) مجمع الزوائد ١/٣٢٧ ـ ٣٢٨ و«الروض الداني إلى المعجم الصغير» ٢/برقم ١١١٦.

(٢) صحيح مسلم برقم ٧٨٠.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويخرّج رجالاً صالحين ونساءً صالحات، ذلك لأن هذه التلاوة المؤيدة بالعمل تترك أثراً نفسياً وتربوياً رائعاً في تكوين نفسيات الأولاد وتفكيرهم وتصوراتهم.

إن تلاوة القرآن خيرٌ، وهي من أعظم الذكر، وللإنسان أن يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه.. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فللإنسان أن يقرأ القرآن على كل أحواله، ولكن إذا استطاع أن يأخذ بالآداب التي ذكرها العلماء للتلاوة كان ذلك أحسن، وإلا فليقرأ القرآن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فمن هذه الآداب أن يكون التالي على وضوء، وأن يكون مستقبل القبلة، وأن تكون تلاوته ترتيلاً؛ لأن الترتيل يعين على التفكر والتدبر.. والترتيل أشدّ تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال، وهو أقرب إلى التوقير والاحترام.. وكلما كان التزامه بأحكام التجويد أدق كانت تلاوته أقرب إلى التمام.

ومن هذه الآداب أن يتغنى بالقرآن لما ورد في الصحيح عنه ﷺ أنه قال:

«من لم يتغن بالقرآن فليس منا»[1] رواه أبو داود بإسناد جيد، ومعنى يتغنى: يحسن صوته بالقرآن، وهذا مشروط بأن يكون من غير تمطيط، وبأن لا تغلب عليه مراعاة اللحن والإيقاع حتى يدخل الجور على أحكام التلاوة.

وعليه ألا يشغله تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها عن التدبر والفهم، ويتحقق ذلك بالتمرن على أحكام التجويد حتى تكون له سجية.

---

(١) أبو داود برقم ١٤٧١.

ومن هذه الآداب أن يستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم في مبتدأ قراءته، وليحرص على أن يسمعه من غيره ليعينه ذلك على التدبر، ولا سيما إذا كان ذلك القارىء من أصحاب القلوب الواعية والفهم السليم.

ومن هذه الآداب أن يبكي عند القراءة، وذلك عندما يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد، وعندما يحاسب نفسه فيراها مقصرة في القيام بأوامر القرآن وفي اجتناب نواهيه، ومن آداب التلاوة أن يراعي سجدات القرآن، وأن يسبح إذا مرّ بآية تسبيح، ويدعو ويستغفر إذا مرَّ بآية دعاء واستغفار، وأن يسأل إذا مرَّ بمرجوّ من رحمة الله ونعيمه، ويستعيذ بالله إذا مرّ بمخوف من عذاب الله.

ويحسن أن يجهر بقراءته إن لم يكن هناك تشويش على مصلٍّ، وإن لم تكن هناك مظنة رياء.

ولا مانع من أن يعيد قراءة الآية إذا كان ذلك يعينه على التدبر.

على التدبر

ومما يساعد على التدبر أن يستعين على فهم القرآن بما يقف عليه من الحقائق المكتشفة وقواعد العربية.. على ألا يشغله ذلك عن الفهم والتدبر.

ومما يعين على التدبر أن ينظر إلى القرآن على أنه مرسل من الله إليه.. وأن يتذكر هذه الحقيقة التي قررها القرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، عليه أن يستحضر - وهو يتلو القرآن - أنه هو المقصود بكل خطاب في هذا القرآن، سواء كان أمراً أم نهياً أم وعداً أم وعيداً قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١].

قال محمد القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله.

وقال بعضهم: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل.

قال الشاعر الإسلامي الكبير محمد اقبال[1]:

كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبي يراني فيسألني: ماذا تصنع؟ فأجيبه: إني أقرأ القرآن.

وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي.

وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي تسألني السؤال نفسه، وأجيبك جواباً واحداً ثم لا يمنعك ذلك من إعادة السؤال من غد.

فقال: إنما أردت أن أقول لك: يا ولدي اقرأ القرآن كأنما نزل عليك.

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، وكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت.

إن تلاوة القرآن حق تلاوته هي أن يشترك في هذه التلاوة اللسان والعقل والقلب والجوارح. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلبُ يتعظ، والجوارح تعمل.

[القرآن[1] كتاب الله، هو سبب عزتنا، ومصدر فضائلنا... عليه قامت حضارتنا، ومن روحه السامية فاضت بطولاتنا، وعلى هداه الأمين كانت تنطلق قوافلنا، مبددة ظلام الدنيا، مسدّدة خُطَا أبنائها على طريق الحق... قائدة جموعها إلى الخير... ومن بحره الزاخر استمدت علومنا.

هذا الكتاب المبين، والدستور القويم، أعرض عنه كثير من المسلمين.. فأعرضت عنهم العزة والسيادة، وتجهموا لأحكامه.. فتجهمت لهم الكرامة والسعادة.

أليس من المؤسف أن يتحول هذا الكتاب الكريم إلى ترانيم يطرب لها السامعون بعد أن كان حقائق يعيها المسلمون، وبها يعملون ويقيمون

---

(١) روائع إقبال ص ٣١.

(٧) مقتبسة من كتاب: «أيها المؤمنون» ص ٣٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليها حياتهم، أليس من المؤلم أن يصبح تراتيل تلتمس بها البركة في مطلع الحفلات، وتُردد في المآتم بعد أن كان كتاباً للحياة الفاضلة، يرسم لها طريق السمو والطهر والكمال، ويقيم المسلمون دعائم حياتهم الفاضلة على أسسه الكريمة.

ليتغنَّ التالون به، وليلتمس الناسُ البركة والرحمة من قراءته، ولكن لا ينبغي أن يعطلوه عن مهمته الأولى قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] فقد أنزله ليحكم حياة الناس.

ألا فاعمروا قلوبكم بهداه، واستنيروا بنوره، وأكثروا من تلاوته، والتزموا تعاليمه. .لنعد إليه فإنه الملاذ الوحيد ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وقد ذكر ابن القيم في زاد المغاد[1] أوصافاً متعددة للأترج وفوائد طيبة كثيرة لها ثم قال:

[وحقيق بشيء هذه منافعه أن يشبه به خلاصة الوجود وهو المؤمن الذي يقرأ القرآن].

حقاً إن المؤمن خلاصة الوجود، إذ قد حمل العقيدة الصحيحة وعمل بمقتضاها.

آمن بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وبالقدر إيماناً صادقاً عمر قلبه وفاض على جوارحه، فكان العمل الصالح صفته المعروفة عنه. . وأضاف إلى ذلك قراءة مستمرة للقرآن، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، يتلوه في حركته وسكونه، وفي مضجعه وتهجده، يتلوه قائماً وقاعداً وعلى جنبه، يتلوه بتدبر وتأثر وانفعال وحضور قلب.

وتشبيه الرسول ﷺ المؤمن القارىء بالأترجة يدل على أن كل شيء

---

(١) سبق أن نقلنا كلامه في هذا قبل صفحات.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

في هذا المؤمن التالي للقرآن العامل به كل شيء فيه نافع.. فقوله وعمله.. نومه ويقظته.. حياته وموته..

إنه لا يقول إلا خيراً.. ولا يعمل إلا الخير..

ويذكرني هذا بتشبيهات أخرى شبه الرسول ﷺ المؤمن، منها أنه شبهه بالنخلة التي كل شيء فيها نافع.. ولكل تشبيه نكهته وطعمه وإن كانت كلها في أعلى مستوى من الإيضاح والبيان.

إن حقيقة المؤمن طيبة وآثاره طيبة. فالأترجة طعمها طيب ورائحتهاالزكية تنعش كل من اقترب منها.

وإن حقيقة المنافق خبيثة، وصدور الرائحة الطيبة منه لا تغير هذه الحقيقة، فرائحة الريحان لا تغير طعمه المرّ.

وفقنا الله لتلاوة القرآن والعمل له والحياة له والموت من أجله ليحكم حياة المسلمين.. ويومئذ تعم السعادة الوجود.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث السادس عشر

فتح خيبر ومقتل عامر بن الأكوع

عن سلمة بن الأكوع قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر. فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنياتك؟ قال: وكان عامرٌ رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتفينا ... وثبِّت الأقدام إنْ لاقينا
وألقيْن سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟».

قالوا: عامر بن الأكوع.

فقال: «يرحمه الله». [وفي رواية لمسلم ج ٣ ص ١٤٤٠: قال: «غفر لك ربك» قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصُّه إلا استُشهد].

فقال رجل من القوم: وجبت يا نبيّ الله. لولا أمتعتنا به [وفي رواية لمسلم: ٣/١٤٤٠ قال فنادى عمر بن الخطاب، وهو على جمل له: يا نبيّ الله. لولا متعتنا بعامر].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال: فأتينا خيبر، فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة. ثم إن الله فتحها عليهم. فلما أمسى الناس اليوم الذي فتحت عليهم أوقدوا نيراناً كثيرة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟».

قالوا: على لحم.

قال: «على أي لحم؟».

قالوا: على لحم حمر أنسية.

فقال رسول الله ﷺ: «اهرقوها واكسروها».

فقال رجل: أو نهريقها ونغسلها؟

قال: «أو ذاك».

فلما تصافّ القوم كان سيف عامر فيه قصر، فتناول به يهودياً ليضربه، ويرجع ذباب سيفه، فأصاب ركبة عامر، فمات منه.

فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ شاحباً. فقال لي: «ما لك؟».

فقلت: فدىً لك أبي أمي. زعموا أن عامراً حبط عمله.

قال: «من قاله؟».

قلت: قاله فلان وفلان وأسيد بن الحضير الأنصاري.

فقال رسول الله ﷺ: «كذب من قاله. إنَّ له لأجرين وجمع بين أصبعيه. إنه لجاهد مجاهد»

● رواه البخاري في مواضع من صحيحه:

فقد رواه في المظالم في باب: هل تكسر الدنان التي فيها خمر أو تُخَرَّقُ الرقاق ١٢١/٥.

ورواه في المغازي في باب: غزوة خيبر ٤٦٣/٧.

ورواه في الذبائح والصيد في باب: آنية المجوس والميتة ٩/٦٢٢.

ورواه في الأدب في باب: ما يجوز من الشعر والحداء وما يكره منه ١٠/٥٣٧

ورواه في الدعوات في باب: قول الله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ومن خصّ أخاه بالدعاء دون نفسه ١١/١٣٥.

ورواه في الديات في باب: إذا قتل نفسه خطأ فلا دية له ١٢/٢١٨

● ورواه مسلم في الجهاد والسير ٣ برقم/١٨٠٢ وفيه أن عامراً أخو سلمة. ثم أورده برواية أخرى برقم ١٨٠٧ وهو حديث طويل جداً فيه ترجمة وافية لسلمة بن الأكوع وفيه أن عامراً عم سلمة.

● ورواه مسلم في الذبائح في باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية ٣ ص ١٥٤٠ بالرقم السابق ١٨٠٢.

● ورواه ابن ماجه في الذبائح في باب لحوم الحمر الوحشية ٢/ برقم ٣١٩٥.

راوي الحديث هو سلمة بن الأكوع الأسلمي، وقد ذكر ابن حجر في الإصابة ٢/٦٥ أنه (سلمة بن عمرو بن الأكوع واسم الأكوع سنان بن عبدالله).

كان من أعظم العدائين يسبق الفرس، وكان من الشجعان الكبار، نزل المدينة ثم تحول إلى الربذة.. ومات في المدينة وكان ذلك سنة أربع وسبعين على الصحيح. وقيل غير ذلك.

يقول سلمة كما جاء في صحيح مسلم (٣/ص١٤٣٣): [قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة... ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة في أصل الشجرة، فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط من الناس قال: «بايع يا سلمة» قلت: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس. قال: «وأيضاً» ورآني رسول الله ﷺ عَزِلاً (يعني

ليس معه سلاح) فأعطاني حَجَفَةً أو دَرَقَةً، ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس قال: «ألا تبايعني؟ يا سلمة» قلت: قد بايعتك يا رسول الله ﷺ في أول الناس وفي أوسط الناس. قال: «وأيضاً» فبايعته الثالثة.

وقال سلمة: كنت تبيعاً لطلحة بن عبيد الله أسقي فرسه وأحسُّه وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله.]

ثم ذكر سلمة أنهم لما رجعوا إلى المدينة بعث رسول الله ﷺ بالإبل مع رباح غلام رسول الله ﷺ وكان سلمة معه قال: [وخرجت معه بفرس طلحة أُنَدِّيه[1] مع الإبل. فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع، وقتل راعيه قال: فقلت: يا رباح. خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله. وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه.

قال: ثم قمت على أكمة، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً: يا صباحاه!

ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل. وأرتجز أقول:

أنا ابن الأكوع والـيومُ يوم الرضع

فألحقُ رجلاً منهم، فأصك سهماً في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه قلت: خذها

وأنا ابن الأكوع والـيومُ يوم الرضع

قال فوالله ما زلت أرميهم وأعقربهم. فإذا رجع إليَّ فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم رميته، فعقرت به. حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايُقِهِ، علوتُ الجبل، فجعلت أرديهم بالحجارةُ] يعني لما

---

(١) معناه أن يورد الماشية الماء فتسقى قليلاً ثم ترسل في المرعى، ثم ترد الماء فترد قليلاً ثم ترد إلى المرعى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

امتنع عليَّ رميهم بالسهام عدلت عن ذلك إلى رميهم من أعلى الجبل بالحجارة التي تسقطهم [قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلَّفتُه وراء ظهري] يعني أنه جعله في حوزته وحال بينهم وبينه [وخلّوْا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً يستخفون. ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً[1] من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه].

ثم جاء رسول الله ﷺ فأخذ الأبل وما ألقاه القوم من رماح ومتاع.

وهكذا كان سلمة عداء لا يدركه فرس ولا عداء. وكان رامياً لا يخطىء هدفه، وكان شجاعاً لا يهزم.

وكان تعليق النبي ﷺ عن ذاك الحدث: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة».

وقال سلمة: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل، فجمعهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء ثم سمع رجلاً من الأنصار لا يسبق أبداً يقول: ألا مسابق إلى المدينة. هل من مسابق؟ فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ذرني فلأسابق الرجل. قال: «إن شئت فسابقه» وسبقه إلى المدينة. هذه رواية مسلم.

يعرض هذا الحديث عدداً من الأحداث التي و قعت للنبي ﷺ وهو في طريقه إلى خيبر، وبعد أن فتح الله على المسلمين خيبر. ولذلك فقد انطوى هذا الحديث على أحكام شرعية وتضمن أفكاراً عدة، والأسلوب الذي يواجهنا في هذا الحديث كما في غيره أسلوب جمع إلى الجزالة الوضوح.

والصحابي الجليل الذي يروي الحديث جعل حديثه يدور حول عامر بن الأكوع، وقد أشرت إلى أنه ورد في الصحيح على لسان سلمة أن

---

(١) الآرام: الأعلام. وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة ليهتدى بها. وأحدها إرَم كعنب وأعناب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عامراً أخوه، وورد فيه أيضاً أنه عمه، وقد حاول ابن حجر ـ على عادته ـ أن يجمع بين الروايتين فقال في «الإصابة» ٢/٢٤١: [وفي بعض الطرق أنَّ سلمة قال: إن عامراً عمه، فيمكن التوفيق أن يكون أخاه من أمه على ما كانت الجاهلية تفعل، أو من الرضاعة].

أقول: وكل ذلك محتمل، وقد يكون استعمال العرب لكلمة (أخ) أوسع من دلالتها على الاتفاق في الأبوين أو أحدهما. والله أعلم.

وعامر هو ابن سنان بن عبد الله بن بشير الأسلمي المعروف بابن الأكوع، واسم الأكوع سنان.

وهذا الحديث يعرض الصورة الحقيقية لجيل الصحابة.. إنه جيل الجهاد، فقد ذكر سلمة راوي الحديث في حديث آخر أنه بعد أن رجع المسلمون من الحديبية لم يلبثوا إلا أياماً حتى كان المسير إلى خيبر.

إنهم رضوان الله عليهم ما يخرجون من معركة حتى يدخلوا في معركة أخرى، لا يكلون ولا يملون، ولا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله.

ومن هنا فإنك لترى في تراجم كثير من الصحابة (حضر المشاهد كلها) أي حضر الغزوات التي قادها الرسول الله ﷺ.

سار القوم ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ والهنيهات تصغير هنة، وقد جاءت في بعض الروايات بحذف الهاء وتشديد الياء.. يطلبون منه أن يسمعهم شيئاً من شعره وكان رجلاً شاعراً.

وهنا وقفة تستحق التأمل، قد يظن بعض أنصاف المتعلمين أن شعراء الصحابة ثلاثة أو أربعة، منهم حسان وابن رواحة وكعب بن مالك، وهذا خطأ، فقد كان شعراء الصحابة عدداً كبيراً، وقد ألف عدد من العلماء في شعراء الصحابة كتباً.

وقد ذكر الكتاني عدداً من شعراء الصحابة، ونقل عن «الشرح الجلي» للشهاب البربير:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

[الصحابة كانوا معدن الشعر ومنبعه، وكان أشعرهم الخلفاء الأربعة، وكان أشعر الخلفاء الصدّيق. وقد رأيت شيخ مشايخنا السيد مصطفى البكري الصديقي جمع لجدّه الصّديق من كلامه ديواناً تعجز عن تقريظه أفواه المحابر، وألسنة الأقلام، رتبه على حروف المعجم، وكانت ابنته عائشة أشعر من الخنساء].

ومن شعراء الصحابة حسان، وكعب بن مالك، عبد الله بن رواحة، والنابغة الجعدي، والزبرقان، والعباس بن مرداس، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب، والعباس، وعبد الله بن عباس، ومعاوية، وأبو سفيان، والمغيرة بن شعبة... وغيرهم.

● وذكر الكتاني أن الحافظ فتح الدين محمد بن محمد الأندلسي المعروف بابن سيد الناس المتوفى ٧٣٤ جمع الشعراء من الصحابة الذين مدحوه ﷺ بين رجال ونساء في قصيدة ميمية، ثم شرحها في مجلد سمّاه: «مِنَح المِدَح» أو «فتح المِنَح» ورتبهم على حروف المعجم قارب بهم المائتين[1].

● وذكر أن علي بن شاكر الموستاري[2] المعروف بـ (جابي زاده) ألّف كتاباً سمّاه.

«حسن الصحابة، في شرح أشعار الصحابة».

طبع الجزء الأول منه، رتبه على القوافي، يترجم الصحابي ويذكر أشعاره....

---

(١) قلت: إذا كان عدد الشعراء الذين مدحوا النبي ﷺ ونقل لنا مديحهم مئتين فكم عدد الشعراء الآخرين الذين لم ينقل لنا مدحهم إياه ﷺ.

(٢) قال سركيس: هو علي أفندي فهمي الموستاري المولود سنة ١٢٦٥، هو ابن رفاعة بك بدوي وكان مدرساً بدار الفنون بالقسطنطينية. هكذا ذكر سركيس اسم أبيه وهذا يخالف ما ذكره الكتاني فليحقق.
وكتابه حسن الصحابة مطبوع في الأستانة ١٣٢٤ ويقع في ٣٦٢ صفحة.
انظر معجم سركيس ١٣٦٦/٢.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

أثبت فيه لأكثر من مائتي صحابي ما بين بيت مفرد وقصيد[1].

وكثيراً ما نقع على شعر جميل في كتب الأدب، وننظر ونبحث عن قائله فإذا قائله من الصحابة.

وتشيع مقولة باطلة وهي أن الشعر ضعف في عصر صدر الإسلام. وليس هذا صحيحاً[2]، إذ أن الشعر وعاء، فقد كان في الجاهلية يحتوي أفكاراً ساذجة ومبادىء جاهلية، فلما أن شرف الله هذه الأمة بالإسلام، وحملها رسالته العظمى، ورفع من قدر لغتها بالقرآن، اتسع هذا الشعر للمعاني الإسلامية، وهناك بحث جامعي قيم[3] تعرّض لهذه القضية، وبين أن الشعر في عصر صدر الإسلام تمثل هذه المعاني الإسلامية الجديدة، وعبّر عنها بأسلوب مبين.

ولنعد إلى سياق الحديث: فنزل عامر يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتفينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. فدعا له رسول الله ﷺ وهذا الرجز مرويٌّ لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ووارد في ديوانه.[4].

وقد ذكره البخاري في كتاب الجهاد في باب الرجز في الحرب[5]،

(١) انظر التراتيب الإدارية ١/٢١٠ - ٢١٣.
(٢) انظر الرد على هذه الفكرة الباطلة في كتاب الدكتور محمد مصطفى هدارة «دراسات في الشعر العربي» ١٨ - ٧٣.
(٣) كتبته زميلتنا الفاضلة د. وفاء السنديوني ونالت فيه شهادة الماجستير ونشرته في الرياض.
(٤) انظر ديوان عبد الله بن رواحة ط باجودة ص ١٠٦ والديوان ط القصاب ١٣٩ وانظر تخريجها في ص ١٧٤.
(٥) انظر فتح الباري ٦/١٦١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفيه أن النبي ﷺ كان يرتجز برجز عبد الله بن رواحة وأورد الأبيات.

وناقش هذه المسألة ابن حجر في الفتح[1] فقال:

[يحتمل أن يكون هو وعامر تواردا على ما توارد منه... أو استعان عامرٌ ببعض ما سبقه إليه ابن رواحة].

واستبعد الاحتمال الأول، وإن كان الشعر لابن رواحة فالاحتمال الثاني متعيّن وإن كان سياق رواية سلمة التي أوردها الشيخان في مواضع توحي بان الشعر لعامر والله سبحانه أعلم.

والحُداء هو سوق الإبل بضرب مخصوص من الغناء، والحُداء في الغالب إنما يكون بالرجز وقد يكون بغيره من الشعر[2] وقد جرت عادة الإبل أنها تسرع السير إذا حُدي بها.

والذي يبدو أن إنشاد الشعر كان لا ينفك عن التغني به، وهذا ليس مقصوراً على الحداء، بل إنه مألوف في إنشاد الناس.

والشعر والتغني به حكمه مرتبط بمضمون هذا الشعر، فإن كان حكمة أو وعظاً أو حماسة أو تشوقاً إلى طاعة أو تحريضاً على الجهاد، أو تسكيناً للولد في المهد، فهو جائز، وقد يحسن إن تأكد المرء من أثره في السامعين.

وأثر الشعر والأدب في السامعين والقارئين لا ينكر، وإن الفكرة التي لا يدعمها أدب منثور أو منظوم تفقد عنصراً من عناصر إشاعتها وانتشارها وبقائها.. إن الحركات العسكرية والفتوحات المظفرة أمر موقوت ببقاء القادة والفاتحين، فإذا زالوا تضعضع كيان المجتمع الذي بنته الفكرة.

وانظروا إن شئتم في عصور عدد من الشعراء، من بقي ذكره ذائعاً: هل القواد والحكام أم الشعراء والعلماء؟

---

(١) انظر فتح الباري ٧/٤٦٥.

(٢) انظر فتح الباري ١٠/٥٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإننا في عصرنا هذا نفتقر إلى أن يكون في الدعاة إلى الله من يمتلك ناصية البيان شعراً ونثراً وقصة.

أجل إننا بحاجة إلى شعراء مفلقين يفرضون وجودهم بإمكاناتهم ومواهبهم على الساحة الأدبية، وينشرون من خلال قصائدهم الدعوة الصحيحة، ويدعون الناس إلى سلوك الطريق المستقيم.

إننا بحاجة إلى كتاب موهوبين يستحوذون على إعجاب الناس بأساليبهم، فينفذون من خلال أدبهم إلى قلوب القراء وعقولهم.

أنت بحاجة إلى قصاصين مسلمين يملؤون الفراغ الذي نلمسه في كتاب القصة القائمة على الغريزة المتنكبة لسبل الهدى.

وفي هذا الحديث دليل من دلائل النبوة، وهو إخباره بما سيكون، ودلائل النبوة كثيرة، وقد أَلَّفَ فيها أئمة كبار على مختلف العصور،[1] وعلى الرغم من جهودهم المباركة فإنَّ هناك بعض الأدلة ظهرت ولم يتنبه إليها أولئك المؤلفون رحمهم الله.

وللمعاصرين بعض الجهود الطيبة في هذا الموضع، وإن كان الأمر يحتاج إلى ضبط للبحث ومنهجية محكمة والتزام بدقة الدلالات.. إذ نشكو من التوسع في الاستنباط[2] كما نشكو من التقصير في استيفاء الثابت منها.. وللتفصيل في هذا مجال آخر.

وقد لمس الصحابة رضي الله عنهم بأنفسهم كثيراً منها، وشاهدوها، ولقد زادتهم تلك الدلائل إيماناً على إيمانهم، ونقرأ في هذا الحديث أنه ﷺ لما دعا لعامر بن الأكوع بالرحمة قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله. لولا أمتعتنا به. هذه رواية البخاري، وتشرح هذه الرواية روايةُ مسلم للحديث وفيها:

---

(١) ذكرت طائفة منها في كتابي: بحوث في أصول التفسير ص ٢٨٥.

(٢) كما فعل الشيخ الغماري في كتابه مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية ﷺ مكتبة القاهرة ١٣٨٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال رسول الله ﷺ: غفر لك ربك. قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخُصه إلا استشهد. فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبيَّ الله لولا أمتعتنا بعامر.

وهذا يدل على محبة الصحابة بعضهم لبعض، ويدل أيضاً على أن إيمان الصحابة بوقوع ما يخبر به الرسول إيمان كبيرٌ جداً، سواء كان إخباره عن الأمر صريحاً أم عن طريق الإشارة.

فلقد ثبت عندهم ـ عن طريق التجربة والوقائع ـ أنّ من استغفر له النبي ﷺ يخصه، أو دعا له بالرحمة، وجبت له الشهادة، وكان عامر محبوباً يودُّ أخوانه بقاءه ليمتعوا ويسروا بأخوته، وليفيدوا من بلائه الحسن في القتال، وحُدائِه العذب في الطريق.

وفاز عامر بالشهادة، وقد دعا له النبي ﷺ ودعاؤه لا يردُّ.

والشهادة أمنية غاليةٌ عند الصحابة، ومعلوم مدى حرصهم رضي الله عنهم على الشهادة، فقد تكاثرت الشواهد من الآثار الصحيحة التي تصور ذاك الحرص أدق تصوير. وسأذكر شاهداً واحداً ورد في حديث سلمة الطويل الذي أخرجه مسلم والذي ضم طرفاً صالحاً من ترجمته:

أخبر سلمة في ذاك الحديث أنه استطاع وحده أن يرد القوم الذين سرقوا إبل رسول الله ﷺ وينتزع منهم هاتيك الإبل التي سرقوها، وكثيراً من عتادهم ومتاعهم، فقد كان يرميهم بالنبل ما كانوا في مرماه، وإن كانت منعرجات الجبل تحميهم من سهامه رماهم بالحجارة، وكان يقتل منهم بالوسيلتين. يقول: فما برحتُ مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، وإذا أولهم الأخرم الأسدي، وعلى إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي، فأخذ سلمة بعنان الأخرم، وطلب منه أن لا يتبع الأعداء لأنهم ولوا مدبرين، وقد خاف أن

---

(١) مسلم ط عبد الباقي ٣ صفحة ١٤٣٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يصيبه منهم سوء، وطلب منه أن ينتظر حتى يلحق الرسول الله ﷺ وأصحابه.

فقال الأخرم: يا سلمة. إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أنَّ الجنة حق، والنار حق، فلا تحلْ بيني وبين الشهادة.

● قال سلمة: فخليته، فالتقى هو ورأس من رؤوس الكفر هو عبد الرحمن الفراري، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن، فقتله، وتحول على فرسه. ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبدالرحمن فطعنه، فقتله.

إنه الحرص على الشهادة.. جعله يرجو صاحبه ألا يحول بينه وبين الشهادة.. ولذا فلا عجب أن يأتي هؤلاء القوم بالأمور العظيمة.. ذلك لأنَّ الإنسان عندما يعزم على أن يموت في سبيل الله، يصبح طاقة هائلة تخيف وتحقق لدينها كثيراً من المقاصد.

إن أصحاب محمد ﷺ هم سادات المجاهدين، استجابوا للنداء الكريم الذي أغراهم بالتجارة الرابحة في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣]

لقد كانوا أحرص على الموت من حرص أعدائهم على الحياة.. فظهرت على أيديهم بطولات وكرامات، وتحققت بجهادهم فتوحات وانتصارات.

* * *

ثم ذكر سلمة رضي الله عنه أن المسلمين أصابتهم مخمصة شديدة في أثناء الحصار.. ولمّا أن فتح الله خيبر عليهم أوقد المسلمون نيراناً كثيرة. فسأل رسول الله ﷺ: ما هذه النيران؟ وعلى أي شيء توقدون؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قذكروا له أنها على لحم حمر أهلية، وهذا يدل على أنها كانت مباحة، فأمرهم أن يهرقوها وأن يكسروا الأواني التي كانت فيها. فقال رجل: أونهريقها ونغسلها قال: أو ذاك. ففعل القوم.

لقد صبروا على الحصار والجوع وصابروا، ولمَّا أن فتح الله عليهم قاموا فنصبوا القدور على النيران وفيها لحم أباحه الله لهم.. ويفاجؤن بنسخ حكم الاباحة، وأضحى منذ ذلك اليوم لحم الحمار الأهلي محرماً.. ويأمرهم رسول الله ﷺ بإهراق ما في تلك القدور وتطهيرها أو كسرها.. فيستجيبون لذلك على الرغم من الجوع الشديد الذي كانوا يعانونه.

[والنسخ أسلوب ربّاني عظيم من أساليب تعهد الفرد والأمة بالعناية والتدرج بها في الالتزام حتى تستطيع القيام بأحكام الشريعة والتحلي بآدابها، ووسيلة من رفع الحرج عن الأمة][1].

وتعريف النسخ: [هو رفع الشارع حكماً شرعياً بدليل شرعي.

وهو جائز عقلاً، وواقع سمعاً، في شرائع ينسخ اللاحق منها السابق وفي شريعة واحدة.][2]

وقال الخضري:

[إذا تعلق خطاب الشارع بفعل من الأفعال طلباً أو تخييراً من غير تقيد بوقت، أو نصّ على تأبيد، ثم ورد خطاب آخر بعد استقرار الأول يرفع هذا التعلق سمي هذا الرفع نسخاً...][2].

وقال:

[جواز النسخ عقلاً مجمع عليه، لم يخالف في ذلك إلا فرقة منعته عقلاً.

---

(١) انظر كتابي الحديث النبوي ١٦٠.
(٢) أصول الفقه للخضري ٢٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والدليل على جوازه أنه لا يترتب عليه محال عقلي؛ بل هناك ما يقتضيه وهو أن المصالح تختلف باختلاف الأوقات.

فإن الفعل قد يكون في وقت ضاراً وفي وقت آخر نافعاً، فيطلب الكف عنه في الأول، ويطلب فعله في الثاني][1].

ذهب الجمهور من العلماء إلى أنَّ الحيوانات بالنسبة إلى الأكل أنواع ثلاثة:

١ ــ نوع حُرّم أكله.

٢ ــ نوع أبيح أكله.

٣ ــ ونوع سُكت عنه.

أما النوع الأول: وهو ما حُرّم أكله فيشمل ما يأتي:

١ ــ ما جاء فيه نص بتحريمه كالحديث الذي ندرسه، فقد نهاهم عن أكل لحوم الحمر الأهلية، ومن ذلك ما ورد تحريمه في القرآن كالخنزير والميتة ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

ومن ذلك الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي ثعلبة أنَّ النبي ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع. والحديث الذي أخرجه مسلم عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير[2].

٢ ــ ما ورد فيه أمر بقتله كحديث عائشة عن النبي ﷺ: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع[3]، والفأرة،

---

(١) أصول الفقه للخضري ٢٧٦.

(٢) صحيح مسلم برقم ١٩٣٤.

(٣) الأبقع: هو الذي في ظهره وبطنه بياض.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والكلب العقور، والحُدَّيا»[1] رواه البخاري ومسلم. والنسائي وابن ماجه[2] وكحديث أم شريك أن النبي ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ[3] رواه البخاري ومسلم.

٣ ـ ما ورد فيه نهي عن قتله كحديث عبد الرحمن بن عثمان أنَّ النبي ﷺ نهى عن قتل الضفدع[4] رواه أحمد وأبو داود والدرامي والحاكم والنسائي.

وأما النوع الثاني: وهو ما أبيح أكله فكبهيمة الأنعام المذبوحة وفق شرع الله، والمصيد من الحيوانات والطيور التي أباح الشرع أكلها وفق الشروط الشرعية.

وأما النوع الثالث: وهو الذي لم يرد فيه نص تحريم ولا تحليل ولا أمر بقتله ولا نهي عن قتله فحكمه كما قال الإمام البغوي:

[فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب، لأنَّ الله سبحانه خاطبهم بقوله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤].

فثبت أن ما استطابوه فهو حلال، وما تركوه فمن الخبائث][5] انتهى كلامه رحمه الله.

وفي هذا الحديث أن عامراً رمى العدو فرجع السيف إليه فأصاب ركبته فمات.

---

(١) الحديا: الحِدأة، والكلمة مصغرة.
(٢) البخاري ٣/١٢ ومسلم ٢ برقم ١١٩٨ والنسائي ٥/١٤٨ وابن ماجه برقم ٣٠٨٧.
(٣) البخاري (الفتح ٦/٣٥١ و ٣٨٩) ومسلم ٤ برقم ٢٢٣٧.
(٤) المسند ٣/٤٥٣ وأبو داود ٣٨٧١ و ٥٢٦٩ والدارمي ٢/٨٨ والحاكم ٤/٤٤٤ والنسائي ٧/٢١٠.
(٥) شرح السنة ١١/٢٤١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد دل على أن قاتل نفسه خطأ لا حرج عليه، وهذا مبدأ إسلامي عام..

وكل أمر لا يتعمده الإنسان فلا إثم عليه في فعله، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1]

ولكن الحرج يرفع عن العبد عند الله تعالى، أما بالنسبة إلى حقوق العباد فلا بد من تحميله مسؤولية ما.. فمن قتل غيره خطأ كان على عاقلته أن تدفع الدية إلى ورثة المقتول، وكان عليه أن يخرج الكفارة وهي عتق رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٩٢]

وهذا منتهى العدالة، وكذلك لو أنه ضرب سيارة غيره خطأ فلا إثم عليه عند الله، ولكنَّ ذلك لا يعفيه من إصلاح ما صدر بسببه خطأ.. وهكذا.

وقتل الإنسان نفسه كبيرة من الكبائر: فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من تردى[2] من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً.

ومن تحسَّى سُمّاً فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً.

ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجأ[3] بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً».

رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي[4]

---

(١) انظر «مختصر المقاصد» برقم ٤٩٨.
(٢) أي رمى نفسه من الجبل أو غيره فهلك.
(٣) أي يضرب بها نفسه.
(٤) الترغيب والترهيب ١٢٨/٣ وانظر الأحاديث الأخرى في الموضوع.

وهذا ـ عند أهل السنة والجماعة ـ بالنسبة لمن يستحل ذلك، وهو منصرف إلى قاتل نفسه عمداً.

ويبدو أن بعض الصحابة الذين سمعوا هذا الحديث وأمثاله من الرسول ﷺ حسبوا أن ذلك عام فيمن قتل نفسه عمداً كان أو خطأ.. فتناقلوا الكلمة: حبط عمل عامر، وبلغت هذه الكلمة سلمة. فساءته وأحزنته، حتى ظهر ذلك على وجهه يقول سلمة: فلما قفلوا رآني رسول الله ﷺ شاحباً فقال لي: ما لك؟

فقلت: فدى لك أبي وأمي. زعموا أن عامراً حبط عمله.

قال: من قاله؟ قلت: قاله فلان وفلان. فقال رسول الله ﷺ: «كذب من قاله. إنَّ له لأجرين وجمع بين اصبعيه إنه لجاهد مجاهد».

فبين ﷺ أنَّ عامراً خرج للجهاد، وقد بذل جهده، وقد تحقق مقصوده، وهو الجهاد في سبيل الله، والأعمال بالنيات.

إن ذاك الوعيد الشديد منصرف إلى قاتل نفسه عمداً.. أما من خرج لقتال أعداء الله فارتد عليه سلاحه فهذا شهيد نال شرف الشهادة في سبيل الله.

وقد بحث العلماء في أمر قاتل نفسه خطأ: هل تلزم العاقلة بدفع الدية لوريثه. فذهب الجمهور إلى أنه لا دية له. واستدلوا بهذا الحديث. ومن هنا قال الإمام البخاري: إذا قتل نفسه خطأ فلا دية له، ويكون الحكم على من قتل نفسه عمداً كذلك من باب أولى.

في الحديث صورة لجيل الصحابة وحرصهم على الخير وتفانيهم في سبيله، عرض ذلك سلمة بأسلوب جذاب في هذا الحديث الجميل الرائع.

الحديث السابع عشر

سبق أن ذكرت مرات أنَّ في مدونات السنة نصوصاً أدبية رائعة، جمعت من صنوف البيان، ونكت البلاغة، وجزالة الأسلوب، ما لا نجده في كثير من النصوص الشائعة المذكورة، ونود أن نعرض نصاً جميلاً معظمه لأم المؤمنين أم سلمة زوج النبي ﷺ وبعضه لجعفر بن أبي طالب ويحكي هذا النصّ قصة النجاشي مع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، فلقوا من ملكها النجاشي الإكرام وحسن الجوار.

وأم سلمة مجاهدة صابرة، امتازت بالرأي السديد، والبصيرة النافذة، والعقل الكبير، والوفاء الجمّ، والعلم الواسع.

ولنعرِّفْ بكلٍّ من أم سلمة وجعفر:

● أما أم سلمة فهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية، وأبوها أبو أمية أحد أجواد العرب، كان يلقب زاد الراكب؛ لأنه كان إذا سافر لا يترك أحداً ممن يرافقه ينفق شيئاً، ولا يقبل أن يحمل أحدٌ زاده معه، بل كان يكفي رفقته من الزاد.

واسم أبي أمية حذيفة، وقيل: سهيل.

وأمها عاتكة بنت عامر الكنانية. وقد تزوجها ابن عمها أبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي، واسم أبي سلمة عبد الله، من السابقين الأولين إلى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، وكان أخا النبي ﷺ من الرضاعة، كما ثبت في الصحيحين[1]. وأسلمت أم سلمة معه.

وقد شهد أبو سلمة بدراً وأحداً وجرح بها، ثم بعثه النبي ﷺ على سرية إلى بني أسد في صفر سنة أربع، ثم رجع فانتقض جرحه فمات في جمادى الآخرة.

أخرج البغوي[2] أن أبا سلمة جاء إلى أم سلمة فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً أحبَّ إليّ من كذا وكذا، سمعته يقول: «لا يصيب أحداً مصيبة فيسترجع عند الله ثم يقول: اللهم عندك احتسبت مصيبتي هذه، اللهم اخلفني خيراً منها إلا أعطاه الله» قالت أم سلمة: فلما أصيب أبو سلمة، قلت: ولم تطب نفسي أن أقول: اللهم اخلفني خيراً منها. ثم قلت: مَنْ خيرٌ مِنْ أبي سلمة؟ أليس...؟ أليس..؟ ثم قلت ذلك، فلما انقضت عدتي، أرسل رسول الله ﷺ يخطبني، فتزوجته.

وقد أخرج النسائي[3] بسند صحيح عن أم سلمة:

لما انقضت عدتها بعث إليها أبو بكر يخطبها، فلم تتزوجه، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ عُمَرَ بن الخطاب يخطُبها عليه. فقالت: أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غيرى وأني امرأة مُصْبِيَة[4] وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً. فأتى رسولُ الله ﷺ فذكر له ذلك.

فقال: «ارجع فقل لها: أما قولك: غيرى، فسأدعو الله تعالى فيذهبُ غيرتك. وأما قولك: إني امرأة مُصْبية، فَستُكْفَيْنَ صبيانَك. وأما قولك أن ليس أحدٌ من أوليائي شاهداً، فليس أحدٌ من أوليائك شاهدٌ أو غائبٌ يكره ذلك. فقالت لابنها: يا عمر! قُمْ فزوِّج رسولَ الله ﷺ فزوجه.

---

(١) الإصابة ٢/٣٢٧.
(٢) وأخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود. وأحمد ٦/٣٠٩.
(٣) النسائي ٦/٨١ باب إنكاح الابن أمه من كتاب النكاح.
(٤) أي ذات غيرة فلا أستطيع الاجتماع مع الزوجات وذات صبيان.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال ابن حجر[1]:

وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، والرأي الصائب، وإشارتُها على النبي ﷺ يوم الحديبية[2] تدل على وفور عقلها وصواب رأيها.

وقد لاقت في سبيل إيمانها شدائد وصعوبات، فصبرت وصابرت وجاهدت وثبتت، فمن ذلك هجرتها إلى الحبشة، وهجرتها إلى المدينة. جاء في البداية والنهاية[3].

لقد كان أبو سلمة أول من هاجر إلى المدينة من المهاجرين من قريش من بني مخزوم، وكانت هجرته إليها قبل بيعة العقبة بسنة، حين آذته قريش بعد مرجعه من الحبشة، فعزم على الرجوع إليها، ثم بلغه أنّ بالمدينة لهم إخواناً فعزم إليها.

تقول أم سلمة: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها، إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت فتجاذبوا ابني (سلمة) بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم. وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: فَفُرِّق بيني وبين ابني وبين زوجي. فكنت أخرج كل غداة

---

(١) الإصابة ٢/٤٤٠.
(٢) البداية والنهاية ٤/١٧٦.
(٣) البداية والنهاية ٣/١٦٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي ـ سنةً أو قريباً منها ـ حتى مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة:

ألا تخرجون من هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، فردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. ثم خرجت إلى المدينة.

وروت الكثير من الأحاديث رضي الله عنها وأرضاها، وتوفيت سنة إحدى وستين أو اثنتين وستين أو ثلاث وستين وهي آخر أمهات المؤمنين موتاً.

● وأما جعفر بن أبي طالب فهو ابن عم النبي ﷺ وأحد السابقين إلى الإسلام، كان خير الناس للمساكين، فقد كان يحب المساكين، ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه، وكان رسول الله ﷺ يكنيه أبا المساكين[1] وقال له النبي ﷺ: «أشبهت خلقي وخلقي» رواه البخاري ومسلم[1].

وكان شقيق علي، وكان أسنَّ منه بعشر سنين. استشهد بمؤتة[2] من أرض الشام مقبلاً غير مدبر مجاهداً للروم في حياة النبي ﷺ سنة ثمان في جمادى الأولى.

وقد قال النبي ﷺ: «رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة» رواه الطبراني؛ وذلك لأنه قاتل حتى قطعت يداه. ومن هنا جاء لقبة «جعفر الطيار» رضي الله عنه وأرضاه.

* * *

(١) الإصابة ١/٢٣٩.

(٢) مؤتة: موضع في بلاد الشام، وقد أقامت الحكومة الأردنية في مكانه جامعة مؤتة وهي جامعة مدنية عسكرية. وقد زرتها ورأيت أرض المعركة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

● قال محمد بن إسحاق: حدثنا الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي[1] عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت:

لمّا نزلنا أرض الحبشة جاوْرنا بها خيرَ جارٍ النجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعَبَدْنا الله، لا نُؤْذى ولا نسمعُ شيئاً نكرهه.

فلما بَلَغَ ذلك قريشاً ائتمروا على أن يبعثوا إلى النجاشيِّ هدايا ممّا يستظرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلّا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشيَّ فيهم، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

وعمرو بن العاص علم مشهور، أما عبد الله بن أبي ربيعة فقال السهيلي في «الروض الأنف»[2] في تعريفه:

[وعبد الله بن أبي ربيعة هذا كان اسمه بحيرا، فسماه رسول الله ﷺ حين أسلم عبد الله، وأبوه أبو ربيعة ذو الرمحين.. واسم أبي ربيعة عمرو، وقيل: حذيفة. وعبد الله بن أبي ربيعة هذا والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر..].

قالت أم سلمة: فخرجا، فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، وعند خير جوار، فلم يبق، من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن

---

(١) انظر هذا الحديث في سيرة ابن هشام، ٢/٨٧ وفي سيرة ابن اسحاق تحقيق محمد حميد الله طبع تركيا ص ١٩٤ وفي كتاب «هداية الحيارى» لابن القيم ص ٢٣ وما بعدها، وانظر «البداية والنهاية» ٣/٧٢ وما بعدها، والزهري وأبو بكر قمتان في الثقة حجتان وابن اسحاق ثقة: إذا صرّح بالتحديث، كما في النصّ، فالحديث صحيح.

(٢) انظر الروض الأنف ٢/٩٠.

يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإنهم أعلى بهم عيناً، وأعلمُ بما عابوا عليهم. فقالوا: نعم.

ثم إنهما قرّبا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم، ثم كلّماه فقالا له:

أيها الملك! إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت أم سلمة: ولم يكن شيءٌ أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشيُّ كلامهم. (أي كلام المسلمين المهاجرين).

فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك! قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما ليردوهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشيُّ، ثم قال: لا والله. إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد، أقوامٌ جاوروني ونزلوا ببلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألَهم عمَّا يقولُ هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت أم سلمة: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟.

قالوا: نقول ـ والله ـ ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوه ـ وقد دعا النجاشيُّ أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم فقال:

ـ ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا دين أحد من هذه الأمم؟.

(قالت أم سلمة: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب) فقال له:

ـ أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القويُّ منا الضعيف. فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه.

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة.

وأمرنا أن نعبد الله لا نشركُ به شيئاً.

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...

(قالت أم سلمة) فعددّ عليه أمور الإسلام) فصدقناه، وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عز وجلّ، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك!.

ـ قالت أم سلمة فقال النجاشي:

هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟.

ـ فقال له جعفر: نعم.

ـ فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ.

فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ـ ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد.

قالت أم سلمة: فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينَّهُ غداً أعيبهم عنده بما أستأصل به خضراءهم.

قالت فقال عبد الله بن أبي ربيعة ـ وكان أبقى الرجلين فينا ـ: لا تفعل فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

قالت أم سلمة: ثم غدا عليه من الغد فقال له:

ـ أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم فسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها. فاجتمع القوم، فقال بعضم لبعض: ـ ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ـ قالوا: نقول ـ والله ـ ما قال الله عز وجلّ، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم:

ـ ما تقولون في عيسى بن مريم؟

ـ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء بـه نبينا: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتـول وروح منه، فدلى النجاشيُّ يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً بين أصبعيه ثم قال:

ـ ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العويد.

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال.

فقال: وإن نخرتم، وإن نخرتم والله. ثم قال للنفر من الصحابة:

إذهبوا فأنتم آمنون في أرضي. من سبّكم غرم. من سبّكم غرم. من سبكم غرم. ما أحب أنَّ لي جبل ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما، ولا حاجة لي بها...

قالت أم سلمة: فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار].

* * *

أسلوب أم سلمة في هذا الحديث أسلوب متين سهل، فيه تصويـر دقيق لحال المهاجرين المسلمين، وسرورهم بالأمن الذي كانوا يتقلبون فيه في الحبشة، وتصوير للمفاجأة التي رافقت وصول وفد قريش من المشركين إلى الحبشة، الذي جاء يطلب إعادة هؤلاء المهاجرين إلى ديارهم مكبلين مقهورين، وفي الحديث تصوير للقلق الذي ساور المسلمين وللغم الذي نزل بهم.

وقد ذكرت أم سلمة المراحل الأولى لفكرة الوفد، والـدوافع لهـا، وكانت الدوافع تقوم على حقـد عظيم على الـدين الجديـد، وخشية من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

انتشاره، وتخوف من قيام ملجأ يأوى إليه أولئك المؤمنون المستضعفون، ينجون فيه من الأذى والاضطهاد، والتعذيب والتنكيل. إنهم أدركوا أن الناس إذا تسامعوا بهذا الملجأ أقدموا على الدخول في دين الله أفواجاً، فتزول بذلك العقبات الصعبة والمخاوف المرهبة التي كانت تقوم في وجه الراغبين في الدخول بهذا الدين، وهذا يضعف موقف المشركين من كبراء قريش.

إنَّ نزوح نفرٍ قليل من المؤمنين إلى الحبشة أخاف المشركين، وأقلقهم حتى غدا هذا النزوح في نظرهم مشكلة تهددهم، وتفلُّ سلاحهم الذي كانوا يشهرونه في وجه المؤمنين، فالحبشة بلاد مفتوحة لكل من يتعرض للفتنة في دينه، فهناك وسط جيد فيه الأمن، واحترام إنسانية الإنسان، وإمكانية ممارسة المسلم عبادته بحرِّيةٍ وسلام. فائتمروا ونظروا في علاج هذا الواقع، وكان ثمرة ذلك هذا الوفد الذي جاء إلى الحبشة.

ومن روعة أسلوب أم سلمة رضي الله عنها أنه ينقل الحدث إلينا، وكأننا نشاهده ونراه ونسمع حوار القوم، فلا تترك جزئية من الجزئيات التي تتصل بتصوير الحدث دون أن تذكرها بتفصيل أو أن تشير إليها.

● وهذا النصّ يدل على جوانب من شخصية أم سلمة المتميزة، فلقد كانت على معرفة تامة بالوسط الذي كانت فيه، تعرف عقائدهم، وتعرف صيغة ذاك المجتمع، وطبقة المسؤولين والمستشارين هناك، وسلطات كل فريق من تلك الطبقة، وحال الملك النجاشي.

ويدل النصّ على أن أم سلمة رضي الله عنها كانت تشارك مشاركة تامة في الأحداث التي مرَّ بها النفر من المهاجرين. وهذا يدل على أن المرأة المسلمة تهتم بشؤون المسلمين، وتتبع أوضاعهم، وأنها يمكن أن تسهم في تحقيق المصلحة الإسلامية للمسلمين إلى حد بعيد ضمن طاقتها ووفق الشروط الإسلامية المتعلقة بالنساء.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويبدو أنها رضي الله عنها حضرت تلك الاجتماعات التي نقلت في هذا الحديث ما جرى فيها والله أعلم.

● وكانت تعرف الكثير من خصائص الرجلين اللذين حضرا للإساءة إلى المسلمين فهي تقول: (ولم يكن شيءٌ أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم) أي كلام المسلمين.

وتعرف أن عمراً أقسى على المسلمين من عبد الله.

لقد كانت تعرف أن الرجلين يدركان أن المسلمين على حق، ومن هنا كانا يخافان أن يتكلم المسلمون أمام النجاشي، لأن لكلمة الحق سلطاناً على السامع إذا برىء من الهوى.

وكانت تعرف أن الرجلين يعلمان الكثير عن مواهب هؤلاء المهاجرين، فهم قد أوتوا مقدرة عظمى على جودة عرض فكرتهم، فكلامهم منظم متسلسل، مؤيد بالحجة والبرهان والإقناع... وهذا ما أثبته الواقع الذي جرى بعد ذلك.

● وقد لجأت في أسلوبها إلى الاختصار فهي عندما نقلت كلمة جعفر الجميلة الجامعة قالت: (وعدّد عليه أمور الإسلام) ولم تذكرها.

* * *

وهذا يقودنا إلى الحديث عن كلمة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فلقد تكلم أمام النجاشي مرتين، وتلا شيئاً من آيات القرآن الكريم.

لقد أوتي جعفر مقدرة على حسن عرض فكرته، والفكرة السليمة لا بد لها من عرض جيد لتصل إلى قلوب الناس، ويعتمد هذا العرض على أسلوب مؤثر، وبيان مشرق، وحجج قوية.

ويمتاز أسلوب جعفر بأنه يسوق الأفكار متسلسلة منسجمة محكمة، ووراء ذلك فكر منظم، ومعرفة جيدة بالدين الذي يعرضه.

لقد ذكر المساوىء التي كانت في الجاهلية، وهو يريد أن هذه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المساوىء كانت موجودة، ولا يعني ذلك أن كل فرد من أبناء ذاك العصر يتصف بها، فإساءة الجوار التي أشار إليها كانت موجودة إلى جانب حسن الجوار، يذكر ذلك طفيل في قوله:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أنَّ أمنا ... تلاقي الذي لاقوه منا لملت
هُمُ أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت أدفأت وأظلت[1]

ثم ذكر دعوة النبي ﷺ التي أنقذتهم من تلك المساوىء، فذكر جانب العقيدة.

وذكر عدداً من الواجبات التي أمرهم بها، وعدداً من المحرمات التي نهاهم عنها، ثم ذكر ما لقي المسلمون من قومهم عندما آمنوا بتلك الدعوة وعملوا بمقتضاها، فكان ذلك سبباً للهجرة.

إنَّ في حديث الهجرةِ إلى الحبشة، ومحاولةِ قريش استردادَ مَنْ رَحَلَ إليها، إنَّ فيه دروساً نافعات:

● منها أنَّ المسلم ينبغي أن يكون عارفاً عصره، مدركاً للأوضاع السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية لبلده والبلاد الأخرى في زمانه.

لقد عرف المسلمون أن في الحبشة ملكاً لا يُضام من التجأ إليه، ينصر المظلوم، ويُؤوي من ينزل بداره، ويُجير من استجار به، فذهبوا إليها فراراً بدينهم.

ولذا كان على الملتزمين بالإسلام والدعاة إليه أن يكونوا متابعين لأحداث عصرهم، ولا سيما في مثل هذه الحقبة التي نمر بها، إذ تتسارع الأحداث، وتتحول المواقف، وتنقلب الأوضاع بسرعة مذهلة، لم يكن المرء ليتوقعها على هذا الوجه.

---

(١) ديوان طفيل ص ٩٨ وانظر كتابي الوصف في مدرسة عبيد الشعر ص ٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وعليهم أن يكونوا واعين وعياً مبصراً حتى تكون تصرفاتهم حكيمة سديدة.

● ومنها أن المسلم عليه ألا يرضى بالهوان، وألا يعطي الدنية في دنية من أجل البقاء في بلده وبين أهله، بل عليه أن يرحل إلى حيث يقوى على إقامة شعائر دينه، ويعيش آمناً على نفسه وعرضه وكرامته.

فالبلاد كلها بلاد الله، والرزق بيد الله، والإنسان هو إنسان بالمعاني التي يحياها، لا بالإقامة بين جدران معينة، وفوق أرض معينة.

نعم أمر الارتحال والتنقل والسكنى في الماضي كان أهون منه الآن، ولكن المرء لا يعدم وجود حيلة إن هو استخدم عقله، وأحسن استغلال الفرص وقنع بالكفاية، وعليه أن يسعى ويبذل جهده.

والارتحال[1] درجات، فقد ينقذ المرء مما يعاني ارتحال من مدينة إلى مدينة، أو من حي إلى حيّ، أو من بلد إلى بلد.

لنتصور بعد الحبشة عن مكة في ذاك الزمان.. ومع ذلك فقد كانت الحبشة مهاجراً.

● ومنها أنَّ شخصية الموفد وحامل الرسالة والمفاوض لها أثر كبير على تحقيق الغرض المقصود. ونحن في هذا الحديث أمام شخصيتين عظيمتين، إحداهما كانت تمثل مشركي مكة، والأخرى كانت تمثل المهاجرين المؤمنين.

فعمرو بن العاص شخصية فذة، كان من أعظم العقلاء، والدهاة الذين عرفهم التاريخ، وجعفر بن أبي طالب بدا في النص يمتلك قدرات هائلة في الإقناع والتأثير، والدفاع، وقد اجتمعت عوامل متعددة خدمت مهمة جعفر وحققت له ولإخوانه النجاة والظفر والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) هناك ارتحال بحجة التعلم أو التداوي أو العمل، أو اللجوء... أو ما إلى ذلك .. الخ..

www.alukah.net
شبكة الألوكة

● وللهدية دور في التأثير على الإنسان، وقد انتبه لهذا الأثر الناس منذ القديم، فهذه بلقيس تقول: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

وليس شأن الهدية عائداً إلى عظم قيمتها، ولا إلى حاجة الإنسان إليها، بل شأنها في المعنى الذي تحمله، وقد رغب الشرع في الهدية مهما كانت قيمتها ولو كانت فرسن شاة، فقد روى البخاري ومسلم [١] أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارةٌ لجارتها ولو فرسن شاة».

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» رواه مسلم[٢].

إن الهدية تدل على اهتمام المهدي بمن يبعث إليه الهدية، فيستميل قلبه، ومن هنا جاء في حديث حسن قوله ﷺ: «تهادوا تحابوا»[٣] ويتهادى الناس القليل والكثير.

ويعظم أثرها ودلالتها عندما تكون الهدية ذات موقع عند من تقدم إليه، وعندما تحوز إعجابه.

والهدية لا تُردُّ إلا إن شيبت بشائبة الرشوة ونحوها، ومن هنا حرم على القاضي وعلى كل ذي ولاية أن يقبل هدايا الناس.

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ استعمل رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلي فقال ﷺ:

«أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إليَّ. فلا جلس في بيت أبيه أو أمه

---

(١) البخاري ٥/١٩٧ برقم ٢٥٦٦ ومسلم ٢/برقم ١٠٣٠.

(٢) صحيح مسلم ٤ ص ٢٠٢٥ باب الوصية بالجار رقم ١٤٢.

(٣) مختصر المقاصد برقم ٣٢٨ قال الزرقاني: حسن.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً. والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة. . .» متفق عليه[1].

إن تسمية الرشوة هدية لا يغير من حقيقتها. . إن تسمية الأشياء بغير أسمائها لا يغير الحكم، وهذا أسلوب من أساليب المكر قد يستعمله بعضهم ليسوغ لنفسه العمل المحظور، أو ليورط غيره في الوقوع بالحرام. . وإننا لنجد ذلك في غير الهدية. . فقد أصبحوا يسمونه الربا فائدة، والخمور مشروبات روحية، والاختلاط المستهتر والفساد والفسق فناً، والرشوة هدية(أو حق الشاهي) والإلحاد حرية فكرية، وانتزاع الأموال من أصحابها وسرقتها واغتصابها يسمون ذلك الظلم الصارخ عدالة اجتماعية. . وما إلى ذلك.

والهدية قد تؤدي غرضاً سياسياً وفكرياً، ومن الأمثلة عليه صنيع قريش مع النجاشي وبطارقته، وقد تؤدي غرضاً دينياً، وذلك كأن يهدي المرء إنساناً فقيراً متعففاً لا يقبل الصدقة ولا الزكاة، أن يهديه ما يسد حاجته وضروراته، وقد تكون في بعض الأحيان عوناً لمن يبدأ حياة زوجية جديدة، إذ يعمد بعض الأفاضل إلى تقديم هدايا للزوجين تعينهما على تأثيث البيت، كالثلاجة والفرن والغسالة والمكواة والسجاد وما إلى ذلك. . وهكذا تؤدي الهدية غرضاً اجتماعياً مهماً.

● وإذا نظرنا في كلمة جعفر رضي الله عنه التي ألقاها بين يدي الملك رأينا فيها درساً عملياً للدعاة إلى الله يستحق التقدير والإعجاب والاقتداء. . لقد كانت كلمة موفقة صيغت بأسلوب مناسب محكم، والتزم فيها جعفر الصدق،وكان موفقاً في عرضه واستعطافه. . فقد ذكر فيها ما كانوا عليه في الجاهلية. . ثم ما دعاهم إليه الرسول في الإسلام وعدّد أركان الإسلام وأموره، ثم ذكر موقف قومهم منهم لما آمنوا وتعذيبهم إياهم،

---

(١) صحيح البخاري الفتح ٥ برقم ٢٥٩٧ وصحيح مسلم ١٨٣٢ ومسند أحمد ٤٢٣/٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفتنتهم لهم في دينهم، وهذا هو الذي حملهم على الهجرة واختيار بلاد الملك الذي لا يظلم عنده أحد، وأثار فيه العطف ونصرة المظلوم.

ومما يسجل لجعفر وإخوانه أنهم قرروا أن يصدقوا الملك عن حقيقة دينهم، وليكن ما يكون، فلقد قالوا بعدما تشاوروا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

إن أصحاب العقيدة ينبغي أن يكونوا صادقين في عرض عقيدتهم وألا يتنازلوا عن شيء منها مجاملة لمخالفيهم.. إنهم عندئذ يحترمون من قبل موافقيهم ومخالفيهم.

وقد وجد في عصرنا نفر ممن يدعون أنهم دعاة يجاملون أتباع الديانات الأخرى يبتغون رضاهم مع أن الله سبحانه: أيأسنا من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والتخلي عن شيء من العقيدة يدخل الجور على العقيدة كلها، فانتزاع عنصر ما من سبيكة يفقدها خصائصها التي تكون لها باجتماع هذه العناصر كلها.

وهذا الصدق في عرض الفكرة يورث الثقة في نفوس المدعوين، وقد يكون ذلك عاملاً من عوامل دخولهم في الدين الجديد. أما إذا لمس المدعوون أن الداعية يخفي شيئاً من عقيدته مجاملة للآخرين، فقد يزلزل ذلك التصرف الثقة في نفوسهم ويتهمون الدعاة بالكذب والتدليس.

وفي هذا الحديث نجد المشركين يتهمون المسلمين بأنهم سفهاء لأنهم تخلوا عن دين آبائهم الباطل.

وهذا ما نسمعه في كل عصر في أحاديث الفجار عن المتقين الأبرار.. وقد يكون مع هذه الاتهامات الاعتقال والقمع والتعذيب والقتل، ولا عجب أن يكون ذلك وربنا يقول في محكم التنزيل:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ألم يقل فرعون عن موسى مقولة مثل هذه المقولات قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث الثامن عشر

كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته: الأمير راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1] رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي.

إن الشعور بالمسؤولية هو الخطوة المتقدمة التي نصلح بها كثيراً من الفساد والتخلّف في حياتنا. والمسؤولية في الإسلام عند المؤمنين به حقاً وصدقاً عميقة الجذور تنبع من أعماق النفس، عظيمة الآثار.. يشعر بها المسلم عندما يكون وحيداً فريداً كما لو كان في ملأ تزدحم عليه أعين الرقباء، لأن الذي يسأله هو الله رب العالمين، وسيقف بين يدي عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. وسينشر كتاب أمام ناظريه يحصي كلّ ما عمل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[آل عمران: ٣٠] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

---

(١) البخاري ٢/٥ ومسلم ٦/٨ ومسند أحمد ٢/٥ وأبو داود ٣/١٨٠ والترمذي ٣/٣٣ ومختصر المقاصد رقم ٧٥٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

وقد ذكر هذا الحديث المسؤولية التي تتمثل في الحاكم ووليّ الأمر الذي يلي أمر الناس، وفي كل من له ولاية عامة. وقد بلغ الخلفاء الراشدون من الشعور بالمسؤولية مستوى رفيعاً نلمسه من كلمة عمر رضي الله عنه: ولو أن شاة بالعراق تعثرت فأصابها أذى لخشيت أن أسأل عن ذلك: لمَ لمْ أعبد لها الطريق[1]. وذكر الدميري[2] أنه لما رجع عمر رضي الله عنه من الشام إلى المدينة، انفرد عن الناس ليتعرّف أخبار رعيّته، فمرَّ بعجوز في خبائها، فقصدها:

ـ فقالت: يا هذا! ما فعل عمر؟.

ـ قال: قد أقبل من الشام سالماً.

ـ فقالت: لا جزاه الله عني خيراً.

ـ قال: ولم؟.

ـ قالت: لأنه ـ والله ـ ما نالني من عطائه منذ تولّى أمر المؤمنين دينار ولا درهم.

ـ فقال: وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع؟.

ـ فقالت: سبحان الله! والله ما ظننتُ أنَّ أحداً يلي على الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها.

---

(١) أخرج أبو نعيم في «الحلية» ١/٥٣ بسنده إلى عمر قال: لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أنَّ الله سائلي عنها يوم القيامة.

(٢) حياة الحيوان ١/٥٠.

فبكى عمر رضي الله عنه وقال:

واعمراه! كلُّ أحدٍ أفقهُ منك، حتى العجائز يا عمر.

ـ ثم قال لها: يا أمة الله! بكم تبيعينني ظلامتك من عمر، فإني أرحمه من النار.

ـ فقالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله.

ـ فقال: لست بهازىء.

فلم يزل بها حتى اشترى منها ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب وابن مسعود.

فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت:

ـ واسوأتاه! شتمتُ أمير المؤمنين في وجهه.

ـ فقال لها عمر رضي الله عنه: لا بأس عليك، رحمك الله.

ثم طلب رقعة يكتب فيها، فلم يجد، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ وُلِّيَ إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً، فما تدَّعي عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى، فعمر بريء.

شهد على ذلك علي بن أبي طالب وابن مسعود.

ثم دفع الكتاب إلى ولده وقال:

إذا أنا مت فاجعله في كفني ألقى به ربي].

وذكر هذا الحديث أيضاً مسؤولية رب الأسرة، ومسؤولية الخادم ومثله

أولئك الذين يقومون بأعمال مقابل أجر يتقاضونه. ولقد كان نصيب الأسرة من الحديث أكبر نصيب إذ ذكر الرجل والمرأة.

والصورة التي نقف عليها في هذا الحديث الرائع الجميل تتمثل في راعٍ يرعى غنماً.. وتنتظره محاسبة صارمة دقيقة يحاسب فيها حساباً عسيراً، يحاسب عن صحة الغنم وشبعها وريها وسلامتها ونمائها، فإذا عرف هذا الراعي أنه يترتب على المحاسبة مسؤولية تقتضي بعقابه العقاب الأليم إن أساء، ومكافئته إن أحسن.. إنه ـ دون شك ـ سيرعى غنمه عندئذ أفضل رعاية، وسيقوم بشؤونها على أتم الوجوه.

والمسؤولية التي لا يكاد يخلو أحد منها هي مسؤولية الأسرة.. إن كثيراً من الآباء والأمهات لا يقدرون هذه المسؤولية قدرها.

وإن أهم ما يواجههم بالنسبة إلى أولادهم قضية العقيدة والإلتزام بأحكام الدين والخلق الكريم وأداء العبادة. ويأتي بعد ذلك تعليمهم العلوم التي يحتاجون إليها في شؤون دينهم ودنياهم. وسبب فساد الولد يعود إلى عاملين هما إهمال تربيته وتركه للعوامل الخارجية، أو إفساده بتلقينه مبادىء الهدم وتنشئته عليها.

إن الطفل عجينة بيدك يا أخي فاحرص على أن تجعلها وفق شريعة الله... أنشئه على حبّ الإسلام والعمل به والدعوة له.. إنك أيها الأب تكسب بذلك الفوز في الدنيا والآخرة.

إنَّ الأب المسلم الذي يحرص على ذلك يجد الطريق معبداً أمامه، لأن المولود يولد على الفطرة السوية التي تنسجم مع الإسلام، فرسول الله ﷺ يقول: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة» والإسلام دين الفطرة، وهذا المعنى واستيعابه يلقي ظلال التفاؤل على العملية التربوية؛ إذ أنك عندما تنشىء ابنك على الإسلام تسير وفق فطرته التي فطره الله عليها، وتمضي مع ميوله التي خلقه الله عليها، أما أولئك المنحرفون فإنهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كالذين يسبحون في معاكسة التيار، ولذلك فهم يلاقون عناء كبيراً ويبذلون جهداً وفيراً.

إنّ الإسلام دين الفطرة والسماحة والبساطة، لا تعقيد فيه ولا غموض، ولا مصادمة فيه للميول والغرائز، ومن هنا كان بذل شيء يسير من الجهد والاهتمام ودراسة الوسط الذي يحيا فيه الطفل كان ذلك عوناً للوالد على النجاح في مهمته على أكمل وجه.

إنّ عقيدة الوليد الناشيء تكون كعقيدة أبيه، تغرس في نفسه تلقائياً، ويرضعها مع لبن أمه، ولا ينبغي أن نغض الطرف عن التشويه للفطرة وتدنيسها الذي عراها.. إن قوى شريرة متعددة اجتمعت على هذا العمل التخريبي من الشيطان وأعوانه، ورؤوس الانحراف وتجار الأعراض من ذوي الأهواء.. كل هؤلاء وغيرهم لهم أثر كبير في تشويه الفطرة، وهذا يستدعي أن يضاعف الوالدان جهودهما للوصول إلى المستوى المطلوب في تربية الولد، وأن يكشف رجال الفكر والعلم ذاك الفساد والإفساد الذي اعترى الفطرة.

إنَّ كل واحد من المسلمين يحمل جزءاً من المسؤولية بحسب إمكاناته وثقافته وقدرته على التأثير، وإن قوله ﷺ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» لا يعفي أحداً من تحمّل المسؤولية.

إن كثيراً من الناس يتهربون من حمل المسؤولية، ويلقونها على أولي الأمر والعلماء، فكلما رأوا منكراً لم ينكروه.. وألقوا المسؤولية على الحكام والعلماء.. إنَّ هذا لون من التهرب من الواجبات ونوع من الاتكالية الهدامة التي إذا انتشرت في الأمة فسدت أمورها.

إن الحاكم والعالم لا شك في أن لهما دوراً كبيراً، ولكن ينبغي أن نقوم نحن بواجبنا الذي أوجبه الله علينا، ولا سيما في بيوتنا وفي تربية أولادنا، إن علينا أن نكون عوناً للعلماء العاملين وللحكام العادلين، وألا نلقي كل شيء عليهما، ولا يستطيع العالم والحاكم أن يقوما بكل شيء.. ولذلك جاء الحديث بلفظ العموم «كلكم راع» وفي الحديث لون من تنمية



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الشخصية وإشعار الإنسان بقيمته، فكل امرىء له رعية مهما كان شأنه حتى ولو كان خادماً. ولو شعر الناس بالمسؤولية بهذا المقياس لانحلت كثير من المشكلات.

إن أحاديث عدة يُوصينا فيها رسول الله ﷺ برعاية أولادنا ويحملنا مسؤولية في ذلك، وأود أن أذكر أهمية العناية بفكر أولادنا وتصوراتهم وعقائدهم وثقافتهم.

إن تكوين فكرهم من أهم الأمور التي يجب أن ننتبه إليها منهاجاً ومناقشة وإمداداً لهم بالمادة العلمية الرصينة.

إنّ المعارف التي يمكن أن يتعلمها الإنسان لا يحصرها حدٌ، فعلى الوالدين أن يختارا لأولادها أهمها وأنفعها له في دينه ودنياه. وليس هذا الكلام مقصوراً على الأولاد.. بل إنه يشمل كل من يكون في ولاية الرجل من زوجة وإخوة وأخوات وأبناء إخوة وأم وتلاميذ ومرؤوسين. وهذا الموضوع واسع جداً، ولكني أقصر كلامي هنا على ثقافة الأسرة.

إن كثيراً من أبناء المدن في عالمنا الإسلامي أصبحوا الآن قارئين كاتبين، والقراءة نعمة عظيمة ينمي الإنسان بها معلوماته، ويعرف دينه، ويوسع أفقه، ويعمق نظرته للأمور، ويقف على أحوال معاصريه والسابقين، ويصل إلى فكرهم. ولكنها في هذا الزمان الذي أصبح للشر فيه فكر منشور بالطباعة والإعلام أضحت بحاجة إلى انتقاء واختيار.

إنَّ القراءة المنهجية المنتقاة هي التي تكون الثقافة والفكر، وتنضج الشخصية، وتبصر المرء بالطريق السوي، ولأمر ذي حكمة بالغة كانت كلمة (اقرأ) أول كلمة نزل بها الوحي الأمين على الرسول الأعظم ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

والقراءة هي الوسيلة الأولى في التعلم، فلا يقوى أحد على بلوغ منزلة العلم إلا بها.. إما أن يقرأ هو ـ كما هو شأن المبصرين ـ وأما أن يُقرأ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

له ـ كما هو شأن الذين يشكون ضعفاً في أبصارهم. وحتى الوسائل التعليمية الأخرى التي يمكن أن يتلقى الإنسان بسببها بعض المعلومات كالإذاعة والتلفاز والأشرطة (الكاسيت) فإنها كلها تعتمد على القراءة.

وهناك أسئلة لا مجال للتوسع في الإجابة عنها، منها: ماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟ ومتى نقرأ؟ وأين نقرأ؟ إن الاجابة على هذه الأسئلة من أهم ما يواجه المربي الذي جعله رسول الله ﷺ مسؤولاً عن رعيته، وقد ألفت في الأجابة عن هذه الأسئلة كتب عدة، والحق أننا بحاجة إلى قائمة بالكتب التي نقدمها لأبنائنا وبناتنا.. بل نحن بحاجة إلى قوائم عدة تختلف من سن إلى سن ومن مستوى ثقافي إلى مستوى ثقافي آخر.

وقد بلغني أن بعض أهل العلم يفكرون في إصدار قوائم من هذا القبيل. وهذا أمر نافع طيب.

أيها الأب الفاضل أيتها الأم الفاضلة:

إنّ من الواجب على كل منكما أن تصلا أولادكما بنين وبنات بالكتاب الأصيل، ذي الفكر النظيف والتوجيه السليم، المكتوب بأسلوب واضح مشوّق، وعليك أن تجلب إلى بيتك المجلات الإسلامية على اختلاف مستوياتها حتى ولو لم تكن أنت قادراً على قراءتها لضيق وقتك بتحصيل رزقك أو بإعداد بحوثك.

وهذا يقتضي أن يكون في بيتك مكتبة خاصة بالأسرة، ولن يَعجِزَ كثير من الناس عن تكوين مكتبة صغيرة إذا عرفوا قيمة القراءة ومنزلتها وأهميتها.

إنّ المكتبة في المنزل أهم من جهاز الراديو أو جهاز التلفزيون أو كثير من الأمتعة والزخارف والتحف التي تشترى بالأثمان العالية... إن المكتبة أهم بما لا يقاس من كثير من هذه الأدوات والأمتعة التي يقل نفعها ويكثر ضررها.

إنّ الطفل عندما يفتح عينه على مكتبة في المنزل ويرى أفراد الأسرة



شبكة الألوكة - قسم الكتب

يترددون عليها، ويتعاملون معها قراءة ومراجعة، ويتناقشون في قضايا علمية من خلال قراءتهم في كتاب منها. . إنه عندئذ تتكون ليده رغبة أصيلة في المطالعة لما نعلم من استعداد الطفل لتقليد الكبار.

ولا يكفي أن توجد المكتبة العامرة بالقراء والمراجعين، بل لا بد من توجيه الأولاد بارتيادها والقراءة فيها وترغيبهم في ذلك وإغرائهم وتشويقهم، وينبغي أن تتنوع طرق الإغراء: ومن تلك الطرق الثناء على من يقرأ كتاباً، وإعطاؤه مكافأة جيدة، وأهداؤه كتاباً خاصاً يوضع في المكتبة على أنه له. .

ومن تلك الطرق الاستفادة من أسئلة الأطفال الكثيرة، فمثلاً عندما يسأل طفل عن قصة نبي الله أيوب التي مرت معه في قراءته القرآن يحسن أن يدفع إليه الأب كتاباً فيه تلك القصة على أن تكون مكتوبة بأسلوب يناسب سنه ومستواه العلمي، ويقول له: إنك ستجد الجواب عن سؤالك في هذا الكتاب فاقرأ القصة فيه وقصَّها علي.

وإذا سأل طفل عن المد والجزر الذي رآه على شاطىء البحر فعلى الأب أن يقدم له رسالة صغيرة في هذا الموضوع مؤلفة لمن كان في سنه ويقول له: إن هذه الرسالة تنبئك عن حقيقة هذه الظاهرة وتفسيرها.

وهذه الطريقة مفيدة لتنمية البحث عند الكبار أيضاً، فقد حُدِّثْتُ عن عالم كبير من علماء بلدنا[1] لم أدركه أنه كان إذا سئل لا يجيب، بل يقوم ويأتي بكتاب ويفتح الصفحة التي فيها الجواب، ويطلب من السائل أن يقرأ الجواب، فإذا لم يفهم عبارة الكتاب طلب منه أن يعيد القراءة مرة ومرة، وقد يأتي له بكتاب آخر أوضح، حتى يقف على الجواب المراد.

إن العناية بفكر الأولاد برقابة الوالد الملتزم بالإسلام، وتوفير الوسائل التي تمد عقولهم بالرأي السديد قيام بحق الرعاية، والتهاون فيها تضييع

---

(١) هو الشيخ بدر الدين الحسني محمد بن يوسف محدِّث الشام في عصره المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للأمانة يعرض صاحبه للمسؤولية والحساب. وقد قال ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»(١).

إنّ تربية الأولاد على الإسلام، وتعليمهم مبادئه، واجب على الآباء كما دلّ على ذلك حديث المسؤولية وكما دلت على ذلك نصوص كثيرة من السنة المطهرة. من ذلك قوله ﷺ: «علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً، وفرقوا بينهم في المضاجع»(٢).

ومن ذلك قوله ﷺ: «علموا، ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا نفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت»(٣).

وفي هذا الحديث لفتات تربوية رائعة، منها أنه ذكر الأمر بالتيسير، والنهي عن التعسير بعد قوله (علموا)، وهذا من عظيم الحكمة، ذلك أن عدداً من المدرسين يكرّهون تلامذتهم بالعلم، وأن عدداً من الوعّاظ ينفرون الناس من الطاعات.

ذكر لي أحد طلبة العلم أنه كان في مجموعة من أهل العلم الشرعي ومعهم عدد من الشباب المثقفين، ذهبوا للعمرة بالسيارة وكان فيهم مهندس يؤدي العمرة لأول مرة، فسأل هذا الشاب المهندس أحد أهل العلم عن أعمال العمرة وواجباتها وسننها، قال ذلك قبل أن يصلوا إلى الميقات. فأعرض عنه المسؤول وأشاح بوجهه، ولما أعاد السؤال صاح فيه قائلاً: الآن تريد أن تعرف هذه الأمور، وهي تحتاج إلى زمن طول لأن في العمرة كذا وكذا من السنن والمستحبات والواجبات. فانكسر خاطر السائل، واغرورقت عيناه، وفكر في أن يعود أدراجه وألا يعتمر هذه المرة، لولا أنَّ

---

(١) انظر فتح الباري ١١/٤٠٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٣٩١٣ عن سبرة ورقم ٣٩١٤ عن أبي هريرة وانظر رياض الصالحين رقمي ٣٠٦ و٣٠٧ من ط الألباني.

(٣) صحيح الجامع الصغير رقم ٣٩١٥ عن ابن عباس. وانظر المسند ١/٢٣٩ و٢٨٣ و٣٦٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

محدثي تدخل وقال له: هون عليك يا أخي، والأمر أيسر من ذلك. افعل كما أفعل ولا تحزن وتوكل على الله. وقال له: إن رسول الله ﷺ علم أصحابه الصلاة والحج عملياً فقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وقال:[1]: «خذوا عني مناسككم» نعم لو أنك استعددت سابقاً لكان أحسن، ولكن الأمر يسير إن شاء الله.

إن التيسير على الناس الذين نريد أن نعلمهم أو نعظهم أمر بالغ الأهمية.

وقد ذكر الدارمي في آخر كتابه عن ثابت البُناني قال: كان أنس بن مالك إذا أشفى على ختم القرآن بالليل بقّى منه شيئاً حتى يصبح فيجمع أهله فيختمه معهم. وفي رواية: كان أنس إذا ختم القرآن جمع ولده وأهل بيته فدعا لهم[2].

إنَّ هذا يدلنا على مدى عناية السلف الصالح بتربية أولادهم وجمعهم على الخير وتجبيبهم بقراءة القرآن. وأخرج البخاري بسنده إلى عبد الملك بن عمير عن عمرو بن ميمون قال: كان سعد [أي ابن أبي وقاص] يعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة يقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ منهن دبر الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر» فحدثت به مصعباً فصدّقه. والقائل هو عبد الملك بن عمير، ومصعب هو ابن سعد بن أبي وقّاص[3]. وكان لسعد من الأولاد الذكور أربعة عشر نفساً ومن الإناث سبع عشرة.

وأخرج أحمد عن زياد بن لبيد الأنصاري قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً وقال: «ذاك عند أوان ذهاب العلم» قال: قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سنن الدارمي ٢/٤٦٨ - ٤٦٩.

(٣) فتح الباري ٦/٣٥ - ٣٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: «ثكلتك أمك يا بن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة. أوليس اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل فلا ينتفعون مما فيهما بشيء»[1].

وفي هذا الحديث حكاية لما كان يفعله الصحابة في تعليم أولادهم القرآن، وحض على العمل بما فيه حتى لا نكون مثل اليهود والنصارى. ونحن نعلم كيف أن رسول الله ﷺ جعل من فداء أسرى بدر أن يعلم الكاتب منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة.

إن سلفنا الصالح إذن كانوا يهتمون بتعليم الأولاد، وجدير بنا إذا أردنا النجاة من المسؤولية أن نتابع طريقهم. وقد ذكرت آنفاً أن تكوين فكر الأولاد عن طريق القراءة الموجهة أرسخ في غرس العقيدة السليمة وأجدى في تنمية الشخصية... ولا بد من مناقشةِ هؤلاء الأولاد فيما يقرؤون، وتشجيعهم على تكوين رأي مستقل، وتعويدهم على تلخيص ما يقرؤون وتقويمه حسب إمكاناتهم، وتسديدهم في ذلك كله إن أخطؤوا. ولا بُدَّ من ضبط مسألة التقويم خاصة كأن يقال للقارىء من هؤلاء الناشئة مثلاً: ما رأيك فيما قرأت؟ أريد أن أرى هل هذا الأسلوب متناسب مع سنك وقدراتك؟ ونحو ذلك، حتى لا يصيب هؤلاء الفتيان شيءٌ من الغرور الذي يقتل مواهبهم ويقضي على مستقبلهم الثقافي.

والتلخيص يبدأ شفوياً.. ثم يطلب من القارىء أن يكتبه تحريرياً ويقال له: ارجع إلى الكتاب المقروء عند تحريرك، وممّا يسهّل الكتابة على الأولاد تعويدهم على الكلام بالفصحى في البيت ولو في أوقات محدودة. واختيار الكتاب عملية مهمة، فلا يجوز أن يعطي الولد أي كتاب ويطلب منه أن يقرأه، لأن ذلك قد يؤذيه فينفره من القراءة والعلم... إن هناك اعتبارات نفسية وتربوية وتعليمية ودينية يجب أن تراعى عندما نطلب من ولد

---

(١) مسند أحمد ٤/٢١٨ - ٢١٩.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

من أولادنا أن يقرأ كتاباً ما. وإن مراعاة الفروق الفردية للأطفال أمر مطلوب. فهناك طفل سريع القراءة، وهناك طفل بطيء القراءة، وهناك ناشيء في المتوسط، وهناك ناشيء في الثانوي. ويتحقق الاختيار الموفق عندما يكون الوالد على علم وعندما يكون بين يديه عدد وفير من الكتب ذات المستويات المختلفة حتى يتاح اقتراح الكتاب المناسب. وكذلك فإن توفره يُمكّن الفتى من اختيار ما يناسبه.

وينصح الآباء بأن يهيئوا لكل من أولادهم مكتبة خاصة به إلى جانب مكتبة الأسرة إذا كانت ظروفهم المادية تعينهم على ذلك، ومن نعم الله الجليلة على الناس رخص ثمن الكتب عندنا إذا قيست بأسعارها في أوروبا أو قيست بالأسعار في الماضي عندما لم تكن الطباعة وكانت الكتب مخطوطة.

وينصح كذلك الطلاب بأن يكوِّن كل منهم مكتبة له منذ أول أيام طلبه للعلم، ويستمر على تنميتها كلما تقدم به العمر. إن الكتاب الذي يجده طالب العلم في السوق، ويجد ثمنه في جيبه ويكون الكتاب داخلاً في اهتمامه إنه غنيمة سيقت إليه، فلا يتردد في شرائه، لأنه لا يدري ماذا يكون في المستقبل، فربما لا يجده مرة أخرى، أولا يجد معه ثمنه عند حاجته إليه، إن وجود كتاب يهمك في مكتبتك يسهل عليك الوصول إلى المعرفة.

وأهم ما ينبغي وجوده من الكتب ما يتصل بالدين عقيدةً وفقهاً وأخلاقاً وتفسيراً وحديثاً وسيرة.

إنَّ هذا الحديث العظيم ليربي في نفوس المسلمين الشعور بالمسؤولية، وهو في ذلك يسير في هدي القرآن الذي أكد معنى الشعور بالمسؤولية في عدد من الآيات الكريمة، وغرسه في أعماق نفوس المؤمنين.

فالمسؤولية شاملة للناس جميعاً ولا يعفى منها مكلف، فالكلُّ مسؤول، وليس مسؤولاً عن نفسه فقط، بل إنه مسؤول عن رعيته. والسائل هو الله رب العالمين، وما أعظمها من مسؤولية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢]. يقسم الله عز وجل على أنه سيسألهم أجمعين، وأكد الفعل باللام والنون المشددة.

إن المسلم الحاضر القلب ليمتلىء قلبه خوفاً ورهبة من ذاك الموقف الذي سيتعرض فيه للسؤال والحساب حتماً. . سيوقف الناس يوم الحشر للسؤال:

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

ويتمنى المرء أن لو استطاع أن يفتدي نفسه من سوء العذاب بما يملك، ولو أنَّ له ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدى به دون تردد من سوء العذاب في ذلك اليوم، ويخبرنا ربنا بأن الناس سيواجهون بما لم يكونوا يحتسبون قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

إنَّ الذي يحاسبه في ذاك اليوم العصيب هو الله رب العالمين الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وقد أقسم ربُّنا جل وعز أنَّ المسؤولية عامة، فالأنبياء المرسلون يسألون وكذلك أممهم تسأل قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

ويقول مخاطباً المشركين: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

ويقول تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

والمسؤولية عامة للمسلمين والكافرين قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:



شبكة الألوكة - قسم الكتب

٤٣ - ٤٤].

● وسيسأل الناس عن النعم الكثيرة التي أكرمهم الله بها وعن القوى التي جعلها فيهم وعن أعضائهم هل استخدموها في طاعة الله. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

● وكذلك العهود فإنَّ المرء سيسأل عنها، سواء كانت هذه العهود مع الله أم مع عباده: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

● وكذلك فإننا مسؤولون عن هذه النعم التي نتقلب فيها من الأمن والطعام والشراب والثمرات والقوة والصحة والشهوات من النساء والبنين والأموال والأنعام والأمتعة وما إلى ذلك.. كل أولئك نسأل عنه قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]. نسأل عنه هل قمنا بشكره؟ وهل قابلنا ذاك الإحسان بالعبادة والخضوع له سبحانه.

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال:

خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، فإذا هو بأبي بكر وعمر.

فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟.

قالا: الجوع يا رسول الله.

قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما. قوموا.

فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته. فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً.

فقال لها رسول الله ﷺ: أين فلان؟.

قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافاً مني.

فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوب.

فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا.

فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»(١).

والشهود الذين يثبتون إدانة المسؤول كثير:

● فالكتاب الذي ينشر يوم القيامة يحصي أعمال الإنسان، ويعرض هذا الكتاب على الإنسان ويقرؤه:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

وهذا الكتاب لا يغادر صغير ولا كبيرة إلا أحصاها، فلا يظنّ أحدٌ أن شيئاً مما عمله يضيع حتى ولو كان مثقال ذرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة].

والله تبارك وتعالى لا ينسى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

ولا يقوى أحد على أن يفلت من تلك المساءلة ومن ذلك الحساب قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

---

(١) انظر «صحيح مسلم» ٦/١١٦ - ١١٧.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

لا والله لا يترك سدى، بل هو سيوقف وسيحاسب وسيسأل وسيجازى بالإحسان إحساناً، وبالسيئات سوءاً إلا أن يعفو الله.

ألا فليعلم كل إنسان أنه مسؤول عما استرعاه الله من قوة وصحة ومن زوجة وأولاد وأتباع.. فالذين أحسنوا لهم الحسنى، والذين أساؤوا سيلقون الجزاء الأوفى.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤].

ولنقرأ بتدبر هذا المشهد الرهيب الذي يكون يوم القيامة..

إننا نرى مصير الظالمين المستكبرين.. إنه لبئس المصير قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٥٢].

في هذا المشهد تصوير رائع للمحاسبة التي سيتعرض لها الكفار الذين أتيحت لهم كل أسباب الموعظة ولم يتعظوا، بل لجوا في كفرهم حتى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لاقوا العذاب الشديد، فطلبوا من ربهم أن يؤجلهم إلى أجل قريب، فلم يستجب لهم. وكانوا مقرنين في الأصفاد يجازون بما كسبت أيديهم.

● وأعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة.

يعرض القرآن علينا هذا الموقف المخيف المدهش الذي يذهل لهوله الإنسان وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وهذا يمثل ذروة الهول؛ لأن الأم عادة شديدة الحنان، ولكنها في ذاك اليوم تذهل عن أبنائها، وإذا كان بعض الناس يظنون أن بعض أعمالهم لن تذكر في الحساب فإنهم مخطئون، لأن الأعضاء نفسها تنطق.

قال تعالى:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٤ - ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

ويعرض القرآن حواراً مؤثراً يجري يوم القيامة بين الإنسان وأعضائه التي تشهد عليه فيقول سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٣].

● ومن الشهود الذين يدينون المسؤول الملائكة بالإضافة إلى سجل بالأعمال قال سبحانه:

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ٢١ - ٢٣].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عندما ينفخ في الصور يبعث الناس من قبورهم ويسوقهم إلى الحشر والحساب سائق من الملائكة وشهيد من الأعمال، ويقال لكل أحد من بر وفاجر: لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد.

قال ابن كثير: [... إنَّ المراد بذلك كل واحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير][1].

ويقول الملك الموكل بعمل ابن آدم عندما يشهد عليه يوم القيامة: هذا ما لديّ عتيد أي حاضر. ويحاسب المرء على ما عمل.

يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١٢].

● عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال:

ـ «هل تدرون ممَّ أضحك؟».

ـ قال قلنا: الله ورسوله أعلم.

ـ قال: «من مخاطبة العبد ربه».

ـ يقول العبد: يا رب ألم تجرني من الظلم؟.

ـ قال يقول: بلى.

ـ قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلَّا شاهداً مني.

ـ قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٩/٧ ط الشعب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ قال: فيختم على فيه.

فيقال لأركانه: انطقي.

قال: فتنطق بأعماله.

قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»[1].

يذكر أنس أنَّ هذه المفاجأة غير السارة التي فوجىء بها العبد أضحكت رسول الله ﷺ وكان قد ظن أنه بطلبه هذا سيضمن لنفسه النجاة. فهو الذي طلب ألا يكون شاهد عليه إلا من نفسه، فأجابه الله إلى هذا الطلب وقال:

كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وختم على فيه، ثم طلب من أعضائه أن تتكلم، فنطقت معترفة بذنوبه وخطاياه كلها، ثم يخلي بينه وبين الكلام فشرع يشتم أعضاءه ويقول: بعداً لكن وسحقاً. عنكن كنت أناضل حتى لا تُعذبن، ويستسلم لقضاء الله فيه[2].

● عن عدي بن حاتم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلّا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة» وفي رواية: «ولو بكلمة طيبة» متفق عليه[3].

ما هذه المقابلة؟ ومع من؟.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٥/١٨

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي ١٣٨ - ١٣٩.

(٣) صحيح البخاري (الفتح ٤٠٠/١١) وصحيح مسلم ٢/برقم ١٠١٦ والترمذي ٢٩٠/٣ وابن ماجه برقم ١٨٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنها مقابلة حساب، مع الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويكلمه دون وسيط.. إنَّ ذلك دون شك عندما يتصوره المؤمن يجعله في موضع المتهيب.

وينظر الإنسان جهة اليمين فإذا هو أمام أعماله التي قدمها، ويحول نظره إلى الشمال فلا يرى إلا ما قدم من أعمال.. إنَّ أعماله تحيط به، فينظر أمامه وإذا الهول المروع.. إذا النار تلقاء وجهه.

المحاسبة دقيقة.. والأعمال التي قدمها محضرة قائمة من عن يمينه وعن شماله.. ماذا يعمل؟ وهل يستطيع الإنكار والتهرب؟ وكيف يكون ذلك؟.

في هذه اللحظة التي بلغ السامع فيها أشد حالات الخوف والشفافية والرغبة في الخلاص تأتي الموعظة البليغة «فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

● عن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي قال قال رسول الله ﷺ:

«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن عمره: فيما أفناه؟ وعن علمه: فيم عمل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ فيم أنفقه؟ وعن جسمه: فيم أبلاه» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[1].

● عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ أولَ الناس يقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأُتي به فعرّفه نعمته، فعرفها.

قال: فما عملت فيها؟.

قال: قاتلت فيك حتى استشهدت.

قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جري. فقد قيل.

---

(١) الترمذي ٣/٢٩١.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعرفها.

قال: فما عملت فيها؟.

قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن.

قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارىء، فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجلٌ وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به، فعرّفه نعمه، فعرفها.

قال: فما عملت فيها؟.

قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنْفَقَ فيها إلّا أنفقت فيها لك.

قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد. فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» رواه مسلم(١).

إنّ العبد مسؤول عما عمل، ومسؤول عمن هم في رعيته، وسيجزى بما عمل، وذلك بالعدل الأتم، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد أنذر الله جل جلاله من يخالف أمره من العباد بالعذاب الشديد، وأمرهم أن يتقوا يوماً يرجعون فيه إلى الله. قال تعالى:

---

(١) صحيح مسلم ٣/برقم ١٩٠٥.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وعندما يوقف المرء للحساب يحاجُّ عن نفسه، لا يهمه غير نفسه، وليس هناك أحد يحاج عنه لا أبٌ ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، وتوفى كل نفس ما عملت قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

ولا ينجو من الحساب أحد، ولكنه على المؤمنين جد يسير، وهو على الكافرين جد عسير قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ٦ - ١٥].

هذا للفرد، والأمر نفسه للأمة كما قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٨ - ١٠].

وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٨ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٨ - ٢١].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد ذكر القرآن أن المحاسب هو الله جل وعز. قال تعالى:

﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ﴾ [البقرة].

وقال: ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [الشعراء: ١١٣].

وقال: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٦].

والمسؤولية تكون على حسب أهلية الإنسان وإمكانياته.

فالعاقل المكلف هو محل المسؤولية، فإن كان حاكماً كانت مسؤوليته أعظم أنواع المسؤولية، لأنه عندئذ يكون مسؤولاً عن نفسه وعن رعيته، وكذلك أعوان الحاكم من الوزراء ورؤساء الدوائر ومديري الجامعات والمدارس والمعامل.

وكذلك فإنَّ العلماء مسؤولون عن علمهم.. إنَّ عليهم أن يبلغوه للناس وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.

وكذلك فإن مسؤولية الكتاب والشعراء والصحافيين والقائمين على دور الإذاعة والتلفاز مسؤولية كبيرة، لأنهم يملكون أدوات عظيمة التأثير. ولها دورٌ مهم بارز في إقناع الناس ببعض الأفكار، وكذلك رب الأسرة والزوجة والخادم.

وإذا كان سؤال الامتحان يترتب عليه النجاح أو السقوط في سنة دراسية فإنَّ السؤال يوم القيامة يترتب عليه دخول الجنة أو النار.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحديث التاسع عشر

عن صفية زوج النبي ﷺ قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً وذكرت رضي الله عنها أنها جاءت تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فأتت تزوره ليلاً، ثم قامت تنقلب إلى دارها (أي تعود إلى دارها) عندما انصرفت زوجاته الأخريات اللائي كنَّ في زيارته ﷺ فقال لها النبي ﷺ: «لا تعجلي حتى أنصرف معك» فبقيت قليلاً، ثم قام النبي ﷺ يقلبها (أي يوصلها). وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مرَّ رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ وأسرعا. وفي رواية: فلما رأياه استحييا فرجعا. فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما. إنها صفية بنت حُيَيّ» فقالا: سبحان الله يا رسول الله!! هل نظن بك إلا خيراً؟ وكبر ذلك عليهما.

فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ـ وفي رواية: إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم ـ وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً ـ وفي رواية: شراً ـ ثم ذهب معها حتى أدخلها بيتها» رواه[1] البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي في الكبرى.

● إن هذا الحديث وأمثاله من الأدلة على الفكرة التي يقررها العلماء وهي أن حياة الرسول ﷺ بخصوصياتها وعمومياتها نقلت نقلاً أميناً دقيقاً.

---

(١) البخاري كتاب الصوم ٣/٤٤ والفتح ٤/٢٧٨ ومسلم كتاب السلام ٧/٨ والنووي ١٤/١٥٦ وأبو داود ٢/رقم ٢٤٧٠ وابن ماجه ١/١٧٧٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذه المزية لا يكاد يشارك رسول الله ﷺ رجل آخر في تاريخ البشر. وما كان ذلك إلا لأنه ﷺ قدوة وأسوة حسنة، وسيرته الكريمة منارة مضيئة لكل من يريد أن يسير في طريق المثل العليا، ويحيا حياة الفضيلة والسمو. فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

● وهذا الحديث يبّين أنه ﷺ كان يعيش مع زوجاته حياة كريمة ملؤها السرور والحبور والتفاهم والإكرام... بل لقد ذكر لنا حديث آخر أنه كان يعمل في مهنة أهله[1] فيساعدهن ويعاونهن... وجاء في حديث آخر أنه كان يشاطرهن ما هن فيه حتى إنه قد يصوم في غير رمضان لصيام بعضهن[2] تشجيعاً لها وإشعاراً لها منه باهتمامه.. ولكنه كان إذا جاء العشر الأواخر من رمضان شدَّ المئزر[3]، واعتزل أهله، وأقبل على العبادة، واعتكف في المسجد... فأرادت الزوجات الفضليات أمهات المؤمنين أن يرين رسول الله ﷺ، فأتين إلى المسجد يزرنه كما جاء في رواية أخرى للحديث وردت في البخاري وغيره؛ تقول الرواية: كان النبي ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فَرُحْنَ وقال لصفية: «لا تعجلي».

وجاء في رواية عبد الرزاق: إن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد، فاجتمع إليه نساؤه ثم تفرقن[4].

إنَّ هذا يدلُّ على مدى تعلق هؤلاء الزوجات بالزوج العظيم رسول الله ﷺ، ويدل على الودّ المتبادل بين الطرفين؛ فرسول الله ﷺ معتكف في المسجد، ومنصرف إلى العبادة والاجتهاد فيها، وربما لم يكن قد مضى وقت طويل على اعتزاله أهله.. ولكن مع ذلك كان في وقته

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٢/برقم ٦٧٦) ومسند أحمد ٦/٤٩.

(٢) قال ابن حجر في «الفتح» ٤ ص ٢١٤: [وقيل: الحكمة في إكثاره من الصيام في شعبان دون غيره أنَّ نساءه كنَّ يقضين ما عليهن من رمضان في شعبان].

(٣) صحيح البخاري (الفتح ٤ برقم ٢٠٢٤) وصحيح مسلم برقم ١١٧٤.

(٤) فتح الباري ٤/٢٧٨ - ٢٧٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

متسع ليلقى زوجاته.. إنَّ هذا يوطد العلاقة الزوجية، ويجبر خواطرهن.

وبعد أن انقضت هذه الزيارة الحلوة اللطيفة التي كانت مملوءة بالأحاديث النافعة لأنه ﷺ لا يقول إلا حقاً، والتي استغرقت وقتاً جيداً انصرفت الزوجات فقال رسول الله ﷺ لصفية: «لا تعجلي حتى أنصرف معك». وبعد مدة قام ﷺ ليوصلها إلى دارها وبينما هما في الطريق عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار، فسلّما على النبي ﷺ وأسرعا في طريقهما، ثم أقفلا عائدين حياءً من الرسول ﷺ. فاستوقفهما قائلاً: «على رسلكما إنها صفية بنت حُيَيّ زوجتي».

فكبر الأمر عليهما جداً، وقالا مستغربيْن: سبحان الله! وهل نظنُّ بك إلا خيراً؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً».

إذن فالنبي ﷺ [لم ينسبهما إلى أنها يظنان به سوءاً لما تقرر عنده من صدق إيمانهما، ولكنه خشي أن يوسوس لهما الشيطان ذلك؛ لأنهما غير معصومين، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك فبادر إلى إعلامهما حسماً للمادة، وتعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك، كما قاله الشافعي رحمه الله تعالى؛ فقد روى الحاكم أن الشافعي كان في مجلس ابن عُيَيْنَة فسأله عن هذا الحديث. فقال الشافعي: إنما قال لهما ذلك لأنه خاف عليهما الكفر إن ظنا به التهمة، فبادر إلى إعلامهما نصيحة لهما، قبل أن يقذف الشيطان في نفوسهما شيئاً يهلكان به][1].

وقد جاء في الحديث الذي نحن في صدد شرحه (وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد) ومعنى هذه الجملة كما ذكر العلماء أي كان مسكنها هو الدار التي صارت بعد ذلك لأسامة بن زيد، لأنَّ أسامة إذ ذاك لم يكن له دار مستقلة بحيث تسكنها صفية.

---

(١) فتح الباري ٤/ ٢٨٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكانت بيوت ازواج النبي ﷺ حوالي أبواب المسجد، وعلى ذلك فلم يخرج الرسول ﷺ بعيداً عن المسجد، بل ذهب معها حتى أدخلها بيتها وهو قريب.

وفي هذا الحديث الشائق الممتع غير ما ذكرنا من الفوائد الحديثية، والنكت البيانية الكثير، وسنورد بعضاً منها. ولن نستطيع الاستقصاء.

● فمن هذه الدورس والفوائد المحافظة على المرأة، ومرافقتها حتى تصل إلى بيتها:

إنّ المرأة فتنة، وهي ضعيفة، فمشيها وحدها في الليل أو في مكان خال من المارة قد يعرضها لأذى السفهاء، ويطمع بها ذوي النفوس المريضة، وهي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، أو قد يتيح لألسنة السوء أن تنطلق مشككة بها.

ومرافقة المرأة في الطريق من قبل رجل من محارمها أو من قبل زوجها عادة حافظت عليها مجتمعاتنا الإسلامية إلى وقت قريب، فما كان يمكن أن يتصور أن تخرج المرأة منفردة من بيتها إلى موضع يبعد ولو شيئاً قليلاً إلا بصحبة واحد من أهلها، وتتأكد هذه المرافقة في الليل، وفي الصباح الباكر، وفي هدأة الظهيرة... وقد أدركنا هذا في بيئاتنا الإسلامية.

وأضمن لسلامتها من الأذى وأبعد عن الشبهة والريبة ألا تمشي المرأة في مثل هذه الأوقات وحدها.. إن هذا تكريم للمرأة، وصيانة لها.

ألم تر أن الناس الكبار من ذوي المكانة والسلطان، والعلم والجاه لا يسير أحدهم وحده منفرداً.. بل يكون برفقته جنده وحراسه وإخوانه وأحبابه.

إن مصاحبة المرأة من قبل زوجها أو بعض محارمها من قبيل سدّ



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الذرائع، وهذا مما تميز به الدين الحنيف. إن الإسلام يحرم الفاحشة، ويحرم السبل المؤدية إليها، وهذا منتهى العدل والرأفة، لا كما نرى في القوانين الجاهلية التي استوردتها بعض دول المسلمين من الكفار، وأحلوها محل شريعة الله، فإنها تفتح كل السبل المؤدية إلى الجريمة.. حتى إذا ما وقعت كانت المحاسبة من قبل السلطات.. وكان الندم.. وكان العار.. وكانت الكارثة على الناس.

ومن هنا حرّم الإسلام على المرأة أن تسافر إلا مع واحد من محارمها أو مع زوجها. وكذلك الحكم إذا كان يخشى عليها أن تتعرض إلى الأذى فيما لو خرجت وحيدة إلى السوق ولو في المدينة نفسها فحرام عليها حينئذ أن تخرج إلا مع زوج أو محرم.

إن كثيراً من الكوارث تقع في بعض مجتمعات المسلمين بسبب التهاون في رعاية هذا الأدب الإسلامي العظيم.. ويكبر الخطر بشأن البنات الصغيرات، اللاتي يرسلهنّ أهلهنّ إلى دكان لإحضار بعض الأغراض.. أو إلى الشارع ليلعبن.. فتحصل الكارثة، ويندم الأهل، ويلحق العار، ولات ساعة مندم.

.. إن بناتنا وزوجاتنا وأخواتنا أمانة في أعناقنا. فَلْنَرْعَهُنَّ الرعاية التي تصونهن، وتبعد عنا العار والحزن.. ولديَّ من قصاصات الجرائد التي تحكي عدداً من هذه الحوادث والكوارث الشيء الكثير. وكذلك أمر الصبيان المردان الصغار فما أكثر ما نقرأ في صحف بعض البلاد الإسلامية: خرج ولم يعد.

إنّ الوقاية من الأخطار خير من البحث عن طرق معالجتها بعد أن تقع.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

[وما اعترض رجل وامرأة في خلق العفة إلا كانت هي الساقطة وحدها في الاعتبار؛ لأنه العفة إنما عرفت بالمرأة من أصل الخلقة...

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن المرأة متى فعلت ذلك فقدت من نفسها، وغيرت في تكوينها، وأخطأت في الأصل الذي بنيت عليه طبيعتها، وقامت به شرائع الله، ومرّ فيه نظام الأمم..... ولهذا كان شرُّ عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة بها][1].

ومما يستطرف من كلام الأستاذ الرافعي قوله: [لو كنت قاضياً ورفع إليَّ شابٌّ تجرأ على امرأة فمسّها أو احتكَّ بها أو طاردها أو أسمعها... وتحقق عندي أن المرأة كانت سافرة مدهونة مصقولة متعطرة متبرجة لعاقبت هذه المرأة عقوبتين: إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب، والثانية بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر][2].

والشرع يعاقب من يثبت عليه الذنب والمعصية.

.. إن في مرافقة رسول الله ﷺ صفية زوجه وإيصَالها إلى دارها درساً كبيراً للمسلمين.. فلننتبه لأنفسنا وبيوتنا ولنحذر من تقليد الكفار فأولئك قوم لهم أعرافهم وأمزجتهم التي تخالف أعرافنا وأمزجتنا.

● ومن الدروس أنَّ في الحديث دليلاً على أن الحجاب الذي كان يلتزمه نساء النبي ﷺ لم يكن مقتصراً عليهن، بل شاركهن فيه غيرهن من النساء المسلمات، ومن أجل ذلك كان رسول الله ﷺ بحاجة إلى أن يزيل شبهة مكالمته المرأة ومرافقته لها ليلاً.

[إن الحجاب صيانة للمرأة، وامتثال لأمر الله جل جلاله في قوله سبحانه ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] وبتطبيقه ترتفع المرأة إلى المستوى الإنساني الكريم. وهو في الوقت ذاته لا يعوق المرأة أن تبلغ أعلى مرتبة تطمح لها أنثى، فلقد كانت المرأة المسلمة تخوض غمار الوغى، وتتعلم العلم وتعلمه، وهي محافظة على حجابها.

---

(١) المساكين ص ١٦٧.

(٢) الحديقة ٢١٤/١٣ أقول: ولكن هذا لا يعفي هذا الشاب الفاسق من العقوبة أيضاً.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهذه عائشة التيمورية وهي شاعرة أديبة من نوابغ مصر، كانت تقول الشعر بالعربية والفارسية ولدت سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) وتوفيت سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) وهي شقيقة العالم المشهور أحمد تيمور، هذه عائشة تقول:

بيد العفاف أصون عز حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة ... نقادة قد كملت آدابي
ما خرّني أدبي وحسن تعلمي ... إلا بكوني زهرة الألباب
ما عافني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتي ونقابي[1]

● ومن هذه الدروس أن على المسلم أن يتحرز من التعرض للمواقف التي تجعل الأخرين يسيئون الظن فيه، بل عليه أن يوضح الأمر، وعندئذ يجبُّ كلام السوء عن نفسه.

إن بعض الحمقى يقول: ما لي وللناس؟ ليقولوا فيَّ ما يقولون ما دمت أنا سالكاً السبيل السويّ وليأكلوا لحمي كما يريدون ما دمت أنا على الحق.. إنني لا أبالي بهم ولا بكلامهم.

إن هذه غلط كبير من وجوه عدة أهمها ما يأتي:

١ ــ إن الناس عندما يسوء ظنهم بإنسان لا يثقون به، ولا ينتفعون من علمه إذا كان عالماً، ولا يستجيبون لشفاعته إن شفع لمظلوم. وقد قال ابن دقيق العيد في ذلك كلاماً نفيساً ملخصه أن العلماء ومن يقتدى بهم لا يجوز أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم.

وهذا يبين لنا خطأ بعض المتصوفة الذين يتعمدون أن يظهروا بمظاهر السوء والانحراف، يّدعون بذلك أنهم يؤدبون نفوسهم حتى لا تتكبر.

---

(١) انظر في الأسرة المسلمة ص ١٥- ١٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢ ــ قد يكون موقفه فتنة للناس، فيجعل بعض الناس يفعلون المنكر بحجة أن فلاناً يفعله.

٣ ــ قد يتعرض للأذى والإهانة، وقد تتعطل مصالحه.

٤ ــ قد يكون سبباً في وقوع الناس بالإثم بسبب ظن السوء.

قال الغزالي: [ومنها ـ أي من حقوق المسلم على المسلم ـ أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة. فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكاً قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨][1].

● وفي الحديث أمور أخرى منها أحكام فقهية، منها:

● جواز اشتغال المعتكف بالأمور المباحة من تشييع الزائر والقيام معه والحديث ولا يُعَدُّ هذا منافياً لأحكام الاعتكاف، ومن البديهي أن يكون الحديث سليماً نظيفاً مشروعاً لا يخالف ما أمر به الشرع الحنيف.

● ومنها إباحة خلوة المعتكف بزوجته، مع الحذر من الوقوع في مفسدات الاعتكاف المذكورة في كتب الفقه.

● ومنها زيارة المرأة للمعتكف، مع مراعاتها للحجاب والحشمة والبعد عن الاختلاط وكل الأخلاق والأداب التي يطلبها الإسلام.

● ومنها جواز قول المرء (سبحان الله) للتعجب. وفي القرآن الكريم ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦].

---

(١) الإحياء ١/١٩٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

● وفي هذا الحديث دليل على شفقة النبي ﷺ على أمته، ورأفته بهم وإرشادهم إلى ما يدفع الإثم عنهم. إنه ﷺ كما وصفه ربه رؤوف بالمؤمنين رحيم بهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [آخر التوبة].

فلقد خشي ﷺ أن يقذف الشيطان في قلوبهما شيئاً فيقعان في الإثم أو الكفر فناداهما، وأزال عنهما ما يمكن أن يطرأ عليها من شبه.

قال الإمام الغزالي: [فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما فحرسهما؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول: مثلي لا يظن به إلا الخير، إعجاباً منه بنفسه. فإنّ أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم، وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار. فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر][1].

● وفي هذا الحديث تنبيه رائع صيغ بأسلوب بليغ، تنبيه إلى عدو من ألد أعداء الإنسان.. إنه الشيطان وقد نبهنا ربنا في كتابه في غير موضع إلى الشيطان فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

---

(١) الإحياء ٣/٣٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٢١].

وأمرنا أن نستعيذ بالله من الشيطان في أكثر من آية.

فقال في سورة الأعراف: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال في سورة فصلت: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

ونجد في هذا الحديث تحذيراً من وسوسته وبياناً لمدى قدرته على التغلغل في النفس الإنسانية.. إنه يجري من الإنسان مجرى الدم.. إنه خفي لأن الدم الذي في جسم الإنسان غير ظاهر، إنه منتشر فالدم يعم جسم الإنسان كله، وكذلك الشيطان فإن له في كل ناحية في جسم الإنسان منطقة نفوذ.. ففي أيدينا وأرجلنا.. وفي رؤوسنا وقلوبنا، مجال لأن يلقي الشرَّ، فليحذره المرء المسلم وليستعذ بالله منه.

إنه لاصق بالإنسان، إنه يجري منه مجرى الدم. فاتهم خواطرك.. واتهم ظنونك.. واتهم ميولك، فقد تكون من الشيطان.

إن الشرع المطهر لا يسمح أن تبنى المواقف من الناس على الظن ذلك لأن الظن لا يغني من الحق شيئاً كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ [النجم: ٢٧: ٢٨].

بل لا بد من اليقين تبلغه حتى تتخذ موقفاً من إنسان بعينه فتحكم على خلقه أو دينه.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

إن الشرع يطلب منك أن تقيس تصرفاتك بمقياس الكتاب والسنة وأن تزنها بميزانهما.. إنك عندئذ تكون بمأمن من كيد الشيطان وسيطرته عليك.

قال النووي: [وفيه الاستعداد للتحفظ من مكايد الشيطان، فإنه يجري من الإنسان مجرى الدم، فيتأهب الإنسان للاحتراز من وساوسه وشره، والله أعلم].

وذكر في شرح قوله ﷺ: «إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» قال:

[قال القاضي وغيره: قيل: هو على ظاهره وإن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجري في باطن الإنسان مجرى دمه.

وقيل: هو على الاستعارة لكثرة إغرائه ووسوسته فكأنه لا يفارق الإنسان كما يفارقه دمه.

وقيل: يلقي وسوسته في مسام لطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب. والله أعلم[1]].

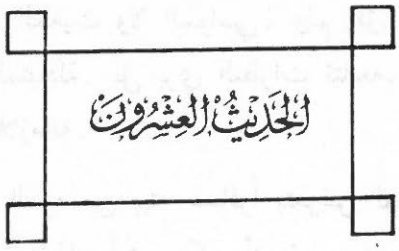
ولا يمحو وسوسته إلا ذكر الله والتبرؤ من الحول والقوة، واللجوء إلى الله، وهذا معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والمتقون قد يطوف عليهم الشيطان في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة، ولكنهم يتذكرون[2] فيذكرون الله فينجيهم الله ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠٢] وسلاح الشيطان الهوى والشهوات فلنحذر هذا العدو المبين.

---

(١) شرح مسلم للنووي ١٤/١٥٧.
(٢) انظر «الإحياء» ٣/٣٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة



روى البخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى نهمته من وجهه فليعجل إلى أهله»[1].

إنّ من أعظم نعم الله على المرء أن يرزقه الإقامة المريحة في بلده، بين أهله وإخوانه وعشيرته، مكفيّ الحاجة، مرعيّ المكانة، يعرفه من حوله فيكرمونه ويحترمونه، ويأمن جانبهم. ويأنس بهم.

ومفارقة الأوطان تجعل المرء غريباً، والغربة عن الديار أمر صعب على النفس، يورث الوحشة، وقد يفضي إلى الهوان. قال زهير بن أبي سلمى:

فقرِّي في بلادك إن قوماً ... متى يدعوا بلادهم يهونوا[2]

وقال خير الدين الزركلي:

العين بعد فراقها الوطنا ... لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريانة بالدمع أقلقها ... أن لا تحسَّ كرى ولا وسنا
كانت ترى في كل سانحة ... حسناً، وباتت لا ترى حسنا
إن الغريب معذب أبداً ... إن حلَّ لم ينعم وإن ظعنا[3]

(١) صحيح البخاري ٨/٣ و٦٧/٧ وصحيح مسلم ٥٥/٦ وابن ماجه ٩٦٢/٢ وانظر مختصر المقاصد رقم ٥٢٩.
(٢) ديوان زهير ص ١٩٢.
(٣) ديوان الزركلي ص ٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإنسان يأنس بمن يعرف من أقرباء وأصدقاء وأحبة، فإذا كتب عليه أن يعيش بعيداً عن أهله أحسَّ بالوحشة المؤلمة، وشعر بالانقباض الممض، ولم يجد المعين ولا المغيث ولا المواسي، ولم يلق اللهفة المنعشة، ولم ينعم بالثقة الودودة المتبادلة. بل يرى النظرات تتابعه، والشك به يلاحقه، والتجهم والارتياب يلازمانه.

وعندما يخرج المرء من بيته مسافراً يتعرض لوعثاء السفر، وعقبات الطريق، وقد يتعرض لمفاجآت يمكن أن تواجهه من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين السفاكين، والوحوش المفترسة، والبرد القارس، أو الحر اللافح وانقطاع الطريق.

ولذا كانت عقوبة النفي من الوطن والتغريب عن الديار والأهل من أقسى العقوبات وأشدها وقعاً على النفس... وما تزال هذه العقوبة كذلك حتى الآن.

وفي العصر الحاضر أضحت للمسافر مخاطر جديدة لم تكن فيما مضى، لأنها تتصل بوسائل النقل الحديث، كحوادث السير التي تنشأ عن وقوع خلل في السيارة يؤدي إلى انقلابها، أو عن اصطدام سيارة كبيرة بالسيارة التي يركبها الإنسان، أو ما إلى ذلك، وهذه الحوادث تفتك بعدد كبير من الناس كما تذكر ذلك الاحصائيات في البلدان المختلفة. وكسقوط الطائرات وتحطمها واشتعال النار فيها واحتراقها، ومحاولة اختطافها من قبل بعض المجرمين القتلة أو ما إلى ذلك.

ومما يتعرض له المسافر من المتاعب والعناءُ الذي يلقاه من القيام بمعاملات السفر الرسمية التي لا بد منها في عصرنا هذا من الجوازات والصحة والجمارك، والانتظار هنا وهناك، وضيقه بذلك كله، ومن هاتيك المتاعب حمل الأثقال التي تضم ملابسه ومتاعه، ولا سيما إن كان يسافر بأولاده، وتخوفه من ضياعها أو تعرضها للفساد.

ومنها تعرضه للعوامل الجوية من الأمطار والعواصف والسيول والصواعق. ومنها احتمال وقوعه في أحابيل اللصوص والدجالين الذين

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يستغلون جهله ويطمعون في ماله، ولا يعرفون قدره ومكانته في بلده.

كل هذه الهموم وغيرها من المتاعب التي تجعل السفر قطعة من العذاب، وفي التعبير عن السفر بأنه قطعة من العذاب جمال بياني رائع، فهو قطعة من العذاب، والقطع تتفاوت بتفاوت المسافر وظروفه وأوضاعه، فقد تكون القطعة طويلة وقد تكون قصيرة.. ولكنها على أية حال من العذاب.

ومن هنا سنّ رسول الله ﷺ للمسافر أن يستعيذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد.

والحديث الذي ذكرته في مطلع هذه الكلمة بلغ الذروة في دقه التعبير وجماله، بل إنك لن تجد أبلغ ولا أدق من عبارته.

مهما تكن الوسيلة مريحة سهلة فإن السفر يبقى فيه من المتاعب المادية والمعنوية والمفاجآت المزعجة المقلقة الشيء الكثير.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى بعض هذه المتاعب، فقد ذكر النوم والطعام والشراب، وهذه من الضرورات التي لا بد لكل إنسان من أن يحتاج إليها.

فالنوم الذي هو متعة ولذة وضرورة ليستعيد المرء نشاطه وحيويته، يختلف على الإنسان في السفر في وقته.. وكيفيته.. ومدته، وحرمانُ النوم مَنْغَصَةٌ وأيُّ منغصة، بل إن الطغاة ليعذبون من يريدون تعذيبهم بمنعهم من النوم، وكذلك فإن ألم المصيبة يطرد النوم على حدّ قول ابن الرومي:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام

والطعام والشراب اللذان هما قوام الحياة يمنع السفرُ المسافرَ منهما، فلا تستطيع أن يأكل في الأوقات التي اعتاد أن يأكل فيها، ولا أن يتذوق المطاعم الطيبة التي يلتذ بها، ولكل امرىء أسلوب في إعداد الطعام وتهيئته، ولكل قوم أكلات معينة يستخدمون في صنعها بعض المواد المعينة. وكذلك المشارب.

أرأيت كيف أن رسول الله ﷺ بهذا الايجاز البليغ عبرّ عن هذه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المعاني.. ولا غرو إذا كان ذلك كذلك أن يُوصي من كان مسافراً إذا قضى حاجته من سفره بالعودة إلى أهله عاجلاً.

وتدل وقائع الأيام والتجربة الشخصية أنَّ السفر قطعة من العذاب في كل وقت، ومهما كانت وسائل النقل مريحة حديثة.

ولا يعني هذا الكلام أن السفر عديم الفوائد.. لا.. إنَّ للسفر مزايا متعددة ويكفينا من ذلك أنَّ القرآن الكريم رغب في السفر لطلب العلم والجهاد فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٢٢].

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة»[١].

وهناك بحث مطول لعلماء السنة في الرحلة في طلب الحديث أشرت إلى معالمه في كتابي «الحديث النبوي»[٢] وقد ذكر العلّامة ابن خلدون رحمه الله في مقدمته القيمة الرحلة فقال:

[إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشايخ مزيدُ كمال في التعلم. والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقي أشد استحكاماً، وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها.... وهذا لمن يسّر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال][٣].

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٦٩٩.

(٢) الحديث النبوي ص ٣٨.

(٣) انظر الفصل ٣٤ من مقدمة ابن خلدون.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وللسفر فائدة تربوية، ذلك أن الإنسان عندما يسافر، وتعضه أنياب الغربة، وتزعجه التنقلات المستمرة، تتغير كثير من أحواله وعاداته، ويتجرع الصدمة، ولا يجد أمامه إلا الصبر ومداراة الآخرين والترفق في محادثتهم والتواضع لهم، فيورثه ذلك كله حسناً في الخلق، وقدرة على مواجهة المشكلات بحسن التأتي وكريم الفعال.

إن في السفر هذه المزايا وغيرها، ولكن ليعلم المرء أن فيه مشقة وعناء، وكلفة وشقاء، فإذا قضى الإنسان نهمته من طلب العلم، أوالجهاد، أو صلة الأرحام، أو الدعوة إلى الله، فليرجع إلى أهله.

إن في هذا الحديث «السفر قطعة من العذاب» تبصرةً لكل مؤمن بالله، ليعرف ماذا سيلقى في طريقه من المصاعب حتى لا يفاجأ مفاجأة تجعله يقعد عن الخير ويتراجع عن الهدف الأسمى والمقصد الطيب الذي كان عازماً عليه.

إن الإخلاد إلى الأرض، والارتباط بها، وعدم الرحلة عن الديار لطلب العلم ونشر الدين والدعوة إليه، وترك الارتحال من أجل الجهاد في سبيل الله، أمر لا يليق بالمسلم الواعي الطموح. وكذلك فإن السفر للتجارة والكسب والسياحة والفسحة أمر مشروع، ولكن ليوطن الإنسان نفسه قبل البدء بالرحلة أن السفر قطعة من العذاب، وأنه إن أخلص نيته لله كان له فيما يلقى من النصب والتعب والعذاب ثواب جزيل.

وقد عالج عدد من الشعراء والأدباء مزايا السفر مع ما يتحمل صاحبه من العنت، ولنورد شيئاً من ذلك.

قال النابغة الجعدي:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه ... شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا

فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا[1]

(١) شرح المقامات ١/١٠٠ وانظر «أقوال مأثورة» ١٠٥، والبيت الأول منسوب إلى عروة بن الورد أيضاً. وانظر ديوان النابغة ٧٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد قيل: من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب. وقال رجل لأحد الصالحين: أأتحرك لطلب الرزق أم أجلس؟ قال: لا. بل تحرك فإنه أصلح لك. فقال: أتقول هذا؟ قال: ما أنا قلته ولكن الله عز وجلّ أمر به؛ قال لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] ولو شاء لأنزله عليها.

وقال الثعالبي: من فضائل السفر أنَّ صاحبه يرى من عجائب الأمصار، وبدائع الأقطار، ومحاسن الآثار، ما يزيده علماً بقدرة الله، ويدعوه إلى شكر نعمته.

وقال أبو الطيب:

وما بلد الإنسان غير الموافق ... ولا أهله الأدنون غير الأصادق[1]

وقال أبو فراس:

إذا لم أجد في بلدة ما أريده ... فعندي لأخرى عَزْمةٌ وركاب[2]

وقال إبراهيم بن العباس الصولي:

لا يمنعنك خفض العيش في دعة ... نزوعُ نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حللت بها ... أهلاً بأهل، وجيراناً بجيران[3]

وقال أبو تمام:

وطول مقام المرء في الحيّ مخلق ... لديباجتيه، فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد[4]

---

(١) ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٣/٧٥.

(٢) نسب الشريشي هذا البيت إلى أبي الطيب في شرح المقامات ١/١٠١ ولم أجده في الديوان بشرح البرقوقي.
وهو لأبي فراس الحمداني انظر ديوانه ص ٤٥ ط دار الكتاب العربي بيروت.

(٣) شرح المقامات ١/١٠١ وانظر «أقوال مأثورة» ٦٤ و٥٥٣، وانظر ديوان المعاني ٢/١٨٦ وعيون الأخبار ١/٢٣٤ والبداية والنهاية ١/٣٤٥.

(٤) شرح المقامات ١/١٠٢ وانظر «أقوال مأثورة» ٢٤ وانظر ديوان أبي تمام ٢/٢٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أما السفر إلى بلاد الكفار فحكمه مرتبط بأمرين: هما الغاية من السفر، وحالة المسافر ومستواه.

● فإن كان السفر لغاية مشروعة كالجهاد في سبيل الله، أو الرباط، أو الدعوة إلى الله، أو التعرف على أحوال الكفار ليحذر المسلمون من مكرهم ومخططاتهم، أو تعلم علم لا يوجد في بلاد المسلمين والناس في حاجة إليه، أو اكتساب صنعة، أو ما إلى ذلك.

فالسفر محمودٌ مطلوب إن أمن المسافر على نفسه الفتنة. وهذا يقودنا إلى الكلام عن حالة المسافر ومستواه، فإن كان المسافر متين العقيدة، متماسك الخلق، قوي الشخصية، ملتزماً بأحكام الإسلام وآدابه، يأمن على نفسه الفتنة في دينه وخلقه وكانت المهمة شرعية، جاز وإلا حرم عليه السفر كيلا يغامر بدينه ودين أولاده وزوجاته.

وإذا قضى حاجته من سفره، وحقق ما كان يسعى إليه فليعجل بالعودة إلى أهله كما قال ﷺ: «السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله».

والسفر إن كان إلى بلاد الكفار دون غاية مشروعة، أو كان المسافر إليها ضعيفاً، محظور يأثم فاعله.

عن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. لا تراءى ناراهما» أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد والبيهقي والترمذي[1].

وسبب الحديث أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل. قال جرير: فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأمر لهم بنصف العقل، أي بنصف الدية وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين».

(١) أبو داود رقم ٢٦٤٥ والترمذي ٢/٣٩٧، والنسائي ٨/٣٦ وأحمد ٤/٣٦٥ والبيهقي ٩/١٣ وانظر صحيح الجامع الصغير رقم ١٤٦١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال العلماء: [وإنما أمر لهم بنصف الدية لأنهم أعانوا على أنفسهم بمقامهم بين الكفرة، فكانوا كمن هلك بفعل نفسه وفعل غيره، فسقطت حصة جنايته][1].

وقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ لم يتبرىء من المسلم الذي يقيم بين أظهر المشركين فقال ﷺ: «لا تراءى ناراهما».

قال ابن الأثير في النهاية: [أي يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إن أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله، ولكنه ينزل مع المسلمن، في دارهم، وإنما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان، وحثّ المسلمين على الهجرة، والترائي تفاعل من الرؤية، يقال: تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضاً. وتراءى لي الشيء: أي ظهر حتى رأيته. وإسناد الترائي إلى النارين مجاز من قولهم: داري تنظر إلى دار فلان: أي تقابلها. يقول: ناراهما مختلفتان هذه تدعو إلى الله وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف يتفقان؟ والأصل في تراءى تتراءى، فحذفت إحدى التاءين تحفيفاً][2].

فالسفر للإقامة في ديار الكفار أمر غير جائز. [إنَّ التمايز بين المسلمين والكفار أمر يدعو إليه الدين في نصوص كثيرة، لأن الاختلاط والمؤاكلة والمعايشة والمجالسة كل أولئك يدخل الجور على كثير من المبادىء والقيم الإسلامية.

إن المسلم المقيم في ربوع المشركين لا يستطيع أن يحقق شعائر دينه، ولا أن يشعر بالعزة، ولا أن يدعو لمبادىء عقيدته. بل إنه مضطر ـ في كثير من الأحيان ـ ليحافظ على حياته ومصالحه وبقائه في وسط الكفار أن يعطي الدنية في دينه، وأن يرى استعلاء سلطان الكفار في مكان يقيم

---

(١) عون المعبود ٢/٣٤٨.
(٢) النهاية ١/١٧٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيه أمراً طبيعياً لا ينكره ولا يعمل على إزالته، وربما كان في قرارة نفسه معجباً بأحوالهم وأمورهم.

ولذلك جاء الأمر ملزماً بالهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وجاء التهديد الشديد لأولئك الذين يؤثرون العيش في ديار الشرك... فرسول الله ﷺ يعلن براءته من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، وذلك يعني خسرانه وضياعه؛ لأن رسول الله يتبرأ منه.. بل يكاد يصل هذا - إن أخذنا الكلام على ظاهره - إلى كفره وخروجه من الدين.. فإقامته هناك في ديار الكفار أمر محظور ممنوع.

والصورة الرائعة التي عبَّر بها رسول الله عن مفاصلة المشركين والبعد عنهم هي «لا تراءى ناراهما..» أي يجب على المسلم أن يجعل منزله بعيداً عن منازل المشركين، أي لا يجوز أن يساكن الكفار في بلادهم بحيث إذا أوقدوا ناراً كان منهم بحيث لا يراها، ولقد درج على هذا المسلمون حتى فيما يتعلق بأهل الذمة، حيث كانوا يقيمون في أحياء خاصة بهم.. إلى أن احتُلَّت - في مطلع هذا القرن الميلادي - بلاد المسلمين من قبل المستعمرين الكافرين، فشجعوا اليهود والنصارى على الانتشار بين المسلمين](1).

أما المضطر إلى الإقامة هناك في بلاد الكفرة، ولم يستطع أن يقيم في بلدٍ من بلاد المسلمين لسبب من الأسباب، فهذا له حكم المضطر، ولكن عليه أن يعمل ما استطاع سبيلاً حتى يتمكن من التخلص من تلك الإقامة النكدة.

وليس يصح في نقض هذا الكلام وردّه ما يقوله بعض العامة والجهلة من أن كثيراً من بلاد المسلمين فيها مخالفات للإسلام، لأن سمة المجتمع الغالبة عليه لا تزال مرتبطة بالإسلام، ولا تزال المآذن تصدح بكلمات التوحيد كل يوم خمس مرات، ولا تزال المساجد عامرة بالمسلمين، ولا تزال عادات الناس قائمة على أساس من الدين، وكذلك تصوراتهم

---

(1) التصوير الفني في الحديث النبوي ٤٥٥ - ٤٥٦ بتصرف يسير.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومخاطباتهم، ولا يزال عدد من علماء المسلمين الصالحين قائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتذكير والوعظ والتعليم والتوجيه وإقراء القرآن وتدريس الفقه والتوحيد.

وكل هذا له أكبر التأثير على الإنسان وعلى الناشئة بشكل خاص.

إن الذي يصر على الإقامة في بلاد الكفار من غير عذر ملجىء يرضى بأن يحيا حياة أبعد عن الإسلام.. ويعرض أولاده إلى التأثر بعبادات الكفار وعقائدهم وتصوراتهم.

أما الجيل الثالث من أحفاده فهؤلاء يقدمهم لقمة سائغة إلى الكفر والزيغ والضلال؛ فسلطان المجتمع والثقافة والمخالطة سلطان كبير.

● ونرى أنه لا بُدَّ من أن نذكر أنفسنا بسفر محتوم، تسافر فيه أرواحنا إلى حياة برزخية، ننتقل منها إلى الحياة الآخرة، التي نعيمها دائم، وعذابها مقيم.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يُحلنا دار الخلد فنلقى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. وأن يعيذنا من النار ومن كل ما قرب إليها من قول أو عمل. فاذكروا يا عباد الله تلك السفرة... فإن السفر طويل، والأمر خطير.. والذي ينقذ من ذلك كله تقوى الله.

فهناك في الرحيل إلى الآخرة سكرات الموت، ومقاساة ظلمة القبر وديدانه، والسؤال فيه، ثم نفخ الصور والبعث يوم النشور، والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط، ثم الجنة أو النار.

وكما أن المسافر في الدنيا يتزود لسفره من الماء والطعام والفراش واللباس والفلوس فكذلك المرتحل عن الدنيا عليه أن يتزود لرحلته العظمى ما استطاع من الزاد الباقي ألا وهو التقوى كما قال ربنا عز وجل ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

● ذاك نوع من أنواع السفر، وهناك نوع آخر وهو السفر بالفكر

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والقلب والروح إذا كتب على المرء أن يحيا في وسط بعيد عن شرع الله، بعيد عن معاني الخير والحق والإيمان، وكتب عليه أن يقيم فيه وتعذر عليه أن يعيش في وسط يحكِّم شرع الله، وسط مؤمن فاضل، فعليه أن يرحل بقلبه وروحه ونفسه إلى آفاق الحق والخير والإيمان، ويكون هذا الرحيل بالعبادة والقراءة والثقافة وإشعار المرء نفسه تلك المعاني الكريمة.

أما القراءة فليقرأ كتاب الله وليتدبر آياته، وليحلِّق في أجوائه وليعش في ظلال آياته يستنشق من خلالها عبير الفضيلة، ورائحة الجنة، ويعمر قلبه بمعاني الإيمان.. إن القرآن أنس للقلب والعقل والروح والنفس، ذلك أن الذي يعيش مع آيات الكتاب ويتعامل معها يرتفع بنفسه عن دنيا الناس التي سيطرت عليها المادة، فعطلت تفكيرهم وأعمت أبصارهم.. إنه يحس بإنسانيته وسمو العبودية إلى الله.

وليقرأ أحاديث النبي ﷺ التي هي أيضاً غذاء للروح والقلب.

وليقرأ تلك الصفحات المشرقة من تاريخنا المجيد ويأتي في مقدمة ذلك التاريخ سيرة نبينا ﷺ وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم.

إنَّ من يرتحل بشعوره وروحه وقلبه عن ذاك الوسط الدنيوي المادي يصبح سلوكه دعوة حية يدل الناس على الرشد ويأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم.

إنه يسعد مهما كان وضعه المادي المعنوي في نظر الخلق.. إنه يكون في سعادة طلبها أصحاب الجاه واليسار فأخطؤوها.

* * *

● والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب.

فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه، ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه.

وإما أن يكون له مقصد، وهذا المقصد إما ديني كالجهاد والحج



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وطلب العلم وصلة الأرحام والدعوة إلى الله، وإما دنيوي كطلب الكسب والتجارة والفسحة. وهذا الأخير يتحول إلى مقصد ديني بالنية الصالحة الطيبة.

* * *

● وللسفر آداب ذكرها العلماء مفصلة، استنبطوها من كلام النبي ﷺ وسيرته العطرة، نذكر نبذة منها على سبيل الإشارة لا على سبيل الاستقصاء.

ـ منها أن يبدأ المسافر بردّ المظالم وقضاء الديون وتسليم الودائع، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته.

ـ ومنها التزود لسفره بالمال الحلال.

ـ ومنها أن يتخلق في سفره بالحلم وحسن الخلق وطيب الكلام ومساعدة الناس وخدمة رفقائه.

ـ ومنها أن يختار رفقة صالحة، فلا يخرج وحده، ولا يصاحب إلا صالحاً، وأن يؤمروا واحداً منهم فقد روى الطبراني بإسناد جيد من حديث ابن مسعود قال ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا عليكم أحدكم»[1] وإذا اختاروا أمثلهم وجبت عليهم طاعته في المعروف.

ـ ومنها أن يودع رفقاء الحضر والأهل وأن يدعو لهم بقوله (أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك)[2].

ـ ومنها أن يستخير الله تعالى وذلك بأن يصلي سنة الاستخارة ويدعو بالدعاء المأثور.

ـ ومنها أن يبكر في سفره ويحرص على أن يكون يوم الخميس.

ـ ومنها أن يحافظ على نفسه وماله ونسائه ولا سيما في الليل، وإذا كانوا جماعة فليتناوبوا الحراسة.

---

(١) انظر مجمع الزوائد ٥/٢٥٥.

(٢) رواه أبو داود بإسناد جيد.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ ومنها أن يرفق بالدابة أو وسيلة النقل، ويتعهدها بالصيانة والتغذية.. فمن المخاطرة المذمومة أن يسافر المرء سفراً طويلاً بسيارة تالفة تقطعه في الطريق وتعرضه وأهله للمهالك.

ـ ومنها أن يصطحب معه الأدوات التي يحتاج إليها المسافر.

ـ ومنها أن يتمتع برخص السفر من قصر الصلاة الرباعية والجمع، والأخذ بهذه الرخصة أفضل، والإفطار في رمضان، وهذا أمر اختلف العلماء في أفضليته، فذهب بعضهم إلى أنه أفضل من الصوم، وذهب آخرون إلى أن الصوم مع عدم المشقة والضرر أفضل، وهذا هو الصحيح إن شاء الله.

ـ ومنها أنه رخص للمسافر أن يؤدي صلاة النافلة على الراحلة أينما توجهت دابته وليس عليه الركوع والسجود إلا بالإيماء، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه، ولا يجب عليه استقبال القبلة.

كما رخص للمسافر التنفُّل ماشياً فيومىء بالركوع والسجود ولا يقعد للتشهد، وحكمه حكم الراكب، لكنه ينبغي له أن يستقبل القبلة عندما يدخل في الصلاة ويكبر تكبيرة الإحرام.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحديث الحادي والعشرون

لواء الغادر

أخرج البخاري في صحيحه عن نافع قال:

لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابنُ عمر حشمه وولده فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة» وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني لا أعلم غَدْراً أعظم من أن يُبايع رجلٌ على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال. وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر إلّا كانت الفيصل بيني وبينه. رواه البخاري ٤٨/٩ في كتاب الفتن. باب إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه. [وانظر فتح الباري ٦/ برقم ٣١٨٦ و ٣١٨٧ و ٣١٨٨ و ١٠/ برقم ٦١٧٧ و ٦١٧٨ و ١٢/ برقم ٦٩٦٦ و ١٣٠/ برقم ٧١١١].

وأخرج الحديث المرفوع منه مسلم في كتاب الجهاد والسير في باب تحريم الغدر (أرقام ١٧٣٥ - ١٧٣٨) وعن عمر وأنس وأبي سعيد. [وانظر شرح النووي ٤٣/١٢] وانظر صحيح مسلم ط استانبول ١٤٣/٥.

ولفظ حديث ابن عمر «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يعرف به يقال: ألا هذه غدرة فلان بن فلان».

ولفظ حديث أنس نحوه.

أما لفظ حديث أبي سعيد كما أورده مسلم: «لكل غادر لواءٌ عند

استه يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة».

[وانظر الحديث أيضاً في «المسند» ١/٤١١ و٤١٧ و٢/١٦ و ٣/٧ و ٢٥٠ وأبي داود ٣/ برقم ٢٧٥٦ وابن ماجة رقم ٢٨٧٢ و ٢٨٧٣ والترمذي ٣/٣٩١ والدارمي ٢/٢٤٨ و«السنن الكبرى» ٨/١٦٠ وتاريخ بغداد ١١/٣٨٤ ومجمع الزوائد ٥/٣٣٠].

إذا تأملنا هذا الحديث الجميل وقفنا على دروس عدة:

● أما الدرس الأول فهو تحريم الغدر وبيان ما ينتظر صاحبه من الفضيحة والهوان يوم القيامة. ومن أروع ما يواجهنا في هذا البيان النبوي البديع هذه الصورة الفاضحة المخزية المهينة التي تكون للغادر في الآخرة يوم يجمع الله الأولين والآخرين..

والغدر صفة ذميمة، يُحتقر صاحبها ويُكره، ويتجافاه الناس وينبذونه، والغدر خصلة مقيتة، ينفر منها الطبع السليم، وتأباها الفطرة الزكية. ومن أشدِّ الاتهامات للمرء وأبلغ الشتائم له أن تصفه بالغدر.

إنَّ الناس يتجمل بعضهم أمام بعض، ولا يحب المرء أن تبدو عيوبه للناس، بل قد يركب بعضهم مركب الكذب والنفاق وحلف الأيمان الكاذبة، كيلا ينكشف حاله ويظهر للناس أمره... ومن أعظم العيوب عند الرجال عيب الغدر.. فترى الغادر يتظاهر بما يخفي غدره، ولكنه يوم القيامة لا يفضح أمام معارفه وأبناء بلده وأهل عصره فحسب، بل إنه يفضح أمام الخلائق الأولين منهم والآخرين، فينصب لواء يعرف به، ويُشهَّرُ به على رؤوس الأشهاد..

ونصب اللواء عادة جرت عليها قبائل العرب فقد قال القرطبي:

[هذا خطاب منه للعرب بنحو ما كانت تفعل؛ لأنهم كانوا يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء، ليلوموا الغادر ويذموه][1].

ولكن هذا اللواء الذي ذكره الحديث لواء آخر إنه يرفع عند است الغادر أي خلف ظهره.. إنه لواء تحقير وإهانة وفضيحة.. إنه منظر زري مضحك، يمشي الغادر، واللواء المنصوب عند استه يمشي معه سخرية ومهانة.

وإن ألوية الغادرين لتتفاوت بقدر غدر كل منهم، فبعضها أعلى من بعض. واللواء يكون على الرأس عادة، وينصب تلقاء الوجه، فإذا امتدت الأعين رأت رأس صاحبه ووجهه، ولكن لواء الغادر يكون عند استه، فإذا امتدت الأعين رأته منصوباً عند استه، وفي ذلك زيادة فضيحة واحتقار ومذلة.

ولا يكتفى بهذا اللواء المنصوب على استه، بل إننا لنسمع نداء ينادي: ألا هذه غدرة فلان بن فلان.

يا لها من فضيحة على رؤوس الخلائق، وإنَّ ما بعدها من العذاب لأشد وأكبر. العذاب الذي أعده الله للعصاة من عباده وللكافرين والمنافقين.

والجملة الأخيرة «ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة» يمكن أن تفهم على وجهين وكلاهما مقبول وسائغ[2]:

● الوجه الأول: نهي الإمام أن يغدر في عهوده لرعيته وللكفار وغيرهم، وأن يغدر في الأمانة التي قُلِّدها لرعيته والتزم القيام بها والمحافظة عليها، ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق بهم فقد غدر بعهده. وفي الحديث بيان غلظ تحريم الغدر لا سيما من صاحب الولاية، لأن غدره يتعدّى ضرره إلى خلق كثير.

---

(١) فتح الباري ٦/٢٨٤ وانظر «التذكرة» ٢٩٥ وما بعدها.
(٢) شرح النووي ١٢/٤٤.

● الوجه الثاني: أن يكون المراد نهي الرعية عن الغدر بالإمام، فلا يشقوا عليه العصا، ولا يتعرضوا لما يخاف حصول فتنة بسببه.

وهذا الوجه هو ما فهمه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فلنف بوعودنا، ولنحذر الغدر، وليكن ذلك شأننا مهما كنا وأياً كانت صفتنا.

إنَّ الغدر ممقوت ومحظور، تأباه الطبائع السليمة، وتنفر منه النفوس الصادقة، وتحرّمه الشرائع الربّانيّة، وعندما يُعرف امرؤ بالغدر لا يثق به أحد، ولا يتعامل معه إنسان، ويبغضه كل من يعرفه، ويكون له الخزي يوم القيامة، والفضيحة على رؤوس الأشهاد وعلى مسمعٍ ومرأىً من الخلائق في ذاك اليوم العصيب.

بل إن الله عز وجلّ يكون خَصْمَهُ يومَ القيامة، وما أعظم خسارة مَنْ خاصَمَهُ ربُّ العالمين!!.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة:

رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجلٌ باع حراً فأكل ثمنه، ورجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره»[1] رواه البخاري وابن ماجه وأحمد.

وفي رواية ابن ماجه: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته».

والغدر خصلة من خصال النفاق، يقرر ذلك رسول الله ﷺ فيقول فيما رواه عنه عبد الله بن عمرو بن العاص: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاقِ حتى

---

(١) صحيح البخاري: كتاب البيوع ٣/٧٢ - ٧٣ وأحمد ٢/٣٥٨ وابن ماجه برقم ٢٤٤٢.

يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» متفق عليه[1].

ومعروفة درجة المنافق في الإسلام.

ومن المؤسف أن نرى في حياتنا نفراً من المخادعين الذين يعاهدون فيغدرون، ويسلكون لتسويغ غدرهم مسلك الكذب والأيْمان الكاذبة، والحلفُ الكاذب هو شأن المنافقين كما ذكر ربنا سبحانه ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٦ والمنافقون: ٢] يحملهم على ذلك الرغبة في الحصول على المال والنفع المادي، سواءٌ كانَ من حلال أم من حرام، واستحكامُ النزعةِ المادية سببٌ من أكبر أسباب انحرافنا وبعدنا عن ديننا، وفتنة هذه الأمة المال كما قرر ذلك رسول الله ﷺ ومن أجل ذلك حذّر الله عباده في الكتاب الكريم من فتنة المال في غير موضع قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥].

والغدر دناءة وخسة.. ولكنه عندما يصدر من إنسان يتزيَّا بزي العلم ويتظاهر بالدين فإنه يكون أعظم دناءة وخسّة، لأنه بغدره وغشه أساء مرتين:

مرة لأنه غدر وارتكب هذا الخلق الذميم المحرم، ومرة لأنه أساء إلى العلم والدين بغدره هذا.

وإن الذين يتزيون بزيِّ العلماء وهم جهلة، ويتظاهرون بالصلاح وهم فسقة قومُ سوءٍ، وقد عرفوا في تاريخنا بعلماء السوء الذين يظهرون أمام

(١) صحيح البخاري (الفتح ١برقم ٣٤) وصحيح مسلم ١ برقم ٥٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الناس على أنهم طلاب علم دعاة إلى الله، فيثق الناس بهم ويأتمنونهم على أموالهم، ويعهدون إليهم بالمشاريع ليقوموا بها، فما يكون منهم إلا الغشُّ والخيانةُ، وأكلُ السحت والعدوانُ على حقوق الناس وسلبُها، إنَّ هؤلاء الغدَّارين المتظاهرين بالصلاح قطاع طرق. قال ابن القيم رحمه الله: [علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم.

فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا؛ قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له. فهم في الصورة أدلاَّء، وفي الحقيقة قطاع الطرق][1].

وكذلك وردت هذه التسمية لهم في كلام يسوقه الغزالي، فقد قال رحمه الله: [..وليفرَّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان، بل أشدَّ، فقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالماً أسكره حبُّ الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي. فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى][2].

نعم.. إننا لنجد في الواقع ناساً يتظاهرون بالدين، ويحرصون على أن يتخاشعوا في صلاتهم في الملأ، ويتكلفوا الحماسة للدعوة له عند المتدينين، ويبدون إليهم الغيرة عليه والحرقة، ويستعظمون الصغيرة من غيرهم، ويقعون في أعراض بعض الأعلام من العلماء لأنهم في نظرهم مقصرون، ويقولون الكلام المعسول، حتى يُعجب من لقيهم بقولهم، ويشهدون الله على ما في قلوبهم وهم كاذبون، فيكون ذلك كله من الأمور الخادعة لمن حولهم.. وقد يعمد أحد هؤلاء الغدارين إلى اقتراح مشروع يكلف مبالغ طائلة ويذكر محاسنه ويبالغ فيها، ويوهم السامع أنَّ مَنْ يشارك في هذا المشروع سيصبح من السعداء الأثرياء، ثم يُعقِّبُ هذا الخداع

(١) الفوائد لابن القيم ط عرموش ص ٨٠.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/٣٨٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الغدار المحتال بشكواه من قلة ذات اليد. . . فإذا سمع المرء الطيب هذا الكلام رغب رغبة جامحة في أن يسهم في هذا العمل ليجلب لنفسه الخير ويساعد هذا الرجل المتظاهر بالفضل والدين.

وربما كان السامع قادراً على دفع مبلغ سبق أن ادخره طول حياته فيندفع هذا المسكين ويقدم له هذا المبلغ. . وعندئذ يكرر الغادر الخاسر الوعود أنه سيخدمه وسيحقق له الأمنية الكبرى. . ثم يغدر به ويأكل ماله ويهيم على وجهه. ولقد سمعت قصصاً من هذا النوع ولا قوة إلا بالله.

إن هذا الغادر الخاسر مجرم آثم، ألا فليعلم أن عمله مُحْصَىً مكتوب ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾ [الكهف: ٤٩] وسيلقى كل إنسان ما قدم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧ ـ ٨] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

أما أولئك المخدوعون فليعملوا أنه لن يضيع عليهم شيء، وليأخذوا العبرة مما جرى لهم، فلا يتسرعوا في الحكم على الناس من خلال رؤيتهم بعض المظاهر، وليعلموا أن ظهور الناس بمظهر الفسق له دلالة معتبرة في الشرع، فالغالب أنه لا يظهر بهذا المظهر إلا من كان فاسقاً، ولكن ظهور بعض الناس بمظهر الصلاح لا يكفي للحكم عليهم بأنهم أبرار.

إن الغادر مفضوح يوم القيامة وسينصب له لواء في ذاك اليوم إهانة له وتبكيتاً.

إنَّ علينا أن ننظر نظرةَ نقدٍ إلى مرويات التاريخ التي عبثت بها أهواء الفرق المنحرفة. . فلقد دسّ الكذابون الأكاذيب، وافترى المفترون الأباطيل، وشوّهوا صورة القرنِ الأولِ أفضلِ القرونِ.

إن الحديث الذي أوردناه آنفاً يعرض علينا رأي صحابي جليل في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حدثٍ سياسيٍّ مُهمٍّ عاصره، إن عبدالله بن عمر صحابي جليل نبيه مشارك في أحداث عصره، تميز بالورع والبعد عن المجاملة، وكان جريئاً مجاهراً بالحق، نشأ في الإسلام وهاجر إلى المدينة[1] مع أبيه، وشهد فتح مكة، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، ولما قتل عثمان عرض عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى. وكان مجاهداً غزا إفريقية مرتين. قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: [مات ابن عمر وهو مثل عمر في الفضل، وكان عمر في زمان له فيه نظراء، وعاش ابن عمر في زمان ليس له فيه نظير][2].

وكلمة ابن عمر التي رواها البخاري في الأحداث السياسية التي كانت جارية في عصره كلمة لها وزنها وقيمتها، ولا سيما عندما تكون منقولة بأصحّ إسناد في الوجود، لأن صحيح البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

يقول نافع: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع عبد الله بن عمر حشمه وولده، وروى لهم ما سمعه من رسول الله ﷺ من عقوبة الغادر يوم القيامة، ثم حذرهم من أن ينساق أحد منهم للخروج على يزيد أو خلع بيعته، وهددهم بأن أي واحد منهم يخالف هذا الموقف فيخرج أو يبايع ستكون القطيعة بينه وبينه.

[قال ابن حجر: الفيصل أي القاطعة، وهي فَيْعَل من فصل الشيء إذا قطعه][3].

إنَّ هذا الخبر وهذه الكلمة ينبغي أن تلفت أنظارنا إلى أن الأخبار المروية عن يزيد لا تصح كلها.. وإلاَّ فهل كان عبدالله بن عمر يقف مثل هذا الموقف لو أنَّ تلك الأخبار كانت صحيحة.. هل يمكن أن تكون صورة يزيد كما تصورها الروايات التي عبث بها أهل الأهواء من فسقه وسكره،

---

(١) الأعلام ٤/١٠٨.
(٢) الاصابة ت ٤٨٢٥.
(٣) الفتح ١٣/٧١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفجوره ومجونه ثم يكون من عبد الله بن عمر هذا الموقف؟ . . . إن ذلك بعيد في نظري.

إنَّ علينا أن نتريث في قبول تلك الروايات التي توردها كتب التاريخ والأدب عن الحقبة الفاضلة الكريمة التي شهد لها رسول الله ﷺ: بأنها خير القرون قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1].

إن في الروايات التي يذكرها المؤرخون بعداً عن الواقع، ونحن بحاجة إلى إعادة صياغة أحداث التاريخ لا سيما بالنسبة لهذه الحقبة. وهو أمر صعب وأعيد ذلك إلى أسباب أربعة هي:

١ ــ صعوبة العمل نفسه: فنحن نرى في عصرنا أموراً تحدث، ويكتب الكاتبون شيئاً آخر، إننا نرى ونعلم أن كثيراً مما يقال غير ما يقرر، وما يقرر غير ما ينفذ. . وقد زخر عصرنا بوسائل الإعلام من البرق والبريد والهاتف والأقمار الصناعية والتلكس والفاكس ووكالات الأنباء. . إذا كان ذلك كذلك فما قولنا بالتحقيق في أحداث الماضي الذي حالت بيننا وبينه القرون، وخلا من كل ما نجد من أدوات التسجيل والتصوير والإعلام.

٢ ــ شيوع التساهل في رواية التاريخ: فقد كان يتساهلون في المغازي والسير. قال الميموني:

سمعت أحمد بن حنبل يقول: ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير[2]. قال الخطيب في جامعه: وهذا محمول على كتب مخصوصة. . غير معتمد عليها لعدم عدالة ناقليها وزيادات القصاص فيها[2] وإذا كان ذلك في سيرة النبي ﷺ فإنه في سرد حوادث التاريخ أجلى وأوضح.

---

(١) رواه البخاري ٣/١٥٠ ومسلم ٧/١٨٤ وأحمد في المسند ١/٣٧٨.
(٢) المقاصد الحسنة: ٤٨١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣ ـ تأثر المؤلفين بالوضع السياسي القائم وبميول معينة: فمدونات التاريخ كتبت زمن الدولة العباسية التي كانت تقوم على أساس الحقد على الأمويين، وكان كثير من كتاب التاريخ راغبين في مسايرة الحكام أو من ذوي الميول المنحرفة الكارهة للأمويين.

٤ ـ نهج التأليف في العصور الأولى: إذ كان هذا النهج قائماً على أساس أن يجمع المؤلف كل ما قيل في الموضوع. والناظر في كثير من كتب التاريخ يجد الخبر وضده.

ويشعرني هذا الحديث بواجب نقد الروايات التي تصور ذلك القرن أسوأ صورة. ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار طبيعة العصر وخصائصه العامةَ، ولا بد من رسم معالم الحياة الفكرية والاجتماعية والدينية لذاك العصر، وقبول ما ينسجم معه ورفض ما لا يتلاءم معه، واعتماد الاشارات الصحيحة الواردة في مدونات السنة.

إن يزيد بن معاوية خليفة من خلفاء المسلمين ليس من أفضلهم ولا من أسوئهم كما قال ابن الصلاح في «فتاواه»[1]: [والناس في يزيد ثلاث فرق: فرقة تحبه وتتولاه، وفرقة تسبه وتلعنه، وفرقة متوسطة في ذلك لا تتولاه ولا تلعنه وتسلك به سائر ملوك الإسلام وخلفائهم غير الراشدين في ذلك وشبههم، وهذه الفرقة هي المصيبة، ومذهبها هو اللائق بمن يعرف سير الماضين ويعلم قواعد الشريعة الطاهرة].

إن الإسلام العظيم أرشد أتباعه إلى أن يستعملوا عقولهم وأن يترفعوا عن مسلك الجاهلين الذين يتبعون آباءهم على ما كان منهم.. إنها طريقة الأنعام والبهائم تمشي في القطيع ولو كان في سيرها الهلاك. إن العصر الذي هو أفضل العصور لا يمكن أن تكون فيه تلك الحوادث التي روَّجها

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص٣٨ وانظر «الفوائد الموضوعة» للكرمي فقرة: ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

في الماضي قوم في قلوبهم مرض، وقد تنطلي على بعض المغفلين. ولكن مهمة الدعاة التنبيه والتوجيه والله هو الموفق.

الحديث الثاني والعشرون

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«عرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمرُّ معه الأمة، والنبي يمرُّ معه النفر، والنبي يمرُّ معه العشرة، والنبيُّ يمرُّ معه الخمسة، والنبي يمرُّ وحده، فنظرت فإذا سواد كثير. قلت: يا جبريل! هؤلاء أمتي؟.

قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سوادٌ كثير، قال: هؤلاء أمتك. وهؤلاء سبعون ألفاً قُدَّامَهُمْ لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

فقام إليه عُكَّاشةُ بن مِحْصَنٍ، فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم.

قال ﷺ: «اللهم اجعله منهم».

ثم قام رجلٌ آخر فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم.

قال: «سَبَقَكَ بها عُكّاشةُ». [فتح الباري: ١١/٤٠٥ - ٤٠٦].

هذه رواية البخاري التي أوردها في كتاب الرقاق في باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب [٨/٩٥].

وقد أورد البخاري جزءاً يسيراً من هذا الحديث في كتاب الرقاق أيضاً في باب: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [٨/٨٤] وهذا الجزء

هو قوله ﷺ: «يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يكوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

وأورد البخاري هذا الحديث في كتابين آخرين من صحيحه، هما: **كتاب الأنبياء**، في باب وفاة موسى [٤/١٢٦].

وقد جاء منه جزء يسير وهو السواد الكثير الأول الذي رآه رسول الله ﷺ. **وكتاب الطب** في باب: من اكتوى أو كوى غيره [٧/١٠٩] وفي باب: من لم يرق [٧/١١٦].

وأخرجه مسلمٌ في كتاب الإيمان من صحيحه في باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب [١/١٣٦ - ١٣٨].

والحديث المذكور مرويٌّ أيضاً عند الشيخين بروايات أخرى مقاربة عن أبي هريرة وغيره.

هذا الحديث يعرض مشهداً من مشاهد الغيب رآه النبي ﷺ، وقد يكون ذلك ليلة الإسراء[1]، وقد يكون في منامٍ رآه، ورؤيا الأنبياء حقٌّ، وهي صورة من صور الوحي كما هو معروف[2].

فقد عرضت عليه الأمم معها أنبياؤها، وكان معه جبريل، وهي تتفاوت كثرة من نبي إلى نبي.. فأخذ النبي يمرُّ معه الأمة الكثيرة العدد، ويمر نبيٌّ آخر معه نفر قليل، ويمر نبي معه عشرة أفراد فقط.. ونبيٌّ آخر معه خمسة.. ويمر نبي وحده ليس معه أحد.

● إن هذا الحديث فيه عزاء للدعاة الذين يعرض الناس عنهم، ولا

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر أنه ﷺ رآهم ليلة أسري به من المدينة، وهذا غير الاسراء الذي كان في مكة، وذهب إلى ترجيح أن هذا الاسراء كان مناماً والله أعلم.
وانظر فتح الباري ١١/٤٠٥ وما بعدها.

(٢) انظر لمحات في علوم القرآن ص ٤٧.

يستجيبون لدعوتهم، فإذا كان حال الأنبياء مع أممهم كما ذكر هذا الحديث الصحيح، والأنبياء مؤيدون بالوحي، فالناس العاديون من الدعاة الذين لا يستجيب الناس لدعوتهم يجدون فيه العزاء من باب أولى.

إن على الداعية أن يأخذ بالأسباب الموصلة للتأثير على الناس وإقناعهم، وإن عليه أن يرسم ويخطط لعمله، فلا يرتجل الأمر ارتجالاً، وعليه أن يبشر ولا ينفر، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإن عليه أن يصبر ولا ييأس، وأن يستمر في دعوته ما دام حياً قادراً على الدعوة. ولكن عليه أن يسلم الأمر إلى الله بعد ذلك، وأن تطيب نفسه بنتائج عمله مهما تكن هذه النتائج، فإذا لم يستجب لدعوته أحد فَلَهُ أسوة بهؤلاء الأنبياء الذين مروا أمام رسول الله ﷺ وليس معهم إلا عدد قليل، وبعضهم لم يكن مع الواحد منهم أحد.

وإننا لنقرأ في القرآن قصص عدد من الأنبياء، وكيف أوذوا وكذبوا وعذبوا وأخرجوا من ديارهم.. ولكن هؤلاء الأنبياء استمروا على دعوتهم منفذين أمر الله.

ليحذر الدعاة إلى الله من اليأس أو الإحباط، وليعلموا أنهم مأجورون على أية حال، وليمضوا في طريقهم على بصيرة وهدى، والعاقبة للمتقين.

● وفي هذا الحديث الجميل بشارة للمسلمين بأنَّ المستقبل لهم، فقد أخبر الصادق المصدوق أنه رأى سواداً كثيراً يملأ الأفق، فسأل عنه فقال له جبريل: هؤلاء أمتك. وينبىء الحديث أن أمته أكثر الأمم عدداً. وما دام قد جاءت الأخبار التي مصدرها الوحي بذلك فلا بُدَّ أن يكون هذا حقيقة في عالم الواقع.

ولو نظرنا إلى عدد المسلمين اليوم لوجدنا أنهم يشكلون ما يقرب من ربع سكان المعمورة، ويأتون في الدرجة الثانية من حيث العدد بعد أتباع بعض الديانات.

ولا بد ليتحقق مدلول هذا الخبر الصادق من أن يكون إقبال على الإسلام في المستقبل، ويعقبه تزايد من المسلمين حتى يكونوا أكثر الأمم عدداً.

وأكاد أرجح وجهة نظر أخرى:

الحديث يدل على أن الناجين من أمة محمد ﷺ أكثر من الأمم الأخرى، وذلك يوم القيامة وسياق الحديث ينطق بهذا، فقد عرض على رسول الله نبيٌّ يمر وحده ليس معه أحد وعرض عليه نبي معه خمسة وآخر معه عشرة... إذن فالكلام عن أتباع الأنبياء الناجين السائرين مع نبيهم إلى الجنة.

وبذلك نجمع بين هذا الحديث وحديث مسلم الذي أخرجه عن المستورد القرشي قال قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»[1] والروم هم النصارى، ولكن هؤلاء يوم القيامة لا يكونون مع عيسى الذي يتقدم قومه إلى الجنة، بل يكونون في النار. والله أعلم.

إن هذا الحديث يجعلنا نتفاءل أن المستقبل للإسلام، وأن كيد أعداء الإسلام للدعاة إلى الله مردود مدحور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ألا فليعمل العاملون وصدورهم مملوءة بالأمل المشرق، وبالوعد الحق الذي لا يتخلف ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وإنه لتلوح اليوم بشائر في الأفق تنطق كلها بأن المسقبل للإسلام، إن صدق أتباعه في حمله والعمل به والدعوة له، ذلك لأن ما يعرف البشر من

(١) شرح مسلم للنووي ١٨/٢٢.

الأفكار والنظريات أثبتت التجربة أنه غير قادر على حل المشكلات التي يشكو منها الإنسان.

● في هذا الحديث من الناحية البيانية تعبير مصوِّر رائع، يجعل المشهد متحركاً نتابعه وكأنه يمر أمام أعيننا. انظر إلى قوله ﷺ: «عرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمرُّ معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده».

ها نحن أولاء أمام عرض للأمم، تمر الأمم أمة بعد أمة يتقدمها نبيها.. إنه مشهد متحرك، وتكرار هذه الجملة (والنبي يمر معه) يشعر بتكرار مرور المجموعات من البشر، فقد تكررت هذه الجملة خمس مرات، وإنه لمنظر متشابه، والاختلاف في عدد هؤلاء الذين استجابوا لأنبيائهم، فاقتضى ذلك أن يكون هذا التكرار في هذه الكلمات، لتكون الدقة في تصوير ذاك العرض المهيب.

● وفي التعبير عن الكثرة بالسواد تصوير واقعي ملموس، فالناس المزدحمون المتلاصقون يبدون في البيداء سواداً متراكباً.

والمراد بالأمة في هذا الحديث أمة الإجابة وأمة الاتباع، لا أمة الدعوة، فلقد ذكر العلماء أن أمته ﷺ على ثلاثة أقسام: أمة الاتباع وهم أهل العمل الصالح من المسلمين، وأمة الإجابة وهم مطلق المسلمين، وأمة الدعوة وهم الناس الذين بلغتهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

● وحفل هذا الحديث بالحوار الجذاب الموحي الموجز الذي يزيد في حيوية الحديث، فهو ليس مشهداً متحركاً فحسب، بل هو متحرك ناطق. فالحوار دار أولاً بين جبريل وبين النبي ﷺ، ثم دار ثانية بين النبي وبين عكاشة، ثم بينه ﷺ وبين رجل آخر.

● وإذا ضممنا هذا الحديث إلى الأحاديث الأخرى والآيات التي تتحدث عن حال المكلفين يوم القيامة تبين أنهم أنواع ثلاثة:

فمنهم من لا يحاسب، وهؤلاء هم الذين ذكرهم هذا الحديث وقرر أنهم سبعون ألفاً.

ومنهم من يحاسب حساباً يسيراً وهم الذين ذكرهم ربنا في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

ومنهم من يناقش الحساب، وهم الذين ذُكروا في حديث عائشة «من نوقش الحساب عذب».

● وإذا تأملنا في الصفات التي وُصِفَ بها هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب فإننا نجد أنها تتمثل في ترك عادات الجاهلية والانسلاخ منها كما تتمثل بالتحلي بصفات الإيمان.

أما عادات الجاهلية فقد ذكر الحديث ثلاثاً جمعها بقوله ﷺ: «كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون» ويقاس عليها غيرها من العادات الخبيثة.

فالاكتواء لأي مرض[1] والاسترقاء برقى الجاهلية، والتطير لأدنى مناسبة وفي كل أمر، عادات جاهلية تتصل بعقائد الجاهلية الباطلة، وذكرها دون غيرها لأنها معروفة لدى المخاطبين منتشرة بينهم، وهي في الوقت ذاته قائمة على الزيغ والدجل والسخف. والانسلاخ منها علامة من علامات الإيمان. إنه لا بُدَّ لمن يلتزم بالإسلام ويدخل فيه من أن يضع عن عنقه وقلبه كل سمات الجاهلية وينسلخ منها انسلاخاً، ويبرأ منها براءة مطلقة، ويدخل في الإسلام بكليته. يقول تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

---

(١) أما الحديث القائل «آخر الطب الكيّ» فهو حديث موضوع قال العلماء فيه: إنه لا أصل له. وانظر «مختصر المقاصد» للزرقاني رقم ١ بتحقيقنا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكفر بالطاغوت والانسلاخ من كل عاداته ومظاهره وعقائده أصلٌ من أصول النجاة من الكفر والعذاب، ولا يكون المسلم مسلماً إلّا إذا حققه.

وقد جاءت أحداث التاريخ مصدقة هذا المعنى العميق الرائع.. فهناك بعض الشعوب دخلت في الإسلام ولكنها أبقت على بعض موروثاتها الجاهلية، فلم يكن تدينها خالصاً، وأصبحت مرتعاً خصباً لحركات الضلال والزيغ والانحراف.

وقد قيل: التخلية قبل التحلية. لا بُدَّ لكل من يدخل في الإسلام من أن يتخلى عن جميع القيم الجاهلية في العقيدة والسلوك والأسرة والمعاملات وكل ما يتصل بشؤون الحياة.

ثم يكون التحلي بالقيم الإسلامية والتزامها في تصرفات المرء وفي كل ما ذكر آنفاً، وهذا الذي توحي به كلمة التوحيد (لا إله إلا الله). فالقسم الأول منها نفي، ينفي صفة الألوهية عن كل ما سوى الله، فليست المعبودات الباطلة آلهة.. لا الأصنام.. ولا الطواغيت.. ولا النجوم.. ليس شيء من ذلك يستحق العبادة. ثم يأتي إثبات الألوهية لله رب العالمين جل جلاله.

إن من أهم أسباب الانحراف الذي في حياة كثير من المسلمين اليوم وجود قيم جاهلية في تصورهم وفكرهم استقوها من الحضارة الأوربية أو أخذوها عن تقاليد قومية ورثوها كابراً عن كابر.

وليس سهلاً على المرء الانخلاع من كل أثر لحياة كان يحياها، ومن هنا كان أولئك القادرون على ذلك أهلاً لهذه المكرمة العظمى الخاصة التي أشار إليها هذا الحديث.

هذا وقد احتج بعضُ الناس بهذا الحديث «لا يكتوون ولا يسترقون»



شبكة الألوكة - قسم الكتب

على أن التداوي مكروه. ومعظم العلماء على خلاف ذلك؛ واحتجوا بما وقع في أحاديث كثيرة من ذكره ﷺ لمنافع الأدوية والأطعمة كالحبة السوداء والقسط والصبر وغير ذلك، وبأنه ﷺ تداوى، وبأخبار عائشة رضي الله عنها بكثرة تداويه، وبما علم من الاستشفاء برقاه، وبالحديث الذي جاء فيه أن بعض الصحابة أخذوا على الرقية أجراً.

فإذا ثبت هذا، فما تأويل الحديث؟.

قرأت ما ذكره العلماء في التأويلات فبدا لي حل أسجله هنا، فإن كان صواباً فالحمد لله وإن كان خطأً فغفر الله لي، أقول: ليس في الحديث ذكر للتداوي حتى يكون هذا الحديث حجة لمن كرهوا التداوي، ولكن الحديث نفى عن هؤلاء الناس المقربين الأفاضل صفتين هما: الاسترقاء والاكتواء.

وقد يكون تركهم الاسترقاء المعروف في الجاهلية كما قدمت، وقد يكون تركهم الاسترقاء تعظيماً لكتاب الله وخشية من الانحراف عن النظرة السلمية لهذا الكتاب الكريم، ففي ذلك خطر تحويل النظر إلى كتاب الله من كونه دستور حياة ومنهاج حكم إلى رقى وتعاويذ، فهم يأخذون بالأسباب، وإذا رقاهم أحد فلا يمتنعون، ومن المعلوم أن من السنة أن يرقي العائد المريض، ولكن طلب الرقية لا أعرف فيه حديثاً.. بل ههنا إشارة إلى الترغيب بترك طلبها.

وهذا الحديث من أعلام نبوته، فقد رأينا كيف أصبحت الرقية وسيلة[1] من وسائل الدجل وابتزاز أموال الناس بالباطل.. فالاسترقاء وانتشاره يمكن للدجل أن يتفاقم ويستفحل ويجعل له سلطاناً.

---

(١) ومثل الاسترقاء طلب كتابة التمائم وما إلى ذلك.

إن هؤلاء المقربين يأخذون بالأسباب ولا يبدو عليهم ما يدل على عدم الرضا أو ما يخدش توكلهم على الله.

أما الاكتواء فلأنه وسيلة غير مضبوطة، وقد يكون فيها تشويه.. وما اكتوى رسول الله ﷺ أبداً. وقد رأينا ناساً لجؤوا إلى الكي ليتخلصوا من أمراض يشكون منها فما استفاد أكثرهم. والله أعلم.

«جاء في الحديث المذكور كانو لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

وفي تقديم الجار والمجرور عل الفعل قصر ـ كما يقول علماء البلاغة ـ فقوله «وعلى ربهم يتوكلون» معادل لقولنا؛ لا يتوكلون إلا على ربهم.

وهذا التعبير النبوي مقتبس من القرآن، فقد جاء في صفات المؤمنين قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

قال ابن حبان: [الواجب على العاقل لزوم التوكل على من تكفَّل بالأرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر، ووجود الراحة، وما توكل أحدٌ على الله جلَّ وعلا من صحة قلبه، حتى كان الله جل وعلا بما تضمن من الكفالة أوثق عنده بما حوته يده، إلا لم يكله الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب.

وأنشدني منصور بن محمد:

توكلْ على الرحمن في كل حاجة ... أردتَ، فإنّ الله يقضي ويَقْدُرُ
متى ما يرد ذو العرش أمراً بعبده ... يُصبْهُ، وما للعبد ما يتخيّرُ
وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه ... وينجو بإذن الله من حيث يحذر

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

أحسن الظن بمن قد عودك ... كل إحسان وسوى أودك
إن من كان يكفيك الذي ... كان بالأمس سيكفيك غدك[1]

وقد ربط القرآن التوكل بالإيمان في عدد من آياته فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقد وردت هذه الآية سبع مرات[2] وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

والتوكل مبني على الإيمان، فإذا كان العبد يعتقد أنَّ كل شيء في هذا الوجود يتم بأمر الله وقدره وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، وهو الرازق المحيي المميت كان من مقتضى هذا الإيمان ألا يتوكل إلّا على الله.

والتوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، بل إن الأخذ بالأسباب ممّا أمر به الشرع المطهر. قال ابن الجوزي: [التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله سبحانه، وليس من ضرورته قطع الأسباب، ولو أن إنساناً جاع فلم يأكل، أو احتاج فلم يسأل، أو عري فلم يلبس فمات دخل النار؛ لأنه قد دُل على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه][3].

وقال: [.. كما لم يخرج رسولُ الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروج من مكة واستئجاره دليلاً واستكتامه، واستكفائه ذلك الأمر واستتاره في الغار، وقوله لسراقة: أخفِ عنا][4].

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان ١٣٢.
(٢) في آل عمران ١٢٢ و١٦٠ والمائدة ١١ والتوبة ٥١ وإبراهيم ١١ والمجادلة ١٠ والتغابن ١٣.
(٣) صفة الصفوة ١/٢٧ ـ ٢٨.
(٤) صفة الصفوة ١/٢٧.

فالإعداد لقتال العدو فريضة، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقد يكون الكسب واجباً كما لو كان هناك رجل قادر على العمل وعياله محتاجون للنفقة فإن ترك ذلك كان عاصياً. وجاء في فتح الباري: [المراد بالتوكل ما دلت هذه الآية ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وليس المراد به ترك التسبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين؛ لأن ذلك قد يجر إلى ضد ما يراه من التوكل. وقد سئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي. فقال: هذا رجل جهل العلم، فقد قال النبي ﷺ: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي[1] وقال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[2] فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق. قال: وكان الصحابة يتجرون ويعملون في نخيلهم. والقدوة بهم][3].

[وقال العلماء: يحصل التوكل بأن يثق بوعد الله، ويُوقِنَ بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك. ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السببُ والمسبَّبُ فعل الله تعالى، والكل بمشيئته فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله][4].

فخذ يا عبد الله بالأسباب، وابذل جهدك في تحري الأجدى والأنفع، ثم بعد ذلك أرض بما قسم الله لك، واعلم أن ما كان لك سيأتيك، وأن ما لم يقدره الله لا يمكن أن يكون.

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٥٠ وذكره البخاري تعليقاً في باب ما قيل في الرماح قال: (ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ. . .) وقال ابن حجر: وله شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة. انظر الفتح ٦/ ٩٨.

(٢) أحمد ١/ ٣٠ والترمذي ٣/ ٢٦٨ وصحيح الجامع رقم ٥٢٥٤.

(٣) فتح الباري ١١/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٤) فتح الباري ١١/ ٤٠٩ - ٤١٠.

وقد وفى هذا المعنى حقه العلامة ابن القيم في «مدارج السالكين»[1] ونقل عن الإمام أحمد قوله: التوكل عمل القلب، وقال: حقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها قال: فأول ذلك معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته. ثم ذكر الدرجة الثانية وهي إثبات الأسباب والمسببات وقال: فإنَّ من نفاها فتوكله مدخول، ثم ذكر باقي الدرجات السبع وفصّل في الموضوع تفصيلاً حسناً.

نسأل الله أن يجعلنا من المتوكلين قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

● ونود أن نقف عند طلب عكاشة أن يكون من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

وعكاشة هذا [من السابقين إلى الإسلام، وكان من أجمل الرجال، وكنيته أبو محصن. هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها. قال ابن إسحاق: بلغني أن النبي ﷺ قال: «خير فارسٍ في العرب عكاشة» استشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد سنة اثنتي عشرة][2]. وهو أسدي حليف بني عبد شمس وقوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة» قال ابن حجر: وقد ضرب بها المثل، يقال للسبق في الأمر: سبقك بها عكاشة[3].

إن هذا ليوقفنا على مستوى إيمان هؤلاء الصحابة وعمق تصديقهم لما يخبرهم به رسول الله ﷺ إن يوم الحشر والحساب يوم عصيب.. يوم تدنو الشمس من الناس، ويخوضون في العرق فمنهم من يبلغ كعبيه ومنهم من يبلغ ثدييه ومنهم من يلجمه.

---

(١) مدارج السالكين ٢/١١٢ وانظر تهذيبه ٣٣٥.
(٢) فتح الباري ١١/٤١٣ والاصابة ٢/٤٨٧ - ٤٨٨.
(٣) الاصابة ٢/٤٨٨.

أخرج مسلم من حديث المقداد بن الأسود: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على مقدار أعمالهم في العرق»(١).

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»(٢).

إن من يدرك أحوال الناس في ذاك اليوم وما يلاقونه من أهوال في ذاك الموقف يعرف قيمة هذه المكرمة التي تجعل مجموعة من الناس تتقدم أمة محمد ﷺ لا حساب عليهم ولا عذاب، يدخلون الجنة دون أن يتعرضوا لما يتعرض له جمهور الواقفين.

ومن هنا كان حرص عكاشة على أن يكون واحداً من هؤلاء.. لقد كان حريصاً أعظم الحرص على الفوز العظيم الذي يكون بالخلاص من الحساب والعذاب.. ولذا سرعان ما طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله أن يجعله منهم.

واستجاب الرسول ﷺ لطلبه لما يعلم من أهليته لهذه المكرمة، فدعا الله له بذلك، ولما سمعه صحابي آخر أراد أن يحوز من الخير ما حازه عكاشة، فقام وقال: إدع الله أن يجعلني منهم.

وهنا حسم النبي ﷺ الموقف بأن قال: «سبقك بها عكاشة»؛ ذلك لأنَّ المجاملة غير واردة بهذا الصدد، فليس الناس سواءً في الطاعة والبر والورع والبذل والجهاد، لئن كان عكاشة البدري المجاهد الفارس التقي مستحقاً لهذا المنزلة.. فما كلُّ الناس مثله.

فلو دعا رسول الله ﷺ للرجل الآخر.. لطلب ناس كثيرون هذا

---

(١) صحيح مسلم ٤/برقم ٢٨٦٤.
(٢) صحيح البخاري (الفتح ١١/برقم ٦٥٣٢).

الطلب، بل ربما طلب المعاصرون للنبي من المؤمنين الذين بلغهم هذا النبأ مثل هذا الطلب. وربما كان بعضهم غير مؤهل لهذه المكانة التي تجعل أصحابها معافين من الحساب والعذاب.

إنَّ موقف عكاشة وصاحبه ليصور لنا مدى حرص ذاك الجيل المثالي على الجنة وعلى التحقق بالأسباب المؤدية إليها.

إن طموح المؤمن ليس له حد.. إنه سيظل ساعياً سعياً حثيثاً دائباً حتى يبلغ الجنة.. بل حتى يبلغ أعلى درجات الجنة.. حتى يكون في الفردوس الأعلى..

[الجنة تلك الأمنية الغالية التي يسعى لها الساعون من المؤمنين على مر العصور.. الجنة التي كانت في قلوب السلف الصالح شعلة تحركهم لضرب أعلى أمثلة البطولة في الجهاد والتضحية.. الجنة تلك الغاية الكريمة التي ترنو إليها العيون الحالمة، وتهفو إليها الأرواح المشوقة في كل زمان ومكان.. يستعذبون العذاب من أجل الحصول عليها.

إنها أعظم مرغوب عند المؤمن.. ودخولها والانتهاء إليها أمل يتراءى له في رحلة العمر التي تستغرق حياته كلها.

وما أكثر ما كانت الجنة حافزاً إلى الخير والحق مهما كان في هذه الطريق من المخاطر والعقبات والأشواك.. بل لو كان فيها الموت المحقق.

كان هذا في أيام النبي ﷺ كما أخبر أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون دونه».

فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض».

قال عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله! جنةٍ عرضها السموات والأرض؟.

قال: «نعم». قال: بخٍ بخٍ.

فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟».

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءَةَ أن أكون من أهلها.

قال: «فإنك من أهلها».

فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن.. ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة... فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل. رواه مسلم(١).

وكان مثل هذا الموقف أيضاً في الأيام من بعده. فلقد قال أبو موسى الأشعري وهو بحضرة الموت:

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف».

فقال رجل رثُّ الهيئة: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم.

فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. رواه مسلم(٢)](٣).

ألم يأن لنا أن ننظر إلى هذه الدنيا على حقيقتها، وننصرف بجهدنا وعملنا إلى ما هو أبقى ونسعى لنكون من أهل الجنة؟

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، إلا إن سلعة الله الجنة» رواه الترمذي(٤).

---

(١) صحيح مسلم ط استانبول ٦/٤٤.
(٢) صحيح مسلم ط استانبول ٦/٤٥.
(٣) التصوير الفني في الحديث النبوي ١٥٢ - ١٥٣.
(٤) صحيح الترمذي للألباني ٢/برقم ١٩٩٣.



روى البخاريُّ [الفتح: ١/٥٥] ومسلمٌ برقم ٣٩ وأبو داود ٥١٩٤ والنسائي ٥٠٠٠ وابن ماجة ٣٢٥٣ عن عبدالله بن عمرو أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ:

ـ أيُّ الإسلام خير؟

ـ قال ﷺ: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومَنْ لم تعرف».

يعالج هذا الحديث أمرين اجتماعيين، بأسلوب موجز بليغ، يأخذ بمجامع القلوب. وبلغه سهلة واضحة، وهو يقوم على حوار مركز عفوي. فالسائل يسأل: أيُّ الإسلام خير؟ ويجيبه ﷺ بهذه الكلمة التي هي من جوامع الكلم: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

وهذا المعنى كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يوصي به أصحابه في مناسبات شتى ويذكرهم به، وقد نقل ذلك عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

فمن ذلك حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه الذي أخرجه أحمد وابن حبان والبيهقي في الشعب وهو قوله ﷺ: «إنّ في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعَدّها الله تعالى لمن أطعم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[1].

وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنحو هذا وأخرجه الترمذي، وهو حديث حسن.

وحديث عبد الله بن سلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة والدارمي»[2].

إن إطعام الطعام يورث المودة والمحبة، والتماسك والتآلف، ويعمق معنى الأخوة، ويحقق فكرة الإيثار، ويصون المجتمع من عوامل التمزق والانهيار، التي تعمل على إيجادها المبادىء الهدامة.

روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وإيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»[3].

إنه ليس من المقبول في الإسلام أن يبيت إنسان شبعان وجاره يتضور جوعاً إلى جنبه وهو يعلم.. إن الأخوة الإسلامية التي تنبثق عن الإيمان تأبى أن يكون مثل ذلك. ما أكثر ما تتعرض المجتمعات الإسلامية إلى الأزمات والمجاعات.. فقد تشح الموارد الطبيعية في بلد ـ كما هو واقع الآن في عدد من البلاد الأفريقية ـ فتنتشر المجاعات.

وهنا تبدو قيمة هذه الوصية بجلاء ووضوح.

إن أخبار المجاعات التي تتهدد ملايين المسلمين في أفريقيا وآسيا بسبب الجفاف والفيضانات والظلم والطغيان لتؤكد على القادرين بأن يصيخوا

---

(١) انظره في «صحيح الجامع الصغير» برقم ٢١٢٣.

(٢) انظره في المسند ٥/٤٥١ والترمذي ٣/٣١٣ والدارمي ١/٣٤٠ وابن ماجه برقم ٣٢٥١.

(٣) انظره في المسند ٢/٣٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لهذا الأمر النبوي الكريم: أطعموا الطعام.

أطعموا الطعام فإنها وصية الله ووصية رسوله ﷺ إليكم أيها المسلمون.

ما أكثر ما نقرأ في كتاب الله عز وجلَّ الأمر بإطعام الطعام، فمن ذلك قوله سبحانه عن الهدايا التي تقدم في موسم الحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[الحج: ٢٨] وقوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

والقانع والمعتر: نوعان من الفقراء المحتاجين أحدهما يسأل، والآخر يتعرض للناس دون سؤال[1]. ففي هذا الموسم العظيم يأكل المسلمون من هداياهم ويطعمون البؤساء والسائلين والفقراء.

ومن ذلك قوله في كفارة اليمين ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وقوله في كفارة الظهار: ﴿.. فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤].

ومن ذلك دعوته سبحانه الإنسان إلى الإطعام، الإنسان الذي خلقه في كبد ومعاناة، فلقد حضه على اقتحام العقبة فقال عز من قائل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١ - ١٨].

---

(١) انظر الجلالين وحاشية الجمل ١٦٨/٣ فهناك قولان أحدهما يجعل القانع هو السائل، والمعتر هو الذي يتعرض دون سؤال والآخر يعكس.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال سيد قطب:

[هـذه العقبة التي تقف بينـه وبين الجنة.. لـو تخطّاهـا لـوصـل، وتصويرها كذلك حافز قويٌّ واستجاشة للقلب البشري، وتحريك له ليقتحم العقبة، وقد وضحت، ووضح معها أنهـا الحائـل بينه وبين هـذا الكسب العظيم ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ ففيه تحضيض ودفع وترغيب.. ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾..

إنه ليس تضحيم العقبة ولكنه تعظيم شأنها عند الله ليحفز به الإنسان إلى اقتحامها وتخطيها، مهما تتطلب من جهد ومن كبد].

والعقبة هي فك الرقاب وإطعام المساكين واليتامى.

● ونقرأ في كتاب الله الثناء على من يطعم الطعام، فقد أثنى سبحانه على عباده الأبرار من أهل الجنة ووصفهم بصفات كريمة منها إطعام الطعام ابتغاء وجه الله فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٩] فهم عباد من عباد الله يكرمون، فيشربون من كأس كريمة، ولا عجب أن يكافؤا بهذا لأنهم يوفون النذر ويخافون يوم القيامة ويطعمون الطعام الذي يحبونه لجودته ولشدة حاجتهم إليه، المساكين والأسرى واليتامى، يطعمونهم لوجه الله ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ فكان عاقبة أمرهم أن الله وقاهم شر ما يلقى الناس من الضنك والشدة، وأكرمهم بأعظم ألوان النعيم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١١ - ١٤] إلى آخر ما يكرمون به من صنوف النعيم التي يتقلبون فيها.

● ونقرأ في كتاب الله ذم من لا يطعم الطعام أو من لا يحض على ذلك، فقد ذكر سبحانه أن من أسباب العذاب الذي يتعرض له الكفار والجاحدون يوم الدين أنهم لم يكونوا يطعمون المساكين أو لا يحضون على إطعامهم قال تعالى: ﴿.. إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٣٩ - ٤٥].

أرايت كيف ذكروا من أسباب دخولهم سقر أنهم لم يكونوا يطعمون المساكين. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٣٧].

«تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

إيجاز رائع يعرض فيه رسول الله خير الإسلام بجملتين ليس فيهما فضول ولا حرف لا داعي له، ومع ذلك فالكلام واضح وضوح الشمس لا يحجبها سحاب ثم قال: «أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

السلام تحية المسلمين، وفشوُّه بينهم وسيلة التحاب والتواد، وإذا قامت المحبة بين أفراد المجتمع كان التعاون والتماسك والإخاء والتكافل، وزال البغض والتناحر، والظلم والتنازع، إنك في هذا المجتمع الكريم لا تسمع إلا كلمة التوحيد تعلو من فوق المنائر، وكلمات السلام تنطلق على الألسنة كلما التقى اثنان سواء كانا متعارفين أم لا.

إنَّ هذا الذي لا أعرفه أخي يستحق مني أن أقرأ السلام عليه، لأنَّ الإسلام ألف بيني وبينه، إنَّ المسلمين جسد واحدٌ فلا بُدَّ من أن يكون السلام قائماً بين أعضائه، التعارف والتحابُّ والسلام والتعاون والتناصح سمات المجتمع المسلم، لا التخاصم والتباغض والحرب والغش والكيد والمكر.. إن هذه أمور منكرة لا يعرفها المجتمع المثالي المذكور.

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

والتحاب علامة الإيمان، ووسيلته السلام، والإيمان سبب دخول الجنة كما جاء في حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه[١] قال قال ﷺ:

«والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم».

وعنون له النووي[٢] بقوله: باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها. وقال: [والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح استجلاب المودة وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضية النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين. وقد ذكر البخاري في صحيحه[٣] عن عمار بن ياسر أنه قال: ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار][٢].

---

(١) مسلم ٥٤ وأبو داود ٥١٩٣ والترمذي ٢٦٨٩ وابن ماجه ٦٨ و٣٦٩٢.
(٢) شرح مسلم ٢/٣٥.
(٣) فتح الباري ١/٨٢ باب إفشاء السلام من الايمان وقد شرح هذه الكلمة العظيمة ابن القيم شرحا رائعا في زاد المعاد ٢/٤٠٧ ـ ٤١٠ ط الأرناؤوط.

وقد حيَّا آدم الملائكة بتحية السلام، فقال الله عز وجل له: إنها تحيتك وتحية ذريتك[1].

والسلام يزيل أو يعمل على إزالة مرضين وبيلين خطيرين هما البغضاء والحسد. فقد روى أحمد عن الزبير بن العوّام قال: قال رسول الله ﷺ: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء. والبغضاء هي الحالقة: حالقة الدين، لا حالقة الشعر. والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»[2] وروى الترمذي نحوه.

وفي حديث الزبير زيادةٌ عن حديث أبي هريرة تقرّر حقيقة اجتماعيةً ملموسةً وهي أنَّ داء الأمم الذي فتَّ في عضدها ومزقها وأذهب ريحها وأضعفها هن داء الحسد والبغضاء. . هذا الداء يفرق الأمم، ويشتت شملها، ويجعل بأسها بينها شديداً.

وإلقاء السلام هو الدواء، وهناك حديث جميل. وهو قوله ﷺ: «أعجز الناس من عجز في الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام».

أخرجه الطبراني في الأوسط، وقوَّى إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» وقال: إسناده جيد قوي[3].

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»[4]: لا يُروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، ورجاله رجال الصحيح غير مسروق بن المرزبان وهو ثقة.

حقاً إن من عجز في الدعاء هو أعجز الناس، لأنه لا شيء يمنعه منه، ولا كلفة عليه فيه.

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء باب وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ١٠٥/٤ وكتاب الاستئذان باب بدء السلام ٤٣/٨.

(٢) مسند أحمد ١٦٥/١.

(٣) الترغيب والترهيب ١٨٦/٣ وانظر مختصر المقاصد بتحقيقنا رقم ١٩٤.

(٤) مجمع الزوائد ٣١/٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأبخل الناس من بخل بالسلام.. إنَّ الذي يسلم على إخوانه المسلمين يكسب ثواباً من الله ومحبة في قلوب الناس ولا يدفع شيئاً. فإذا بخل امرؤ بالسلام فهو في غيره أبخل.. بل إنه أبخل الناس.

وقد بحث الفقهاء موضوع السلام بحثاً مفصلاً: صيغته بدءاً ورداً، وعلى من يلقى؟ ومن الذي يبدأ بالسلام؟ معتمدين في ذلك على الأحاديث التي صحت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ونذكر نبذة من ذلك:

● يُسنّ أن يبتدىء المسلم أخاه بالسلام إذا لقيه، ولو كان صبياً صغيراً، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ مرَّ بصبيان فسلم عليهم(١).

● والسلام سنة مؤكدة، فلا يتركه المسلم، ولو ظنَّ أن من يُلْقى عليه السلام لا يرد، لعموم قوله ﷺ: «أفشوا السلام».

● ومن السنة أن يسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والراكب على الماشي، والقليل على الكثير كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم(٢).

● ويسن السلام عند القدوم على القوم وعند الانصراف عنهم، وقد قال ﷺ: «إذا قعد أحدكم فليسلم، وإذا قام فليسلم، وليست الأولى أحق من الآخرة» أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان(٣).

● وترك رد السلام أمر غير جائز، وهو محّرم، وهو من صفات

---

(١) الفتح ١١/٢٧ ومسلم ٢١٦٨.
(٢) الفتح ١١/١٣ ومسلم ٢١٦٠ والترمذي ٢٧٠٤ و٢٧٠٦ وموارد الظمآن ١٩٣٥.
(٣) المسند ٢/٢٣٠ وأبو داود ٥٢٠٨ والترمذي ٢٧٠٧ وموارد الظمآن ١٩٣١ - ١٩٣٢ - ١٩٣٣.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

الجبابرة الـذين هم صائـرون إلى الذل في الـدنيا والعـذاب الأليم يوم القيامة.

وقد رأينا ناساً متجبرين كانوا يتعالـون على الناس ويستكبـرون فلا يسلمون، وإذا ألقي عليهم السلام لم يردُّوا، رأيناهم بعد حين هانوا وذلوا، وألجأتهم الأيام إلى الإستغاثة بمن كانوا يتكبرون عليهم واللجوء إليهم.

فاعتبروا يا أولي الأبصار.

إن الإيجاز الرائع الذي يتصف به الحديث النبوي خاصةً تجدها في كل حديث من جوامع كلمه ﷺ: فإطعام الطعام وإفشاء السلام على الناس جميعاً من أعظم ما يُوصى به من يريد الوقوف على أفضل تعاليم الإسلام وخيرها.

وهذان أمران اجتماعيان يحتاج إليهما كل مجتمع متكافل متماسك. وقد سبق أن تحدثنا عن إطعام الطعام وعن إلقاء السلام.. وبقيت لنا بقية عن التحية وآدابها نود أن نلم بها في هذه الكلمة.

● حثّ النبي ﷺ على المسارعة إلى إلقاء السلام، فمن بدأ إخوانه بالسلام كان أولى الناس بالله وأقر بهم إليه. قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام» رواه أحمد وأبو داود[1].

وفي رواية الترمذي: قيل: يا رسول الله. الرجلان يلتقيان: أيهما يبدأ السلام؟ قال: «أولاهما بالله تعالى».

---

(١) المسند ٥/٢٥٤ وأبو داود ٥١٩٧.

وروى البزار وابن حبان عن جابر قال قال ﷺ: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد، والماشيان أيهما بدأ فهو أفضل».

● وقد ندب الإسلام أتباعه إلى تكرار السلام كلما تكرر اللقاء ولو كان الفاصل بين اللقائين قصيراً. فقد قال أنس رضي الله عنه: كان أصحاب رسول الله يتماشون، فإذا استقبلتهم شجرة أو أكمة تفرقوا يميناً وشمالاً، وإذا التقوا من ورائها سلم بعضهم على بعض[1]. رواه الطبراني في الأوسط.

● بل إذا دخل المسلم بيتاً ليس فيه أحد ساغ له أن يسلم كما قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

قال مجاهد ـ ونقل ذلك عنه ابن كثير ـ[2]: وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

ونقل ابن كثير[2] عن مجاهد قوله: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: بسم الله والحمد لله السلام علينا من ربنا وعلى عباد الله الصالحين.

ونقل ابن كثير[3] عن قتادة أنه قال: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك وحُدِّثنا أن الملائكة ترد عليه. وقال مالك في الموطأ: بلغني أنه يستحب ذلك[4].

● وعلينا أن نعلم أولادنا الاستئذان والسلام. قال كَلَدَةُ بن حنبل: دخلت على النبي ﷺ ولم أُسَلِّمْ ولم أستأذن. فقال النبي ﷺ: «ارجع.

(١) الترغيب والترهيب ٣/١٨٥ وقال: بإسناد حسن. والمجمع ٨/٣٤ وزاد المعاد ٢/٤١٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٦.
(٤) انظر «الموطأ» ٢/٩٦٢.

فقل: السلام عليكم. أأدخل؟» أخرجه أحمد ورواه الترمذي وقال: حسن غريب وأبو داود[1].

أقول: وهذا التعليم العملي السامي الواقعي يترك أثره في النفس فلن ينسى هذا الفتى الذي دربه رسول الله ﷺ وأدبه لن ينسى أدب السلام والاستئذان.

إنَّ إهمالاً فظيعاً في تربية أولادنا بنين وبنات نلاحظه في بيئاتنا الإسلامية.. الوالدان جاهلان أو مشغولان بمشاغلهما، ويُترك الولد للشارع والتلفاز ورفاق السوء.. فمن أين له أن يقف على هذا الأدب الإسلامي العظيم في التحية والاستئذان.

سمعت مرة رجلاً درس في بلاد الكفار، وكان يشيد بما عند الأوربيين من آداب، فذكر أنه كان في متجر، فدخل طفل دون استئذان وطلب حاجته دون تحية. فقال له صاحب المتجر: اخرج يا بني، ولا تدخل حتى تطرق الباب ويؤذن لك بالدخول، فإذا دخلت فألق علينا التحية، ثم اذكر حاجتك. قلت له: يا أخي إن هذا في حديث النبي ﷺ عرفناه وطبقناه وقصصت عليه قصة كلدة بن حنبل. ولكننا نجهل ديننا وتاريخنا ونضيع هويتنا.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

● والسلام سنة عينيه للواحد، وأما رد السلام ففرض عين إن كان وحده. أما إن كان مع جماعة اثنين فأكثر ففرض كفاية. أي يسقط عن الباقين إذا قام به واحد ويختص بالثواب.

● والأفضل في البدء والرد الإتيان بصيغة الجمع، فيأتي بضمير الجمع وإن كان المسلم عليه واحداً للاتباع، ولأن السلام بصيغة الجمع فيه تعظيم المسلم المخاطب، وتمكنه صيغة الجمع أن ينوي السلام على الملائكة وعلى كل عبد صالح من المسلمين الأحياء والأموات. أما إذا كانوا جماعة فلا بد من لفظ الجماعة.

(١) المسند ٣/٤١٤ والترمذي ٢٧١١ وأبو داود ٥١٧٦.

● وينبغي أن يتصل الرد بالسلام، وأن يزيد في الرد كأن يقول لمن قال: السلام عليكم: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، امتثالاً لأمر الله تعالى حيث قال: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦].

● ويحسن أن يكون السلام مصحوباً بالبشاشة والابتسام فعن أبي ذر قال قال ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» رواه مسلم(١).

وعن أبي ذر وابن عمر قالا قال ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»(٢).

● ومن تمام السلام المصافحة: أي مصافحة الرجال للرجال، والنساء للنساء، فقد كان أصحاب النبي ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا لأن ذلك يورث الوداد وتحقيق الوئام. أما مصافحة الرجال للنساء فمحرمة.

● ولا بُدَّ من رفع صوته حتى يسمع مخاطبه سواء كان مبتدئاً أم راداً.

● ولم يكن ﷺ يرد السلام بيده ولا برأسه ولا بأصبعه فليكن لك برسول الله الأسوة الحسنة.

● أما إذا كان الإنسان في الصلاة ودخل عليه امرؤ وسلم فيرد عليه السلام إشارة بيده.

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٦٢٦.
(٢) انظر حديث أبي ذر في صحيح الترمذي للألباني ٢/برقم ١٥٩٤.

الحديث الرابع والعشرون

لا يدخل الجنة متكبر

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة.

قال ﷺ: «إنَّ الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس».

مسند أحمد ١/٣٨٥ - ٤٢٧ شرح مسلم ٢/٨٩ والترمذي ١/٣٦٠ المستدرك ٤/١٨١ وأبو داود ٤٠٩١

هذا الحديث رواه عن رسول الله ﷺ أكثر من صحابي، فقد رواه أيضاً ابن عمر[١] وأبو أمامة[٢] وأبو سعيد الخدري[٣] وجابر[٤] وأبو هريرة[٥]

(١) رواه ابن عساكر انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم ١٦٢٦ «والمجمع» ٥/١٣٣.

(٢) رواه الطبراني وفي سنده متروك انظر «المجمع» ٥/١٣٤ و٢/٢١٤.

(٣) رواه أبو يعلى وانظر «المجمع» ٥/١٣٢ ولفظه: «إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

(٤) رواه الطبراني في الأوسط ولفظه: «إنَّ الله جميل يحب الجمال ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها» وانظر «المجمع» ٢/١٨٨ وابن عساكر وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» ١٦٢٦.

(٥) رواه أبو داود ٤٠٩٢ والحاكم ٤/١٨١ - ١٨٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وابن عمرو[1] وعقبة بن عامر[2].

ورواياتهم مختلفة الألفاظ ولكنها متقاربة ولا سيما في قوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال». وفي كثير منها زيادة عن نصّ مسلم.

في هذا الحديث جوانب عدة تستحق الوقوف أمامها ملياً وتأملها طويلاً. إذ نجد في هذا النصّ الجميل تعريفاً للكبر وتحذيراً منه، والكبر موضوع مهم كبير... إنه مرض قتال... يفتك أول ما يفتك بصاحبه، وينعكس ذلك على المجتمع فساداً كبيراً.

إنه ليستحوذ على إعجابنا هذا التعريف الرائع، الجامع المانع، للكبر وهو قوله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس».

الكبر أن ترد الحق وتدفعه، وتتنكب سبيله وتأباه، وأن تترفع عنه وترده استكباراً واستعلاء عن الخضوع لسلطان الحق. وأن تنكر أمراً حقاً لأنه لا يوافق هواك ولا يساير مصلحتك وأنت في أعماق نفسك مدرك أحقيته. وأن تحتقر الناس وتزدريهم...

وهذا التعريف البليغ يتضمن أمرين اثنين: **أولهما** داخلي في أعماق النفس: وهو ردّ الحق وإباؤه. **وثانيهما** خارجي يظهر في التصرفات والسلوك قولاً وفعلاً، سلباً وإيجاباً، ويتجلى في غمط الناس أي احتقارهم وازدرائهم.

قد يخطىء قريب أو صديق، فلا يجوز أن تحملنا القرابة ولا الصداقة على تسويغ ذلك الخطأ، أو الافتراء على الآخرين لتبرئة القريب أو الصديق... وقد يكون الخطأ من الإنسان نفسه...

وقد يتطلع المرء إلى مرتبة لا تؤهله إمكاناته لها... فينكر هذا الواقع

---

(١) رواه أحمد ٢/١٦٩ - ١٧٠ والحاكم ١/٢٦.

(٢) رواه أحمد ٤/١٥١ وفي سنده شهر بن حوشب وهو ضعيف.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويدفعه معاندة ومكابرة وتجبراً واستكباراً واستعلاء.. ويوقعه ذلك في احتقار الآخرين وترفعه عنهم.

يـا لله.. ما أعظم تكريم الإسلام للإنسان.. إن أي مسلم مهما كان وضعه الاجتماعي إنسان يستحق الاحترام والتكـريم يقول رسـول الله ﷺ: «بحسب امـرىء من الشر أن يحقـر أخاه المسلم»[1].. إن هـذه العبارة النبوية لتجعل احتقار المسلم كبيرة من الكبائر لأن قوله: «بحسب امرىء من الشر» يدل على عظم هذه الجريمة.

إن الإنسان المسلم له حرمته وكرامته، وكل نيل من هذه الحرمة أو تلك الكرامة عدوان لا يقره الإسلام ويعتبره ذروة في الشر.

وفي الحياة دورس وعبر لمن فتح قلبه وسمعه وبصره.. إنَّ هذا الذي هو في نظر الناس مهين حقير لا شأن له ولا قيمـة، ما يـدريك مـا شأنـه عند الله؟ فقد قال ﷺ: «ربَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه» رواه مسلم[2].

وجاء في حديث حارثة بن وهب المتفق عليه «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعَّف لو أقسم على الله لأبره»[3].

وجاء في حديث أبي هريرة المتفق عليه: «إنه ليأتي الرجـل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[4].

ما يدريك ماذا سيكون وضعه في المستقبل القريب؟ والأيام دول والله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فكم من فقير قد اغتنى!! وكم من ذليل قد عزّ!!.

---

(١) مسلم برقم ٢٥٦٣ و ٢٥٦٤.
(٢) مسلم برقم ٢٦٢٢.
(٣) البخاري (الفتح) ٦٦٢/٨ ومسلم برقم ٢٨٥٣.
(٤) البخاري (الفتح) ٤٢٦/٨. ومسلم برقم ٢٧٨٥.

ألم يكن يوسف عليه السلام في يوم من الأيام صبياً صغيراً لا قدرة له ولا حول، وكان هدفاً لحقد إخوته وكيدهم، وقد أجمعوا أمرهم على التخلص منه، فانتزعوه بحيلة من أبيه، وألقوه في غيابة الجب، وعادوا إلى أبيهم، وقد أزاحوا منافساً لهم على قلب أبيهم.. ودارت الأيام فإذا ذاك الطفل الطريد المسترق عزيز مصر، وجاءه إخوته ودخلوا عليه ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] يستغيثون به ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

إن العبد والحر لكل منهما كرامة الإنسان.. والخادم له كرامة الإنسان.. والطفل له كرامة الإنسان.. والغريب الضعيف له كرامة الإنسان.. فغمط هؤلاء كبر يحرم صاحبه من دخول الجنة كما يدخلها الصالحون الأبرار.

فحاسب نفسك ـ يا أخي ـ وتساءل بينك وبين نفسك: ألا يخطر ببالك أنَّكَ أعظم من غيرك، لأنَّك من قبيلة عريقة؟ أو لأنك تملك مالاً وفيراً، أو لأنَّك تتقلد منصباً مرموقاً كبيراً، أو لأنَّك تحمل شهادة عالية؟

إذا كنت مقتنعاً بهذا وحملك هذا الاقتناع على النيل من الآخرين والتهوين من شأنهم، والترفع عنهم، فاعلم أنَّك على خطر عظيم، لأنك عندئذ تكون من المتكبرين.

وتساءلي أنت يا أختي: هل يخطر ببالك أنك أعظم من غيرك، لأنك أوتيت جمالاً رائعاً؟ أو كنت زوجة رجل كبير؟ أو كان لك أولاد نابغون نابهون؟ إذا كنت مقتنعة بهذا وحملك هذا الاقتناع على ازدراء الأخريات والترفع عنهنّ، فاعلمي أنك على خطر عظيم، لأنك عندئذ من المتكبرات.

اذكروا يا عباد الله قصة صاحب الجنتين الذي قال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً، اذكروا حاله ومآله[1].

إن الذي في قلبه مثقال ذرة من كبر محروم من دخول الجنة، فانتبه لنفسك يا أخي وحاذر أن تقع في شرك الكبر.. وخالف النفس والشيطان.. وذكر نفسك بحقيقتها التي تعرفها أنت حق المعرفة.

ولا يعني هذا الكلام أن تظلم نفسك وتحلها في غير الموضع اللائق بها.. لا مانع من أن تعرف لنفسك قدرها، ولكن حذار أن تحملك الأثرة على ظلم الآخرين أو احتقارهم.. فقد يكون هذا الذي تحتقره موهوباً ولم تظهر موهبته للناس، فيحقد عليك، وينتصف لنفسه منك في وقت تكون أنت بحاجة إلى معرفته وتأييده.

هذا الحديث مخيف جداً لكل مؤمن؛ مهما أوَّل العلماء قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة» وقد استعمل الرسول ﷺ الكناية في حديثه هذا حيث عبَّر عن الكبر القليل بوجود مثقال ذرة من كبر في قلب الإنسان. إن هذا القليل الذي لا يكاد يدرك عقبة تقف دون دخول المرء الجنة. فحاسبوا أنفسكم أيها القراء لا سيما من أوتي منكم المال الكثير، والجاه الكبير، والمنصب العالي، والنسب الشريف، والكلمة المسموعة، ألا يخامركم شيء من الترفع عن الآخرين من المسلمين.. إن كان كذلك فهذا يدعوكم أن تراجعوا موقفكم وتتوبوا إلى بارئكم.

إن الكبر يقطع عن الله، ويمنع من دخول الجنة، ويعوق تقدم الإنسان وتعلمه، ويبغضه إلى الآخرين من خلق الله.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] والمتكبر ثقيل الظل مكروه.

---

(١) انظر سورة الكهف الآيات ٣٢ - ٤٤.

هناك كبر مقيت يقع فيه ناس يظنون أنهم على شيء وهم مخطئون خاسرون.. إنَّهم رجال متدينون.. يظهر بعضهم بمظهر العلماء، ويظهر بعضهم بمظهر العباد، ويظهر بعضهم بمظهر الشباب المتحمسين للدين.. إنهم يعانون من عقد نفسية تجعل أحكامهم على الناس أحكاماً جائرة غير مقبولة.. فهم يفسرون الأعمال والظواهر تفسيراً يتفق مع ميولهم وأهواء نفوسهم المريضة.. ويجعلون من الحبة قبة، ويبنون على الكلمة قصة، ويستنتجون منها استنتاجات، ويثيرون الشكوك حول ناس مستورين، ويعتمدون في نقدهم وشتمهم الآراء المتشددة حتى ولو كانت مغلوطة.. إنهم يتكبرون على الناس بأنهم يؤدون الطاعات الواجبة والمندوبة.

وتعظم في عيونهم محاسنهم كما تعظم في عيونهم عيوب الآخرين.

وتصغر في عيونهم مساوئهم كما تصغر في عيونهم محاسن الآخرين.

فكلما ذكر عندهم إنسان ذموه وجرحوه بألسنتهم، ونالوا منه نيلاً عظيماً، ونعتوه بأقبح الأوصاف، وازدروه واحتقروه وشنعوا عليه بذكر ما يرتكبه من المخالفات، وقد يلمحون أو يصرحون بأنهم لا يقبلون هذا السلوك من أصغر ولد من أولادهم.

والعاقل الناجي يجدر به أن يعظم في عينه ذنبه لأنه مسؤول عنه، ويكل الناس إلى خالقهم.. وهو غير مسؤول عنهم. إن عظمة الذنب عند مرتكبه يجب أن تحمله على التوبة منه والإقلاع عنه، والعزم على ألا يعود إلى مثله، وعظمة الذنب في عين مرتكبه دليل على إيمانه.

فقد كان ابن مسعود يقوله: «إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه قال به هكذا فطار»[1].

---

(١) رواه البخاري ٥٧/٨ والترمذي ٣١٧/٣ وأحمد ٣٨٣/١.

ولذلك قيل: إنَّ الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله، وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله[1].

قال مؤرق العجلي: خير من العجب بالطاعة ألا تأتي بطاعة.

وقال بعض السلف: ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه[2].

وقال أبو حازم: إنَّ العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها [أي تسره سروراً يجعله مغروراً متكبراً] وما خلق الله له من سيئة أضرَّ له منها، وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها [أي فيحمله ذلك على الندم والتوبة] وما خلق الله من حسنة أنفع له منها. وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة تسره فيمتنُّ بها ويرى أنَّ له فضلاً على غيره، ولعل الله أن يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً. وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها ولعلّ الله أن يحدث له بها وجلاً حتى يلقى الله تعالى وإن خوفها في جوفه لباق[3].

إن التكبر من أوصاف الربوبية فالتحقق به مفضٍ للخذلان وعدم القبول[4].

والرضا عن النفس مهلكة ومقتلة في الدنيا والآخرة، والكبر ينشأ عن الرضى عن النفس.

قال سفيان بن عينية: مَن كانت معصيته في شهوة فارج له التوبة، فإنّ آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له، وإذا كانت معصيته من كبر فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فَلُعِنَ[5].

والكبر ـ كما يدل على ذلك هذا الحديث الذي افتتحت به هذه

---

(١) شرح ابن عباد للحكم ١/٤٢ ـ ٤٣.
(٢) أدب الدنيا والدين ٨٩.
(٣) شرح ابن عباد للحكم ١/٧٢.
(٤) شرح الشرقاوي للحكم ١/٧٢.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٦.

الكلمة ـ حجاب دون الجنة يحجب المتكبر من دخولها، مهما كان الكبر يسيراً، ومهما كان المتكبر، يستوي في ذلك العالم والجاهل والعابد وغيره. وإنما صار الكبر بهذه المنزلة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها.

فصاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، كيف وهو يحتقرهم ويزدريهم ويكرههم.. وهذا الأمر يباعده من كمال الإيمان فرسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١).

ولا يقدر على التواضع، لأنه نقيض الكبر.

ولا يقبل الحق إن ظهر على لسان منافس له، فالمتكبر يجادل للتغلب لا لتبين الحق. ومهما اتضح الحق على لسان خصمه أنف من قبوله، وتشمر لجحده، واحتال لدفعه فيقع في الضلال المبين والهلاك المحقق، ذلك أن كل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شارك الكفار في صفة الإعراض عن الحق، ولا يقدر على ترك الحقد والحسد والغضب وكلها من المهلكات القاتلات.

ولا يقوى على كظم الغيظ وقبول النصح ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]. .ولا يقوى على ترك ازدراء الناس ولا على ترك اغتيابهم.

وخلاصة القول: إن الكبر يقود إلى كثير من المحرمات والمؤذيات، ويمنع صاحبه من كثير من الواجبات والمستحبات.

فما من خلق ذميم إلا والمتكبر مضطر إليه مدفوع نحوه، وما من خلق محمود إلا والمتكبر عاجز عنه مصروف عنه.

بحث العلماء أسباب الكبر عند المتكبرين فمن أهم هذه الأسباب:

---

(١) صحيح الجامع برقم ٧٥٨٣.

العلم والعبادة والنسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار. وقد أشرت إلى بعضها آنفاً، وأود أن ننظر في بعضها على ضوء هذا الحديث المهدد المخيف.

● العلم أمر محمود، وقد دعت إليه نصوص الكتاب والسنة، وهو الطريق إلى النجاة في الآخرة، وسبب الفوز والتقدم في الدنيا... ولكن العلم على جلالة قدره سلاح ذو حدين.. فإن لم يعمل به صاحبه كان حجة عليه يوم القيامة، والعلم إن لم ينفع صاحبه ضرّه، وإذا تجرد العلم عن الورع والتقوى ومخافة الله كان سبب هلاك للفرد والأمة، وهانحن أولاء نرى تقدم الغرب في مجالات العلوم التطبيقية ولكنه عندما تجرد عن الخلق انقلب إلى وحش ينتزع الحقوق ويعتدي على الحرمات.

ومن مخاطر العلم أن العالم قد يصاب بالكبر، وقد قيل: آفة العلم الخيلاء.

وما أكثر ما نرى ناساً من السخفاء الذين يحملون شهادات عالية يتطاولون على خلق الله، يستعظمون أنفسهم ويحتقرون الناس، ويعجبون بعلمهم، وينظرون إلى الناس نظرتهم إلى البهائم، يُدْعون ولا يَدْعُون، ويُحيون ولا يبدؤون الآخرين بالسلام، ويرون أن لهم المنة إن أجابوا الدعوة أو ردوا السلام، ويزارون ولا يزورون، ويتوقعون أن يكون الناس في خدمتهم وتعظيمهم في كل وقت. إنَّ هذا كبر مهلك. وخطر ماحق.

ما أحوج من كان كذلك إلى مراجعة نفسه وتهذيبها، إنه إن لم يشتغل بتهذيب نفسه واقتلاع جذور الكبر من حناياه وإن لم يعمل على تزكية قلبه بالمجاهدة والعبادة تغلبت عليه نفسه الأمّارة بالسوء. وقد ضرب وهب مثلاً رائعاً فقال: «العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المرُّ مرارة، والحلو حلاوة،

فكذلك العلم تحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً، والمتواضع تواضعاً[1].

وقد وفق وهب في هذا المثل، ذلك لأنَّ من كانت صفتُه الكبرَ وهو جاهل، فإذا تعلم وحمل الشهادات العالية، ونال الألقاب العلمية الرفيعة، وتبوأ المناصب الكبيرة، وأصبحت له شهرة واسعة؛ وجد مادة يتكبر بها على عباد الله. فيزداد كبراً فيكون من الهالكين.

وإذا كان الرجل خائفاً من الله مع جهله يرجو رحمته ويخشى عذابه ويحاول أن يتقيه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإذا تعلم علم أن الحجة قد تأكدت عليه، فيزداد خوفاً وخشية وإشفاقاً وذلاً لله وتواضعاً لعباده.

● وترى بعض الناس يمنون على الله وعباده بعلمهم المحدود ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وعملهم من العبادة، ويزعمون أنَّ غيرهم مقصرون هالكون، وهذا تألٍّ على الله، ويدل على ازدراء لخلقه، وهو نتيجة لاغترارهم بالله وأمنهم من مكره وعدم خوفهم من سطوته.

وترى بعض هؤلاء من أدعياء العلم والعبادة يصعر أحدهم خده للناس كأنه معرض عنهم، يرفع أنفه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس ويجعل وجهه عابساً كأنه غاضب عليهم.. يحسب أن ذلك من أمارات الورع.. والتديّن.. والورع في القلب كما قال ﷺ: «التقوى ههنا»[2] ويشير إلى صدره الشريف.

وما أجمل ما قال الحارث بن جزء:

يعجبني من القراء كل طليق مضحاك. فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس، يمنُّ عليك بعلمه فلا أكثر الله من أمثاله.

لماذا الاكتئاب والتظاهر بالعبوس والتجهم ورسول الله ﷺ يقول:

---

(١) الإحياء ٣/٣٣٩.

(٢) سبق تخريجه.

«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[1].

ويقول: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[1].

وأخرج أبو داود بإسناد حسن عن أبي هريرة قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك. أو لا يدخلك الله الجنة.

فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟ أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: إذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[2].

إن التوفيق إلى العلم والعبادة من نعم الله. وإن المال والقوة والجمال من نعم الله فينبغي أن تقابل بالشكر، ومن شكرها أن تستعملها فيما يرضي الله لا أن تتطاول بها وتتكبر.. فقد حرم غيرك منها وكان ممكناً أن تحرم أنت منها.

* * *

في قوله ﷺ: «إنّ الله جميل يحب الجمال» تصريح بأنَّ الإسلام مع الجمال بكل أنواعه: جمال الخِلْقة، وجمال الخلق، وجمال الهندام، وجمال اللباس، وجمال المظهر، وجمال المخبر.

..إنها أنواع من الجمال لا يأباها الإسلام أبداً.. بل إنه ليستحسنها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أبو داود ٤/٣٧٩ - ٣٨٠ برقم ٤٩٠١. وقال الحافظ العراقي: ٣/٣٤٠: رواه أبو داود والحاكم، وانظر مسند أحمد ٣/٢٢٣ و ٢٦٢.

ويدعو إلى التحلي بما يمكن التحلي به منها مما شرعه وأحلَّه. هذا هو الحق.. ولكن أموراً دخلت على المسلمين من باب التصوف فقالت بخلاف ذلك.

إنّ الانحراف عن الإسلام هو الذي زيّن لبعض الناس أن يحرصوا على تشويه منظرهم، وتبشيع لباسهم، فلقد ذكر ابن الجوزي في كتابه القيم «القصاص والمذكرين» [أنَّ في القصاص من يتبخر بالزيت والكمون ليصفرّ وجهه[1]] يتظاهرون بالضعف ويتماوتون، يستدرون عطف الناس وإشفاقهم، مدعين أن انكبابهم على العبادة هو الذي جعلهم كذلك. مع أن المسلم إن استطاع أن يكون قوياً فلا يجوز أن يرضى بالضعف، ولا أن يتظاهر به. وقد قال رسو الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير[2]».

والذين يتزهدون بلبس الملابس الرثة الوسخة[3]، وهم قادرون على لبس الجيد النظيف، فيشوهون منظرهم، ويفسدون هندامهم، ويزعمون أن ذلك من الدين... الذين يفعلون ذلك أصناف:

- فمنهم قوم معقدون مراؤون، يحسبون أن الإتيان بما يخالف المألوف يبرزهم في المجتمع ويجعلهم مذكورين.
- ومنهم ناس بخلاء لا تسخو نفوسهم بالبذل، فيغطون بخلهم بدعاوى الزهد ويسوغونه بأمور يزعمون أنها دينية.
- ومنهم جهال لا يدرون شيئاً عن الدين، سمعوا قصصاً ترفع من شأن الزاهدين، فقلدوهم.

---

(١) القصاص والمذكرين ٢٩٦ وينقل ذلك عن كتاب صنفه عزيزي.

(٢) صحيح مسلم برقم ٢٦٦٤.

(٣) وهناك قوم كانوا يلبسون الثياب يرقعونها وهي جديدة تظاهراً بالفقر، وقد يمتنع بعضهم عن التنظيف ويؤثر أن يبدو قذراً ليوهم الناس أنه من الزاهدين!!! وليس ذلك من الزهد في شيء.

● ومنهم ناس دجالون يستغلون سذاجة العامة الذين يحسبون أن من يظهر بذلك زاهد يستحق الاحترام والإكرام.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ويقول: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

ومقاييس الجمال تختلف من مكان إلى مكان، ومن عصر إلى عصر، ومن إنسان إلى إنسان، والعرف هو الحكم في هذا. وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن.

ومن الجمال النظافة التي دعا إليها الدين، فوجه المسلم نظيف، ويده نظيفة، وبدنه نظيف، وثوبه نظيف، وبيته نظيف.. إن النظافة تضفي على الإنسان العادي والشيء العادي سمة الجمال، وتزيد الجميل جمالاً.

ومن هنا فقد ترى فقيراً معدماً على درجة من الحسن لما يتمتع به من نظافة الوجه والبدن، لا تشم من جسمه ولا فمه رائحة تنكرها.. بسبب التزامه الغسل والوضوء والسواك. وقد يرقع ثوبه للضرورة رقعة يحرص على أن تكون أنيقة، ويكويه كياً حسناً فيبدو جميلاً مقبولاً.

وقد ترى إنساناً يلبس الملابس الفاخرة الغالية، علاها الوسخ والتجعد، وقد يتطيب ولكنك تشم رائحة العرق تفوح من جسمه فتغلب رائحة الطيب، وإذا تكلم ضقت ذرعاً بالبخر يصدر من فمه، وترى أسنانه قد اكتست طبقة سميكة من الوسخ حتى غدت صفراء. وتمحي كل سمات الجمال منه.

إن جمال الهندام ليس مطلوباً من طبقات دون طبقات في مجتمع المسلمين.. إنه مطلوب منهم جميعاً فقراء وأغنياء. إنَّ الذوق المرهف الرفيع يستطيع أن يبرز مواطن الجمال دون كلفة ولا مشقة، ولا يمنع الشرع من ذلك ما دام في دائرة الحلال.

لكن لا يجوز أن يكون هدفنا الحصول على الجمال، ولا أن نجعل مهمتنا في الحياة الدوران حوله.. لا، إن للمسلم مهمات أعلى وأجل من ذلك.. وليس من شك في أن هناك فرقاً بين الرجل والمرأة في هذا الموضوع، فنصيب المرأة من الاهتمام بمظهرها لتبدو أمام زوجها بشكل جذاب ينبغي أن يكون أكبر من نصيب الرجل، ولكن لا على أن يكون ذلك همها الوحيد يشغلها عن كل عبادة ومعرفة ومكرمة.

إن أذواقنا تنمو إن نحن حرصنا على مواطن الجمال المباحة التي لا إسراف فيها ولا مبالغة، كأن يكون ثوب أحدنا حسناً وترتيب أثاثه في بيته حسناً.

ولا مانع من أن يعنى المسلم بجمال جسمه عضلاته وبشرته وشعره.. وينبغي أن يتعرف إلى الأسباب التي تحقق الجمال في الأجسام.. كالنوم المبكر، والغذاء المنوع المعتدل المتخير، والرياضة الهادفة المنتظمة، والسواك والادهان وما إلى ذلك.. إن كل أولئك يحقق مستوى جمالياً جيداً ويمكننا من المحافظة على ذلك المستوى.

إن في سؤال الصحابي[1] ما يدل على حرص ذاك الجيل العظيم على الأناقة في الهندام، فبيّن ﷺ أنَّ ذلك ليس من الكبر، هذا إذا لم يرافقه فخرٌ وخيلاء وتطاول على عباد الله.

إذا كان الجيل المثالي يرى أن الحرص على المظاهر الجمالية أمر مشروع، وقد أقرهم على ذلك رسول الله ﷺ تبينّ لنا أنّ مخالفة ذلك مع الادعاء أنه من الدين انحراف عن النظرة السديدة. نعم إن سؤال الصحابي لم يكن سؤالاً فردياً يتعلق بحالة شخصية نادرة الوقوع..

وغني عن القول ـ كما أسلفت ـ أنَّ المبالغة في كل شيء تحول الأمر المحمود إلى نقيضه. هذا وقد وردت أحاديث تدل على أن الله عز وجل

---

(١) وقد ورد مثل هذا السؤال في أحاديث أخر ذكرها صاحب المجمع ١٣٢/٥.

يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وأنه ﷺ أنكر على الغني الموسر سوء الهيئة وقال له: «إن الله لا يحب البؤس والتبؤس».

عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مِطْرَفٌ[1] خز لم نره عليه قبل. فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عز وجل عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

رواه أحمد والطبراني. ورجال أحمد ثقات.

وعن زهير بن أبي علقمة الضبعي قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ سيىء الهيئة. فقال ﷺ: «ألك مالٌ؟» قال: نعم من كل أنواع المال، قال ﷺ: «فَلْيُرَ عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس والتبؤس». رواه الطبراني ورجاله ثقات. وروى نحوه الطبراني في الصغير عن أبي الأحوص عن أبيه. ورجاله رجال الصحيح[2].

---

(١) المطرف كمنبر ومكرم رداء من خز مربع ذو أعلام. قاموس.
(٢) انظر «مجمع الزوائد» ١٣٢/٥ وما بعدها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفهرس

الموضوع		الصفحة
المقدمة		٣
الحديث الأول:		
الطهور شطر الإيمان	عن أبي مالك الأشعري	١١
الحديث الثاني:		
يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي	عن أبي ذر	٨٢
الحديث الثالث:		
لتتبعن سنن من قبلكم	عن أبي سعيد	١٢٧
الحديث الرابع:		
إذا كان جنح الليل فكفوا صبيانكم	عن جابر	١٣٧
الحديث الخامس:		
نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فبلغه	عن زيد بن ثابت	١٥٤
الحديث السادس:		
من ضار أضرّ الله به	عن أبي حرمة	١٨٨
الحديث السابع:		
الزبير وابنه عبدالله ووصيته	عن عبدالله بن الزبير	١٩٧
الحديث الثامن:		
قصة عمرو بن عبسة	عن أبي أمامة	٢١٢
الحديث التاسع:		
المرأة المخزومية التي سرقت	عن عائشة	٢٢٤
الحديث العاشر:		
النذير العريان	عن أبي موسى الأشعري	٢٣٧
الحديث الحادي عشر:		
الصدقة على الأقارب	عن زينب بنت معاوية	٢٤٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الموضوع		الصفحة
الحديث الثاني عشر:		
إنما الطاعة في المعروف	عن علي	٢٧٦
الحديث الثالث عشر:		
دعوه فإنّ لصاحب الحق خصالاً	عن أبي هريرة	٢٩٦
الحديث الرابع عشر:		
خطبة عمر في أمور مهمة	عن ابن عباس	٣١٥
الحديث الخامس عشر:		
قراءة القرآن	عن أبي موسى الأشعري	٣٣٤
الحديث السادس عشر:		
فتح خيبر ومقتل عامر بن الأكوع	عن سلمة بن الأكوع	٣٥١
الحديث السابع عشر:		
المسلمون في الحبشة وخطبة جعفر أمام النجاشي	عن أم سلمة	٣٦٨
الحديث الثامن عشر:		
كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته	عن ابن عمر	٣٨٥
الحديث التاسع عشر:		
زيارة زوجات النبي له في الاعتكاف وقوله: إن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم	عن صفية	٤٠٨
الحديث العشرون:		
السفر قطعة من العذاب	عن أبي هريرة	٤١٩
الحديث الحادي والعشرون:		
لواء الغدر	عن ابن عمر	٤٣٢
الحديث الثاني والعشرون:		
عرضت علي الأمم	عن ابن عباس	٤٤٣
الحديث الثالث والعشرون:		
إطعام الطعام وإفشاء السلام	عن ابن عمرو	٤٥٨
الحديث الرابع والعشرون:		
لا يدخل الجنة متكبر	عن ابن مسعود	٤٧٠

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كتبٌ للمؤلف

أولاً: التأليف:

١ ــ الابتعاث ومخاطره.
٢ ــ أبو داود: حياته وسننه.
٣ ــ أبو نعيم وكتابه الحلية.
٤ ــ أسماء بنت أبي بكر.
٥ ــ أقوال مأثورة وكلمات جميلة.
٦ ــ أم سليم.
٧ ــ الإنسان في القرآن.
٨ ــ أيها المؤمنون: تذكرة للدعاة.
٩ ــ بحوث في أصول التفسير.
١٠ ــ تاريخ القصاص وأثرهم في الحديث النبوي.
١١ ــ تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط المستهتر.
١٢ ــ التشريع الإسلامي وحاجتنا إليه.
١٣ ــ التصوير الفني في الحديث النبوي.
١٤ ــ توجيهات قرآنية في تربية الأمة.
١٥ ــ الحديث النبوي: بلاغته ـ مصطلحه ـ كتبه.
١٦ ــ الخشوع في الصلاة.
١٧ ــ خواطر في الدعوة إلى الله.
١٨ ــ سعيد بن العاص: بطل الفتوح وكاتب المصحف.
١٩ ــ فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر.
٢٠ ــ قضايا في الدين والحياة والمجتمع.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

٢١ ــ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير.
٢٢ ــ معركة شقحب.
٢٣ ــ المناهج والأطر التأليفية في تراثنا.
٢٤ ــ من أسباب تأخر العمل الإسلامي.
٢٥ ــ من صفات الداعية.
٢٦ ــ من هدي النبوة: تأملات في عديد من جوامع الكلم.
٢٧ ــ نداء إلى الدعاة.
٢٨ ــ نظرات في الأسرة المسلمة.
٢٩ ــ وصايا للزوجين.
٣٠ ــ وقفات مع الأبرار، ورقائق من المنثور والأشعار.
٣١ ــ يوم الفرقان يوم بدر.

* * *

ثانياً: التحقيق:

٣٢ ــ أحاديث القصاص: لابن تيمية.
٣٣ ــ أسرار الصوم: للغزالي (أبي حامد).
٣٤ ــ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة: لملا علي القاري.
٣٥ ــ الباعث على الخلاص من حوادث القصاص: للعراقي.
٣٦ ــ تحذير الخواص من أكاذيب القصاص: للسيوطي.
٣٧ ــ التذكرة في الأحاديث المشتهرة: للزركشي.
٣٨ ــ الدرر المنتثرة في الأحاديث المشترة: للسيوطي.
٣٩ ــ رسالة أبي داود إلى أهل مكة في وصف سننه: لأبي داود.
٤٠ ــ الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة: لمرعي الكرمي.
٤١ ــ القرامطة: لابن الجوزي.
٤٢ ــ القصاص والمذكرون: لابن الجوزي.
٤٣ ــ كتاب الضعفاء والمتروكين: للدارقطني.
٤٤ ــ مختصر المقاصد الحسنة: للزرقاني.

* * *